حديث القرآن الكريم

عن

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

تأليف

الدكتور أبو بدر محمد بن بكر آل عابد



حديث القرآن الكريم

عن

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

الدكتور أبو بدر محمد بن بكر آل عابد

الجزء الأول



الطبعة الأولى 1994 م
سحب جديد 2011 م

دار الغرب الإسلامي
العنوان: ص.ب.: 677 تونس 1035

حديث القرآن الكريم
عن
غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

الإهداء

إلى المجاهدين المسلمين المرابطين

في سبيل الله

أهدي بحثي هذا!...

والله ولي التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب في الأصل رسالتا ماجستير ودكتوراه حاز بهما الباحث على درجة ممتـاز مع درجة الشرف الأولى بقسم الدراسات العليا ـ شعبة التفسير بالجامعة الإسلامية، وأشرف على الرسالة الأولى د. محمد سيد طنطاوي، وأشرف على الرسالة الثانية د. عبد العزيز الدردير موسى ثم د. عبد العزيز عبد الفتاح القارىء.

وناقش الرسالة الأولى كلٌّ من فضيلة الشيخ أبو بكر الجزائري، و د. أحمد إبراهيم مهنا. وناقش الرسالة الثانية كلٌّ من د. عبد العزيز محمد عثمان السوداني، و د. عبد الفتاح إبراهيم سلامة.

شكر وتقدير

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ فقد منّ الله عليّ بالانتهاء من إعداد هذا الكتاب فالشكر لله وحده أولاً وأخيراً على نعمه وتوفيقه.

ثم إني أرى من الواجب عليّ ـ اعترافاً بالجميل لأهله ـ أن أتقدم بشكري إلى كل من وقف بجانبي، وساعدني لإتمام بحثي هذا.

وأخص منهم بالذكر: د. عبد الله بن عبد الله الزايد و د. محمد سيد عطية طنطاوي و د. عبد العزيز الدردير و د. عبد العزيز عبد الفتاح القارىء و د. أحمد إبراهيم مهنا والشيخ أبا بكر الجزائري و د. عبد العزيز محمد عثمان و د. عبد الفتاح إبراهيم سلامة.

كما أشكر معالي مدير الجامعة الإسلامية الدكتور عبد الله بن صالح العبيد وجميع القائمين على شؤون الجامعة الإسلامية.

وفي الختام أسأل الله التوفيق والسداد.. وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للدكتور أكرم ضياء العمري

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه..

أما بعـــد...

فإن موضوع السيرة النبوية يحتمل من المعاني والأحداث ما يجعله قابلاً لدراسات وأطروحات عديدة، فرغم كثرة ما كتب خلال القرون الأربعة عشر الماضية إلا أن الحاجة لا تزال قائمة لقراءات معاصرة متجددة.

وقد عنيت هذه الأطروحة بجمع الآيات التي نزلت في الغزوات، وجمع أقوال المفسرين في تفسيرها وتوجيهها والاستنباط منها، مما يوضح الاتفاق والاختلاف بينهم في ذلك.

وحاول الباحث الدكتور محمد بكر العابد الاختيار والترجيح حسب الإمكان.

وقد حوت كتب التفسير الكثير من دقائق اللغة والنحو وبلاغة الأسلوب ولطائف المعنى وحسن التوجيه، وقد أحسن الباحث في انتقائه منها، وأجاد في انتخابه الأقوال حسب مناسباتها..

ولم يقتصر الباحث على كتب التفسير المتخصصة في تفسير الآيات المتعلقة بالغزوات بل اعتمد على كتب الحديث فساق منها أحاديث صحيحة وحسنة أسهمت في توضيح الخطاب القرآني، والكشف عن أسباب النزول،

ومن المعلوم أن المؤلفات المعنية بأسباب النزول مثل أسباب النزول للواحدي (ت ٤٦٨ هـ) ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (ت ٩١١ هـ) يختلط فيها الصحيح والضعيف والواهي، ويحتاج الاستشهاد بها إلى فحص الروايات متناً وسنداً. ولعل أمثل المؤلفات في أسباب النزول هو كتاب الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) المسمى بـ «العجاب» ولا زال خطياً، ولم يقف عليه الباحث. حيث إن ابن حجر يحكم على كثير من الروايات.

وقد حاول المستشرق الألماني نولدكة إعادة ترتيب آيات القرآن الكريم تاريخياً في مؤلفه «تأريخ القرآن» وكان ذلك من بواكير أعماله، وكانت المهمة صعبة على أمثاله.

ولا شك أن دراسة الآيات المتعلقة بالغزوات في عصر السيرة النبوية تقدم إضافة واسعة إلى مصادر السيرة، فالقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو قطعي الثبوت بالتواتر، ومن ثم لزم تقديمه على روايات المصادر الأخرى في السيرة، والحق أن كتب السيرة أكثرت من الاستشهاد بالآيات المتعلقة بالغزوات وخاصة سيرة ابن إسحاق، فالقرآن عني بتسجيل الدوافع والخلجات النفسية وتصوير انفعالات العزم والخذلان والإقدام والإحجام والإيمان والنفاق والرغبة في الاستشهاد والحرص على الحياة، والثبات والفرار، والمعاني الإيمانية، والنزوات والنزغات الشيطانية، وعوامل التثبيت والإرجاف، وسنن الحياة العامة في الحرب والسلام، وأسباب النصر والهزيمة، وأثر الطاعة والاختلاف، والتنازع والائتلاف، وقوة الإيمان واليقين، وتلون النفاق وضعف المنافقين، والأمر بإعداد العدة ورسم الخطة والأخذ بالأسباب مع حسن التوكل على الله والرجاء في نصره.

وفي كل ذلك كشف عن النفس الإنسانية أبعادها ودوافعها.. تكوينها وحوافزها.. ثباتها وتخاذلها.. خلجاتها ومنحنياتها.. آمالها ومخاوفها.. صبرها وجزعها.. إقدامها وإحجامها..

والنفس الإنسانية رغم الاختلافات الفردية في الصفات تبقى واحدة الجوهر، ويبقى قدر مشترك بين البشر في المشاعر والانفعالات تجاه الأحداث التي تواجههم في الحياة تكرر العلل والأسباب القديمة والجديدة، وإن اختلفت الصور والملابسات.. ومن هنا فإن القرآن يبرز النماذج المتنوعة ليتم القياس عليها والاعتبار بها.. وبذلك يوسع من دائرة الوعي لدى الإنسان الفرد والجماعات لمعرفة الذات الإنسانية وقواعد الاجتماع البشري، وتوضيح المشيئة الإلّهية والقدر الإلّهي المحيطين بأحداث التأريخ التي يقوم الإنسان فيها بدور فاعل يجعله تحت دائرة المُسَاءلة **﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾**[1]، **﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾**[2]، وهكذا يندرج الفعل الإنساني «من عند أنفسكم» تحت دائرة القضاء والقدر «بإذن الله».

ونظراً لأن العلل مطردة في الأحداث التأريخية التي تجري في هذه الحياة كان الاعتبار والقياس ممكناً خلافاً لما قرره بعض فلاسفة التأريخ وخاصة هيكل[3] حيث لا يشترط للاعتبار والقياس أن يعيد التأريخ نفسه، وأن تتجدد صورة الحادث بتفاصيله وملابساته القديمة، بل يكفي للقياس اطراد العلة..

قال تعالى: **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[4]، ومن هذه السنن سنة التداول للقوى وللتفوق المادي والحضاري **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾**[5] والمقصود بالأيام أوقات الظفر والغلبة، وهذا الانتقال لمراكز القوى والظفر والتقدم هو تمحيص

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٦٥.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٦٦.
(٣) هيكل: محاضرات في فلسفة التأريخ.
(٤) سورة آل عمران، آية ١٣٧.
(٥) سورة آل عمران، آية ١٤٠.

للمؤمنين **﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾**[١]. فما ينبغي للأمة المسلمة أن يصيبها الوهن والخذلان لغلبة الآخرين وتقدمهم عليها بل تنظر إلى ماضيها وكيف أنها سادت الأرض زمناً طويلاً، وليدفعها معرفة سنة التداول إلى العمل لاستعادة فعلها الحضاري في الأرض **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾**[٢].

وينبغي الإصغاء إلى قول الحق تبارك وتعالى وليس إلى أقوال المرجفين المشككين بوحدة الأمة الإسلامية وقدرتها على إعادة البناء واللحاق بالمدنية الحديثة ثم الإسهام في تقدم الحضارة الإنسانية وأخذ زمام المبادرة فيها، وليس ذلك على الله بعزيز.

والصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، والإيمان والكفر من السنن الثابتة **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾**[٣]. على أن التمكين للمؤمنين نصر لهم من الله خلافاً للتمكين للكافرين فإنه استدراج لهم **﴿فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾**[٤].

ولا بد عند دراسة السيرة النبوية وتأريخ الإسلام عامةً من الاهتمام بالمعايير الخلقية والشرعية، عند الحكم على الفعل التأريخي، وعدم الاغترار بمقولة الغربيين بنسبية الأخلاق وما يستتبع ذلك من مقولات مثل قولهم بأن المؤرخ ليس قاضياً أو حكماً وبأن لا جدوى من الاعتبار والقياس لأن التاريخ لا يعيد نفسه.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٤١.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٣٩.
(٣) سورة البقرة، آية ٢٥١.
(٤) سورة الأنعام، آية ٤٤.

وكذلك لا بد من الإفادة من معطيات العصر العلمية والتقنية وخاصة برامج الكمبيوتر التي تتيح إعادة بناء أنساق موضوع السيرة بشمول وتكامل وإحاطة بالمادة العلمية مع القدرة على تشكيلها وفق أنساق وهياكل وخطط متنوعة للوصول إلى أفضلها وأكملها، مما لا يتاح للجهد الفردي بالطرق التقليدية، وذلك لكثرة المصادر وتنوعها، ومن ثم لا بد من ترتيب الروايات على المواد وترتيب المواد وفق حروف المعجم، وإعطائها الرموز اللازمة لاستدعائها عند الحاجة وذلك بصرف النظر عن ترتيب المصادر الأولية المتنوعة سواء كانت كتب السيرة والتأريخ المرتبة زمنياً والتي تقدم تفاصيل واسعة للأحداث، أو المصادر الأخرى المرتبة على المسانيد وأبواب الفقه وأسماء المواضع. . وسوف يحتاج إعادة كتابة السيرة إلى مجموعة من الخبراء منهم الأكاديميون المتخصصون في السيرة النبوية، ومنهم المتخصصون في علم مصطلح الحديث وعلم نقد الرجال لتمييز الروايات الصحيحة من الضعيفة والواهية، ومنهم محللو النظم ومبرمجو الحاسوب الذين يضعون حزم البرامج اللازمة للتعامل مع المادة العلمية، والتي ينبغي أن تتسم بالقدرة على استيعاب الكم الكبير من المعلومات، وتتصف بالكفاءة في معالجة النصوص، وإمكانية الاسترجاع السريع للمعلومات، والقدرة على إخراج التقارير الملفقة من مواد مختلفة وملفات عديدة، ووفق أنساق متنوعة تتيح فرصة الانتخاب والاختيار.

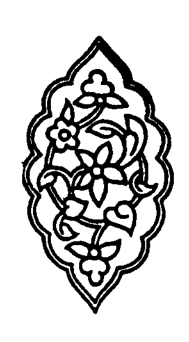
إن الرواية المسندة تمثل وحدة المعلومات الصغرى سواء وردت في كتب السيرة المتخصصة أو كتب التأريخ العامة أو كتب السنة أو كتب التفسير أو كتب أسباب النزول.

ولا بد من الاهتمام بسلاسل الأسانيد ودراستها، فقد بذل العلماء القدامى جهوداً جبارة للتعريف بالرواة وأحوالهم، وقواعد التعامل مع الرواية سنداً ومتناً. . وهذه هي مهمة المتخصصين بالسنة النبوية، ولا بد أيضاً من الإفادة من كتب الجغرافية التأريخية لتوضيح مسرح الأحداث، وأثر الجغرافية

في التأريخ مهم وكبير.. وهذه هي مهمة علماء الجغرافية.. وأما التحليل وتفسير المواد الأولية فينبغي أن يتعاهده المؤرخون المحترفون.

وفي الختام.. فإن هذه الأطروحة التي أقدم لها تخدم موسوعة السيرة النبوية مباشرة لأنها تناولت حديث القرآن عن الغزوات.. وهل كان التوجه للجهاد إلا بتوجيه القرآن والتزاماً بإعلاء مبادىء الحق والحرية والسلام في شتى أرجاء الأرض..

وأدعو الله تعالى بأن يتقبل عمل الباحث ويأخذ بيده نحو خدمة السيرة النبوية وتأريخنا الإسلامي المجيد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المقدمة

الحمد لله العزيز الوهاب، ملك الملوك، ورب الأرباب، هو الذي أنزل على عبده الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب، وأودعه من العلوم النافعة والبراهين القاطعة غاية الحكمة وفصل الخطاب وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد الذي جاءنا بالقرآن العظيم وبالآيات والذكر الحكيم وجاهد في الله حق جهاده فكان خير من غزا وقاتل وجاهد، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم قد أنزله الله تعالى لمقاصد سامية وحكم جليلة فهو منهاج الخالق لإصلاح الخلق.

وكان من أهم مقاصد نزوله أن يكون تهذيباً للنفوس وإصلاحاً للقلوب وتقويماً للطباع ودلالةً للناس إلى الصراط المستقيم.

وأن يكون الحجة الدامغة والبرهان الواضح والدليل الملموس على صدق النبي ﷺ فيما بلغه عن ربه على تعاقب الليالي والأيام.

والمتأمل في القرآن الكريم يجده قد حوى جميع متطلبات الحياة وحوائج الناس وما يسعدهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، فما من سبيل من

سبل الخير إلا بيَّنه لهم، ودلهم عليه ولا طريق من طرق الشر إلا نهاهم عن سلوكه وحذرهم منه.

وأنه قد اشتمل على ما يصلح عقائدهم، وأخلاقهم، ومعاملاتهم وكل شؤونهم.

ولا يخفى على القارىء الكريم فيما يتعلق بالجهاد أن القرآن قد تحدث عن عدد من الغزوات وبعض السرايا التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم كان الغرض منه التذكر والاعتبار والاتعاظ بما جرى في تلك الغزوات والسرايا لتظل نبراساً يضيء الطريق للأجيال المتعاقبة على ممر الأزمان.

وقد اخترت هذا الموضوع بالذات لأسباب كثيرة أهمها:

أ ـ أن المسلمين في هذه الأيام، يجابهون معارك متنوعة مع أعدائهم، ومن أهمها المعارك الحربية، فأردت أن أعود إلى حديث القرآن عن الغزوات، لكي يأخذ منها المسلمون ما يعينهم على النصر على أعدائهم.

ب ـ أن هذا الموضوع لم يجد ما يستحق من الاهتمام، فأردت أن أخدم كتاب الله تعالى عن طريق تفسير الآيات التي وردت بشأن هذه الغزوات.

ج ـ شعوري بالحاجة إلى الكتابة فيه بعد أن وجدت أن معظم الباحثين يهتمون بالسرد التاريخي لهذه الغزوات أكثر من اهتمامهم بالحديث عنها من واقع القرآن الكريم فأردت أن أعرض الموضوع من خلال حديث القرآن عنه، وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا بإذن الله.

وقد اشتمل الكتاب على مقدمة وتوطئة بين يدي الكتاب في بيان مكانة القرآن الكريم في مصادر السيرة وبيان أهمية حديث القرآن عن الغزوات وتسعة أبواب وخاتمة:

أما الباب الأول: فهو حديث القرآن عن غزوة بدر، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة بدر من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن غزوة بدر وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لغزوة بدر.

وأما الباب الثاني: فهو حديث القرآن عن غزوة أحد، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة أحد من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن غزوة أحد، وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لغزوة أحد.

وأما الباب الثالث: فهو حديث القرآن عن غزوة بني النضير، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة بني النضير من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن غزوة بني النضير وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لغزوة بني النضير.

وأما الباب الرابع: فهو حديث القرآن عن غزوة بني المصطلق، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة بني المصطلق من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن غزوة بني المصطلق وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لغزوة بني المصطلق.

وأما الباب الخامس: فهو حديث القرآن عن غزوة الأحزاب، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة الأحزاب من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن غزوة الأحزاب وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لغزوة الأحزاب.

وأما الباب السادس: فهو حديث القرآن عن غزوة الحديبية، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة الحديبية من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن غزوة الحديبية، وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لغزوة الحديبية.

وأما الباب السابع: فهو حديث القرآن عن غزوة فتح مكة، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة فتح مكة من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن فتح مكة، وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لفتح مكة.

وأما الباب الثامن: فهو حديث القران عن غزوة حنين، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة حنين من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن غزوة حنين، وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لغزوة حنين.

وأما الباب التاسع: فهو حديث القرآن عن غزوة تبوك، وقد اشتمل على تمهيد وفصلين:

تمهيد: في غزوة تبوك من خلال كتب السيرة والتاريخ.

الفصل الأول: في حديث القرآن عن غزوة تبوك، وتفسير الآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثاني: في منهج القرآن في عرضه لغزوة تبوك.

وأما الخاتمة: فهي في أبرز معالم المنهج القرآني في عرضه للغزوات.

وقد سلكت في البحث منهجاً من أبرز معالمه:

أ ــ جمع الأخبار الصحيحة لكل غزوة من كتب السيرة متعمقاً في قراءتها لإفرادها ببحث مستقل بها من حيث أسبابها، وأحداثها، ونتائجها، معنوناً باسم غزوة كذا، من خلال كتب السيرة والتاريخ.

ب ــ قراءة الآيات النازلة فيها بعمق وتدبر وفهم، مع السعي لتفسيرها تفسيراً محرراً مشتملاً على الجوانب البلاغية والتشريعية في القرآن الكريم، مستعيناً بما سبقت قراءته من السيرة، ثم كتابته فصلاً مستقلاً (باسم حديث القرآن عن غزوة كذا، وتفسير الآيات الواردة فيها).

وقد سلكت في هذا التفسير النحو التالي:

أولاً: ذكر سبب النزول للآيات ـ إن وجد ـ.

ثانياً: ذكر معاني المفردات الغريبة.

ثالثاً: تفسير الآيات بذكر المعنى الإجمالي لها.

رابعاً: ذكر أهم ما يؤخذ من الآيات من الأحكام والآداب والحكم في أغلب الأحيان.

ج ــ إبراز أهم معالم المنهج القرآني في حديثه عن الغزوة في فصل مستقل.

هذا ليكون هذا المنهج مكتوباً ـ وذلك بالنسبة لكل غزوة ـ بين يدي القارىء الكريم يتأمله جيداً، وإذا فتح الله عليه في ذلك بجديد كان الحديث عن الغزوة من القرآن والسيرة مساعداً له في المزيد وبالله التوفيق.

وأرجو أن أكون قد وفقت في إبراز طريقتي بصورة جلية في بحثي هذا.

كما أرجو أن أكون قد فتحت باباً في هذا المجال.. الغاية والمقصود منه التمتع بأكبر قدر من هدايات وأنوار القرآن التي هي الترجمة الحقيقية لواقع المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت.

والكتاب موضوعي في منهجه يبحث في أشهر الغزوات النبوية من السنة الثانية إلى السنة التاسعة من الهجرة النبوية الشريفة.

هذا وإن الدراسة في هذه المرحلة ـ مرحلة العهد النبوي ـ مهما اتسعت فإن الباب ما زال مفتوحاً لدراسات أخرى.. وذلك لما تمثله هذه المرحلة من أهمية عظمى في التاريخ الإسلامي.

وقد عنيت خلال بحثي بالرجوع إلى المصادر الأصلية والفرعية، كما عنيت بذكر اسم الكتاب وناشره وسنة طبعه في الفهرس الختامي للكتاب.

وفي الختام أرجو من المطالع لهذا البحث أن يحسن الظن بكاتبه وأن يسعى في جبر العثرات وإقالة الهفوات، إذ المقصد من كتابتي هذه مقصد كريم.

والله ولي التوفيق، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حي العوالي بطيبة الطيبة
في ٨/١١/١٤١٣ هـ
٢٩/٤/١٩٩٣ م

د. أبو بدر محمد بن بكر آل عابد
أستاذ التفسير بكلية القرآن الكريم المساعد

توطئة بين يدي الكتاب

وتشتمل على ما يلي :

أولاً : مكانة القرآن الكريم في مصادر السيرة .

ثانياً : أهمية حديث القرآن عن الغزوات .



أولاً ـ مكانة القرآن الكريم بين مصادر السيرة[1]:

قبل أن أوضح هذه المكانة يحسن بي أن أتكلم أولاً بإيجاز عن أهمية السيرة النبوية ومصادرها.

أهميـة السيـرة النبويـة:

إن دراسة السيرة النبوية أمرٌ ضروري للمسلم حتى يعرف بها أحوال النبي ﷺ كلها على بصيرة وهدى.

ولقد كان السلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية يدركون ما لسيرة خاتم الأنبياء وسير الصحابة النبلاء، من آثار حسنة في تربية النشء. يقول الإمام الزهري[2]: «في علم السيرة علم الدنيا والآخرة»[3].

---

(١) قال في المصباح المنير: «والسيرة: الطريقة، وسار في الناس سيرة حسنة أو قبيحة، والجمع سير مثل سدرة وسدر، وغلب اسم السير في ألسنة الفقهاء، على المغازي، والسيرة أيضاً الهيئة والحالة» جـ ١/ص ٣٢٠.

(٢) الإمام الزهري عالم الحجاز والشام وهو من قدماء من عنوا بجمع السيرة، بل قيل: إن سيرته أول سيرة ألفت في الإسلام، واسمه محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، وكنيته أبو بكر الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه، وهو من رؤوس الطبقة الرابعة. مات سنة ١٢٥، وقيل: قبل ذلك بسنة أو سنتين، روى له الجماعة. انظر تقريب التهذيب ٢/٢٠٧.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: ٢/٣٥٢.

وتتميز السيرة النبوية بمزايا كثيرة:

منها أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل، فقد وصلت إلينا سيرة رسول الله ﷺ من أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتاً مما لا يترك مجالاً للشك في وقائعها البارزة، وأحداثها الكبرى، وقد جاءت سيرته ﷺ مبسوطةً شاملة لجميع مراحل حياته ﷺ، منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة حتى وفاته ﷺ.

وأيضاً تتميز سيرته ﷺ بكونها شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مرب، وكل سياسي، وكل رئيس دولة.. قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1].

ولدراسة السيرة النبوية فوائد كثيرة:

منها فهم شخصية الرسول ﷺ النبوية، من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها، ليتأكد المؤمن أن محمداً ﷺ لم يكن مجرد عبقري سمت به عبقريته بين قومه فحسب، ولكنه قبل ذلك رسول أيده الله بوحي من عنده وتوفيق من لدنه.

وكذلك يجد الإنسان الدارس للسيرة بين يديه صورة للمثل الأعلى في كل شؤون الحياة الفاضلة، كي يجعل منها قدوة يقتدى بها ويسير عليها، خاصة في زمننا المعاصر.

وأيضاً علم السير يعلم الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وتتجمع لدى المسلم من خلال دراسته السيرة أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة.

---

(١) آية ٢١.

وكذلك يجد المعلم والداعية الإسلامي أنموذجاً حياً عن طريق التربية والتعليم، خاصة في كيفية تعليمه ﷺ للجهلاء والأعراب.

وأخيراً إن من أهم فوائد دراسة السيرة النبوية أن يجد الإنسان فيها ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده، إذ أن كثيراً من آيات القرآن إنما تفسرها وتُجلّيها الأحداث التي مرت برسول الله ﷺ وموقفه منها.

وبعد، يمكن أن أجمل أهمية السيرة للقارىء الكريم في النقاط التالية[1]:

١ ـ السيرة النبوية تجسيد حيٌّ لتعاليم الإسلام كما أرادها الله تعالى أن تطبق في عالم الواقع.

٢ ـ تعطينا دراسة السيرة صورة كاملة لمراحل الدعوة الإسلامية منذ نزل قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾[2] إلى وفاته ﷺ.

٣ ـ وأيضاً دراسة السيرة أمر هام للدعاة ليعرفوا كيف يصلون إلى قلوب الناس وأفئدتهم، وذلك ليضمنوا إبلاغ الشريعة بأسلوب حكيم يجعلهم يرون في السيرة النبوية المعتصم الذي يلوذون به عند اضطراب السبل واشتداد العواصف وما أكثرها في زمننا المعاصر.

٤ ـ كذلك في دراسة السيرة تحديد لتاريخ أقوال الرسول ﷺ، ومواقع دلالتها أو ما سماه علماء الحديث والمصطلح (بيان أسباب ورود الحديث الشريف).

٥ ـ ويمكن من دراسة السيرة معرفة الناسخ والمنسوخ في الحديث

---

(١) مصادر السيرة النبوية وتقويمها للدكتور فاروق حمادة ص ١٣ ـ بتصرف يسير ـ.
(٢) سورة العلق آية ١.

الشريف مما يتوقف عليه فهم كثير من الأحكام الشرعية.

٦ ـ ومن خلال السيرة النبوية نستعين أيضاً على تحديد الآيات الناسخة والمنسوخة، وهذه ناحية هامة جداً يترتب عليها كثير من الأحكام الشرعية الدنيوية والأخروية، وبها نعرف مدة الفترة الزمنية بين الآية المنسوخة والآية الناسخة.

٧ ـ والسيرة النبوية هامة وضرورية لعلماء الشريعة عموماً والمفسرين خصوصاً[1]. وذلك لأنها تحدد لنا الإطار العام للآيات القرآنية الكريمة، ومواضع نزولها ومواقع دلالتها، لأن هذه السيرة متأثرة تأثراً مباشراً بآيات القرآن الكريم وأحياناً تأتي الآيات القرآنية لتقوّم هذه السيرة وتوجهها التوجيه الصحيح فكثير من الآيات القرآنية يصعب علينا فهمها إن لم نعرف ظروف

---

(١) قد أشار المفسرون إلى أهمية الاعتناء بسيرة النبي ﷺ وفهمها قبل الشروع في تفسير آيات القرآن الكريم، بل هناك علوم كثيرة يجب توفرها في المفسر من بينها العلم بسيرة النبي ﷺ. ذكر ذلك الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن» في باب العلوم التي يحتاجها المفسر فقال نقلاً عن الشيخ محمد عبده: «وأما المرتبة العليا ـ للتفسير ـ فهي لا تتم إلا بأمور ذكر منها: العلم بسيرة المصطفى ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها». انظر: مناهل العرفان، الجزء الثاني من صفحة ٥١ إلى ٥٤، وانظر: تفسير المنار، الجزء الأول ص ٢٤، وتفسير القاسمي الجزء الثاني، ص ٣٢٧.

وممن نبه إلى ذلك أيضاً الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي ـ من أفاضل علماء عنيزة ـ في كتابه القيم «القواعد الحسان لتفسير القرآن» ص ٦ فقال: فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام الله كما تلقاه الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل.. إلى أن قال: فمن سلك هذا الطريق وجد واجتهد في تدبر كلام الله انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير وقويت معرفته واستنارت بصيرته، واستغنى بهذا الطريق عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية، خصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

وملابسات نزولها[1]، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[2].

مصادر السيرة النبوية:

تنقسم مصادر السيرة النبوية إلى قسمين رئيسيين:

١ ـ مصادر أصلية: وهي القرآن والسنة وكتب السيرة وسيأتي تفصيلها.

٢ ـ مصادر فرعية: وهي الكتب التي أخذت وعولت على المصادر الأولى.

واقتصر عمل مؤلفيها على الجمع والتنسيق، والتعليق، والشرح، وبيان الغامض وما إلى ذلك أمثال الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض، وزاد المعاد لابن القيم رحمه الله.

المصادر الأصلية:

١ ـ القرآن الكريم:

وهو أول المصادر[3] التي يرجع إليها في معرفة حياة المصطفى ﷺ وسيرته.

---

(١) لذلك قدمت في بحثي هذا تمهيداً ـ قبل دراسة تفسير الآيات القرآنية في الغزوات ـ وضحت فيه الغزوة من حيث أسبابها.. وأحداثها ونتائجها، وذلك للاستعانة بها في فهم تلك الآيات بصورة أشمل.

(٢) سورة الأنفال، آية ٦٧. وانظر تفسيرها ص ١٢٦ من هذا الكتاب.

(٣) أشار إلى ذلك كثير من الباحثين المعاصرين منهم على سبيل المثال لا الحصر:

فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة في كتابه السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة في الجزء الأول صفحة ٨، والشيخ محمد صادق عرجون في كتابه: محمد رسول الله ﷺ في الجزء الأول صفحة ٨، والشيخ الدكتور مصطفى السباعي في السيرة النبوية صفحة ٢٥، والشيخ سليمان الندوي في الرسالة المحمدية صفحة ٩٣، والدكتور فاروق حمادة في كتابه: مصادر السيرة صفحة ٢٣، والدكتور أكرم ضياء العمري في السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٤٧.

وفي ثنايا القرآن كثير من الآيات التي عرضت لحياته ﷺ قبل البعثة وبعدها.

وفي القرآن الكريم بعض الغزوات النبوية ومقدماتها ونتائجها وآثارها، كما في حديثه عن غزوة بدر[1] وكما في حديثه عن غزوة أحد وغيرها[2]، وأمثلة ذلك كثيرة[3].

٢ ــ السنة النبوية الصحيحة:

وهي المصدر الثاني للسيرة، وقد تضمنتها كتب أئمة الحديث المعترف بصدقهم والثقة بهم في العالم الإسلامي، وهي:

الكتب الستة: البخاري[4]، ومسلم[5]، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ويضاف إليها موطأ مالك، ومسند الإمام أحمد، فهذه الكتب وخاصة البخاري ومسلم في الذروة العليا في الصحة والثقة، والتحقيق، أما الكتب الأخرى فقد تضمنت الصحيح والحسن، وفي بعضها الضعيف أيضاً[6].

٣ ــ كتب السيرة:

اهتم السلف الصالح بالسيرة وقد ألف فيها مبكراً أبان بن عثمان بن

---

(١) انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ١٤٩ من هذا الكتاب.

(٣) من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى كتاب (سيرة الرسول ﷺ صورة مقتبسة من القرآن للأستاذ محمد عزة دروزة) في الجزء الأول ص ٥.

(٤) واسم كتابه «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» وقد ذكر فيه قطعة كبيرة مما يتعلق بحياة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها. انظر كتاب الجهاد وكتاب المغازي وكتاب الفضائل، وأبواب المناقب من صحيح البخاري.

(٥) وقد اشتمل صحيح مسلم على جزء كبير من سيرة النبي ﷺ وفضائله، وفضائل أصحابه، والجهاد والسير. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٢، ١٣، ١٥، ١٦.

(٦) السيرة النبوية للدكتور مصطفى السباعي ص ٢٨.

عفان، ابن الخليفة الثالث رضي الله عنه[1]، ثم تطور التأليف فيها على طبقات متعددة[2]، هذا ويمكن حصر كتب السيرة في التالي:

أ ـ كتب الشمائل[3].

ب ـ كتب الدلائل[4].

جـ ـ وكتب المغازي والسير[5].

د ـ وكتب تاريخ الحرمين الشريفين[6].

هـ ـ وكتب التاريخ العام[7].

و ـ وكتب الأدب واللغة[8].

وبهذا العرض لمصادر السيرة تتبين أهمية القرآن الكريم ومكانته فيها. يقول الشيخ محمد أبو شهبة:

«وإن من نافلة القول أن نقول: إن المرجع الأول في دراسة السيرة النبوية هو القرآن الكريم، لأنه الكتاب المتواتر الذي يفيد القطع واليقين، ولا يتطرق إليه الشك والارتياب، فهو أوثق المصادر، وأولاها بالقبول»[9].

فاعتماد القرآن المصدر الأهم في مصادر السيرة النبوية يجعل الحاجة

---

(١) كان والياً على المدينة سبع سنين لعبد الملك بن مروان توفي سنة ١٠٥ هـ.

(٢) الطبقة في اصطلاح المحدثين جماعة تقاربوا في السن واجتمعوا في لقاء المشايخ والأخذ عليهم.

(٣) هي الكتب التي قصد أصحابها التركيز على ذكر أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه وعاداته وفضائله وسلوكه القويم في الليل والنهار.

(٤) هي الكتب التي ألفها أصحابها بقصد جمع المعجزات التي ظهرت على يدي النبي ﷺ مما يدل على نبوته ومن أشهرها دلائل النبوة للبيهقي.

(٥) وهي الكتب التي تعني بصفة أساسية بمغازي رسول الله ﷺ وحروبه.

(٦) وهي كتب اهتمت بتاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل الإسلام وبعده.

(٧) وهي كتب تعني بتاريخ الأمم بشكل عام قبل الإسلام وبعده مثل تاريخ الطبري.

(٨) حيث سجل الشعر كثيراً من الحوادث والوقائع النبوية ونقلتها كتب الأدب واللغة.

(٩) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ١/٨.

ماسة جداً إلى الرجوع إلى تفسيره[1]، وقد أشار إلى هذه النقطة الهامة الدكتور فاروق حمادة فقال: «وإن اعتماد القرآن الكريم في مقدمة مصادر السيرة النبوية يستلزم الاطلاع على كتب التفسير الأولى التي تنقل بالإسناد، شأنها شأن كتب الحديث، والاطلاع على كتب أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، لأن هذه الكتب قد دارت حول النص القرآني بياناً وإيضاحاً، بل إن هناك آيات كثيرة لا يمكننا فهمها على الوجه الحق إذا لم نعرف أسباب نزولها، ومقدمات ذلك ونتائجه.

كما تبين لنا هذه الكتب موقف النبي ﷺ حيال كثير من الآيات الكريمة ودلالتها، ولا يمكننا بحال الاستغناء عن هذا المصدر المهم[2]..

وقد أشار العلماء إلى وجود علم السير في القرآن وعدُّوه من بين علوم القرآن الكريم وأسموه: «السيرة من القرآن».

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة: «وإني بعد أن استقصيت ما في القرآن الكريم من آيات مكية ومدنية متصلة بالسيرة النبوية لعهديها المكي والمدني وصنفتها في مجموعات متناسبة أيقنت أن في الإمكان كتابة فصول للسيرة من القرآن الكريم..».

ثم قال: «نقول هذا في صدد إمكان وتعين أدوار السيرة من القرآن، وإلا فإن القرآن جميعه يمثل السيرة، وإن لم يكن ذلك مقصوداً لذاته، وليس فيه آية إلا وهي تشير إلى دور أو موقف من أدوار ومواقف النبي ﷺ فيما بلغه عن ربه من وعد ووعيد وأمر ونهي وتعليم وتشريع وتأديب، وأمثال وقصص ودعوة وجهاد وجدال وحجاج.. الخ»[3].

* * *

---

(١) لذلك اعتنيت في بحثي بتفسير الآيات في كل غزوة، وذلك ما نجده في الفصول القادمة.

(٢) مصادر السيرة النبوية وتقويمها للدكتور فاروق حمادة ص ٣٣. وكذلك نبه إلى أهمية الرجوع إلى التفسير الدكتور أكرم ضياء العمري في السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٤٩.

(٣) سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم ١/ ٥.

ثانياً ــ أهمية حديث القرآن عن الغزوات:

السيرة النبوية مراحلها كثيرة ومتعددة، ومن أهم مراحلها التي يحتاج إليها المسلمون دائماً وفي كل زمان مرحلة الجهاد ضد الكفار. فالجهاد باقٍ إلى يوم القيامة والمسلمون بحاجة إلى البحث والدراسة لهذه المرحلة ليكونوا على بصيرة من أمرهم مع أعدائهم لذلك جاء حديث القرآن عن الغزوات مفصلاً ومبيناً، فتحدث عن أهم المعارك الحربية التي خاضها النبي ﷺ بعد هجرته، فتحدث عن معركة بدر وأحد والأحزاب والحديبية وفتح مكة وحنين وتبوك، وتسجيل القرآن لهذه الغزوات وعرضه لها جعل هذا العرض والتسجيل أصل الأصول، ومصدر النور، ليس وراء حجته حجة، ولا مع دليله دليل، ونصه هو القاطع لحجج خصومه، وقوله هو الفصل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ۝٨٧﴾[١].

فالقرآن الكريم أرفع مستند لأحداث السيرة النبوية بلا جدال وهو باق محفوظ إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[٢].

وقد أشار السلف الصالح إلى أهمية المغازي:

فقال علي بن الحسين: كنا نُعَلَّم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن[٣].

وقال محمد بن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: «كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول: يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»[٤].

---

(١) سورة النساء، آية ٨٧.
(٢) سورة الحجر، آية ٩.
(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٢٥٢.
(٤) شرح المواهب اللدنية للزرقاني جـ ١/ ٤٧٣.

وإذا رجعنا إلى علوم القرآن وخاصةً إلى حِكم نزول القرآن منجماً نجد هذه الحكم ممثلةً في حديث القرآن عن الغزوات لأن أوقات نزول القرآن المتعلقة بالغزوات كانت مختلفة، فتارة ينزل قبل الغزوة، وتارة أثناء الغزوة وغالباً بعد الغزوة.

فالحكم والفوائد التي ترتبت على نزول القرآن مفرقاً تجدها ممثلة جليةً واضحةً في حديث القرآن عن الغزوات، ومن هذه الحكم:

الحكمة الأولى:

تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وتقوية قلبه الشريف، وذلك أن تجدد الوحي يشعر النبي ﷺ بالطمأنينة وينشرح صدره لما يجده من العناية الربانية له، وتعهد الله إياه في كل حادث يحدث، فمثلاً في سرية عبد الله بن جحش عندما قُتِلَ عمرو بن الحضرمي[1] في الشهر الحرام شهّرت قريش بالمسلمين تشهيراً كبيراً، وتوقف النبي ﷺ في كل ما جاء به عبد الله بن جحش من غنائم وأسرى حتى نزل القرآن الكريم يوضح الأمر بقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[2].

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[3].

---

(١) انظر تفصيلها ص ٤٢ من هذا الكتاب.

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٧.

(٣) سورة الفرقان، آيتان ٣٢، ٣٣. وانظر: مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ١ ص ٥٣.

الحكمـة الثانيـة:

التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملاً فكان أغلب آيات حديث الغزوات تنزل بعد الحادثة يتحدث القرآن فيها عن موقف المؤمنين وعن موقف الأعداء ويبين الأخطاء ويرشد إلى الصواب.

أرشد في بدر إلى خطئهم في أخذ الأسرى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[1].

وفي أحد بين موقف المؤمنين: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾ الآية[2].

وفي حنين بين خطأ الاعتداد بكثرة عدد الجيش دون الاعتماد على الله بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[3].

وكذلك في تشريع القتال فقد كان على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر وذلك عندما كان المسلمون في مكة، وكانوا يطالبون النبي ﷺ بالإذن لهم في القتال فيجيبهم: (اصبروا فإني لم أومر بالقتال)[4].

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[5].

---

(١) سورة الأنفال، آيتان ٦٧، ٦٨.

(٢) سورة آل عمران، رقم ١٥٢.

(٣) سورة التوبة، آية ٢٥.

(٤) انظر تفسير أبي السعود ٦/١٠٨ ـ سورة الحج، تفسير قوله: **﴿أذن للذين يقاتلون...﴾** الآية.

(٥) سورة الحج، آية ٣٩.

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾(1).

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ ﴾(2)، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾(3).

الحكمة الثالثة:

مسايرة الحوادث والطوارىء في تجددها وتفرقها، فكلما جد منهم جديد في أي غزوة من الغزوات ينزل من القرآن ما يناسبه ويتضح ذلك فيما يلي:

١ ــ إجابة السائلين على أسئلتهم، ومن ذلك قوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾(4).

٢ ــ مجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها ومعلوم أن تلك الأقضية والوقائع لم تقع جملة، بل وقعت تفصيلاً وتدريجاً والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى ـ في قصة الإفك التي حصلت في غزوة بني المصطلق ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾.. إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾(5).

٣ ــ لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها،

---

(1) سورة البقرة، آية ١٩٠.
(2) سورة التوبة، آية ٣٦.
(3) سورة الإسراء، آية ١٠٦.
(4) سورة الأنفال، آية ١.
(5) سورة النور من آية ١١ إلى آية ٢٦.

وإرشادهم إلى شاكلة الصواب في الوقت نفسه، ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت في أزمان متفرقة، فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل في إصلاحها متكافئاً معها في زمانها اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾[1]، إلى آيات كثيرة بعدها، وكلها نزلت في غزوة أحد إرشاداً للمسلمين إلى مواضع أخطائهم في هذا الموقف الرهيب والمأزق العصيب[2].

٤ ــ الكشف عن مواقف المنافقين في الغزوات والأمثلة كثيرة، وسورة التوبة أكبر مثال على ذلك[3] حيث جاء في كثير من آياتها كشف حقائق المنافقين وتوضيح مواقفهم في غزوة تبوك.

الحكمة الرابعة:

الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم، وأنه كلام الله، والأمثلة كثيرة ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾[4].

نزلت هذه الآية وفسرت بيوم بدر:

أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس أن رسول الله خرج من العريش يوم بدر، وهو يثب في الدرع ويقول: ﴿**سيُهزَمُ الجمعُ ويولون الدُّبُرَ، بلِ الساعةُ موعدُهم والساعةُ أدهى وأمَرُّ**﴾[5]، وهذه الآية مكية قطعاً[6]، ولكن وقع

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٢١.

(٢) انظر ص ١٦٦ من هذا الكتاب.

(٣) انظر ص ٦٤٥ من هذا الكتاب.

(٤) سورة القمر، آيتان ٤٥، ٤٦.

(٥) صحيح البخاري كتاب تفسير باب قوله: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ ٦/ ١٧٩.

(٦) انظر: صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله: ﴿**بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾ ٦/ ١٧٩.

مصداقها يوم بدر، وهذا مما سبق نزوله وقوعه، ولما نزلت الآية بمكة قال عمر: أي جمع هذا؟! فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدروع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر..﴾ فعرفت تأويلها[1].

هذه بعض فوائد وحكم حديث القرآن عن الغزوات ومن هذه الفوائد والحكم تتضح أهمية حديث القرآن عن الغزوات، وأيضاً تسجيل القرآن لهذه الغزوات هو بذاته مهم لأن القرآن محفوظ إلى يوم القيامة فكانت هذه الغزوات درساً للأمة الإسلامية باقياً إلى آخر الزمان لا يشك ولا يجادل في صحتها وثبوتها مجادل.

والذي أنبه إليه أنه يجب علينا تعليم الشباب سور الغزوات وتوضيحها لهم، وتنبيههم إلى أهميتها، وأن يشتغلوا بحفظها ودراستها وتطبيقها تطبيقاً عملياً خاصةً وأنهم يخوضون معارك متنوعة مختلفة من جميع قوى الشر في العالم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[2] الآية، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾[3]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري وابن مردويه وعبد الرزاق. انظر فتح الباري ٧/ ٢٨٩، ٨/ ٦١٩.

(٢) سورة التوبة، آية ١٠.

(٣) سورة النساء، آية ٨٩.

(٤) سورة الصف، آية ٨.

البَاب الأول

حَديث القرآن
عَن غزوة بَدر

تمهيـــد

غزوة بدر من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في رمضان من السنة الثانية من الهجرة. .

وكلامنا عن هذه الغزوة يتضمن ما يلي:

أولاً: ما سبق غزوة بدر من أحداث.

ثانياً: أسباب غزوة بدر.

ثالثاً: أحداث غزوة بدر.

رابعاً: نتائج غزوة بدر.



أولاً ــ ما سبق غزوة بدر من أحداث

لما استقر النبي ﷺ في المدينة، وأذن له في القتال قام ﷺ بغزوات وسرايا نذكرها باختصار حسب ترتيبها التاريخي:

١ ــ غـزوة الأبـواء:

أول الغزوات التي غزاها النبي ﷺ، غزوة الأبواء[١]، وتسمى غزوة ودان[٢] أيضاً، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية[٣] والأبواء بفتح الهمزة وسكون الموحدة وبالمد قرية من عمل الفرع بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً[٤] ولم يقع قتال في هذه الغزوة بل تمت موادعة بني ضمرة (من كنانة) وكانت هذه الغزوة في صفر سنة اثنين من الهجرة، وكان عدد المسلمين مائتين بين راكب وراجل[٥].

---

(١) قيل: سميت بذلك لما كان فيها من الوباء، وهي على القلب، وإلا لقيل الأوباء، (فتح الباري: ٧/ ٢٧٩).

(٢) ودّان: بفتح الواو وتشديد المهملة، قرية جامعة من أمهات القرى من عمل الفرع وهي قريبة من الأبواء، بينها وبين رابغ مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً (انظر سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا وزميليه ٢/ ٥٩١، وغزوة بدر الكبرى لمحمد باشميل ص ١١٤).

(٣) انظر المجتمع المدني ـ جهاد المشركين ـ ص ٢٨، ومرويات غزوة بدر ص ٨١.

(٤) انظر فتح الباري: ٧/ ٢٧٩.

(٥) جيش النبي ﷺ لمحمود شيث خطاب ص ٥٤.

٢ ـ سرية عبيدة بن الحارث:

وهي أول راية عقدها رسول الله ﷺ[١]، وكان عدد السرية ستين من المهاجرين[٢] وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مائتي راكب وراجل، وكان قائد المشركين أبو سفيان بن حرب، وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماء بوادي رابغ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص أول سهم رمي في الإسلام، وكانت بعد رجوعه ﷺ من الأبواء[٣].

٣ ـ سرية حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إسحاق: وبعث النبي ﷺ في مقامه ذلك ـ أي لما وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء[٤] ـ حمزة بن عبد المطلب إلى سِيف البَحْر[٥] من ناحية العيص[٦] في ثلاثين راكباً من المهاجرين، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة. فحجز بين الفريقين مَجْدِيُّ بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال[٧].

---

(١) ذهب البعض ـ من كتاب السير ـ إلى أنها في شوال من السنة الأولى (انظر طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٧).

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٩١، تاريخ جيش النبي ﷺ ص ٦٨.

(٣) وقيل: إنه أرسله النبي ﷺ وهو عائد من الأبواء قبل أن يصل إلى المدينة.

(٤) ذهب بعض أهل السير إلى أنها كانت في السنة الأولى في رمضان (انظر طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٦).

(٥) سِيف البَحْر: قال ابن سعد في الطبقات (٢/٦): فبلغوا سيف البحر يعني سَاحله، من ناحية العيص.

(٦) العيص ـ بالكسر ـ مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع لصفي الدين البغدادي: ٢/ ٩٧٥).

(٧) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٩٥.

٤ ـ غـزوة بـواط[١]:

وكانت غزوة رسول الله ﷺ بواط في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من مهاجره، وخرج في مائتين من أصحابه، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش كان فيها أمية بن خلف في مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير. فلم يلق النبي ﷺ كيداً فرجع إلى المدينة[٢].

٥ ـ غـزوة العشيـرة[٣]:

وفيها غزا ﷺ قريشاً، واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وسميت هذه الغزوة بغزوة العشيرة، فأقام بها جمادى الأولى وليال من جمادى الآخرة، وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً. وذلك أن العير التي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام ذاهبة إلى الشام[٤]. والجدير بالذكر أن هذه العير هي العير التي خرج لها أيضاً يريدها حين رجعت من الشام، فساحلت على البحر وبلغ قريشاً خبرها فخرجوا يمنعوها فلقوا رسول الله ﷺ ووقعت غزوة بدر الكبرى[٥].

٦ ـ سرية سعد بن أبي وقاص:

وبعد غزوة العشيرة[٦] بعث النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص في سرية

---

(١) بواط بالضم، وآخره طاء مهملة هو جبل من جبال جهينة، بناحية رضوى، بقرب ينبع (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: ١/٢٢٨).
(٢) طبقات ابن سعد: جـ ٢ ص ٩.
(٣) العشيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: ٢/٩٤٣).
(٤) انظر طبقات ابن سعد: جـ ٢ ص ١٠.
(٥) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١١.
(٦) في طبقات ابن سعد أنها كانت في ذي القعدة من السنة الأولى (جـ ٢ ص ٧).

قوامها ثمانية من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخرار[1] من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً[2].

٧ ـ غـزوة بدر الأولى:

سببها: أن كرز بن جابر الفهري، قد أغار على سرح المدينة، ونهب بعض الإبل والمواشي، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه، حتى بلغ وادياً يقال له: سَفْوان من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[3].

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة[4]:

وأرسل النبي ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر يوم من رجب للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين من رجالها وهم عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وعادوا بهم إلى المدينة، وقد توقف النبي ﷺ في هذه الغنائم حتى نزل عليه قوله تعالى: **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه، قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجدِ الحرامِ وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾**[5].

فلما نزل القرآن الكريم قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وفي سرية

---

(١) الخرار: هو علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: ١/ ٤٥٥).

(٢) سيرة ابن هشام: جـ ٢ ص ٦٠٠.

(٣) سيرة ابن هشام: جـ ٢ ص ٦٠١.

(٤) نخلة اليمانية: واد به عسكرت هوازن يوم حنين (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: ٣/ ١٣٦٥). قلت: وهو الوادي المسمى باسم اليمانية المعروف بين مكة والطائف.

(٥) انظر تفسيرها في تفسير ابن كثير: ١/ ٢٥٢.

عبد الله هذه غنم المسلمون أول غنيمة، وعمرو بن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون[1]..

ثانياً ــ أسباب غزوة بدر

في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة علم رسول الله ﷺ، أن عيراً لقريش قادمة من الشام، فقال لمن حضر من المسلمين: (هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها)[2].

ومن المعلوم المؤكد أنه حين خروجه ﷺ من المدينة لم يكن في نيته قتال وإنما كان قصده عير قريش فلما نجت العير أصرت جموع قريش التي خرجت للدفاع عن العير على ملاقاة الرسول ﷺ فوقعت المعركة كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾[3].

هذا وقد كانت الحالة بين رسول الله ﷺ وبين قريش هي حالة حرب من أول يوم هاجر فيه النبي ﷺ إلى المدينة وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة. فكيف إذا علمنا أن جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كان للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليه المشركون من أهل مكة ظلماً وعدواناً.

أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك أنه قال: «بعث رسول الله ﷺ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٠٥.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٣٨١.

(٣) سورة الأنفال، آية ٤٢.

بسيسة[1] عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ قال: لا أدري ما استثنى بعض نسائه، قال: فحدثه الحديث. قال: فخرج رسول الله ﷺ فقال: إنّ لنا طَلِبَةً فمن كان ظَهْرُهُ حاضراً فليركب معنا، فجعل رجال يستأذنونه في ظُهْرَانِهِم في علوّ المدينة فقال لا من كان ظَهْرُهُ حاضراً»[2].

فأسباب غزوة بدر الكبرى يمكن أن نجملها فيما يأتي[3]:

أولاً: وجود حق وباطل يتمثل في معسكرين، حق أتى به محمد ﷺ، من ربه يدعوهم إليه وترك ما عداه، وباطل تتمسك به قريش من عادات الآباء وتقاليدهم، فلا بد من الصراع الطويل لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ثانياً: كون الأنصار آووا الرسول ﷺ وأصحابه في المدينة وبذلوا المال والنفس في المدافعة عنهم.

ثالثاً: وجود الرسول ﷺ وأصحابه وهم قوة في مكان تمرُّ عليه قوافل قريش إلى الشام ففي ذلك خطر يهدد تجارتهم وحياتهم.

رابعاً: إرسال الرسول ﷺ سراياه وخروجه بنفسه وخاصة تلك التي أرسلها إلى نخلة بين مكة والطائف هيجت قريشاً كثيراً ضده.

خامساً: وأهم أسباب غزوة بدر أن قريشاً أعلنت الحرب على النبي ﷺ منذ أول يوم انبجست فيه شمس الدعوة النبوية، وقد بلغت حالة الحرب هذه أقصى درجاتها بتآمر قريش لقتل النبي ﷺ غيلة واستيلائها على أموال المسلمين ودورهم وقتل بعضهم وإلحاقهم الأذى بالآخرين.

---

(١) بسيسة: قال النووي: هكذا هو في جميع النسخ بسيسة بباء موحدة، مضمومة وبسينين مهملتين مفتوحتين بينهما ياء مثناة تحت ساكنة (صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣/ ٤٤).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإمارة ـ باب ثبوت الجنة للشهيد: ٣/١٥٠٩ ـ ١٥١٠.

(٣) مرويات غزوة بدر ص ٩٠.

ثالثاً ــ أحداث غزوة بدر الكبرى

خرج المسلمون إلى بدر وهم ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً[1] فقط منهم مائة من المهاجرين وبقيتهم من الأنصار.

وقد التحق بهم أحد شجعان المشركين في الطريق ليقاتل مع المسلمين فرده الرسول ﷺ، وقال: ارجع فلن أستعين بمشرك، وكرر الرجل المحاولة فرفض النبي ﷺ حتى أسلم الرجل والتحق بالمسلمين[2].

قال ابن سعد في الطبقات:

كانت الإبل سبعين بعيراً يتعاقب النفر البعير وكانت الخيل فرسين: فرس للمقداد بن عمرو، وفرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان الرسول ﷺ وأبو لبابة وعلي بن أبي طالب يتعاقبون على بعير واحدة، فأرادا أن يؤثراه بالركوب فقال: (ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى من الأجر منكما)[3].

قال ابن هشام:

خرج يوم الإثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان واستعمل عمرو بن أم مكتوم ويقال اسمه: عبد الله بن أم مكتوم، أخا بني عامر بن لؤي، على الصلاة بالناس ثم ردّ أبا لبابة من الروحاء، واستعمله على المدينة[4].

وقد بلغ أبا سفيان خروج المسلمين لأخذ القافلة، فسلك بها في طريق الساحل وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري لاستنفار أهل مكة، فلما علمت

---

(١) ثبت هذا العدد في رواية لمسلم: انظر كتاب الجهاد والسير ـ باب الإمداد بالملائكة: ٣/ ١٣٨٤.

(٢) المجتمع المدني في عصر النبوة ص ٤٠، والقصة صحيحة ذكرها مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر: ٣/ ١٤٤٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٢.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦١٢.

قريش بالخبر، استعدت للخروج دفاعاً عن قافلتها.

وقد صح أن عدد جيش المشركين بلغ ألفاً. وعلمت قريش بنجاة القافلة لكن معظم الجيش[1] تقدم إلى منطقة بدر. فلم يعد نجاة القافلة هدفهم بل تأديب المسلمين وتخليص طرق التجارة من تعرضهم[2].

ولم يرتح بعض المسلمين لنجاة القافلة ومواجهة المشركين لأنهم لم يستعدوا للقتال، وقد صور القرآن الكريم موقفهم في هذه الآية: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ ﴾[3] واستشار الرسول ﷺ أصحابه:

فقال المقداد بن عمرو البهراني: والذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد[4] لسرنا معك حتى تنتهي إليه.

ثم قال رسول الله ﷺ: (أشيروا عليّ)، وإنما يريد الأنصار. فقام سعد بن معاذ، فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا؟ قال: (أجل). قال: فامضِ يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد. فقال رسول الله ﷺ: (سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، فوالله لكأني أنظر إلى مصارع القوم)[5].

وأخذ أبو جهل يدعو على رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أينا كان أقطع

---

(١) لأن بني زهرة رجعوا لما علموا بنجاة القافلة.

(٢) المجتمع المدني في عصر النبوة: ص ٤٣ ـ بتصرف ـ.

(٣) سورة الأنفال، آية ٥، وانظر تفسيرها صفحة ٥٦ من هذا الكتاب.

(٤) برك الغماد: بكسر الغين المعجمة هو الأشهر وابن ذريد يضمها، وهو موضع وراء مكة، بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن، وهو أقصى حجر باليمن (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: ١/ ١٨٧).

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٤.

للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فأحنه[1] الغداة»، فكان ذلك استفتاحه الذي أشارت إليه الآية: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾[2].

وورد بسند حسن[3] إلى عروة لكنه مرسل أن الحباب بن المنذر أشار على النبي ﷺ، وذلك أنه ﷺ سار إلى بدر فلما جاء أدنى ماء من بدر نزل عليه فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل الرأي والحرب والمكيدة).

فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله، ثم نغور[4] ما وراء القليب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم؟ فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: (لقد أشرت بالرأي)، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقليب فغورت وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فمُلىء ماءً ثم قذفوا فيه الآنية[5].

وقد وصف علي رضي الله عنه في رواية صحيحة كيف بات المسلمون

---

(١) في هامش السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق مصطفى السقا وزميليه: أحنه: أهلكه: (٢/٦٢٨).

(٢) سورة الأنفال، آية ١٩، انظر تفسيرها صفحة ٦٧ من هذا الكتاب، وانظر سيرة ابن هشام: ٦٢٨/٢.

(٣) المجتمع المدني في عصر النبوة، ص ٤٦.

(٤) غور الماء، أي جعله غائراً، يقال: غور تغويراً: دخل فيه ونزل فيه (القاموس المحيط: ١٠٥/٢).

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٢٠.

ليلة السابع عشر من رمضان[1] ببدر، وأمامهم معسكر المشركين قال: «لقد رأيتنا يوم بدر وما منا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ، فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح. ثم إنه أصابنا من الليل طش[2] من مطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه، ويقول: (اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تعبد)، فلما طلع الفجر نادى: (الصلاة عباد الله)، فجاء الناس من تحت الشجر، والجحف[3] فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرض على القتال. وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان نظم الرسول ﷺ جيشه في صفوف كصفوف الصلاة.

وقد بنى للرسول ﷺ عريش أو قبة كان فيها ليدير منها المعركة باقتراح من سعد بن معاذ[4] وذلك لأهمية الحفاظ على القائد في المعركة.

ولما اقترب المشركون من المسلمين قال لهم الرسول ﷺ: (لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه).

فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)، فلما سمع عمير بن الحمام الأنصاري ذلك قال: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم)، قال: بخٍ بخٍ[5] فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟) قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها). فأخرج تمرات من قرنه[6] فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى

---

(١) المجتمع المدني في عصر النبوة ص ٤٦.

(٢) الطش: المطر الضعيف وهو فوق الرذاذ. (القاموس المحيط: ٢/ ٢٧٧).

(٣) الجحف: التروس من جلود ليس فيها خشب ولا عقب (الفتح الرباني ٢١/ ٣١).

(٤) المجتمع المدني في عصر النبوة ص ٤٧.

(٥) بخ بخ: قال النووي: فيه لغتان إسكان الخاء وكسرها منوناً، وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير (صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣/ ٤٥).

(٦) من قرنه: قال النووي: هو بقاف وراء مفتوحتين ثم نون أي جعبة النشاب. (صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣/ ٤٦).

بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[1].

وأخرج مسلم عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾[2] فأمدَّه الله بالملائكة[3].. وقد خرج من العريش وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[4].

وكان رسول الله ﷺ يباشر القتال بنفسه. قال علي رضي الله عنه: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً..»[5].

وقد بدأ القتال بمبارزات فردية، حيث تقدم عتبة بن ربيعة وتبعه ابنه الوليد وأخوه شيبة طالبين المبارزة، فانتدب لهم شباب من الأنصار، فرفضوا مبارزتهم طالبين مبارزة بني قومهم، فأمر الرسول ﷺ حمزة وعلياً وعبيدة بن

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ٣/١٥٠٩ ـ ١٥١٠ حديث رقم ١٩٠١. كتاب الإمارة ـ باب ثبوت الجنة للشهيد.

(٢) سورة الأنفال، آية ٩.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير ـ باب الإمداد بالملائكة: ٣/ ١٣٨٤، انظر تفسيرها صفحة ٧٦ من هذا الكتاب.

(٤) من رواية البخاري: كتاب المغازي ـ باب قوله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ ٥/ ٩٣، وفتح الباري ٧/ ٢٨٧، والآية من سورة القمر، ٤٥، وانظر تفسيرها صفحة ١٠٤ من هذا الكتاب.

(٥) المسند: ١/ ٨٦.

الحارث بمبارزتهم، وقد تمكن حمزة من قتل عتبة، ثم قتل علي شيبة، وأما عبيدة فقد تصدى للوليد وجرح كل منهما صاحبه، فعاونه علي وحمزة فقتلوا الوليد واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين[1].

وقد أثرت نتيجة المبارزة في معسكر قريش وبدأوا الهجوم[2]، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بنضح المشركين بالنبل إذا اقتربوا منهم حرصاً على الإفادة من النبال بأقصى ما يستطاع فقال: (إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم)[3].

ويذكر قتادة أن الرسول ﷺ، رمى الحصا في وجوه المشركين[4] وتدل على صحة ذلك الآية الكريمة[5]: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾[6].

ثم التقى الجيشان في ملحمة قتل فيها عدد من زعماء المشركين، منهم أبو جهل عمرو بن هشام، وقد قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء، وهما غلامان لا يعرفانه دلهما عليه عبد الرحمن بن عوف، وقد أخبراه أنهما يريدان قتل أبي جهل لما كان من سبه للرسول ﷺ وقد أجهز عليه ابن مسعود بعد أن أصاباه[7].

---

(١) سنن أبي داود ـ كتاب الجهاد ـ باب في المبارزة: ٣/ ١١٩، وصححه ابن حجر في الفتح: ٧/ ٢٩٨.

(٢) انظر المجتمع المدني في عصر النبوة ص ٤٩.

(٣) من رواية البخاري: ٥/ ٩٩، وفتح الباري ٧/ ٣٠٦.

(٤) تفسير الطبري ٩/ ٢٠٤.

(٥) انظر تفسيرها صفحة ٩٩ من هذا الكتاب.

(٦) سورة الأنفال، آية ١٧.

(٧) من رواية البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قتل أبي جهل: ٥/ ٩٤، وانظر فتح الباري ٧/ ٢٩٣. وانظر صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب قتل أبي جهل: ٣/ ١٤٢٤، وانظر مسلم بشرح النووي: ١٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠، وانظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٣٥.

ومنهم أمية بن خلف فقد أسره عبد الرحمن بن عوف بعد المعركة، وأسر معه علياً ابنه فلمحه بلال، وكان هو الذي يعذبه بمكة، فقال رأس الكفر أمية بن خلف: لا نجوت إن نجا، واستصرخ عليه الأنصار فأعانوه على قتله هو وابنه علي[1].

وقد ثبت في القرآن والحديث أن الله تعالى أمد المسلمين بالملائكة يوم بدر، وكذلك صح أنها قاتلت ببدر[2].

وانتصر المسلمون في هذه الغزوة، وقتل من المشركين سبعون وأسر منهم سبعون، وكان عدد شهداء المسلمين أربعة عشر شهيداً، وقد أخذ النبي ﷺ الفداء من الأسرى بعد أن استشار أبا بكر وعمر فيما يصنع بالأسرى، فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم وعلل ذلك بقوله: «فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام». وأشار عمر بن الخطاب بقتلهم، وأخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر وعوتب النبي ﷺ على ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

هذا بالنسبة للأسرى، وأما الغنائم فقد وقع حولها خلاف إذ لم يكن حكمها قد شرع بعد، وأنزل الله في اختلاف الصحابة فيها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية[4]. فقسمها رسول الله ﷺ على الصحابة بالتساوي، بينهم، وكان تقسيم الغنائم في الصفراء في طريق عودة الجيش إلى المدينة وقد تقدمهم زيد بن حارثة إليها بالبشارة بالنصر.

---

(١) من رواية البخاري: كتاب الوكالة: باب إذا وكل المسلم حربياً ١٢٩/٣، وانظر فتح الباري ٤٨٠/٤.

(٢) انظر التفصيل أكثر في صفحة ٨٣ من هذا الكتاب.

(٣) سورة الأنفال، آية ٦٧ إلى اية ٦٩.

(٤) سورة الأنفال، آية ١.

رابعاً ــ نتائج غزوة بدر

غزوة بدر الكبرى لها نتائج كثيرة وإليك أهم هذه النتائج:

١ ــ قويت شوكة المسلمين عندما دوى انتصارهم في بدر في كل نواحي الجزيرة العربية، وذلك لأن قريشاً كانت لها مكانة رفيعة بين العرب كافة.

٢ ــ أصبحت هناك قوة جديدة حقيقة يحسب لها حسابها هي قوة المسلمين، لذلك أخذت القبائل العربية المجاورة للمدينة في أخذ حذرها.

٣ ــ ذهول قريش أمام الصدمة المفاجئة فصممت على الانتقام من المسلمين، وأخذت تعد نفسها ليوم أحد.

٤ ــ استشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر رجلاً، وقتل من المشركين يوم بدر من قريش سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون.

٥ ــ بدأ النفاق في المدينة يظهر جلياً بعد بدر، واستمر المنافقون في أذاهم للمسلمين وكان كثيراً ما ينزل القرآن يفضح أكاذيبهم ومكائدهم.

٦ ــ بالرغم من المعاهدة التي كانت بين المسلمين واليهود قبل بدر، أخذ اليهود يظهرون عداوتهم للمسلمين بعد بدر حسداً وبغياً وأول من أظهر بغيه يهود بني قينقاع.

٧ ــ بدأت بعد بدر حرب معلنة بين المسلمين وقريش لم تنته إلا بفتح مكة.

٨ ــ دخل الكثيرون في الإسلام بعد بدر، وأخذ المسلمون يستعدون لمواجهة عداوة الجزيرة العربية بأسرها.

٩ ــ كانت بدر شرفاً ومنقبةً لمن حضرها من المسلمين والملائكة.

الفصل الأول

حديث القرآن عن غزوة بدر وتفسير الآيات الواردة في ذلك

لقد تحدث القرآن الكريم عن غزوة بدر في سورة الأنفال، وقد سمى حبر الأمة، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال بسورة بدر، روى البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: آلتوبة؟ قال: بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم، ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها.

قال سورة الأنفال: قال تلك سورة بدر.

قال: قلت: فالحشر، قال: نزلت في بني النضير «واللفظ لمسلم»[١].

وروى البخاري عن ابن عباس: أن سورة الأنفال نزلت في بدر[٢].

وقد نزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر[٣].

وإليك تفسير الآيات الكريمة التي جاءت في هذه الغزوة، وقد قسمت الآيات حسب موضوعاتها فجاءت في ثلاث مباحث:

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ ٦/ ١٨٣، وفتح الباري ٨/ ٦٢٩، وصحيح مسلم ـ كتاب التفسير ـ (رقم الحديث ١/ ٢٣٠٣ ـ ٤/ ٢٣٢٢).

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ ٦/ ٧٧.

(٣) صفوة التفاسير: ١/ ٤٩١.

المبحث الأول: مقدمات الغزوة وملابساتها.

المبحث الثاني: وصف غزوة بدر.

المبحث الثالث: نتائج غزوة بدر.

* * *

المبحث الأول

مقدمات الغزو وأسبابها

*** ذكر خروجه ﷺ من المدينة.**

*** ذكر خروج الكفار من مكة، ثم قدومهم إلى بدر.**

*** موقف المشركين لما قدموا إلى بدر.**

*** موقف إبليس في المعركة.**

مقدمات غزوة بدر وأسبابها:

قال تعالى في سورة الأنفال:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝٥ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

المتأمل لهذه الآيات الكريمة يراها قد حوت ما يلي:

١ ــ أشارت الآيات الكريمة إلى غزوة بدر الكبرى، فذكرت كيفية خروج النبي ﷺ من المدينة إلى العدو، وأن الله ألهمه ﷺ هذا الخروج ووعده بالنصر على إحدى طائفتي العدو واللتين كانت إحداهما ذات شوكة وسلاح واستعداد للقتال، وجملة: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾** وجملة:

﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ تدلان على أن هذا وذاك كان إلهاماً ربانياً أو وحياً غير قرآني وفي هذا مشهد سر من أسرار النبوة، وصلة النبي بربه، ومشهد من مشاهد السيرة النبوية في العهد المدني.

٢ ـ والآيات لم تحتو سياقاً تاماً عن الواقعة وهذا من ميزة المنهج القرآني في عرض الغزوات. فالقصة لم تقصد لذاتها، وإنما قصد التذكير وبيان إرادة الله في إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإن إرادة الله هي المسيطرة على هذا الكون.

٣ ـ وأيضاً بما يلمح من مقاصد الآيات تدعيم العتاب الموجه للمسلمين المعترضين وتأنيبهم على ما كان منهم من مشادة بصدد الغنائم ببيان أن الله هو الذي ألهم نبيه الخروج وأنه هو الذي رزقهم النصر والغنيمة معاً على كره بعض منهم في بادىء الأمر، ومن هذا يتضح منهج القرآن الكريم حيث يعالج القضايا التي تواجه المجتمع.

ويوضح حقيقة ما يجري بأسلوب فريد في التربية حيث يبين الخطأ ويرشد إلى الصواب، وبه يظهر كمال الرحمة والعناية الإلٓهية بهذا المجتمع المسلم.

٤ ـ كذلك بينت الآيات الكريمة أن المسلمين كانوا يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم لكن الله اختار لهم ما يصلح لهم وهو النفير ووعدهم بالنصر.

ذكر خروجه ﷺ من المدينة:

ألهم الله عز وجل رسوله ﷺ بالخروج من المدينة طلباً للعير التي كان يقودها أبو سفيان وكان فيها أموال قريش وتجارتها فخرج النبي ﷺ واستنهض المسلمين للخروج قائلاً لهم:

(هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها)

فخرج في ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً وإنما كان قصدهم العير.

وهكذا كان خروج المؤمنين ـ من مهاجرين وأنصار ـ مع النبي ﷺ على نية التصدي للعير انتقاماً لما فعلته قريش مع المهاجرين، حين أخرجتهم من ديارهم وأموالهم.

وكان خروج المسلمين على وجه المبادرة والاستعجال، حتى لا يفوتهم أبو سفيان والعير التي معه ولهذا كان الذين خرجوا لهذا الوجه ثلاثمائة وتسعة عشر ليس فيهم إلا فارس واحد، وقيل: فارسان، أما الباقون فكانوا راجلين، لا يحمل أحدهم معه غير سيف ـ أو رمح ـ وقد استطاع أبو سفيان أن ينجو بالعير، ويفلت من المسلمين حين علم بهم فغير طريقه بعد أن أرسل يستنجد بأهل مكة لحماية أموالهم فخرجت قريش لتستنقذ عيرها ولتنتقم لكرامتها ممن تصدوا لها وكانت قريش في أكثر من ألف مقاتل بينهم أكثر من مائة فارس. وكان النبي ﷺ قد أخبر المسلمين بأن الله وعده إحدى الطائفتين العير أو النفير فلما أفلتت العير تبين للمسلمين أنه لا مفر من القتال فكره بعضهم ذلك لقلة عددهم ولأنهم ما خرجوا إلا طمعاً في العير ولم يستعدوا بكامل قوتهم وأخذوا يجادلون النبي ﷺ في ذلك بالرغم من وعد الله لهم بالنصر، ثم اطمأنت نفوسهم جميعاً بعد استشارة النبي ﷺ لهم.

﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت: ما ترون فيهم؟ فقلنا: يا رسول الله ما لنا طاقة بقتال القوم وإنما خرجنا للعير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: **﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا**

قاعدون﴾، فأنزل الله: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾**[1].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه[2]، **﴿كما أخرجك ربك﴾** الكاف بمعنى مثل، أي للتشبيه وهي خبر لمبتدأ محذوف هو المشبه، وما بعدها المشبه به ووجه الشبه مطلق الكراهية، وما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين، وقد اختلف المفسرون في السبب الجالب للكاف إلى عشرين قولاً[3] نذكر بعضها:

قال الطبري: اختلف أهل التأويل في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: **﴿كما أخرجك﴾**، وما الذي شبه بإخراج نبيه ﷺ من بيته بالحق.

فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، فإن ذلك خير لكم، كما أخرج الله محمداً ﷺ من بيته بالحق، كان خيراً له.

وقال آخرون: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال، فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم[4].. الخ.

وقال القرطبي: قال الزجاج: الكاف في موضع نصب، أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك **ربك** من بيتك بالحق[5].

وقال صاحب الكشاف: **﴿كما أخرجك ربك﴾** فيه وجهان:

أحدهما: أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره:

---

(١) أسباب النزول للسيوطي: ص ١٠٧.
(٢) انظر تفسير الطبري: ٩/ ١٨٣.
(٣) انظر حاشية الجمل على الجلالين: ٢/ ٢٢٦.
(٤) تفسير الطبري: ٩/ ١٨٣.
(٥) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٦٧.

هذه الحال كحال إخراجك يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب.

والثاني: أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿الأنفال لله والرسول﴾ أي الأنفال استقرت لله والرسول، وثبت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون[1].

والذي أميل إليه هو ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن الكاف للتشبيه والمعنى حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية، مثل حال بعضهم في كراهة الخروج للقتال، مع ما في هذه القسمة والقتال من خير وبركة.

والمراد بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿من بيتك﴾ المراد بيته ﷺ بالمدينة أو المدينة نفسها لأنها مهاجره ومسكنه فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه[2]. وقوله: ﴿بالحق﴾ أي إخراجاً ملتبساً به فالباء للملابسة وقيل: هي سببية أي بسبب الحق الذي وجب عليك وهو الجهاد[3].

قوله: ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ أي للخروج، فالآية توضح أن بعضاً من المسلمين كره الخروج للقتال. وقال الآلوسي موضحاً سبب الكره: إما لعدم الاستعداد للقتال أو للميل للغنيمة أو النفرة الطبيعية عنه وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة. هذا وقد استجاب الصحابة بعد ذلك كلهم للقتال[4].

والمعنى الإجمالي للآية:

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ١٤٣.
(٢) المصدر نفسه: ٢/ ١٤٣.
(٣) تفسير الآلوسي: ١٠/ ١٦٩.
(٤) تفسير الآلوسي: ١٠/ ٦٩.

حال بعض المسلمين في بدر في كراهة قسمة الغنيمة بالسوية بينهم، مثل حال فريق منهم في كراهة الخروج للقتال مع أنه قد ثبت أن هذه القسمة وذلك القتال كان فيهما ما فيهما من الخير لهم إذ الخير فيما قدره الله وأراده، لا فيما يظنون، وأثبت سبحانه أن هناك فريقاً من المؤمنين كره القتال.

وقوله تعالى: ﴿**يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون**﴾ حكاية لما حدث من هذا الفريق الكاره للقتال وتصوير معجز لما استبد به من خوف وفزع.

وقوله: ﴿**يجادلونك في الحق**﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن القتال، والحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ هو تلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير[1].

والضمير يعود للفريق الذي كان كارهاً للقتال.

وقوله: ﴿**بعدما تبين**﴾ متعلق: بـ «يجادلون» و«ما» مصدرية، والضمير في الفعل «تبين» يعود على الحق.

والمراد بتبينه: إعلام الرسول ﷺ لهم بأنهم سينصرون على أعدائهم، فقد ورد أن الرسول ﷺ أخبرهم قبل نجاة العير بأن الله وعده الظفر بإحدى الطائفتين: العير أو النفير، فلما نجت العير علم أن الظفر الموعود به إنما هو بالنفير، أي: بالمشركين الذي استنفرهم أبو سفيان للقتال لا بالعير، أي: الإبل الحاملة لأموال المشركين.

وقوله: ﴿**كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون**﴾ الكاف في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿**لكارهون**﴾ أي حال كونهم في شدة فزعهم من

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ١٤٤.

القتال يشبهون حال من يساق ليقتل وهو مشاهد لأسباب قتله ناظر إليها لا يشك فيها[1].

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانباً من مظاهر فضله على المؤمنين مع جزع بعضهم من قتال عدوه وعدوهم وإيثارهم العير على النفير فقال:

﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم..﴾.

والمراد بإحدى الطائفتين: العير أو النفير. والخطاب للمؤمنين والمراد، بغير ذات الشوكة: العير، والمراد بذات الشوكة: النفير، والشوكة في الأصل واحدة الشوك وهو النبات الذي له حدة، ثم استعيرت للشدة والحدة، ومنه قولهم: رجل شائك السلاح أي: شديد قوي. قال الراغب: الشوك ما يدق ويصلب رأسه من النبات ويعبر بالشوك والشكة عن السلاح والشدة[2].

والمعنى: واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ وقت أن وعدكم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بأن إحدى الطائفتين: العير أو النفير هي لكم تظفرون بها وتتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه، وأنتم مع ذلك تودون، وتتمنون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح وهي العير.

قال الآلوسي: قوله: **﴿وإذ يعدكم الله﴾**... كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله تعالى بالمؤمنين مع ما بهم من الجزع وقلة الحزم[3].

وقوله: **﴿إحدى الطائفتين أنها لكم﴾**.

قال القرطبي: **﴿إحدى﴾** في موضع نصب مفعول ثانٍ ـ ليعد ـ **﴿أنها لكم﴾** في موضع نصب أيضاً بدلاً من إحدى...[4]. اهـ.

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/ ٢٨٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص ٢٧١.

(٣) تفسير الآلوسي: ٩/ ١٧١.

(٤) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٦٩.

أي: يعدكم الله أيها المؤمنون أن إحدى الطائفتين كائنة لكم، ومختصة بكم جعلها الله لكم تتصرفون فيها كيف شئتم.

وقوله: ﴿**وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**﴾:

أي وتحبون أن العير تكون لكم، فبين سبحانه أن المؤمنين تعلقت نفوسهم بالعير التي يقودها أبو سفيان وذلك لما فيها من الغنيمة واليسر.

ثم بين لهم ـ سبحانه ـ أنهم وإن كانوا يريدون العير، إلا أنه ـ سبحانه ـ يريد لهم النفير، ليعلو الحق ويزهق الباطل.

فقال تعالى: ﴿**ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين**﴾.

المراد بكلمات الله: الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة ووعدكم منه بالظفر بها.

﴿**ويقطع دابر الكافرين**﴾ الدابر التابع من الخلف يقال دبر فلان القوم يدبرهم دبوراً إذا كان آخرهم في المجيء والمراد أنه ـ سبحانه ـ يريد أن يستأصلهم استئصالاً.

قال ابن كثير: قوله: ﴿**ويريد الله أن يحق الحق بكلماته**﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان وهو أعلم بعواقب الأمور وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم**﴾[1] اهـ.

ثم بين سبحانه وتعالى الحكمة من اختيار ذات الشوكة لهم ونصرتهم

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٨٨.

عليهم فقال: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾.

أي: فعل ما فعل من النصرة والظفر بالأعداء ﴿ليحق الحق﴾ أي: ليثبت الدين الحق وهو دين الإسلام.

﴿ويبطل الباطل﴾ أي ويمحق الدين الباطل وهو ما عليه المشركون من كفر، وطغيان..

وقوله: ﴿ولو كره المجرمون﴾ بيان لنفاد إرادته ـ سبحانه ـ أي: اقتضت إرادته أن يعز الدين الحق وهو دين الإسلام، وأن يمحق ما سواه، ولو كره المشركون ذلك، لأن كراهيتهم لا وزن لها، ولا تعويل عليها.

قال الإمام الرازي: ما ملخصه:

«فإن قيل: أليس قوله: ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ ثم قوله بعد ذلك: ﴿ليحق الحق﴾ تكرير محض؟ فالجواب: ليس هنا تكرير، لأن المراد بالأول سبب ما وعد به في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء والمراد بالثاني: تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة، لأن الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سبباً لعزة الدين وقوته، ولهذا السبب قرنه بقوله: ﴿يبطل الباطل﴾ الذي هو الشرك، وذلك في مقابلة ﴿الحق﴾ الذي هو الدين والإيمان»[1].

ومما يستفاد من الآيات ما يأتي:

أن الآيات المتقدمة هي في الحقيقة درس هام للمسلمين في جميع العصور وتتكلم عن قضية هامة من أهم القضايا التي تواجه المجتمع المسلم وهي قضية الدفاع عن هذه العقيدة ضد من يريد بها سوءاً. والذي نستفيده من هذه الآيات أن الله عز وجل كان هو المدبر لهذه الغزوة وهو الذي وعدهم في

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٥/ ١٢٨.

أول الأمر بإحدى الطائفتين فلما اشتاقت نفوسهم إلى العير والغنيمة السهلة اختار لهم ـ سبحانه ـ الأخرى وهي ذات الشوكة لحكمة جليلة يريدها ـ سبحانه ـ وهي نصر المسلمين على صناديد قريش الذين كفروا وجحدوا وحاربوا الله ورسوله.

يقول صاحب الكشاف: قوله: ﴿**ويريد الله أن يحق الحق بكلماته..**﴾:

يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفاسف الأمور، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم، والله عز وجل يريد معالي الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلوّ الكلمة، والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وغلب كثرتهم بقلَّتكم وأعزكم وأذلهم وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها[1]. اهـ.

ويلزم المسلمين في عهدنا الحاضر الرجوع إلى الله وإلى شريعته والاعتصام بها وتطبيق شرعه في كل الأمور وطلب النصر على الأعداء، وأن يوقنوا أن لا نصر إلا من عند الله وأنهم إذا تحققوا بالإيمان الكامل كما تحقق به المؤمنون الأوائل في بدر فإن الله سوف ينصرهم ويكون في عونهم.

يقول سيد قطب في هذا المعنى:

ألا إن غزوة بدر بملابساتها هذه ـ لتمضي مثلاً في التاريخ البشري ـ ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة، وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة... الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية.. ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال، في كل زمان وفي كل مكان، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها.

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/١٤٥.

فهي آية من آيات الله، وسنة من سننه الجارية في خلقه ما دامت السموات والأرض. . ألا وإن العصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة النشأة الإسلامية في الأرض ـ بعدما غلبت عليها الجاهلية ـ لجديرة بأن تقف طويلاً أمام (بدر) وقيمها الحاسمة التي تقررها، والأبعاد الهائلة التي تكشفها بين ما يريده الناس لأنفسهم وما يريده الله لهم[1]. . اهـ.

ذكر خروج الكفار من مكة، ثم قدومهم إلى بدر:

جاء نذير أبي سفيان إلى مكة وأخبرهم بأن عيرهم في خطر فقررت قريش الخروج لإنقاذ عيرها، وتولى قيادتها أبو جهل، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير نجت وسلمت وقد جاءهم بهذا الخبر رسول أبي سفيان يطلب منهم الرجوع بالنفير إذ لم تعد بهم حاجة لقتال محمد وأصحابه، وكانت قريش قد خرجت بالقيان والدفوف يغنون وينحرون الجزر على مراحل الطريق، فقال أبو جهل: «لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا فلم تزل تهابنا العرب أبداً»، فلما عاد الرسول إلى أبي سفيان برد أبي جهل قال: «واقوماه! هذا عمل عمرو بن هشام ـ يعني أبا جهل ـ كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى، والبغي منقصة وشؤم، وإن أصاب محمد النفير ذللنا».

قال تعالى: **﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاءَ الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾**.

قوله: **﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم﴾** المراد بالذين خرجوا من ديارهم: هم قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير.

وقوله: **﴿بطراً﴾** مصدر ـ كفرح ـ ومعناه كما يقول الراغب: «دهش

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٤٨٢.

يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجهها»[1].

قال القرطبي: «أي التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من العافية على المعاصي»[2].

وقوله: ﴿رئاء﴾ مصدر راءى ومعناه القول أو الفعل الذي لا يقصد معه الإخلاص وإنما يقصد به التظاهر وحب الثناء.

والمعنى: ينهى المولى عز وجل المؤمنين عن التشبه بالكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس.

قال القرطبي: «يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف فلما وردوا الجحفة بعث خفاف الكناني ـ وكان صديقاً لأبي جهل ـ بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال وإن شئت أمددتك بنفسي مع ما خف من قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة. وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب، بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد. فوردوا بدراً ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[3].

وقوله: ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ معطوف على بطراً، والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة والمراد بسبيل الله: دينه لأنه يوصل الناس إلى الخير والصلاح.

---

(1) المفردات في غريب القرآن للراغب: ص ٥٢.
(2) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٥.
(3) المصدر نفسه: ٨/ ٢٥.

فقد وصف ـ سبحانه ـ الكافرين في هذه الآية بثلاثة أشياء:

الأول: البطر، **والثاني**: قوله: ﴿**ورئاء الناس**﴾، **والثالث**: قوله: ﴿**ويصدون عن سبيل الله**﴾.

وإذا قلنا لماذا عبر عن بطرهم بصيغة الاسم الدال على التمكين، والثبوت، وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث؟.

يجيبنا الإمام الرازي بقوله: «إن أبا جهل ورهطه وشيعته كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والعجب، وأما صدهم عن سبيل الله فإنما حصل في الزمان الذي أكرم فيه النبي محمد ﷺ بالنبوة، ولهذا السبب ذكر البطر والرئاء بصيغة الاسم، وذكر الصد عن سبيل الله بصيغة الفعل والله أعلم»[١].

وقوله: ﴿**والله بما يعملون محيط**﴾ أي أنه ـ سبحانه ـ محيط بكل صغيرة وكبيرة، وقصد بهذا التذييل التحذير.

وفي الجلالين: ﴿**ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم**﴾ ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها[٢]. وفي حاشية الجمل على الجلالين:

«وظاهر النظم الكريم أن قوله بطراً متعلق بخرجوا وهو لا يوافق الواقع لأن خروجهم كان لغرض مهم وهو منع غيرهم عن عيرهم فلذا جعله الشارح ـ صاحب تفسير الجلالين ـ متعلقاً بمحذوف وقدر لـ ﴿**خرجوا**﴾ علة أخرى حيث قال: خرجوا من ديارهم ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها بطراً فجعله علة لهذا المقدر وهو قوله، ولم يرجعوا والمعنى عليه واضح ولم يسلك هذا المسلك غيره ممن رأيناه من المفسرين»[٣].

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٥/١٧٣ ـ بتصرف يسير ـ.

(٢) تفسير الجلالين مع حاشية الجمل: ٢/٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/٢٤٨.

موقف المشركين لما قدموا إلى بدر:

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف المشركين لما قدموا إلى بدر فقال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾[1].

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم ـ في بدر ـ: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا مما لا نعرفه فأحنه ـ أي أهلكه ـ الغداة. فكان المستفتح[2].

وعن السدي: أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أهدى الجندين، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين. فقال تعالى: ﴿**إن تستفتحوا...**﴾ الآية[3].

قال الراغب: وقوله: ﴿**إن تستفتحوا...**﴾ أي: إن طلبتم الظفر، أو طلبتم الفتح أي الحُكْمَ.. والفتح إزالة الإغلاق والإشكال ويقال فتح القضية فتاحاً. أي فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها.

قال تعالى: ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾ والاستفتاح: الاستنصار ـ أي طلب النصر ـ قال تعالى: ﴿**وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا...**﴾[4].

والراجح أن الخطاب في الآية للكافرين، وقال به الإمام ابن جرير وابن كثير، وبعض المفسرين قال: إن الخطاب للمؤمنين وهذا ضعيف

---

(١) سورة الأنفال، ١٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٥/ ٤٣١.

(٣) تفسير الطبري: ٩/٢٠٨.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٣٧٠ ـ بتصرف ـ.

والمعنى: إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر. وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتهكم الله بهم، وسمى ما حلّ بهم من الهلاك نصراً، ومعنى بقية الآية على هذا القول: ﴿وإن تنتهوا﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﷺ ﴿فهو﴾ أي الانتهاء ﴿خير لكم وإن تعودوا﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿نعد﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر ﴿ولن تغني عنكم فئتكم﴾ أي جماعتكم ﴿شيئاً ولو كثرت﴾ أي لا تغني عنكم حال من الأحوال ولو في حال كثرتها، ثم قال: ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ ومن كان الله معه فهو المنصور. ومن كان الله عليه فهو المخذول. قرىء بكسر إن وفتحها، فالكسر على الاستئناف، والفتح على تقدير: ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك، والذي قرأ بالفتح نافع وابن عامر وحفص عن عاصم، والباقون بالكسر[١]. .

موقف إبليس في المعركة:

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الشيطان كان يحث الكفار على قتال المؤمنين في بدر وكان يزين لهم البطر ويمنيهم، فإبليس وجنوده كانوا مع المشركين في بدر. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[٢].

قوله: ﴿تراءت الفئتان﴾ أي تقاربتا بحيث صارت كل فئة ترى الأخرى رؤية واضحة ومنهم من جعل «تراءت» بمعنى التقت.

وقوله: ﴿نكص على عقبيه﴾ أي ولى هارباً وراجعاً القهقرى.

---

(١) تفسير الشوكاني ـ بتصرف ـ: ٢/٢٩٧.
(٢) سورة الأنفال، ٤٨.

وأبطل كيده وذهب ما مناهم به من النصرة والعون يقال: نكص عن الأمر نكوصاً ونكصاً أي تراجع عنه وأحجم، والعقب: مؤخر القدم.

قال ابن جرير: وكان تزيينه ذلك لهم كما حدثني المثنى قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثني معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوه المشركين فولوا الأدبار، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه ـ وكانت يده مع يد رجل من المشركين ـ انتزع إبليس يده فولى مدبراً هو وشيعته.

فقال الرجل: يا سراقة تزعم أنك لنا جار؟ قال: **﴿إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب﴾** وذلك حين رأى الملائكة[١].

وذكر هذه القصة باختلاف يسير ابن إسحاق من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأيضاً روى هذه القصة الواقدي.

ضعف روايات تمثل الشيطان يوم بدر:

أما علي بن أبي طلحة فروايته عن ابن عباس أجود الروايات إلا أن المحدثين أجمعوا على أنه لم يسمع منه وإنما أخذه عن مجاهد وسعيد بن جبير ولا خلاف في كونهما من الثقات أئمة هذا الشأن لكن ابن عباس كان يوم بدر ابن خمس سنين فروايته لأخبارها منقطعة ولا يبعد أن تكون من الإسرائيليات[٢].

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/١٨.

(٢) تفسير المنار: ١٠/٢٩.

وأما الكلبي فروايته التفسير عن ابن عباس هي أوهى الروايات وأضعفها كما قال المحدثون.

ورواية الواقدي لا يعتمد عليها، فالواقدي غير ثقة في الرواية[1] وذكرت رواية الطبري للتنبيه على ضعفها.

وبعض المفسرين يرى أن التزيين كان غير حسي وإنما عن طريق الوسوسة[2]، لكن الذي نقول به ونؤمن به هو أن الشيطان كان له دور في المعركة أثبته القرآن، وأنه قد قال لهم ما قاله ـ مما حكاه القرآن عنه ـ وأنه نكص على عقبيه. . . إلا أننا لا نستطيع أن نحدد كيفية ذلك.

قال سيد قطب: «وفي هذا الحادث نص قرآني يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم وشجعهم على الخروج. . وأنه بعد ذلك نكص على عقبيه فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم. . .

ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم، والتي قال لهم بها: لا غالب لكم اليوم من الناس. . والتي نكص بها كذلك، الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها. ذلك أن أمر الشيطان كله غيب، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء من أمره إلا بنص قرآني أو حديث نبوي صحيح. والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث. . .»[3].

* * *

(١) تفسير المنار: ١٠/٢٩.
(٢) تفسير المنار: ١٠/٢٨.
(٣) تفسير الظلال: ٣/١٥٣١.

المبحث الثاني
وصف غزوة بدر

* وصف مكان المؤمنين ومكان الكافرين في أرض المعركة.
* استغاثة الرسول ﷺ والمؤمنين بالله قبل المعركة.
* تأييد الله عز وجل للمؤمنين بأمور منها:
  ١ ـ أمدهم بالملائكة.
  ٢ ـ أنزل عليهم النعاس والمطر.
  ٣ ـ تقليل عدد الكفار في عيون المؤمنين.
* بدء المعركة بالمبارزة وانتهاؤها بنصر المؤمنين.

وصف غزوة بدر

وصف مكان المؤمنين ومكان الكافرين في أرض المعركة:

بين القرآن الكريم في حديثه عن غزوة بدر الأماكن التي نزل فيها كل فريق وصور لنا ـ سبحانه ـ الحالة التي كان عليها الجيشان يوم اللقاء، فقد كان المسلمون بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة وكانت أرضه رخوة تغوص فيها الأقدام، ولم يكن هناك ماء، وكان الكفار بالجانب الآخر من الوادي ـ الأبعد ـ من المدينة وكانت أرضه ثابتة، وكان فيها الماء، وكان ركب العير الذي يقوده، أبو سفيان ﴿أسفل منكم﴾ بالقرب من ساحل البحر.

قال تعالى:

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال، ٤٢.

قوله: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا...﴾ بدل من قوله: ﴿يوم الفرقان...﴾ أو معمول لفعل محذوف، والتقدير: اذكروا.

والعدوة ـ مثلثة العين ـ جانب الوادي وحافته. وهي من العدو بمعنى التجاوز. سميت بذلك لأنها عدت ـ أي منعت ـ ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوزها[1].

قال ابن قتيبة: ﴿العدوة﴾ شَفِير الوادي. يقال: عُدْوَة الوادي وعِدْوته[2].

و ﴿الدنيا﴾: تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب، من دنا يدنو.

و ﴿القصوى﴾: تأنيث الأقصى بمعنى الأبعد، من قصا يقصو.

و ﴿الركب﴾: اسم جمع لراكب. وهم العشرة فصاعداً من راكبي الإبل.

قال القرطبي: «ولا تقول العرب: ركب إلا للجماعة الراكبي الإبل...»[3]؛ والمراد بالركب، أبو سفيان ومن معه حيث استطاع أن ينجو بقافلة قريش وسار بها عن طريق الساحل.

والمعنــى:

ذكَّر المولى عز وجل المؤمنين بنعمته عليهم فقال: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون وقت أن خرجتم من المدينة فسرتم حتى كنتم ﴿بالعدوة الدنيا﴾ أي بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة المنورة ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ أي والكفار بالجانب الأبعد الأقصى الذي هو بعيد بالنسبة للمدينة ﴿والركب أسفل منكم﴾ أي وعير أبي سفيان ومن فيها كانت أسفل

---

(١) التفسير الوسيط ـ سورة الأنفال ـ ص ١٣٤.
(٢) تفسير غريب القرآن: ص ١٧٩.
(٣) تفسير القرطبي: ٨/ ٢١.

منكم من ناحية ساحل البحر الأحمر على بعد ثلاثة أميال منكم.

قال الجمل: وقوله: ﴿والركب أسفل منكم﴾ الأحسن في هذه الواو، والواو التي قبلها الداخلة على «هم» أن تكون عاطفة على ما بعدها على «أنتم» لأنها مبدأ تقسيم أحوالهم وأحوال عدوهم.

ويجوز أن يكونا واوي حال، وأسفل منصوب على الظرف النائب، عن الخبر، وهو في الحقيقة صفة لظرف مكان محذوف، أي: والركب في مكان أسفل من مكانكم.

وكان الركب على ثلاثة أميال من بدر...»[1].

وقال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: «فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت، وذكر مراكز الفريقين، وأن العير كانت أسفل منهم؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة الشأن للعدو، وتكامل عدته، وتمهد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين، والتياث أمرهم، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله ـ سبحانه ـ، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته.

وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا، وهي خبار ـ أي أرض لينة رخوة ـ تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة.

وكانت العير وراء ظهور العدو، مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم، وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم، ليبعثهم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم، على بذل جهيداهم في القتال... وفيه تصوير ما دبر ـ سبحانه ـ من أمر غزوة

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/٢٤٦.

بدر، ليقضي أمراً كان مفعولاً من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وأقلق قريشاً ما بلغهم من تعرض المسلمين لأموالهم، فنفروا ليمنعوا عيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى وراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان»[1].

وقوله: ﴿**ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً**﴾ بيان لتدبير الله الحكيم، وإرادته النافذة أي ولو تواعدتم أنتم وهم التلاقي للقتال هناك لاختلفتم في الميعاد لكراهتكم للحرب على قلتكم وعدم إعدادكم شيئاً من العدة لها وانحصار همكم في أخذ العير، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال أيضاً لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ ولا يأمنون نصر الله له لأن كفر أكثرهم به كان عناداً أو استكباراً لا اعتقاداً... ﴿**ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً**﴾ أي ولكن تلاقيتم هنالك على غير موعد ولا رغبة في القتال ليقضي الله أمراً كان ثابتاً في علمه وحكمته أنه واقع لا بد منه وهو القتال المفضي إلى خزيهم ونصركم عليهم وإظهار دينه وصدق وعده لرسوله كما تقدم[2].

روى ابن جرير من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. وروى أيضاً عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة.

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ١٦٠.
(٢) تفسير الطبري: ١٠/ ١١.

قال: ونظر الناس بعضهم إلى بعض[1].

وقوله: ﴿ليهلِكَ مَنْ هَلَك عن بيِّنةٍ ويحيي من حَيَّ عن بينةٍ وإن الله لسميع عليم﴾.

﴿ليهلِكَ منْ هَلَك﴾... بدل من قوله «ليقضي» بإعادة الحرف، أو هو متعلق بقوله «مفعولاً»، والمراد بالهلاك والحياة هنا ما يشمل الحسي والمعنوي منهما.

والمراد بالبينة الحجة الظاهرة الدالة على حقيقة الإسلام وبطلان الكفر.

قال الآلوسي: أي: ليموت من يموت عن حجة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، فلا يبقى محل للتعلل بالأعداد، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة والحجج الغر المحجلة.

ويجوز أن يراد بالحياة: الإيمان، وبالموت: الكفر على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل وأن يراد بالبينة: إظهار كمال القدرة الدالة على الحجة الدامغة.

أي ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح وبينة. وإلى هذا ذهب قتادة وابن إسحاق. والظاهر أن «عن» هنا بمعنى بعد كقوله تعالى: ﴿عما قليل ليصبحن نادمين﴾[2].

وقوله: ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ تذييل قصد به الترغيب في الإيمان، والترهيب من الكفر، أي لا يخفى عليه شيء من أقوال أهل الإيمان عليم بما تنطوي عليه قلوبهم وضمائرهم، وسيجازي ـ سبحانه ـ كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب على حسب ما يعلم وما يسمع عنه.

---

(١) تفسير الآلوسي: ٧/١٠ ـ بتصرف ـ.
(٢) تفسير الآلوسي: ٧/١٠ بتصرف.

استغاثة الرسول ﷺ والمؤمنين بالله تعالى قبل المعركة:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[١].

قوله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ قال القرطبي: الاستغاثة، طلب الغوث والنصر. يقال: غوث الرجل أي: قال: واغوثاه والاسم الغوث والغُوَاث، والغَوَاث، واستغاثني فلان فأغثته، والاسم الغياث..[٢].

وقوله: ﴿مُمِدُّكُم﴾ من الإمداد بمعنى الزيادة والإعانة. وقد جرت عادة القرآن أن يستعمل الإمداد في الخير وأن يستعمل المد في الشر والذم.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾[٤].

قال الفخر الرازي: قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم «مُردَفين» بفتح الدال، وقرأ الباقون بكسرها. والمعنى بالكسر، أي متتابعين يأتي بعضهم في إثر البعض كالقوم الذين أردفوا على الدواب.

والمعنى على قراءة الفتح، أي فعل بهم ذلك ومعناه أن الله تعالى أردف المسلمين وأيدهم بهم[٥] - أي جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم -.

والمعنى: يذكِّر المولى عز وجل المؤمنين وقت أن كانوا ببدر قبل

---

(١) سورة الأنفال، ٩.
(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٧٠.
(٣) سورة الشعراء، من آية ١٣٢ إلى ١٣٤.
(٤) سورة البقرة، ١٥.
(٥) تفسير الفخر الرازي: ١٥/ ١٣٠.

المعركة واستغاثوا بالله عز وجل على عدوهم. أي: واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ وقت أن كنتم ببدر ﴿تستغيثون ربكم﴾ أي: تطلبون منه الفوز والنصر على عدوكم، ﴿فاستجاب لكم﴾ دعاءكم وأكرمكم بمدد من عنده حيث أمدكم بالملائكة مردفين وهذا فصل عظيم من الله فإن الله عز وجل لا يتخلى عن أوليائه الصادقين.

روى الإمام مسلم عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يده فجعل يهتف بربه، ويقول: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض)، فما زال ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، وأنزل الله ـ عز وجل ـ:

﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ الآية، فأمده الله بالملائكة[1].

وروى البخاري عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: (اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد). فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج ﷺ وهو يقول: (سيهزم الجمع ويولون الدبر)[2].

وروى ابن إسحاق: أنه ﷺ قال: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني)[3].

ومما يستفاد من قوله: ﴿تستغيثون﴾:

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد ـ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر: ٣/ ١٣٨٤.
(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قصة غزوة بدر: ٥/ ٩٣.
(٣) السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٤٠٤.

عبر ـ سبحانه ـ بالمضارع «تستغيثون» مع أن استغاثتهم كانت قبل نزول الآية ـ استحضاراً للحال الماضية ـ حتى يستمروا على شكرهم لله، ولذلك عطف عليه ﴿فاستجاب لكم﴾ بصيغة الماضي مسايرة للواقع.

وكان العطف بالفاء للإشعار بأن إجابة دعائهم كانت في أعقاب تضرعهم واستغاثتهم وأن استجابة الله لهم كانت سريعة وهذا من فضل الله عليهم.

والسين والتاء: في قوله: ﴿تستغيثون﴾ للطلب، أي تطلبون منه الغوث، بالنصر. وفي قوله: ﴿فاستجاب لكم﴾ فأجاب دعاءكم. والسين والتاء للمبالغة حيث إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

تأييد الله عز وجل للمؤمنين بأمور:

١ ــ أمدهم بالملائكــة

قوله: ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾.

بين ـ سبحانه ـ وتعالى أنه استجاب دعاء المؤمنين وأمدهم بألف من الملائكة، مردفين أي متتابعين يأتي بعضهم في إثر بعض.

فإن قيل: إن الله تعالى ذكر هنا أنه أمدهم بألف من الملائكة، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدهم بأكثر من ذلك فكيف الجمع بينهما؟ يجيبنا الإمام ابن القيم فيقول: قيل: اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي هو بخمسة على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم (أحد) وكان إمداداً مُعَلَّقاً على شرط، فلما فات شرطه فات الإمداد. وهذا قول الضحاك ومقاتل. وإحدى الروايتين عن عكرمة.

والثاني: أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والرواية الأخرى عن عكرمة واختاره جماعة من المفسرين، وحجة هؤلاء:

أن السياق يدل على ذلك فإنه سبحانه قال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1] إلى أن قال: ﴿وما جعله الله﴾ أي هذا الإمداد ﴿إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به﴾، قال هؤلاء: فلما استغاثوا، أمدهم بألف، ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف، لما صبروا واتقوا. وكان هذا التدرج، ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً، وأقوى لتقويتهم وأسر لها من أن يأتي مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي، ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق (أحد وإنما أدخل ذكر بدر) اعتراضاً في أثنائها.. الخ.. اهـ[2].

وهذا بناء على أن المدد الذي وعد الله به المؤمنين في آيات سورة آل عمران، كان خاصاً بغزوة بدر. أما على الرأي القائل بأن هذا المدد بتلك الآيات كان خاصاً بغزوة أحد فلا يكون هناك إشكال بين ما جاء في السورتين.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر فضله عليهم ورحمته لهم في هذا الإمداد فقال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[3].

والمعنى: أي لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضاً، وتتابعها بالمصير إليكم أيها المؤمنون مدداً لكم إلا بشرى لكم، أي بشارة لكم تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم **﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾** أي ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم وتوقن بنصر الله لكم **﴿وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم﴾** أي: أن الله الذي ينصركم وبيده نصر من يشاء من خلقه عزيز لا يقهره

---

(١) سورة آل عمران، ١٢٣، ١٢٤.
(٢) زاد المعاد: ٢/٢٢١.
(٣) سورة الأنفال، آية ١٠.

شيء، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه، لأنه خلقه (حكيم) في تدبيره ونصره من نصر، وخذلانه من خذل من خلقه، لا يدخل في تدبيره وهن ولا خلل[1]. وشبيه بهذه الآية قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم**﴾[2].

وقال تعالى في سورة آل عمران:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

قال ابن كثير: اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين:

أحدهما: أن قوله تعالى: ﴿**إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة..**﴾ متعلق بقول: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر**﴾ وهذا قول الحسن والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم.

فإن قيل: كيف يجمع بين هذه الآيات ـ التي في سورة آل عمران ـ وبين قوله في سورة الأنفال: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾.

فالجواب: أن التنصيص على الألف هنا، لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله تعالى: ﴿**مردفين**﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم.

---

(١) تفسير الطبري: ٩/١٩٣.
(٢) آية ١٢٦.

والقول الثاني: يرى أصحابه أن هذا الوعد ـ وهو قوله تعالى ـ: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾ متعلق بقوله ـ قبل ذلك ـ: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال. .﴾ وذلك يوم أحد. وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم لكن قالوا لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأنهم يومئذ فروا[1].

وذهب الإمام الطبري إلى أن هذا الوعد يوم بدر فقال: قوله تعالى: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ وذلك يوم بدر[2] وإليه ذهب القرطبي[3] وهو الذي عليه جمهور المفسرين[4].

ومعنى: ﴿من فورهم﴾ من وجههم، وأصل الفور القصد إلى الشيء والأخذ فيه بجدّ[5].

وقال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿من فورهم هذا﴾ من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت به الحالة التي لا ريب فيها، فقيل: خرج من فوره كما تقول: خرج من ساعته لم يلبث، والمعنى: أنهم يأتوكم من ساعتهم هذه[6]. .

وقوله: ﴿مُسَوَّمِين﴾ بفتح الواو اسم مفعول، وهي قراءة ابن عامر وحمزة، والكسائي، ونافع، أي معلمّين بعلامات، و ﴿مسوِّمين﴾ بكسر الواو اسم فاعل وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير وعاصم، فيحتمل من المعنى

---

(١) تفسير ابن كثير: بتصرف وتلخيص ١/ ٤٠١.
(٢) تفسير الطبري: ٤/ ٧٦.
(٣) انظر تفسير القرطبي: ٤/ ١٩٤.
(٤) انظر تفسير الرازي: ٨/ ٢١١.
(٥) انظر تفسير القرطبي: بتصرف ٤/ ١٩٥.
(٦) تفسير الكشاف: بتصرف ١/ ٤٦٢.

ما تقدم، أي قد أعلموا أنفسهم بعلامة، وأعلموا خيلهم[1].

هذا وقد تكلم العلماء في أمرين يتعلقان بهذه الآيات.

أما الأمر الأول: فهو: هل أمد الله تعالى المؤمنين في غزوة بدر بهذا العدد الذي ذكر في هذه الآية؟.

وأما الأمر الثاني: فهو: إذا كان الله تعالى قد أمد المؤمنين بالملائكة في بدر، فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين أو كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط.

أما الأمر الأول فقد اختلف المفسرون في عدد الملائكة في بدر على خمسة أقوال، ذكرها ابن الجوزي فقال:

أحدهما: خمسة آلاف، قاله الحسن. وروى جبير بن مطعم عن علي رضي الله عنه قال: بينما أنا أفتح مع قليب بدر، جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها، فكانت الريح الأولى جبريل نزل في ألفين من الملائكة، وكان مع رسول الله ﷺ، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألفين من الملائكة عن يمين رسول الله، وكانت الريح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله، وكنت عن يساره، وهزم الله أعداءه.

والثاني: أربعة آلاف، قاله الشعبي.

والثالث: ألف، قاله مجاهد.

والرابع: تسعة آلاف، ذكره الزجاج.

والخامس: ثمانية آلاف، ذكره بعض المفسرين[2]. وأخرج الطبري

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩٦/٤.

(٢) زاد المسير: ٤٥٤/١.

بسنده عن قتادة قال: أمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة[1]. وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف[2].

واختار الطبري: أنهم وعدوا بالمدد بعد الألف، ولا دلالة في الآيات على أنهم أمدوا بما زاد على ذلك، ولا على أنهم لم يمدوا، ولا يثبت شيء من ذلك إلا بنص[3].

ونوضح الآن ما هي وظيفة الملائكة في بدر وهل شاركت في القتال أم لا؟.

اختلف المفسرون هل شاركت الملائكة في القتال يوم بدر أم كانت وظيفتها فقط تثبيت المؤمنين.

والذي أقرره في بداية البحث بأن الملائكة قاتلت يوم بدر حيث باشرت القتال مع المؤمنين وسأوضح رأي الفريقين وبالله التوفيق.

الفريق الأول: ذهب أصحابه إلى أن الملائكة في غزوة بدر لم تكن وظيفتهم التثبيت فحسب، وإنما هم قاتلوا مع المؤمنين فعلاً، واستدلوا على ذلك بأدلة من أهمها:

١ ـ ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من طريق عكرمة بن عمار، عن أبي زميل، عن ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يُشْنِد[4] في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة السوط فوقه، وصوت الفارس: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو خُطم أنفه وشُقّ وجهه كضربة السوط، فأخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ٧٨.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠١.
(٣) تفسير الطبري: / ٧٩.
(٤) في رواية: يشتد.

بذاك رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: (صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة)[1].

٢ ـ وجاء أيضاً عن عبد الله بن عباس أنه قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً قد أرسلوها في ظهورهم ويوم حنين عمائم حمراً، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا فيما سواه عدداً ومدداً لا يضربون[2].

٣ ـ وعن أبي داود المازني قال: تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر، فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي. فعرفت أن قد قتله غيري[3].

٤ ـ وروي عن عبد الله بن مسعود أن أبا جهل سأله يوم بدر: من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمعه ولا نرى شخصاً؟ فقال: من الملائكة فقال له أبو جهل: هم إذن غلبونا لا أنتم[4]. . .

٥ ـ وقال القرطبي: وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت، ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدراً: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب ـ أي الطريق في الجبل ـ الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أمتري[5].

وعن سهيل بن حنيف قال: لقد رأيتنا يوم بدر وأن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه[6].

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر: ٣/ ١٣٨٣.
(٢) انظر الدر المنثور في التفسير المأثور: ٢/ ٣٠٩.
(٣) رواه الإمام الطبري بسنده، انظر تفسير الطبري: ٤/ ٧٧.
(٤) تفسير الكشاف: ٢/ ١٤٥، وانظر تفسير الرازي: ١٥/ ١٣٠.
(٥) تفسير القرطبي: ٤/ ١٩٢، ١٩٣.
(٦) تفسير القرطبي: ٤/ ١٩٤.

فهذه أهم الروايات التي استند إليها العلماء الذين يرون أن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين وعلى رأس هؤلاء الإمام القرطبي، فهو يرى أن هذا هو الصحيح وأنه رأي الجمهور.

أما **الفريق الثاني**: يرى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين في المعركة، وتقوية أرواحهم وقلوبهم واستدلوا على ذلك بأدلة من أهمها:

١ ــ أنه ليس في الآيات القرآنية التي تحدثت عن غزوة بدر آية واحدة صريحة في أن الملائكة قد قاتلت بالفعل، وإنما هي صريحة في أن الله تعالى قد أمد المؤمنين بالملائكة، وجعل هذا الإمداد بشارة لهم.

قال الآلوسي، عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾** وفي الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالاً. وهو مذهب لبعضهم.

ويشعر ظاهرها بأن النبي ﷺ أخبرهم بذلك الإمداد، وفي الأخبار ما يؤيده بل جاء في غير ما خَبَرٍ أن الصحابة رأوا الملائكة ـ عليهم السلام[١] ـ.

ويرد عليهم: قال الفراء: قوله تعالى: **﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾** ـ الضمير، أي: في جعله ـ عائد إلى الإرداف، والتقدير: ما جعل الله الإرداف إلا بشرى، وقال الزجاج: ما جعل الله المردفين إلا بشرى، وسياق الآية الكريمة يوحي بترجيح رأي الفراء لاتساقه مع سياق الآية[٢].

٢ ــ استدلوا بقوله تعالى: **﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكةِ أني معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ، فاضربوا فوقَ الأعناق**

---

(١) تفسير الآلوسي: ٩/ ١٧٤.
(٢) تفسير الرازي: ١٥/ ١٣١.

واضربوا منهم كل بنانٍ﴾.

قالوا[1]: إن هذه الآية قد وضحت وظيفة الملائكة توضيحاً تاماً.

فقال ابن جرير: في معنى: ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ قووا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال أعدائهم من المشركين...

وقال في معنى قوله تعالى: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين معلماً إياهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف، أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل[2].

وقال الفخر الرازي: قوله: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ فيه وجهان:

الأول: أنه أمر للملائكة متصل بقوله تعالى: ﴿فثبتوا﴾، وقيل: بل أمر للمؤمنين. وهذا هو الأصح لما بينا أنه تعالى ما أنزل الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة[3]..

ونرد على استدلال الإمام الطبري فنقول: ما ذكره الإمام الطبري هو أحد التفسيرين للآية حيث قيل: إن المراد بالخطاب في ﴿فاضربوا﴾ الملائكة، قال ابن الجوزي: في المخاطب بهذه الآية قولان:

أحدهما: أنهم الملائكة، قال ابن الأنباري: لم تعلم الملائكة أين تقصد بالضرب من الناس، فعلمهم الله تعالى ذلك.

والثاني: أنهم المؤمنون ذكره جماعة من المفسرين[4]، ثم إن الآية بدأت بخطاب الملائكة: ﴿أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾.

---

(١) هم ابن جرير، والإمام الرازي، وغيرهم.
(٢) تفسير ابن جرير: ٩/ ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٣) تفسير الرازي: ١٥/ ١٣٥.
(٤) زاد المسير: ٣/ ٣٢٩.

والقول بأن الخطاب في قوله: ﴿فاضربوا﴾ للمؤمنين تشتيت للضمائر في الآية[١].

٣ ـ قالوا لا يمكن أن يكون ذلك لأن الملك الواحد يكفي لإهلاك أهل الأرض جميعاً ولذا فقد استبعد كثير من العلماء اشتراك الملائكة في القتال، ومن هؤلاء العلماء أبو بكر الأصم فقد قال:

«إن الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط. فإذا حضر هو يوم بدر ـ وجميع الروايات تذكر أنه كان على رأس الملائكة ـ فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار؟ بل أي حاجة حينئذ إلى إرسال سائر الملائكة؟ وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين. وقتال كل منهم من الصحابة معلوم. وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا... وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر، ولم يقل أحد بذلك، وعلى الثاني كان يلزم حز الرؤوس، وتمزيق البطون، وإسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل، ومثل هذا من أعظم المعجزات، فكان يجب أن يتوافر ويشتهر بين المسلم والكافر والموافق والمخالف...»[٢].

وأحسن رد على أبي بكر الأصم هو ما أشار إليه الإمام السبكي في جواب سؤاله عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل عليه السلام قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقال: ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ ولأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة الجيوش، ورعاية لصورة الأسباب وسننها التي أجراها الله في عباده، والله فاعل الجميع.

قال الشيخ محمد صادق عرجون: رأي السبكي في قتال الملائكة بصور بشرية، هو أحسن ما ينبغي أن يقال[٣].

---

(١) محمد رسول الله ﷺ: ٣/٤٠٧.
(٢) تفسير المنار: ٤/١١٣.
(٣) محمد رسول الله ﷺ: ٣/٤٠٨.

وأيضاً نزول الملائكة مدداً للرسول ﷺ الحكمة منه بيان فضل النبي ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل حيث لم تنزل الملائكة مدداً إلا لنبينا محمد ﷺ[1].

٢ ـ إنزال النعاس والمطر عليهم

ومن المنن التي منّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدر أنه أنزل عليهم النعاس والمطر وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم فقال:

﴿إذ يغشيكمُ النعاسَ أمنةً منه، وينزِلُ عليكم من السماءِ ماءً ليطهركم به ويُذهبَ عنكُم رِجزَ الشيطانِ، وليربطَ على قلوبكُم، ويثبتَ بِهِ الأقدام﴾.

والغشي والغشيان كون الشيء غاشياً أي عاماً ومغطياً فالنوم يغطي العقل والنعاس النوم غير الثقيل، وهو مثل السِنة[2].

والأمنة: مصدر بمعنى الأمن، وهو طمأنينة القلب وزوال الخوف.

وقال سليمان الجمل في قوله: **﴿إذ يغشيكم النعاس﴾** ثلاث قراءات سبعية:

الأولى: يغشاكم كيلقاكم، من غشيه إذا أتاه وأصابه. وفي المصباح: غشيه أغشاه من باب تعب بمعنى أتيته. وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير.

الثانية: يغْشِيكم ـ بإسكان الغين وكسر الشين ـ من أغشاه، أي: أنزله بكم وأوقعه عليكم ـ وهي قراءة نافع.

الثالثة: يغَشِّيكم ـ بتشديد الشين وفتح الغين ـ وهي قراءة الباقين، من غشاه تغشية بمعنى غطاه، أي: يغشيكم الله النعاس، أي يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم. والنعاس على القراءة الأولى مرفوع على الفاعلية

---

(١) سيأتي قول الزمخشري بالتفصيل صفحة (١٣٩) من هذا الكتاب.

(٢) تفسير التنوير والتحرير: ٩/٢٧٨.

وعلى القراءتين الأخرتين منصوب على المفعولية. وقوله: ﴿أمنةً﴾ حال أو مفعول لأجله[1]...

وقال القرطبي: «وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكان الله ربط جأشهم».

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، سوى رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي حتى أصبح. وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أنِ أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: الأمن منيم، والخوف مسهر[2].

والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون حين أكرمكم الله فألقى عليكم النعاس وغشاكم به، فكان أماناً لقلوبكم وراحة لأبدانكم وبشارة خيرٍ لكم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[3].

يبين ـ سبحانه وتعالى ـ أنه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم في وقت لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار وذلك فضلاً منه وكرماً، وإسناد هذا الإنزال

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/ ٢٣٠ ـ بتصرف يسير ـ.
(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٧٢.
(٣) سورة الأنفال، آية ١١.

إلى الله للتنبيه على أنه أكرمهم به.

قال الإمام الرازي: «وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنباً، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا جرم عدّ تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه..»[1].

وقوله تعالى: ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾.

قال الراغب: أصل الرجز: الاضطراب، ومنه قيل: رجز البعير رجزاً فهو أرجز، وناقة رجزاءُ إذا تقارب خطوها واضطرب لضعفٍ فيها[2]...

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ، يعني حين سار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دِعْصَةٌ - أي كثيرة مجتمعة - فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم[3].

وفي هذا دليل على أذية الشيطان للمؤمنين، والمراد برجز الشيطان في الآية الكريمة وسوسته للمؤمنين، وتخويفه إياهم من العطش وغيره عند فقدهم الماء، وإلقائه الظنون السيئة في قلوبهم..

وقوله تعالى: ﴿وليربط على قلوبكم﴾.

أصل الربط: الشد، ويقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه عليه، أي

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٥/ ١٣٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص ١٨٧.

(٣) تفسير الطبري: ٩/ ١٩٥.

حبس قلبه عن أن يضطرب أو يتزعزع ومنه قولهم: رجل رابط الجأش، أي ثابت متمكن. وقول الله تعالى: ﴿**ويثبت به الأقدام**﴾.

عن عروة بن الزبير قال: «بعث الله السماء وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه»[1].

والمعنـــى:

بين ـ سبحانه ـ أنه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة فتطهروا به حسياً ومعنوياً إذ ربط الله به على قلوبهم وثبت به أقدامهم، وذلك أن الناظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالاً متحركة لا زالت إلى اليوم ومن العسير المشي عليها، ولها غبار كبير، فلما نزلت الأمطار تماسكت تلك الرمال وسهل السير عليها وانطفأ غبارها وكل ذلك كان نعمة من الله على عباده المؤمنين.

٣ ــ تقليل عدد الكفار في عيون المؤمنين

قال تعالى:

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً وأخبر أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم[3].

وقوله: ﴿**ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر**﴾ أي ولو أراك

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩٢.
(٢) سورة الأنفال، آية ٤٣.
(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣١٥.

الأعـداء عـدداً كثيـراً ﴿لفشلتـم﴾ أي لتهيبتـم الإقـدام عليهـم لكثـرة عَـددهـم وعُددهم، من الفشل وهو ضعف مع جبن.

﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ أي في أمر الإقدام عليهم والإحجام عنهم فمنكم من يرى هذا ومنكم من يرى ذلك.

وقوله: ﴿ولكن الله سَلَّمَ﴾ بيان لمحل النعمة.

والمعـــنى:

لكن الله سلمكم يا معشر المؤمنين من الفشل والتنازع وذلك أنكم بسبب رؤيا نبيكم رزقكم الجرأة في القتال وعدم المبالاة بالأعداء فضلاً منه ـ سبحانه ـ وفي الآية دليل على كمال عناية الله بالمؤمنين، وختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾.

وقال تعالى:

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾[1].

وقوله:

﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم...﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً..﴾ وذلك لتأكيد الرؤيا المنامية بالرؤية البصرية في اليقظة.

والخطاب في هذه الآية للرسول ﷺ والمؤمنين، أي وفي الوقت الذي يريكم الله الكافرين عند التلاقي معهم عدداً قليلاً، وهم كثير عددهم ويقلل المؤمنين في أعينهم، ليتركوا الاستعداد لهم فيهون على المؤمنين شوكتهم.

---

(١) سورة الأنفال، آية ٤٤.

قال ابن مسعود وهو ممن حضر بدراً: «لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً...»(١).

وقال أبو جهل في ذلك اليوم وقبل الالتحام: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور ـ أي قليل يشبعهم لحم ناقة واحدة ـ خذوهم أخذاً واربطوهم بالحبال...... فلما أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعينهم فكثروا كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾(٢)...

وقال ابن كثير: «ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه وذلك عند المواجهة فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعيفاً كما قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾(٣).

وهذا هو الجمع بين الآيتين فإن كلاً منهما حق وصدق ولله الحمد والمنة»(٤).

وقال الزمخشري قوله: ﴿وإذ يريكموهم﴾ الضميران مفعولان. يعني وإذ يبصركم إياهم، و ﴿قليلاً﴾ حال وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعاينوا ما أخذهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا....

فإن قلت: الغرض من تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر، فما

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/١٣.
(٢) تفسير القرطبي: ٨/٢٣.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٣.
(٤) تفسير ابن كثير: ٢/٣١٥.

الغرض من تقليل المؤمنين في أعينهم؟.

قلت: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثرهم فيها بعده، ليجترئوا عليهم، قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيهنوا ويهابوا، وتقل شوكتهم، حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، وذلك قوله: **﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأي العين..﴾**.

ولئلا يستعدوا لهم، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أولاً، وكثرتهم آخراً[1].

وقوله: **﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾**.

قال الطبري: «يقول جل ثناؤه: قللتكم أيها المؤمنون في أعين المشركين، وأريتكموهم في أعينكم قليلاً حتى يقضي الله بينكم ما قضى من قتال بعضكم بعضاً.

وإظهاركم أيها المؤمنون على أعدائكم من المشركين والظفر بهم لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى وذلك أمر كان الله فاعله وبالغاً فيه أمره.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾.

يقول جلّ ثناؤه: مصير الأمور كلها إليه في الآخرة، فيجازي أهلها على قدر استحقاقهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته[2].

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/١٦١.

(٢) تفسير الطبري: ١٠/ص ١٤.

بدء المعركة بالمبارزة وانتهاؤها بنصر المؤمنين

قوله تعالى:

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

سبب النزول:

١ ــ أخرج الإمام البخاري بسنده عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة».

وقال قيس بن عباد وفيهم أنزلت: **﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾** قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر، حمزة وعلي وعبيدة أو عبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة[2].

٢ ــ وأخرج الإمام البخاري أيضاً بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «نزلت: **﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾** في ستة من قريش: علي وحمزة وعبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة[3].

٣ ــ وأخرج الإمام البخاري بسنده أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية: **﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾**[4].

٤ ــ وأخرج الإمام البخاري أيضاً بسنده عن قيس بن عباد «سمعت أبا ذر

---

(١) سورة الحج، آية ١٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي ـ باب قتل أبي جهل: ٥/ ٩٥، وفتح الباري: ٧/ ٢٩٦.

(٣) المصدر نفسه: ٥/ ٩٥.

(٤) المصدر نفسه: ٥/ ٩٥ ـ ٩٦، وفتح الباري: ٧/ ٢٩٧.

رضي الله عنه يقسم لنزلت هذه الآيات في هؤلاء الرهط الستة يوم بدر.. نحوه»[١].

٥ ــ قال ابن عباس أنها نزلت في أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون نبينا، ثم كفرتم به حسداً، فنزلت هذه الآية[٢].

وذهب إليه قتادة[٣] والروايات التي ذكرها البخاري أصح ونأخذ بها في سبب نزول هذه الآية[٤]، أما ما ذكره ابن عباس وذهب إليه قتادة فهي سبب لنزول آية أخرى ذكرها الطبري بسنده عن قتادة نفسه وهي:

عن قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: **﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به..﴾** إلى قوله: **﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾** فأفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[٥].

قوله: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾.

يعني فريق المؤمنين وفريق الكافرين، **﴿اختصموا في ربهم﴾** أي في دينه وعبادته[٦].

---

(١) صحيح البخاري: ٥/٩٦، وانظر سبب النزول للواحدي، بتحقيق سيد صقر: ص ٣١٨.

(٢) زاد المسير، تفسير سورة الحج: ٥/٤١٦.

(٣) تفسير القرطبي: ١٢/٢٥.

(٤) وهو قول القرطبي، انظر تفسير القرطبي: ١٢/٢٥.

(٥) تفسير الطبري: . تفسير سورة النساء: ٥/٢٨٨.

(٦) تفسير القاسمي: ١٢/١٥ بتصرف.

ثم ذكر مآل كل فريق وما يلقاه من الجزاء بعد الفصل بينهما، وذكر من جزاء الكافرين في هذه الآية أمرين: ﴿**فالذين كفروا قطعت لهم ثيابٌ من نارٍ يصب من فوق رؤوسهم الحميم**﴾.

قال القرطبي: وقوله: ﴿**فالذين كفروا**﴾ يعني من الفريق الذين تقدّم ذكرهم قبل هذه الآية، ﴿**قطعت لهم ثيابٌ من نارٍ**﴾ أي خيطت وسُوِّيت، وشبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب.

وقوله: ﴿**قطعت**﴾ أي تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار، وذكر بلفظ الماضي لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق: ﴿**يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم**﴾ أي الماء الحار المُغَلّى بنار جهنم[1].

* * *

المبحث الثالث
نتائج غزوة بدر

* **المطلب الأول: نصر الله للمؤمنين في غزوة بدر.**

* **المطلب الثاني: غنائم غزوة بدر.**

* **المطلب الثالث: أسرى غزوة بدر.**

المطلب الأول
نصر الله للمؤمنين في غزوة بدر

١ ــ بيان أن حقيقة النصر في بدر كان من الله تعالى:

امتن الله سبحانه وتعالى على المؤمنين فذكرهم بنصره لهم في غزوة بدر

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/٢٦، ٢٧.

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[1].

وبدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار ـ ساحل البحر ـ ليلة، ويقال: إنه ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر من كنانة وقيل: بل هو رجل من بني ضمرة سكن هذا الموضع فنسب إليه ثم غلب اسمه عليه[2]...

وسميت الغزوة باسم المكان الذي وقعت فيه المعركة.

والأذلة: جمع قلة، قال الزمخشري: وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال، وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلا فرس واحد. وقلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان عدوهم في حالة كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس[3].

وقوله: ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي فاتقوا ربكم بطاعته، واجتناب محارمه ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لعلكم تشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضلّ عنه مخالفوكم[4].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن النصر لا يكون إلا من عند الله فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ

(١) سورة آل عمران، آية ١٢٣.
(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي: ١/ ٣٥٧.
(٣) تفسير الكشاف: ١/ ٤٦١.
(٤) تفسير الطبري: ٤/ ٧٤.
(٥) سورة آل عمران، آية ١٢٦.

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

في هاتين الآيتين تأكيد على أن النصر لا يكون إلا من عند الله - عز وجل - والمعنى ليس النصر إلا من عند الله دون غيره، و ﴿العزيز﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام[2]، و ﴿الحكيم﴾ أي الحكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى[3].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون لكن يجب أن لا يغتروا بها وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب والوسائل حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه.

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على المؤمنين وأن النصر الذي كان في بدر وأن قتلهم للمشركين، ورمي النبي ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة هو بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته، وبهذه الآية الكريمة يربي القرآن المسلمين ويُعلّمهم الاعتماد عليه فقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾[4].

روى علي بن طلحة عن ابن عباس قوله: رفع رسول الله ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال: (يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً)، فقال جبريل: «خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم» فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه

---

(١) سورة الأنفال، آية ١٠.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠٢.
(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩١.
(٤) سورة الأنفال، آية ١٧.

ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين[1].

وقال القرطبي: قوله تعالى: **﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾**، أي يوم بدر.

روي أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال: قتلت كذا، وأسرت كذا، فجاء ذلك تفاخراً ونحو ذلك. فنزلت الآية إعلاماً بأن الله هو المميت والمقدر لجميع الأشياء، وأن العبد، إنما يشارك بتكسبه وقصده[2]...

ومعنى قوله تعالى: **﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾** أي ليس بحولكم وقوتكم، قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي بل الله هو الذي أظفركم عليهم وأيديكم بنصره.

وقوله: **﴿وما رميت إذ رميت﴾** إشارة إلى قبضة التراب التي حصّب بها النبي ﷺ وجوه الكافرين يوم بدر، والمراد أن الله هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت[3]...

وقوله: **﴿وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾**.

﴿ليبلي﴾: من البلاء بمعنى الاختبار... وهو يكون بالنعمة لإظهار الشكر، كما يكون بالمحنة لإظهار الصبر.

والمعـــنى:

ولكي يُحسِنَ ـ سبحانه وتعالى ـ إلى عباده المؤمنين، وينعم عليهم بالنصر والغنائم، ليزدادوا شكراً له فعل ما فعل من خذلان الكافرين وإذلالهم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩٥.
(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٨٤.
(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩٥.

وقوله: ﴿إن الله سميع عليم﴾.

أي سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب[1].

٢ ـ بيان بعض الحِكَم من نصر المؤمنين في بدر:

لما بين ـ سبحانه ـ بأن النصر في بدر كان من عنده بين هنا بعض الحِكَم من ذلك النصر.

فقال تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[2].

وقوله: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ متعلق بقوله: ﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلة..﴾[3].

والقطع كما يقول الراغب: فصل الشيء مُدْرَكاً بالبصر كالأجسام، أو مدركاً بالبصيرة كالأشياء المعقولة[4]...

والمراد به هنا الإهلاك والقتل.

والطرف: ـ بفتح الراء ـ جانب الشيء. قال الراغب: طرف الشيء جانبهُ، وقوله: ﴿ليقطع طرفاً﴾ فتخصيص قطع الطرف من حيث إنّ تنقيص طرف الشيء يتوصل به إلى توهينه وإزالته[5].

والمراد به هنا طائفة من المشركين.

والكبت في اللغة: الصرف والإذلال، يقال: كبت الله العدو، أي صرفه

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٢٩٦.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٣) تفسير الشوكاني: ٢/٣٧٨.
(٤) المفردات في غريب القرآن: ص ٤٠٨.
(٥) المفردات في غريب القرآن: ص ٣٠٢.

وأذله من باب ضرب، وكَبَتَه لِوَجْهِهِ أي صَرَعَه[1].

ومعنى: ﴿أو يكبتهم﴾ يصيبهم بغمّ وكمد[2].

وخائبين: من الخيبة وهي انقطاع الأمل في الحصول على الشيء، يقال: خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب.

وقوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، أي ليس لك من أمر الناس شيء، وإنما أمرهم إلى الله وحده، أما أنت فوظيفتك التبليغ والإرشاد ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

والمعـــنى:

نصركم الله ـ أيها المؤمنون ـ في بدر ليهلك طائفة من الذين كفروا بالقتل والأسر، أو يذلهم بالهزيمة، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم في الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم، وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت رسول من عند الله تعالى مأمور بإنذارهم وجهادهم.

٣ ـــ ثم أمر ـ سبحانه ـ المؤمنين أن يتذكروا دائماً تلك النعمة العظيمة، نعمة النصر في بدر، ويستحضروا في أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل هذا النصر.

فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3].

قوله تعالى: ﴿واذكروا﴾ أي يا معشر المؤمنين.

---

(١) مختار الصحاح: ص ٥٦٠.

(٢) تفسير التنوير والتحرير: ٧٩/٤.

(٣) سورة الأنفال، آية ٢٦.

والمراد بالتذكر أن ينتبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى نعم الله، وأن يداوموا على شكرها حتى يزيدهم سبحانه من فضله.

و ﴿إذ﴾ ظرف بمعنى وقت، و ﴿أنتم﴾ مبتدأ، أخبر عنه بثلاثة أخبار وهي «قليل، ومستضعفون، وتخافون».

والمراد بـ ﴿الناس﴾: كفار قريش، والمراد بقوله: ﴿فأواكم﴾ أي إلى المدينة المنورة، وقوله: ﴿وأيدكم بنصره﴾ في غزوة بدر.

والمعنى الإجمالي:

يقول ابن كثير: ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم.

وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي، ورومي كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن لهم في الهجرة إلى المدينة المنورة، فآواهم إليها وقيض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره[١].

وقوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾ تذييل قصد به حضهم على مداومة الشكر والطاعة لله عز وجل.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٠٠.

٤ ـ أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾

قوله تعالى: ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدُّبُرَ * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾.

هذه الآيات الثلاثة من سورة القمر، وسورة القمر عند الجمهور مكية[1].

بعض الروايات التي جاءت في هذه الآيات:

١ ـ روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لقد أنزل على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعبُ: ﴿بل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمر﴾[2].

٢ ـ وروى البخاري بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: (أنشدك عهدك ووعدك. اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً)، فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك ـ وهو يثب في الدرع ـ فخرج وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾[3].

٣ ـ وأخرج الإمام الطبري بسنده عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت: ﴿سيهزم الجمع﴾ جعلت أقول: أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت

---

(١) تفسير القرطبي: سورة القمر: ١٧/ ١٢٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير ـ باب قوله: ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾: ٦/ ١٧٩، وفتح الباري: ٨/ ٦١٩.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير، باب قوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ ٦/ ١٧٩، فتح الباري: ٨/ ٦١٩.

النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[1].

٤ ــ قال القرطبي: عن ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين، فالآية على هذا مكية[2]. وقال القرطبي: وهذا من معجزات النبي ﷺ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر[3].

وقوله: ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ إن كانوا صرحوا بذلك فظاهر، وإن لم يصرحوا فهو إنباء بأنهم سيقولونه.

و ﴿جميع﴾ اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، وليس هو بمعنى الإحاطة.

والمعـــنى:

بل أيدعون أنهم يغالبون محمداً ﷺ وأصحابه وأنهم غالبوهم لأنهم جميع لا يغلبون[4].

و ﴿منتصر﴾ وصف جمع، جاء بالإفراد مراعاة للفظ: «جميع» وإن كان معناه متعدداً.

وقوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ جواب عن قولهم: ﴿نحن جميع منتصر﴾ فلذلك لم تعطف الجملة التي قبلها.

وهذه بشارة للنبي ﷺ بذلك.

و الهزم: الغلب، والسين لتقريب المستقبل، وبني الفعل للمجهول

---

(١) تفسير الطبري ـ سورة القمر: ١٠٨/٢٧.
(٢) تفسير القرطبي ـ سورة القمر: ١٤٦/١٧.
(٣) تفسير القرطبي، سورة القمر: ١٤٦/١٧.
(٤) تفسير التنوير والتحرير: ٢١٢/٢٧ ـ بتصرف يسير.

لظهور أن الهازم المسلمون.

و ﴿الدبر﴾: الظهر وهو ما أدبر، أي كان وراء، وعكسه القبل. والآية إخبار بالغيب، فإن المشركين هزموا يوم بدر، وولوا الأدبار يومئذ[١].

وقوله: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ يريد القيامة، ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ أي أدهى وأمر مما لحقهم يوم بدر.

و ﴿أدهى﴾: وهي الأمر العظيم، يقال: دهاه أمر كذا، أي أصابه دهواً، ودهياً.

وقال ابن السكيت: دهته داهية دهواء ودهياء وهي توكيد لها[٢].

المطلب الثاني
غنائم غزوة بدر

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ ﴾[٣].

أسباب النزول:

١ ـ روى الإمام مسلم في صحيحه عن مصعب بن سعد، عن أبيه (سعد بن أبي وقاص) قال: أخذ أبي من الخمس سيفاً. فأتى به النبي ﷺ فقال: هب لي هذا، فأبى. فأنزل الله عز وجل: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول..﴾[٤].

---

(١) التنوير والتحرير: ٢٧/٢١٣ ـ بتصرف يسير.

(٢) تفسير القرطبي: ١٧/١٤٦.

(٣) سورة الأنفال، آية ١.

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب الأنفال: ٣/ ١٣٦٧.

٢ ـــ وروى مسلم أيضاً عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: نزلت فيّ أربع آيات[١] أصبت سيفاً فأتيت به النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله نفلنيه. فقال: (ضعه)، ثم قام فقال له ﷺ: (ضعه من حيث أخذته). ثم قام فقال: نفلنيه يا رسول الله، فقال: (ضعه)، فقام فقال: يا رسول الله نفلنيه. أأجعل كمن لا غناء له؟ فقال له النبي ﷺ: (ضعه من حيث أخذته)، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول..**﴾[٢].

٣ ـــ روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون فأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حوّيناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾ فقسمها رسول الله ﷺ على فواق بين المسلمين[٣]...

٤ ـــ روى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: (من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا)، قال: فتقدم الفتيان ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها، فلما فتح الله عليهم قال المشيخة: كنا ردْءاً لكم، لو انهزمتم لَفِئْتُم إلينا فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى فأبى

---

(١) (أربع آيات) لم يذكر هنا من الأربعة إلا هذه الواحدة، وقد ذكر مسلم الأربع بعد هذا في كتاب الفضائل، وهي: بر الوالدين، وتحريم الخمر، ولا تطرد الذين يدعون ربهم، وآية الأنفال.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الأنفال: ٣/ ١٣٦٧.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٥/ ٣٢٤، وانظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٨٣.

الفتيان وقالوا جعله رسول الله ﷺ لنا فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول﴾ . . الحديث[1].

٥ ــ وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مسلمة، عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تبارك وتعالى من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ فينا عن بواء أي على سواء . .[2].

٦ ــ وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة فأتيت به نبي الله ﷺ قال: (اذهب فاطرحه في القبض)، قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ: (اذهب فخذ سيفك)[3] . . .

تفسير الآية الكريمة

الضمير الأول المرفوع في الآية وهو الواو في قوله: ﴿يسألونك﴾ يعود إلى بعض الصحابة الذين اشتركوا في غزوة بدر وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر، لأن السورة نزلت في هذه الغزوة، ولأن هؤلاء الذين

---

(١) رواه أبو داود ـ كتاب الجهاد ـ باب النفل: ٣/ ١٧٥، رقم الحديث ٢٧٣٧، وانظر جامع الأصول: ٨/ ٣٠٦.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٥/ ٣٢٢، انظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٨٣.

(٣) مسند الإمام أحمد: ١/ ١٨٠، انظر أسباب النزول للواحدي: ص ٢٢٧، وأسباب النزول للسيوطي: ص ١٠٦.

اشتركوا فيها هم الذين يهمهم حكمها ويعنيهم العلم بكيفية قسمتها.

قال الإمام الرازي ـ ما ملخصه ـ: فإن قيل من الذين سألوا؟ فالجواب قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ إخبار عمن لم يسبق ذكرهم وحسن ذلك ههنا، لأنه في حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلوماً معيناً فانصرف اللفظ إليهم.

ولا شك أنهم كانوا أقواماً لهم تعلق بالغنائم والأنفال، وهم الذين اشتركوا في غزوة بدر[١].

والضمير الثاني المنصوب يعود إلى النبي ﷺ لأن الخطاب معه والسؤال حقيقته الطلب، فإذا عدي بـ «عن» فهو طلب معرفة المجرور بـ «عن» وإذا عدي بنفسه فهو طلب إعطاء الشيء، فالمعنى هنا: يسألونك معرفة الأنفال، أي معرفة حكمها ـ والمراد حالها ـ وإنما سألوا عن حكمها صراحة وضمناً في ضمن سؤالهم الأثرة ببعضها.

ومجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرر السؤال، إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد[٢]...

﴿الأنفال﴾: جمع نفل، والنفل الزيادة على الواجب، وهو التطوع، والغنيمة نافلة لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرها[٣]. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ص ١١٣ ـ بتصرف يسير.

(٢) التنوير والتحرير: ٢٤٨/٤ ـ بتصرف.

(٣) تفسير القرطبي: ٣٦١/٧ ـ بتصرف.

﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[1] أي نافلة زائدة على الصلوات الخمس فريضة عليك[2]. . .

وقال تعالى عن إعطائه لإبراهيم زيادة على ما سأل: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾[3].

وأطلقت الأنفال على الغنائم عند العرب قديماً قال عنترة:

إنا إذا حَمِس الوغَى[4] نُروِي القنا[5] ونَعِفُّ عند مَقاسُم الأنفالِ

يفتخر عنترة بحسن البلاء في القتال والزهد في الغنائم والإسلاب عند القسمة وهذا من أوصاف الأبطال البواسل.

قال الآلوسي: ثم صار النفل حقيقة في العطية، لأنها لكونها تبرعاً غير لازم كأنها زيادة، وتسمى به الغنيمة أيضاً وما يشترطه الإمام للغازي زيادة على سهمه لرأي يراه سواء أكان الشخص معيناً أو لغير معين، وجعلوا من ذلك ما يزيده الإمام لمن صدر منه أثر محمود في الحرب كبراز وحسن إقدام وغيرهما.

وإطلاقه على الغنيمة باعتبار أنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء كلمة الله، أو باعتبار أنها زيادة خص بها الله هذه الأمة، أو باعتبار أنها منحه من الله تعالى ـ من غير وجوب ـ ثم قال: والمراد بالأنفال هنا: الغنائم كما روى ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك، وابن زيد وطائفة من الصحابة وغيرهم[6].

---

(١) سورة الإسراء، آية ٧٩.
(٢) تفسير الكشاف للزمخشري: ٢/ ٤٦٢ ـ بتصرف.
(٣) سورة الأنبياء، آية ٧٢.
(٤) الوغى: الحرب (انظر الصحاح للجوهري: ٦/٢٥٢٦).
(٥) القنا: جمع قناة وهي الرمح، (انظر الصحاح للجوهري: ٦/٢٤٦٨).
(٦) تفسير الآلوسي: ٩/ ١٦٠ ـ بتصرف وتلخيص.

فالمقصود من سؤال بعض الصحابة رسول الله ﷺ عن الأنفال إنما هو حكمها وعن المستحق لها.

﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أي قل يا محمد مجيباً أصحابك السائلين عن الأنفال كيف مصرفها ومن المستحق لها: الحكم فيها لله والرسول لا لكم فلا تجوز لكم المخاصمة والمنازعة فيها، فالنبي ﷺ يقسمها على حسب حكم الله وأمره.

وقوله: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ وتفريع ﴿فاتقوا الله﴾ على جملة: ﴿الأنفال لله والرسول﴾ لأن في تلك الجملة رفعاً للنزاع بينهم في استحقاق الغنائم، أو في طلب التنفيل، فما حكم بأنها ملك لله ورسوله، أو بأن أمر قسمتها موكول لله، فقد وقع ذلك على كراهة كثير منهم ممن كانوا يحسبون أنهم أحق بتلك الأنفال ممن أعطيها، تبعاً لعوائدهم السالفة في الجاهلية فذكرهم الله بأن قد وجب الرضى بما قسمه الرسول منها.

وعطف الأمر بإصلاح ذات البين: لأنهم اختصموا واشتجروا في شأنها.

والإصلاح: جعل الشيء صالحاً، وهو مؤذن بأنه كان غير صالح، فالأمر بالإصلاح دل على فساد ذات بينهم، وهو فساد التنازع والتظالم(١).

وكلمة ذات: بمعنى حقيقة الشيء ونفسه ولا تستعمل إلا مضافة إلى الظاهر، كذات الصدور وذات الشوكة.

وكلمة بينكم: من البين، وهو مصدر بان يبين بيناً بمعنى بعد، ويطلق على الاتصال، والفراق: أي على الضدين، ومنه قول الشاعر:

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ٩/ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ـ بتصرف يسير.

فوالله لولا البين لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حنّ للبين آلف

والمراد به في الآية: الاتصال.

والمعـــنى:

فاتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق.

وقوله: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله**﴾ فيما يأمرانكم به وينهيانكم عنه[1]..

وكرر سبحانه وتعالى الاسم الجليل في هذه الآية ثلاث مرات، لتربية المهابة في القلوب، وتعليل الحكم حتى تقبله النفوس بإذعان وتسليم.

وذكر ـ سبحانه ـ رسوله معه مرتين في هذه الآية، لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه والإيذان بأن طاعته ـ ﷺ ـ طاعة لله تعالى ومخالفته مخالفة لأمر الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾[2].

ووسط ـ سبحانه ـ الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح، وليندرج الأمر بعينه تحت الأمر بالطاعة.

وقوله: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة السابقة، وهي: التقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله.

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. أي إن كنتم مؤمنين إيماناً حقاً

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ص ٤.

(٢) سورة النساء، آية ٨٠.

فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة السابقة[(١)]. . .

وقد اختلف العلماء في آية الأنفال على أربعة أقوال:

القول الأول: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول**﴾ الآية، قاله مجاهد وعكرمة والسدي.

القول الثاني: أن الأنفال مراد بها الغنائم وكانت أول الأمر لرسول الله ﷺ يقسمها كيف يشاء ثم نسخها الله بالخمس.

القول الثالث: أنها ناسخة من وجه، منسوخة من وجه وذلك أن الغنائم في شرع من قبلنا كانت محرمة على الأمم فنسخ الله حرمتها فأباحها لهذه الأمة ثم نسخت بآية الخمس.

القول الرابع: أنها محكمة في إحدى الروايات عن ابن عباس[(٢)] ومعناها حينئذ: قل الأنفال لله، والرسول ليضعها حيث أمره الله. ثم بين الله تعالى الأنفال، أي الغنائم بقوله:

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[(٣)].

والقول الأخير: بأن الأنفال هي الغنائم هو قول الجمهور قال به بالإضافة إلى ابن عباس مجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة ومقاتل وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد[(٤)]، وقاله ابن كثير[(٥)].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/ ٢٢٥ ـ بتصرف.

(٢) هذه الأقوال لخصتها من تفسير الخازن: جـ ٣/ ص ٤ من المجلد الثاني.

(٣) سورة الأنفال، آية ٤١.

(٤) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٨٢.

(٥) نفس المصدر: ٢/ ٢٨٢.

وقال تعالى: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير**﴾.

الآية معطوفة على جملة: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾ وافتتاحه بـ: ﴿**اعلموا**﴾ للاهتمام بشأنه، والتنبيه على رعاية العمل به، كما في قوله: ﴿**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾ فإنّ المقصود بالعلم تقرّر الجزم بأنّ ذلك حكم الله، والعمل بذلك المعلوم.

والخطاب لجميع المسلمين وبالخصوص جيش بدر وليس هذا نسخاً لحكم الأنفال المذكور أول السورة[1].

وما في قوله: ﴿**أنما**﴾ اسم موصول وهو اسم أن، والعائد محذوف وقوله: ﴿**غنمتم**﴾ من الغنم بمعنى الفوز والربح، يقال: غنم غنماً وغنيمة إذا ظفر بالشيء.

قال القرطبي ما ملخصه: الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي، ومن ذلك قول الشاعر:

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿**غنمتم من شيء**﴾ مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر..

وسمى الشرع الواصل من الكفار إلينا من الأموال باسمين غنيمة وفيئاً فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف الخيل والركاب يسمى غنيمة. ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً.

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ١٠/ص ٥ ـ بتصرف.

فالفيء مأخوذ من فاء يفي إذا رجع، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف[1].

﴿من شيء﴾ بيان لعموم (ما) لئلا يتوهم أن المقصود غنيمة معينة خاصة ومحله النصب على أنه حال من العائد المقدر، إن ما غنمتموه من شيء سواء كان هذا الشيء قليلاً أم كثيراً ﴿فأن لله خمسه﴾.

والمعـنى الإجمالـي:

واعلموا ـ أيها المسلمون ـ أن ما غنمتم من شيء أي ما أخذتموه من الكفار قهراً ﴿فأن لله﴾ الذي منه سبحانه وتعالى النصر المتفرع عليه الغنيمة ﴿خمسه﴾ أي خمس ما غنمتموه شكراً له على هذه النعمة ﴿وللرسول﴾ الذي هو سبب في هدايتكم ﴿ولذي القربى﴾ أي ولأصحاب القرابة من رسول الله ﷺ والمراد بهم على الراجح بنو هاشم وبنو عبد المطلب[2].

﴿واليتامى﴾: حقيقة اليتم هو الانفراد. ومنه الرابية المنفردة تسمى يتيمة. والمرأة المنفردة من الأزواج تسمى يتيمة. والمراد باليتم هنا: هو الصغير الذي مات أبوه[3].

قال النبي ﷺ: (لا يتم بعد احتلام)[4].

﴿والمساكين﴾: جمع مسكين، وهو من لا شيء له، فيحتاج إلى سؤال الناس لسد حاجاته ومطالب حياته. وهو مأخوذ من السكون الذي ضد الحركة، لأن احتياجه إلى غيره أسكنه وأذله.

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ص ١، وانظر مزيداً من التفصيل صفحة ١١٧ من الكتاب.

(٢) تفسير الرازي: ١٥/١٦٥.

(٣) انظر أحكام الفيء والقسمة ـ رسالة ماجستير للطالب عوض هلال العمري ص ٢١٢.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ٣/ ٢٩٣ ـ كتاب الوصايا ـ باب متى ينقطع اليتم.

﴿وابن السبيل﴾: وهو المسافر الذي نفد ماله وهو في الطريق قبل أن يصل إلى بلده.

وقوله: ﴿فأن لله خمسه﴾ خبر مبتدأ محذوف والتقدير: فحكمه أن لله خمسه والجار والمجرور خبر (أن) مقدم وخمسه اسمها مؤخر. والتقدير: فأن خمسه كان لله وللرسول ولذي القربى... الخ.

وقوله: ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ شرط جزاؤه محذوف[1] والشرط هنا محقق الوقوع إذ لا شك في أن المخاطبين مؤمنون بالله والمقصود منه تحقق المشروط، وهو مضمون جملة: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ إلى آخرها.

وجيء في الشرط بحرف (إن) التي شأن شرطها أن يكون مشكوكاً في وقوعه زيادة في حثهم على الطاعة حيث يفرض حالهم في صورة المشكوك في حصول شرطه إلهاباً لهم ليبعثهم على إظهار تحقق الشرط فيهم[2].

﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾: أي وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ.

والإنزال: هو إيصال شيء من علوّ إلى سفُل وأطلق هنا على إبلاغ أمر من الله ومن النعم الإلَهية إلى الرسول ﷺ والمسلمين فيجوز أن يكون هذا المنزل الوحي، ويجوز أن يكون من قبيل خوارق العادات، والألطاف العجيبة مثل إنزال الملائكة للنصر، وإنزال المطر لحاجة المسلمين إليه[3].

﴿يوم الفرقان﴾: هو يوم بدر، وهو اليوم السابع عشر من رمضان سنة اثنتين، سمي يوم الفرقان، لأن الفرقان الفرق بين الحق والباطل.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/ ٢٤٥.
(٢) تفسير التنوير والتحرير: ١٠/ص ١٣.
(٣) المصدر نفسه: ١٠/ص ١٤.

﴿**يوم التقى الجمعان**﴾: بدل من يوم الفرقان أي: جمع المؤمنين وجمع الكافرين[1].

وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ هذا وقد ذكر العلماء لهاتين الآيتين آيتي الأنفال والغنيمة جملة من المسائل والأحكام نذكر أهمها في مسألتين:

المسألة الأولى: النفل والغنيمة والفيء والفرق بينها وكيفية قسمتها.

المسألة الثانية: العلاقة بين آية الأنفال وآية الغنائم وآية الفيء.

المسألة الأولى: النفل والغنيمة والفيْء، الفرق بينها وكيفية قسمتها:

كانت ألفاظ أموال الغنائم متداخلة قبل استقرار أمر الغزو في المسلمين، فكان النفل مرادفاً للغنيمة وفسر جمهور المفسرين قوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول**﴾ أن المراد بالأنفال في الآية الغنائم.

ويطلق النفل في اللغة على الغنيمة، وكذلك أطلق النفل أيضاً على ما صار في أيدي المسلمين من أموال المشركين بلا قتال أو انتزاع كما يوجد الشيء لا يعرف من غنمه، وكما يوجد القتيل لا يعرف من قتله، فيدخل بهذا الإطلاق تحت جنس الفيء. فلما استقر أمر الغزو في المسلمين خص كل اسم بصنف خاص.

قال القرطبي: في قوله: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء**﴾ الآية، ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص، أي تخصيص اسم الغنيمة بمال الكفار إذا أخذه المسلمون على وجه الغلبة والقهر.

---

(١) وسمى القرآن الكريم أيضاً يوم بدر يوم البطشة الكبرى، قال تعالى في سورة الدخان: ﴿**يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون**﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أنه يوم بدر.. (انظر زاد المسير: ٧/ ٣٤٢).

ولكن عرف الشرع قيّد اللفظ بهذا النوع فسمى الواصل من الكفار إلينا من الأموال باسمين (أي بمعنيين مختلفين) غنيمة وفيئاً[1].

وأما النفل فهو اسم لنوع مقسوم الغنيمة لا لنوع من المغنم[2].

فأصبح النفل يدخل تحت الغنيمة، وإليك تعريف اسم كل صنف:

١ ـ تعريف النفل:

في اللغة: عبارة عن الزيادة.

وفي الاصطلاح: هو ما يعطيه أمير الجيش أحد المقاتلين زائداً على سهمه من الغنيمة سواء كان سلباً أو نحوه[3] مما يسعه الخمس أو من أصل مال الغنيمة على خلاف بين الفقهاء.

٢ ـ تعريف الغنيمة:

في اللغة: مأخوذ من الغنم، وهو الفوز بالشيء من غير مشقة، والاغتنام: انتهاز الغنم، يقال: غنم القوم غنماً بالضم[4].

وفي الاصطلاح: اسم لما يؤخذ من أموال الكفرة بقوة الغزاة وقهر الكفر على وجه يكون فيه إعلاء كلمة الله تعالى[5].

٣ ـ تعريف الفيء:

في اللغة: هو ما كان شمساً فنسخه الظل. والجمع أفياء وفيوء. وأصل الفيء الرجوع، مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع كأنه كان في الأصل لهم فرجع

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ٨/ص ١ ـ بتصرف.
(٢) التنوير والتحرير: ١/ص ٢٥٠.
(٣) المصدر نفسه: ١٠/ص ٦.
(٤) لسان العرب (مادة غنم): ١٢/ ٤٤٥.
(٥) أحكام الغنيمة والفيء ـ رسالة ماجستير للطالب عوض هلال العمري ص ٢٣.

إليهم، ومنه قيل للظل الذي يكون بعد الزوال فيء لأنه يرجع من جانب الغرب إلى جانب الشرق[١].

وفي الاصطلاح: هو ما رده الله عز وجل على أهل دينه من أموال من خالفهم في الدين بلا قتال، إما بالجلاء أو بالمصالحة على جزية وغيرها[٢].

مصارف النفل والفيء والغنيمة

مصـرف النفـل:

النفل أمره موكول إلى أمير الجيش يتصرف فيه بما فيه مصلحة المسلمين أو قوة الإسلام.

والتنفيـل:

تخصيص بعض المجاهدين بالزيادة، كأن يقول ولي الأمر: من أصاب شيئاً فله ربعه أو ثلثه، أو فهو له، أو من قتل قتيلاً فله ربعه أو ثلثه، أو فهو له، أو من قتل قتيلاً فله سلبه أو يقول لسرية: ما أصبتم فهو لكم، وهذا جائز لما فيه من تحريض على القتال[٣].

ويشترط لجواز التنفيل أن يكون قبل حصول الغنيمة في أيدي الغانمين، فإن حصلت في أيديهم، فلا نفل إلا من الخمس ونحوه[٤].

واختلف الفقهاء في السلب، والسلب: هو ثياب المقتول وسلاحه الذي معه، ودابته التي ركبها بما عليها، وما كان معه من مال[٥].

---

(١) لسان العرب مادة (فيأ): ١/ ١٤٢ ـ ١٢٦.

(٢) أحكام الغنيمة والفيء ص ٢٤.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي: ٦/ ٤٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ٦/ ٤٥٤.

(٥) المصدر نفسه: ٦/ ٤٥٣.

فذهب الشافعية[1] والحنابلة[2] إلى أن القاتل يستحق سلب المقتول في كل حال بدون إذن الإمام بدليل عموم قوله ﷺ: (من قتل قتيلاً عليه بينة فله سلبه) رواه البخاري ومسلم[3].

وذهب الحنفية[4] والمالكية[5] إلى أن القاتل لا يستحق سلب المقتول إلا بإذن الإمام فإذا لم يجعل السلب للقاتل فهو من جملة الغنيمة[6].

مصـرف الفـيء:

لا خلاف بين الفقهاء على أن الفيء في حياة الرسول ﷺ يصرف تبعاً لما يراه ﷺ.

والفيء عند الجمهور لا يخمس بل يصرف في مصالح المسلمين، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد في أصح ما روي عنه، إلا أن الشافعي وأحمد في رواية قالوا: الفيء يخمس[7]، وخمسه يصرف للذي سمي في الآية، وأربعة أخماس الفيء لجميع المسلمين، غنيهم وفقيرهم فيه سواء، إلا العبيد[8].

واختلفوا في مصرف الفيء بعد وفاته ﷺ على قولين:

---

(١) راجع مغني المحتاج: ٣/ ٩٩.
(٢) انظر المغني: ٨/ ٣٨٨.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قوله تعالى: ﴿ويوم حنين...﴾: ٥/ ١٩٦، وانظر صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد ـ باب استحقاق القاتل سلب القتيل: ٣/ ١٣٧١ رقم الحديث ١٧٥١.
(٤) انظر البدائع: ٧/ ١١٤ وما بعدها، وفتح القدير: ٤/ ٣٣٣ وما بعدها.
(٥) بداية المجتهد: ١/ ٣٨٤، والفروق للقرافي: ٣/ ٧.
(٦) الفقه الإسلامي وأدلته: ٦/ ٥٤٣.
(٧) انظر المغني: ٦/ ٤٥٥، وانظر أحكام الغنيمة والفيء ص ٥٩٥.
(٨) المغني: ٦/ ٤٦٣.

القول الأول: أن مال الفيء يصرف في أهل الجهاد لأن ذلك كان للنبي ﷺ في حياته لحصول النصرة والمصلحة فلما مات صار للجند[1].

القول الثاني: أن مال الفيء يصرف في مصالح المسلمين لكن يبدأ بجند المسلمين لأنهم أهل المصالح لكونهم يحفظون المسلمين، فيعطون كفايتهم فما فضل قدم الأهم فالأهم من عمارة المساجد والقناطر وإصلاح الطرق وكراء الأنهار وسد بثوقها وأرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين والفقهاء ونحو ذلك فيما للمسلمين فيه نفع وإليه ذهب الإمام أحمد والشافعي[2].

والذي يترجح أن مال الفيء يصرف في مصالح المسلمين فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قرأ قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾[3] قال: هذه استوعبت المسلمين[4].

مصـرف الغنائـم:

أما الغنائم فتخمس.

الخمس يصرف للمصارف المذكورة في قوله: **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾** وأربعة أخماسها للمقاتلين[5].

كيفية قسمة خمس الغنيمة:

للعلماء في تلك الكيفية أربعة أقوال:

القول الأول: يصرف على ستة أسهم: سهم لله لعمارة الكعبة وسهم

---

(١) أحكام الغنيمة والفيء: ص ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٨٧.

(٣) الآيات من سورة الحشر من آية ٧ إلى آية ١٠.

(٤) انظر المغني ـ كتاب الوديعة ـ باب قسمة الفيء والغنيمة: ٦/ ٤٦٤.

(٥) سيأتي تفصيل ذلك في الصفحات القادمة.

للنبي ﷺ ينفق منه على عياله ويصرف باقيه في مصالح المسلمين. وسهم لـذوي قـربـى رسـول الله ﷺ وسهـم لليتـامـى وسهـم للمسـاكيـن وسهـم لابن السبيل[١].

القول الثاني: قول الشافعي يصرف على خمسة أسهم ولا يجعل لله سهماً مختصاً وإنما بدأ به عنده لأن الكل ملكه[٢].

القول الثالث: قول أبي حنيفة رحمه الله... يصرف على ثلاثة، لليتامى والمساكين وابن السبيل لأن سهم الرسول ﷺ وسهم قرابته قد ارتفع بوفاته ﷺ وإنما يأخذه لأنه رسول الله لا لأنه إمام فلا يخلفه فيه غيره[٣].

القول الرابع: قول مالك رحمه الله: الخمس إلى اجتهاد الإمام يأخذ منه كفايته ويصرف الباقي في المصالح كسد الثغور وعمارة الحصون والقناطر والمساجد وغيرها[٤].

كيفية قسمة أربعة أخماس الغنيمة:

الأخماس الأربعة الباقية بعد الخمس للغانمين باتفاق، فللفارس سهم ولفرسه سهمان لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهماً»[٥].

والحكمة في جعل ثلاثة أسهم للفارس، وللراجل سهماً واحداً أن الفارس أنكى للعدو وأكبر تأثيراً في القتال ويحتاج لمؤونة لخدمة فرسه وعلفه.

---

(١) انظر المغني: ٦/ ٤٥٧.
(٢) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٦٦، وانظر المغني: ٦/ ٤٠٧.
(٣) الخراج لأبي يوسف ص ٢٢، وانظر المغني: ٦/ ٤٥٧.
(٤) كتاب التسهيل لابن جزي: ٢/ ٦٦، وانظر المغني: ٦/ ٤٥٧.
(٥) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب سهام الفرس: ٤/ ٣٧، وانظر فتح الباري: ٦/ ٦٧.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: للفرس سهم واحد ولراكبه سهم آخر[1].

المسألة الثانية: توضيح العلاقة بين آية الأنفال وآية الغنائم وآية الفيء:

اختلف المفسرون في الجمع بين هذه الآيات وأطلقت دعاوى النسخ بين هذه الآيات.

والذي نراه ـ وبالله التوفيق ـ أن آية الغنائم ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء..**﴾ الآية إنما هي بيان لما أجمل من حكم الأنفال المذكور في أول سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأنفال...**﴾ الآية.

وليس هناك نسخ بين الآيتين.

كذلك اختصت آيتا الحشر بالفيء وهو ما رده الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالفهم في الدين بلا قتال، إما بالجلاء أو بالمصالحة على جزية وغيرها.

فالآية الأولى في سورة الحشر بينت حكم فيء بني النضير.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾[2].

والآية الثانية: في حكم الفيء في قرى الكفار عامة وأن الفيء لا يخمس.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ...﴾ الآية[3].

---

(١) الخراج لأبي يوسف صفحة (٢٠)، وانظر فتح الباري: ٦/٦٨، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي: ١٢/٨٣، وانظر المغني: ٦/٤٦٨.

(٢) سورة الحشر، آية ٦.

(٣) سورة الحشر، آية ٧.

فمن هنا يتلخص لنا أن الآيات كلها معمول بها، وأن دعاوى النسخ غير ثابتة وإليك ذكر بعض أقوال المفسرين في هذا الموضوع:

قال ابن الفرس: آية ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى**﴾ هذه الآية من المشكلات إذا نظرت مع الآية التي قبلها ومع آية الغنيمة من سورة الأنفال.

ولا خلاف في أن قوله تعالى: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم**﴾ الآية، إنما نزلت فيما صار لرسول الله ﷺ من أموال الكفار بغير إيجاف، وبذلك فسرها عمر ولم يخالفه أحد.

وأما آية الأنفال فلا خلاف أنها نزلت فيما صار من أموال الكفار بإيجاف.

وأما الآية الثانية من الحشر: فاختلف أهل العلم فيها فمنهم من أضافها إلى التي قبلها ومنهم من أضافها إلى آية الأنفال وأنهما نزلتا بحكمين مختلفين في الغنيمة الموجف عليها وأن آية الأنفال نسخت آية الحشر.

ومنهم من قال إنها نزلت في معنى ثالث غير المعنيين المذكورين في الآيتين.

واختلف الذاهبون إلى هذا فقيل: نزلت في خراج الأرض والجزية دون بقية الأموال. وقيل: نزلت في حكم الأرض خاصة دون سائر أموال الكفار (فتكون تخصيصاً لآية الأنفال) وإلى هذا ذهب مالك ـ رحمه الله ـ والآية عند أهل هذه المقالة غير منسوخة.

ومنهم من ذهب إلى تخيير الإمام. اهـ[1].

---

(١) نقلاً من تفسير التنوير والتحرير: ٢٨/ ٨٢. وابن الفرس: هو عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم من أهل غرناطة، ولد في سنة ٥٢٤ هـ وتوفي في سنة ٥٩٩ هـ. وله كتاب نفيس في أحكام القرآن (طبقات المفسرين للداوودي: ١/ ٣٦١).

وقال الشيخ ابن عاشور: قوله تعالى: **﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى. . .﴾** الآية.

هذه الآية اقتضت أن صنفاً مما أفاء الله على المسلمين لم يجعل الله فيه نصيباً للغزاة وبذلك تحصل معارضة بين مقتضاها وبين قصر آية الأنفال التي لم تجعل لمن ذكروا في هذه الآية إلا الخمس.

فقال جمعٌ من العلماء: إن آية الأنفال نسخت حكم هذه الآية.

وقال جمعٌ: هذه الآية نسخت آية الأنفال.

وقال قتادة: كانت الغنائم في صدر الإسلام لهؤلاء الأصناف الخمسة ثم نسخ ذلك بآية الأنفال، وبذلك قال زيد بن رومان، وقال القرطبي نحوه عن مالك، على أن سورة الأنفال سابقة في النزول لسورة الحشر لأن الأنفال نزلت في غنائم بدر وسورة الحشر نزلت بعدها بسنتين.

إلى أن قال. . : ومن العلماء من حملها على أرض الكفار إذا أخذت عنوة مثل سواد العراق دون ما كان من أموالهم غير أرض، كل ذلك من الحيرة في الجمع بين هذه الآية وآية سورة الأنفال مع أنها متقدمة على هذه. . .

ومن العلماء من جعل محمل هذه الآية على الغنائم كلها بناء على تفسيرهم الفيء بما يرادف الغنيمة، وزعموا أنها منسوخة بآية الأنفال[1].

أقول: يظهر من هذه الأقوال اختلاف العلماء فيها والذي أرجحه أن الآيات كلها معمول بها، وأن دعاوى النسخ غير ثابتة، وأنه يمكن الجمع بينهما كما سبق بيانه[2].

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ٢٨/ ٨٣.

(٢) انظر صفحة ١٢٣ من الكتاب.

المطلب الثالث
أسرى غزوة بدر

قال تعالى في سورة الأنفال:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[1].

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها:

ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب: أنه لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة. ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني)... فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.

قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: (ما ترون في هؤلاء الأسارى)؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: (ما ترى يا ابن الخطاب)؟ قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي يراه أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننا منهم فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهَوَى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي

---

(١) آية ٦٧ ـ ٦٨.

شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: (أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ شجرة قريبة من نبي الله ﷺ ـ وأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى..**﴾ إلى قوله: ﴿**فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً..**﴾ فأحل الله لهم الغنيمة[1].

وروى الإمام أحمد[2] والترمذي[3] ـ واللفظ لأحمد ـ عن عبد الله بن مسعود قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: (ما تقولون في هؤلاء الأسرى)؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فادخلهم فيه ثم اضرم عليهم ناراً. فقال العباس: قطعت رحمك. فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: (إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة.

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾[4]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[5]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾[6]، وإن

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم: ٣/ ١٣٨٣ بتحقيق فؤاد عبد الباقي.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١/ ٣٨٣.

(٣) سنن الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب ومن سورة الأنفال: ١٥/ ٢٧١.

(٤) سورة إبراهيم، آية ٣٦.

(٥) سورة المائدة، آية ١١٨.

(٦) سورة نوح، آية ٢٦.

مثلك كمثل موسى إذ قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

ثم قال ﷺ: (أنتم عالة فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق).

قال عبد الله بن مسعود: فقلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام قال فسكت. فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليّ حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض..﴾** إلى آخر الآية[2].

وقوله: **﴿ما كان لنبي﴾**.

﴿ما﴾: نافية وهذا التركيب المؤلف من (ما) النافية الداخلة على (كان) المقرون خبرها بلام الجحود يحتمل معنيين:

الأول: التبرئة والتنزيه، وعدم الوقوع.

الثاني: النهي الضمني عن أن يقع متعلق الخبر.

ومعنى الآية على المعنى الأول: أن الله يبرىء نبيه ﷺ وينزه ساحته عن أن يكون له قصد في أخذ الأسرى وإنهاء المعركة قبل الإثخان في الأرض.

ويجوز على الوجه الثاني أن يكون المراد نهيه ﷺ عن أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض والمبالغة في إضعاف قوة العدو.

وإن كان النهي لا يستلزم وقوع المنهي عنه من المخاطب لجواز أن يكون وقوع المنهي عنه كان ممن له صلة تبعية بالمخاطب ويؤيد هذا، تنكير نبي في قوله: **﴿ما كان لنبي﴾** إبهاماً في كون النفي لم يتوجه إليه معنياً[3] تلطفاً

---

(١) سورة يونس، آية ٨٨.

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢٥.

(٣) البحر المحيط لابن حيان: ٤/ ٥١٨.

به ﷺ متوجه القصد إلى أن يكون له أسرى قبل الإثخان في العدو وإكثار القتل والجراح فيه.

وعلى ذلك يكون الخطاب ـ في ظاهره ـ موجهاً لرسول الله ﷺ مع هذا التلطف الذي يبرىء ساحته عليه الصلاة والسلام مما يوجب العتاب.

ويكون الخطاب في حقيقته موجهاً إلى الذين أسرعوا في إنهاء المعركة وأخذ الغنائم والأسرى بمجرد ظهور طلائع النصر(١).

وقوله: ﴿**أسرى**﴾: جمع أسير كقتلى جمع قتيل. وهو مأخوذ من الأسر بمعنى الشد بالإسار أي القيد الذي يقيد به حتى لا يهرب.

ثم صار لفظ الأسير يطلق على كل من يؤخذ من فئته في الحرب ولو لم يشد بالإسار.

وقوله: ﴿**يثخن**﴾: من الثخانة وهي في الأصل الغلظ والصلابة يقال: ثخن الشيء يثخن ثخونة وثخانة وثخناً أي غلظ وصلب فهو ثخين.

ثم استعمل في النكاية والمبالغة في قتل العدو فقيل: أثخن فلان في عدوه، أي بالغ في قتله وإنزال الجراحة الشديدة به، لأنه بذلك يمنعه من الحركة فيصير كالثخين الذي لا يسيل ولا يتحرك.

وقوله: ﴿**تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة**﴾.

استئناف سيق للعتاب، والعرض: ما لا ثبات له ولا دوام من الأشياء فكأنها تعرض ثم تزول.

والمراد: تريدون ـ أيها المؤمنون ـ بأخذكم الفداء من المشركين متاع

---

(١) انظر كتاب آيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد ص ٢٢٤.

الدنيا والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعده الله لعباده المؤمنين في جنات النعيم[1].

وقوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾.

والمراد بالكتاب هنا الحكم، وأطلق عليه الكتاب لأن هذا الحكم مكتوب في اللوح المحفوظ.

قال الطبري: يقول تعالى لأهل بدر الذين أخذوا من الأسرى الفداء: ﴿لولا كتاب من الله سبق...﴾ الآية، أي لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن يحل لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحداً شهد هذا المشهد الذي شهدتموه ببدر... لولا كل ذلك لنالكم من الله بأخذكم الفداء عذاب عظيم..[2].

وقوله: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾.

قال الآلوسي: روي أنه لما نزلت الآية الأولى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ كف الصحابة عما أخذوا من الفداء فنزلت هذه الآية.

فالمراد بقوله: ﴿مما غنمتم﴾ إما الفدية وإما مطلق الغنائم، والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية، وإلا فحل الغنيمة مما عداها علم سابقاً من قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾[3].

والمعنى الإجمالي:

قال الشيخ المراغي في تفسيره: إنه ليس من سنة الأنبياء، ولا مما ينبغي

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/٤٢ ـ بتصرف.

(٢) تفسير الطبري: ١٠/٤٤.

(٣) تفسير الآلوسي: ١٠/٣٦.

لأحد منهم أن يكون له أسرى يفادهم أو يمنّ عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين، لئلا يفضي أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين، وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم، وما فعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال كان ذنباً أراده جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذي تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عقابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى وعلى خلاف سنته لمسهم عذاب عظيم في أخذهم ذلك، وأنه أحل لهم ما أخذوا وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله لهم والله غفور رحيم[1].

هذا وقد فصل الفقهاء موضوع الأسرى، وقد ذكر صاحب المغني تفصيلاً جيداً لهذا الموضوع، فليرجع إليه[2].

ثم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[3].

سبب النزول:

ذكر الزهري عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: (الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقولون فإن الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر)، قال: ما ذاك عندي يا رسول الله قال: (فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها إن أصبت في سفري

---

(١) تفسير المراغي: ٤/ ٣٧.

(٢) انظر المغني: كتاب الجهاد، أحكام الأسرى: ٩/ ٢٢٠.

(٣) سورة الأنفال، آية ٧٠ ـ ٧١.

هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم). قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل فأحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله ﷺ: (ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك) ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل فيه: **﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾**. قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل[1].

هذا والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الآية الكريمة وإن كانت قد نزلت في العباس إلا أنها عامة في جميع الأسرى.

قوله: **﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾**.

أي قل للذين في أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء: إن كان الله تعالى يعلم أن في قلوبكم الآن إيماناً يعطكم إذ تُسْلمون ما هو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم في المغانم وغيرها من النعم التي وعد المؤمنون بها[2].

ولقد صدق الله تعالى وعده مع من آمن وعمل صالحاً من هؤلاء الأسرى فأعطاهم الله الكثير من نعمه كما قال العباس رضي الله عنه في سبب النزول.

وقوله: **﴿ويغفر لكم﴾** الشرك الذي كنتم عليه[3]. وكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لي الدنيا لقد قال: **﴿يؤتكم خيراً مما**

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٣٢٧.

(٢) تفسير المراغي: ٤/٣٩ ـ بتصرف.

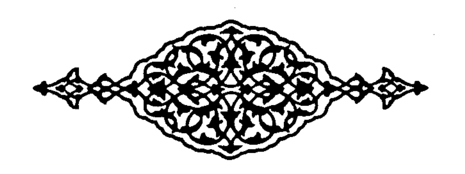
(٣) تفسير ابن كثير: ٢/٣٢٧.

أخذ منكم﴾ فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مئة ضعف وأرجوا أن يكون قد غفر لي[1].

وقوله: ﴿والله غفور رحيم﴾ تذييل قصد به تأكيد ما قبله من الوعد بالخير والمغفرة.

وقوله تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ يعني إن أراد الأُسراء خيانتك بالكفر بعد الإسلام ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ إذ كفروا به قبل أسرهم. وقال ابن زيد: فقد خانوا بخروجهم مع المشركين وقال مقاتل: المعنى: إن خانوك أمكنتك منهم فقتلتهم وأسرتهم كما أمكنتك ببدر. قال الزجاج: (والله عليم) بخيانة إن خانوها (حكيم) في تدبيره عليهم ومجازاتهم إياهم[2].



(١) المصدر نفسه: ٢/ ٣٢٧.

(٢) زاد المسير: تفسير سورة الأنفال: ٣/ ٣٨٤.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرضه لغزوة بدر

سأذكر إن شاء الله أهم معالم منهج القرآن الكريم في عرضه لهذه الغزوة، وسبق أن بينت أن القرآن تحدث عن هذه الغزوة في سورة الأنفال... تلك السورة التي نزل أغلب آياتها في أعقاب بدر فسماها ابن عباس سورة بدر.

وأصبحت هذه الغزوة درساً للأمة في جميع معاركها مع أعدائها... تعود إليها تستلهم منها العبر وتأخذ منها الزاد لطريق الجهاد الطويل.

وهذا الدرس وعاه الصحابة رضوان الله عليهم وطبقوه عملياً، ففي معركة القادسية أمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد، وهي سورة الأنفال، فلما قرئت هشت قلوب الناس وجهشت عيونهم[1] وعرفوا السكينة مع قراءتها. وعند فراغ القراء من قراءة هذه السورة كبّر سعد فكبّر الذين يلونه وكبّر بعض الناس بتكبير بعض فاستعد الناس للقتال، ثم ثنى سعد فأكمل الناس استعداداتهم ثم ثلث فبرز أهل النجدة وأشعلوا نار القتال.. ثم كبّر سعد التكبيرة الرابعة إشارة لبدء الزحف العام[2]...

إذن فلقد تجاوزت هذه السورة ـ سورة الأنفال ـ الزمان والمكان،

---

(١) جهشت العيون أرادت أن تبكي (مختار الصحاح: ص ١١٥).

(٢) تاريخ الطبري: ٣/٥٣٦ ـ بتصرف.

وصارت نشيد المسلمين قبل أية معركة يخوضونها، وقد ذكرت الموقعة في السورة مرتين:

«مهد للمرة الأولى بعتاب المؤمنين في موضوعين، **أولهما**: الأنفال، **وثانيهما**: تردد بعض المؤمنين في القتال، ثم ذكر المؤمنين بالمنن التي تمت في المعركة ثم كانت نتيجة ذلك كله خمس نداءات تطلب الثبات في مواطن القتال، وتؤكده وذُكِّر المؤمنون بعد ذلك بحال المشركين من قبل ثم ذكر الغرض من الابتلاء في الدنيا والغاية من قتال المشركين كف الفتنة ودفع الأذى.

وعرضت الآيات الكريمة للغنيمة ثانية وأن خمسها لله ولرسوله وكان الأمر بتقديم خمس الغنيمة تمهيداً لذكر الموقعة ثانية ولنداء يعقب الموقعة شبيه بالنداءات الأولى، وكان ذكر المشركين ثانية وذكر من صفاتهم الخروج بطراً وتزيين الشيطان لهم أعمالهم وأن شأنهم كشأن آل فرعون وأن عاقبتهم إلى العذاب»[1].

أهم معالم هذا المنهج:

١ ــ بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾[2].

يقول الشيخ شلتوت: بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم في قسمتها وسؤالهم عنها فساقت في ذلك أربع آيات عالجت بها نفوس المؤمنين وتطهيرها من الاختلاف الذي ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المادة... إلى أن يقول: «ولأهمية هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السورة وإن كان

---

(١) من هدى سورة الأنفال للشيخ محمد أمين المصري صفحة ١٦.

(٢) سورة الأنفال، آية ١.

اختلافهم في قسمة الأنفال متأخراً في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدر وقتال الأعداء، وقد عرفنا من سنَّة القرآن في ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة على حسب وقوعها. . »[١].

فلأهمية موضوع الأنفال بدأ به. وثم فائدة أخرى يذكرها الشيخ محمد أمين المصري فيقول:

«وهناك ثمة فائدة أخرى للبدء بمسألة الأنفال هي المسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذي كفله الله للمؤمنين. وليس من تربية النفوس أن تبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب والفزع والتردد أمام وسائل العزة والشرف متى وجد لهم بجانب البدء بالحديث عن الأنفال أشبه ما يقولون من «براعة المطلع» التي تشوق السامع وتدفعه إلى التحلي بالأوصاف المذكورة للمؤمنين حتى يفوزوا بالنصر والغلب. . »[٢].

٢ ـ ثم ذكر ـ سبحانه ـ صفات المؤمنين الصادقين فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[٣].

٣ ـ ثم تحدثت الآيات الكريمة عن خروج النبي ﷺ والمؤمنين من المدينة فقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ

---

(١) تفسير الشيخ شلتوت (نقلاً من كتاب من هدى سورة الأنفال صفحة ٦٨).

(٢) من هدى سورة الأنفال صفحة ٦٨ ـ بتصرف يسير.

(٣) سورة الأنفال من آية ٢ إلى آية ٤.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ (١).

والمتأمل في هذه الآيات يجد أنها صورت حالة المؤمنين عند خروجهم من المدينة، ورغبتهم في العير وكراهتهم للنفير، وكان ذلك من الله ـ سبحانه ـ وتعالى عتاباً بليغاً، ودرساً مؤثراً حيث وصفهم بقوله: **﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾**، وبقوله: **﴿يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾**، وبقوله: **﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم. .﴾** الآية.

قال الشيخ محمد أمين المصري: لم تذكر الآيات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدر ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً يحمل المؤمنين على الرجوع إلى أنفسهم والاستحياء من ربهم وهنالك نقاط أرسلت الآيات أضواءها عليها وبينت نواحي الضعف فيها بياناً جلياً قوياً بتصوير ما في النفوس ووصفه وصفاً دقيقاً رائعاً تشاهد العين فيه الحركات والخلجات، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليلمس المسافة بينه وبين درجة الإيمان التي يهفو قلبه للوصول إليها.

ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم ويشعر الذوق السليم ههنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب ولكنه تصوير ما في النفوس تصويراً يوقن معه العادي من الناس أنه ما كان لمؤمن صحيح الإيمان أن يتصف بها ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية وميزاته الرفيعة التي تصور الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أي إسفاف **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾**.

---

(١) سورة الأنفال من آية ٥ إلى آية ٨.

ما ذكرت الآيات عتاباً ولكنها ذكرت واقعاً وكان ذكر الواقع أبلغ من كل عتاب. قال تعالى: ﴿**يسألونك عن الأنفال**﴾، وفحوى الخطاب ما كان لهم أن يسألوا هذا السؤال. وقال تعالى: ﴿**كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون**﴾ وهذا وصف بالغ الغاية في تصوير الجزع والرعب، صورة أناس يساقون إلى الموت سوقاً لا مفر منه وهم يرون الموت بأم أعينهم.

وقال تعالى: ﴿**وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**﴾ وهذا تصوير لضعف في النفوس... إلى أن يقول: دفعت الآيات الكريمة عن المؤمنين أي شعور بالاستعلاء وصرفت عن أنفسهم كل معنى من معاني الغرور وبسطت أمامهم نفوسهم أو نفوس فريق منهم وما بينها وبين الإيمان الصحيح من درجات[1]...

٤ ــ ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بما أمدهم به من العون، وما أنعم به عليهم من النعم فقد أمدهم ـ سبحانه ـ بالملائكة، وأنعم عليهم بالنعاس والمطر، قال تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾[2].

---

(١) من هدى سورة الأنفال صفحة ٦٥، ٦٦.

(٢) سورة الأنفال آية ٩ إلى آية ١٢ وانظر تفسيرها صفحة ٧٦ من هذا الكتاب.

والاستغاثة: طلب الغوث والنصر، ولقد استغاث رسول الله ﷺ وأصحابه في الساعة الرهيبة واستجاروا به جل شأنه ودعوه فأجاب دعاءهم... وفي الآيات درس تربوي هام حيث تبين أن كل من توجه إلى الله العظيم ورجاه بصدق وإيمان خالص أجابه على ذلك التوجه لأن الله مع المؤمنين، يقول الأستاذ محمد منير: «بين سبحانه أن الملائكة عاجزة عن تحقيق النصر، وهي مفتقرة إلى معية الله سبحانه..»[(١)].

وإنزال الملائكة كان من النعم الكبرى في هذه الغزوة، يقول الزمخشري مبيناً ذلك: «فإن قلت: وما معنى قوله: ﴿وما كنا منزلين﴾؟ قلت: معناه وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾[(٢)]، فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾[(٣)]، ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[(٤)]، ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[(٥)]، ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[(٦)]، قلت: إنما كان يكفي ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية (١/ ٤٣١) ـ بتصرف يسير.
(٢) سورة العنكبوت، آية ٤٠.
(٣) سورة الأحزاب، آية ٩.
(٤) سورة الأنفال، آية ٩.
(٥) سورة آل عمران، آية ١٢٤.
(٦) سورة آل عمران، آية ١٢٥.

الكرامة والإعزاز ما لم يول أحداً فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وماأنزلنا ـ وما كنا منزلين﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك. . »[1].

ثم بين ـ سبحانه ـ سبب نزول ذلك بالكفار فقال تعالى:
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

٥ ـ ثم أمر ـ سبحانه ـ المؤمنين بالثبات أمام الكفار ويتحدث سيد قطب عن مجيء هذا الأمر هنا فيقول: «والآن. . وقد أعاد عليهم مشاهد الوقعة وملابساتها، وأراهم يد الله فيها وتدبيره، وعونه ومدده. . . إلى أن يقول. . . الآن وهذا المشهد حاضر في القلوب للتوجيه الآن يجيء الأمر للذين آمنوا ـ بصفتهم هذه ـ أن يثبتوا إذا لقوا الذين كفروا وألا يولوهم الأدبار من الهزيمة والفرار، ما دام أن النصر والهزيمة موكولان إلى إرادة فوق إرادة الناس، وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة التي يراها الناس، وما دام أن الله هو الذي يدبر أمر المعركة ـ كما يدبر الأمر كله ـ وهو الذي يقتل الكفار بأيدي المؤمنين، وهو الذي ينجح الرمية حين ترمى، وإنما المؤمنون ستار للقدرة يريد الله أن يجعل لهم ثواب الجهاد والبلاء فيه وهو الذي يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ويوهن تدبيرهم، ويذيقهم العذاب في الدنيا والآخرة لأنهم شاقوا الله ورسوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٣٢٠.
(٢) سورة الأنفال، آيـة ١٣، وآية ١٤.

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ [1] ﴾ [2].

ويقول الشيخ محمد أمين المصري: أليس عجيباً أن يغلب ثلاثمائة رجل على ضعفٍ وقلة في الزاد والعتاد والأهبة ألف رجل هم من أشد الرجال قوةً ومراساً ثم لا يذكر عملهم بشيء، وإن ذكر فيذكر فضل الله يقول تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ وهذه الآية الكريمة تستل من المؤمنين كل رؤية للنفس وكل نزعة تريد أن تستعلي وتملأ الدنيا بقولها: «فعلت وفعلت» . . [3].

ثم قال تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [4].

وهذه الآية يظهر فيها جلياً أسلوب القرآن الفريد في التربية. يقول سيد قطب: وعندما يصل السياق إلى تقرير. . أن الله موهن كيد الكافرين. . يتجه بالخطاب إلى الكافرين، أولئك الذين استفتحوا قبيل المعركة، فدعوا الله أن يجعل الدائرة على أضل الفريقين وآتاهما بما لا يُعرف، وأقطعهما للرحم كما كان دعاء أبي جهل وهو استفتاحه: أي طلبه الفتح من الله والفضل فدارت الدائرة على المشركين. . .

يتوجه إليهم الخطاب، ساخراً من استفتاحهم ذاك، مؤكداً لهم أن ما حدث في بدر إنما هو نموذج من السنة الجارية وليس فلتة عارضة، وأن جموعهم وكثرتهم لن تغير من الأمر شيئاً لأنها السنة الجارية: أن يكون الله مع المؤمنين[5] . .

---

(١) سورة الأنفال، آية ١٥ إلى آية ١٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/ ١٤٨٧ ـ بتصرف يسير.

(٣) من هدى سورة الأنفال، صفحة ٦٥، ٦٦.

(٤) سورة الأنفال، آية ١٩.

(٥) في ظلال القرآن: ٣/ ١٤٩١.

والدرس المستفاد هنا أن القرآن يتفاعل مع الأحداث، ويرد على المشركين، فالآية ردّ صريح لقول أبي جهل: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة[1].

٦ ـ النداءات الخمسة:

النداء في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ أتبعه ـ سبحانه ـ بأربعة نداءات تؤكد مضمونه وتؤيده.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

فالنداء الأول: فيه نداء حازم للمؤمنين بعدم التولي يوم الزحف.

والنداء الثاني: أمر بطاعة الله ورسوله وتحذير من الإعراض عنه.

والنداء الثالث: أمر بالاستجابة لله ورسوله.

والنداء الرابع: نهي عن خيانة الله ورسوله.

والنداء الخامس: تحريض على التقوى وذكر ثمرة من أعظم ثمراتها الفرقان.

---

(١) انظر تفسير هذه الآية بالتفصيل صفحة ٦٧ من هذا الكتاب.

(٢) سورة الأنفال من آية ٢٠ إلى آية ٢٩.

والمتأمل للآيات الكريمة يرى أنه بعد النداء الثالث ذكر ـ سبحانه ـ المؤمنين بنعمة النصر فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾[١].

فالتذكير يطرد النسيان دائماً، الذكرى تنفع القلوب الحية قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾[٢].

٧ ــ ثم ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ﷺ بأفعال المشركين فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾[٣].

وذكر ـ سبحانه ـ المؤمنين أيضاً بأفعال المشركين فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ

---

(١) سورة الأنفال، آية ٢٦، انظر تفسيرها صفحة ١٠٢ من هذا الكتاب.

(٢) سورة الذاريات، آية ٥٥.

(٣) سورة الأنفال، آية ٣٠.

﴿مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾[1].

٨ ـ ثم فصل ـ سبحانه ـ أحكام الغنائم التي جاء ذكرها مجملاً في أول السورة ثم أتبعه بذكر وصف غزوة بدر فقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[2].

ومن النعم التي أنعمها الله على رسوله في غزوة بدر هو أن أراه الله عددهم في منامه قليلاً فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم، وكذلك قلل عدد الكفار في أعين المؤمنين في اليقظة حتى يتشجعوا على القتال فقال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[3].

ثم أمر ـ سبحانه ـ المؤمنين بالثبات في وجه أعدائهم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال من آية ٣١ إلى آية ٤٠.

(٢) سورة الأنفال من آية ٤١ إلى آية ٤٢.

(٣) سورة الأنفال من آية ٤٣ إلى آية ٤٤.

(٤) سورة الأنفال آية ٤٥، ٤٦.

ثم نهى ـ سبحانه ـ المؤمنين عن التشبه بكفار مكة حين خرجوا إلى بدر بطراً ورئاءً للناس، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

ثم بين ـ سبحانه ـ عمل الشيطان وموقفه من المعركة، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[2].

وتحدث ـ سبحانه ـ عن موقف المنافقين فقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[3].

٩ ـ ثم شرع ـ سبحانه ـ في بيان أحوال الكافرين، وأرشد رسوله ﷺ والمؤمنين إلى الطرق والوسائل التي يكتفي بها من شرهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ

---

(١) سورة الأنفال، آية ٤٧.

(٢) سورة الأنفال، آية ٤٨.

(٣) سورة الأنفال، آية ٤٩.

إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾[1].

ثم مضت السورة الكريمة في تثبيت الطمأنينة في قلب النبي ﷺ وفي قلوب أصحابه، فبينت لهم أن الله كافيهم وناصرهم فقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[2].

١٠ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ حكم أسرى بدر فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال، من آية ٥٠ إلى ٦٠.

(٢) سورة الأنفال، من آية ٦٢ إلى آية ٦٦.

(٣) سورة الأنفال، من آية ٦٧ إلى آية ٧١.

١١ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالثناء على المهاجرين والأنصار فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾[١].

وبعد: اتضح ـ من خلال ما سبق ـ منهج القرآن الكريم في عرضه لغزوة بدر، كما تبين تفرده في منهجه، وأعتذر للقارىء حيث أوجزت[٢]، وفي ختام هذا الفصل ألخص أهم ما جاء فيه فأقول:

١ ـ بدأت السورة بالحديث عن الأنفال، والأنفال تكون آخر شيء يتحدث عنه بالنسبة للحديث عن المعارك، لكن القرآن بدأ به لأهميته.

٢ ـ كذلك تحدثت السورة عن كيفية خروج المسلمين من المدينة وبينت، بالذات، حالتهم النفسية عند الخروج.

٣ ـ وضحت السورة بجلاء كثيراً من النعم التي أنعمها الله على المؤمنين في هذه الغزوة من إنزال النعاس والمطر والإمداد بالملائكة... الخ.

٤ ـ وضحت السورة كثيراً من مواقف المشركين في الغزوة.. كيف كان خروجهم واستفتاحهم ومصيرهم وكان توضيحها جلياً لا يعادله توضيح.

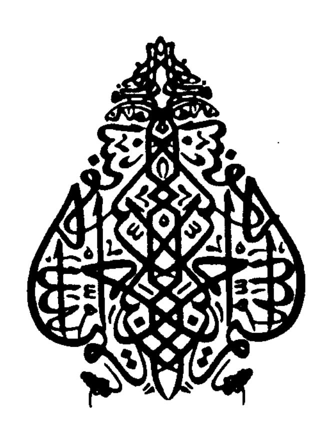
---

(١) سورة الأنفال، من آية ٧٢ إلى آية ٧٥.

(٢) من أراد التفصيل أكثر عليه بالرجوع إلى المصادر التالية: غزوة بدر لباشميل صفحة ٢١٦، والمنهج الحركي للسيرة النبوية: ١/٤٢٧، وتفسير سورة الأنفال لسيد قطب: ٣/١٤٢٩.

٥ ـ كذلك وضحت السورة الأحكام المتعلقة بالأسرى.

وبعد فإن المسلمين اليوم بحاجة إلى التعمق في دراسة غزوة بدر والاستفادة من دروسها وذلك لأن المسلمين اليوم أمام أعدائهم في قلة من ناحيـة العدد والعدة والكفـار في الأرض عموماً أضعـاف عدد المسلمين، وأسلحتهم قوتها لا تقارن بقوة المسلمين فهذا هو الطريق، وصدق الله إذ يقول: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾[1].



(١) سورة القمر، آية ٥.

البَابُ الثَاني

حَديث القرآن عن غـزوَة أُحـد

تمهيـد

غزوة أحد من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في شوال من السنة الثالثة من الهجرة . . . وكلامنا عن هذه الغزوة يتضمن ما يأتي :

أولاً: أسباب غزوة أحد .

ثانياً : أحداث غزوة أحد .

ثالثاً : نتائج غزوة أحد .



أولاً ـ أسباب غزوة أحد:

لما أصيب من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع ـ بعد غزوة بدر ـ فَلُّهم[1] إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعير التجارة، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة. وكانت تلك العير موقوفة في دار الندوة لم تعط لأربابها[2]، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا.

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب وأصحاب العير بأحابيشها[3] ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة[4].

---

(١) «فَلّ» الجيشَ: هزمه، وبابه ردّ يقال: «فَلَّه فانفلّ» أي كسره فانكسر. مختار الصحاح: ص ٥١٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٠ ـ بتصرف يسير.

(٣) الأحابيش: الجماعة أياً كانوا. وأحابيش قريش: بطن اختلف فيه فقال ابن قتيبة: هم بنو المصطلق والحياء بن سعد بن عمرو وبنو الهون بن خزيمة. اجتمعوا بذنب حبش، وحبش: بالضم: جبل بأسفل مكة ـ فتحالفوا بالله أن اليد على غيرنا، ما سجى ليل وأوضح نهار. وقال حماد الراوية: إنما سموا بذلك لاجتماعهم. والتحابش: هو التجمع في كلام العرب (المعارف ص ٢٦٩). وقال الجوهري: بطن من قريش. وقال أبو الفداء: هم بطون من كنانة من خزيمة، ثم قال: وليسوا من الحبشة كما يتوهم البعض. (انظر القاموس المحيط: ٢/ ٢٦٧)، وتاج العروس ـ فصل الحاء من باب الشين، مادة حبش: ٤/ ٢٩٣، ومعجم قبائل العرب: ١/ ٥).

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦١.

وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي قد مَنَّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر، وكان فقيراً ذا عيال وحاجة، وكان في الأسارى فقال: إني فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن عليّ صلى الله عليك وسلم، فمنّ عليه رسول الله ﷺ. فقال له صفوان بن أمية: يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك، فاخرج معنا، فقال: إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه، قال: بلى، فأعنا بنفسك، فلك الله عليّ إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فخرج أبو عزة في تهامة يدعو بني كنانة.

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة الجمحي إلى بني مالك بن كنانة، يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ[1].

ثانياً ــ أحداث غزوة أحــد:

خرجت قريش بكل طاقاتها، ومعها أحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجت معهم النساء التماس الحفيظة[2].

وبلغ عدد جيش قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس جعلوا على ميمنتها خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل وكان فيهم سبعمائة دارع[3].

وقد علم المسلمون بقدوم جيش المشركين لغزو المدينة، ورأى رسول الله ﷺ رؤيا ـ ورؤيا الأنبياء حق وهي من الوحي ـ حكاها لأصحابه فقال: (رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦١. وانظر مرويات غزوة أحد ـ رسالة ماجستير ـ للطالب أحمد الباكري: ص ٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٦٢.

(٣) المجتمع المدني في عصر النبوة: ص ٦٦.

المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقراً ـ والله خير ـ فإذا هم المؤمنون يوم أحد)[١].

الموقف في المدينة المنورة:

شاور النبي ﷺ أصحابه في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين.

وكان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة وقال: (أنا في جُنَّة حصينة) وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ، إلا أن رجالاً من المسلمين ممن كان فاته بدر، قالوا: يا رسول الله، أخرج بنا إلى أعدائنا، قال ابن إسحاق: (فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته[٢])[٣].

فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ﷺ: (أمرنا لأمرك تبع) فأتى حمزة فقال له: يا نبي الله إن القوم قد تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله ﷺ: (إنه ليس لنبي إذ لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل)[٤].

انسحاب المنافقيـن:

وفي منتصف المسافة بين المدينة وأحد، انسحب عن النبي ﷺ عبد الله ابن أبي بن سلول بثلث الجيش، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة: ٤/ ٢٤٧، وانظر الفتح: ٦/ ٦٢٦، وأيضاً ذكره في كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد: ٥/ ١٣١، وانظر الفتح: ٧/ ٣٧٥، ورواه مسلم أيضاً ـ كتاب الرؤيا ـ باب رؤيا النبي ﷺ: ٤/ ١٧٧٩.

(٢) اللأمة: الدرع الحصينة وسائر أداة الحرب.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٣.

(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٠٣، ٥٠٤.

أنفسنا ها هنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والرِّيَب[1].

وصول المسلمين إلى أحد:

قال ابن إسحاق: (ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشَّعب من أحد في عَدْوة الوادي إلى الجبل)[2].

وجعل النبي ﷺ خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير فوق جبل عينين المقابل لأحد لحماية المسلمين وقال لهم: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم)[3].

أحداث المعركة:

اشتد القتال بين الجيشين وتراجع المشركون إلى معسكرهم فقد أبدى المسلمون بطولة فائقة، فهذا رسول الله ﷺ يأخذ سيفاً فيقول: (من يأخذ مني هذا؟) فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال: (من يأخذه بحقه؟) قال: فأحجم القوم، فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه، قال: فأخذه ففلق به هام المشركين[4].

وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطاة بن شرحبيل، وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء، ثم مر به سباع بن عبد العزى وكان يكنى بأبي نيار، فقال له حمزة: هلم إليّ يابن مقطعة البظور، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله[5].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٥.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الجهاد ـ باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب: ٤/ ٧٩. وانظر فتح الباري: ٦/ ١٦٢.

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبي دجانة: ٤/ ١٩١٧ رقم الحديث ٢٤٧٠.

(٥) صحيح البخاري: كتاب المغازي ـ باب قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه: ٥/ ١٢٨، وانظر فتح الباري: ٧/ ٣٦٧.

وكان وحشي مولى جبير بن مطعم[1] قد وعده مولاه أن يعتقه إن قتل حمزة، وكان حمزة قد قتل عمه طعيمة بن عدي ببدر.

قال وحشي: فخرجنا مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قل ما أخطىء بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه جمل أورق يهد الناس بسيفه ما يبقى منه شيء.

فوالله إني لأتهيأ له أريده، وأستتر منه بشجرة أو حجر إذ تقدم منه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال: (هلم إليَّ يا ابن مقطعة البظور أتحادّ الله ورسوله؟).

قال وحشي: وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها نحوه فوقعت في ثُنَّتِهِ[2] حتى خرجت بين رجليه وذهب لينوء نحوي فغلب وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه[3].

واستشهد آخرون في هذه المرحلة الأولى من القتال منهم حامل الراية مصعب بن عمير[4].

قال خباب: (هاجرنا مع النبي ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى ـ أو ذهب ـ لم يأكل من أجره شيئاً كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا نمرة (أي كساء) كنا إذا غطينا بها

---

(١) جبير بن مطعم بن عدي القرشي، كان من زعماء قريش في الجاهلية، أسلم وحسن إسلامه، وكان أنسب قريش لقريش، والعرب قاطبة، روى له البخاري ومسلم ستين حديثاً، توفي رضي الله عنه عام ٥٩ هـ. (انظر الإصابة: ١/ ٢٢٥).

(٢) ثُنَّة بضم المثلثة وتشديد النون، هي العانة، وقيل: ما بين السرة والعانة. (انظر فتح الباري: ٧/ ٣٧٠).

(٣) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري: ٥/ ١٢٨، وانظر سيرة ابن هشام: ٣/ ٧٠.

(٤) انظر سيرة ابن هشام: ٣/ ٧٣.

رأسه خرجت رجلاه وإذا غطى بها رجلاه خرج رأسه.

فقال لنا النبي ﷺ: (غطوا بها رأسه واجعلوا الإذخر، أو قال: ألقوا على رجليه من الإذخر)[١].

ولما استشهد مصعب بن عمير أخذ علي بن أبي طالب اللواء، ولما رأى الرماة هزيمة المشركين قالوا لعبد الله بن جبير: (الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟) فقال عبد الله بن جبير: (أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة)[٢] ثم انطلقوا يجمعون الغنائم.

ورأى خالد بن الوليد ـ وكان على خيالة المشركين ـ الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتال من جديد وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون دون تخطيط، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان ـ والد حذيفة بن اليمان ـ وهو شيخ كبير وابنه يصيح فيهم: أبي! فأجهزوا عليه فقال حذيفة: (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)[٣].

وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتصالهم بالرسول ﷺ وشاع أنه قد قتل[٤].

وفر كثير من المسلمين من ميدان القتال وانتحى بعضهم جانباً فجلس دون قتال، في حين آثر آخرون الموت على الحياة بعد أن شاع خبر مقتله ﷺ

---

(١) من رواية البخاري: انظر صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب من قتل من المسلمين يوم أحد: ٥/ ١٣١، وانظر الفتح: ٧/ ٣٧٥.

(٢) من رواية البخاري: انظر صحيح البخاري ـ كتاب الجهاد ـ (باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب): ٤/ ٧٩، وانظر فتح الباري: ٦/ ١٦٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٣٠.

(٤) انظر فتح الباري: ٧/ ٣٦٠.

منهم أنس بن النضر، وكان أول من عرف بأن الرسول ﷺ حي هو كعب بن مالك فنادى في المسلمين يبشرهم فأمره الرسول ﷺ بالسكوت لئلا يفطن له المشركون.

ودعا النبي ﷺ أصحابه إلى الالتفاف حوله، وقد سجل القرآن الكريم ذلك في قوله: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾[1].

وخلص بعض المشركين إلى الرسول ﷺ نفسه وهو في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فقال: (من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟) فقاتلوا عنه واحداً واحداً حتى استشهد الأنصار السبعة[2]، ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله قتالاً مشهوراً حتى شلت يده بسهم أصابها. وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله ﷺ وهو يناوله السهام ويقول: (ارم فداك أبي وأمي). وكان سعد من مشاهير الرماة. ودافع أبو طلحة الأنصاري عن رسول الله ﷺ وكان رامياً، فكان النبي ﷺ يشرف على القتال، فيقول له أبو طلحة: (لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك) وكان إذا مر الرجل معه جعبة السهام يقول الرسول: (أنثرها لأبي طلحة)[3].

وأصيب الرسول ﷺ إصابات كثيرة فكسرت رباعيته وشج في وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الإسلام)، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٣.

(٢) من رواية مسلم، انظر صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب غزوة أحد: ٣/ ١٤١٥.

(٣) من رواية البخاري، انظر صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب «إذا همت طائفتان...»: ٥/ ١٢٧، وانظر فتح الباري: ٧/ ٣٦١.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٢٨.

واستشهد حنظلة بن أبي عامر، وثابت بن وقش، وقتل في أحد مخيرق وكان من اليهود.

وقد خرجت بعض النسوة مع جيش المسلمين إلى أحد منهن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية التي اضطرت للقتال دفاعاً عن رسول الله ﷺ حتى جرحت جراحاً كثيرة. وكانت حمنة بنت جحش الأسدية تسقي العطشى وتداوي الجرحى. وثبت أن أم سليط كانت تحمل قرب الماء لسقاية المسلمين.

وصح أن عائشة رضي الله عنها وأم سليم قامتا بسقي الجرحى بعد تراجع المسلمين[1].

واستمر القتال بين الطرفين حتى أجهد الجانبين، وبدأ الرسول ﷺ بالانسحاب نحو شعاب أحد وقد لحق به المسلمون حتى صعد في أحد شعابه وتمكن المسلمون من صد المشركين عنه.

تأييد الله عز وجل لرسوله ﷺ والمؤمنين بأمور منها:

١ ـ أمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ﷺ بملائكة يدافعون عنه ويقاتلون جاء ذلك في صحيح البخاري[2] ومسلم[3] ـ واللفظ لمسلم ـ: عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله، يوم أحد، رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد ـ يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام ـ.

---

(١) انظر صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب «إذ همت طائفتان...»: ٥/ ١٢٥، وانظر فتح الباري: ٧/ ٣٦١.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ غزوة أحد، باب: «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا..»: ٥/ ١٢٤، وانظر الفتح: ٧/ ٣٥٦.

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب في قتال جبريل وميكائل عن النبي ﷺ يوم أحد: ٤/ ١٨٠٢، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي: ١٥/ ٦٦.

٢ ـ إنزال النعاس على المؤمنين: كان المسلمون مغتمين لما أصاب الرسول ﷺ فأنزل الله تعالى عليهم النعاس فناموا يسيراً ثم أفاقوا وقد زال عنهم الخوف وامتلأت نفوسهم طمأنينة، قال أبو طلحة الأنصاري: (كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وآخذه ويسقط فآخذه)[١].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[٢]. وهذه الطائفة التي أهمتها نفسها دون أن تفكر بمصاب المسلمين ومصير الإسلام هي المنافقون الذين قال قائلهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[٣].

ومن الذين قتلهم بيده الشريفة أبي بن خلف الجمحي وقد حلف أن يقتل رسول الله ﷺ فرماه الرسول بحربة فجرحه فرجع إلى أصحابه ومات في طريق عودتهم من أحد.

نهايـة المعركـة:

يئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، فكفوا عن مقاتلة المسلمين في شعاب أحد.

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا سفيان بن حرب، حين أراد الانصراف، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال: أنعمْتَ فعال، وإن الحرب

---

(١) انظر صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قوله تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً﴾: ٥/١٢٧. وانظر فتح الباري: ٧/٣٦٥.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٤. وانظر تفسير هذه الآية صفحة ١٧٦ من هذا الكتاب.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

سجال يوم بيوم، أُعْلِ هبل، أي ظهر دينك، فقال رسول الله ﷺ: (قم يا عمر فأجبه، فقل: الله أعلى وأجل لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار)، فلما أجاب عمر أبا سفيان، قال له أبو سفيان: هلم إليّ يا عمر، فقال رسول الله ﷺ لعمر: (ائته فانظر ما شأنه)، فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر[1].

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه، نادى: إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: (قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد)[2].

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: (اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون فإن كانوا قد جنبوا الخيل[3] وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم). قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة.

وأمر الرسول ﷺ بدفن الشهداء، وكانوا سبعين شهيداً ولم يؤسر أحد من المسلمين، أما قريش فقد قتل منها اثنان وعشرون رجلاً وأسر منهم أبو عزة الشاعر فقتل صبراً لأنه أخلف وعده للرسول ﷺ بأن لا يقاتل ضده عندما منّ عليه ببدر وأطلقه فعاد فقاتل بأحد.

وقد صح أن الرسول ﷺ جمع بين الرجلين من الشهداء في ثوب واحد، وقدم عند الدفن أكثرهم حفظاً للقرآن، وأمر بدفنهم في دمائهم ولم يغسلوا ولم

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٩٤.
(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٩٤.
(٣) جنبوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم. (هامش سيرة ابن هشام: ٣/ ٩٤.

يصل عليهم، وقال: (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة)[1].

ثالثاً ــ نتائج غزوة أحد:

غزوة أحد لها نتائج كثيرة نذكر من أهمها:

١ ــ استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون، ولم يؤسر أحد من المسلمين، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون.

٢ ــ أظهر المنافقون واليهود بالمدينة فرحهم وفارت المدينة بالنفاق، فقال اليهود: لو كان نبياً ما ظهروا عليه ولا أصيب منه ولكن طالب ملك تكون له الدولة وعليه. وقال المنافقون: لو كنتم أطعتمونا لما أصابكم ما أصابكم[2].

٣ ــ كانت أحد ابتلاء من الله، فقد جرت حكمة الله عز وجل أن الرسل تبتلى، ثم تكون العاقبة لهم، ولو انتصروا دائماً لدخل في المسلمين من ليس منهم، ولا يسمى ما وقع في أحد هزيمة فقد سماها القرآن الكريم قرحاً[3] وسماها إصابة[4]، قال الشيخ محمد أبو زهرة: إن تسمية ما أصاب المسلمين بأحد هزيمة ليست تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق إنما تكون الهزيمة إذا كان جيش الإيمان قد فر فراراً والآخر تبعه في فراره حتى داهم المدينة[5].

---

(١) انظر صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب من قتل من المسلمين يوم أحد: ٥/ ١٣١، وانظر فتح الباري: ٧/ ٣٧٤.

(٢) مرويات غزوة أحد ص ٣٧٣. وانظر السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٩٦.

(٣) جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾.

(٤) جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿أولمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾.

(٥) خاتم النبيين: للشيخ محمد أبو زهرة: ٢/ ٢٢١ ـ بتصرف يسير.

الفصل الأول

حديث القرآن عن غزوة أحد
وتفسير الآيات الواردة في ذلك

لقد تحدث القرآن الكريم عن غزوة أحد في سورة آل عمران، أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن يحيى بن حبان والحصين بن عبد الرحمن بن سعد بن معاذ قالوا:

«كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين ومحق به الكافرين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه وهو مستخفٍ بالكفر، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته، فكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومه ذلك، ومعاتبة من عاتب منهم. يقول الله لنبيه: **﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم﴾**[1].

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف: يا خال أخبرني عن قصتكم يوم أحد. قال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجدها[2].

وإليك تفسير الآيات الكريمة التي جاءت في هذه الغزوة، وقد قسمت حسب موضوعاتها فجاءت في ثلاث مباحث:

---

(١) الدر المنثور للسيوطي: ٢/٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢/٣٠٢، وانظر فتح الباري: ٧/٣٤٧.

* المبحث الأول: مقدمات غزوة أحد.
* المبحث الثاني: وصف غزوة أحد.
* المبحث الثالث: التوجيهات القرآنية بعد المعركة.

* * *

المبحث الأول
مقدمات الغزوة

إنفاق المشركين الأموال الضخمة لتجهيز جيشهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1].

سبب نزول الآية:

١ ــ قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري وغيره قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلُّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا قال ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل: **﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم..﴾** إلى قوله: **﴿.. هم الخاسرون﴾**[2].

---

(١) سورة الأنفال، آية ٣٦.
(٢) تفسير ابن كثير: ٢/٣٠٧.

٢ ــ وروى الطبري عن سعيد بن جبير قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة فقاتل بهم النبي ﷺ[١] . . .

٣ ــ أنه أراد بذلك المشركين من أهل بدر قاله الضحاك[٢].

وقال ابن الجوزي: أنها نزلت في المطعمين ببدر[٣].

قال ابن كثير: وعلى كل تقدير فهي عامة وإن كان سبب نزولها خاصاً[٤].

وقال الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي ما قلنا، وهو أن يقال: إن الله أخبر عن الذين كفروا به من مشركي قريش أنهم ينفقون أموالهم، ليصدوا عن سبيل الله لم يخبرنا بأيّ أولئك عني، غير أنه عمّ بالخبر الذين كفروا، وجائز أن يكون عني المنفقين أموالهم لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، وجائز أن يكون عني المنفقين منهم بذلك ببدر، وجائز أن يكون عني الفريقين[٥].

والمعــنى الإجمالـي:

إن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصدّ عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش.

---

(١) تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٤.
(٢) تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٦.
(٣) زاد المسير: ٣/ ٣٥٥.
(٤) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٠٧.
(٥) تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٦.

ثـم أخبـر الله ـ سبحـانـه ـ عـن الغيـب علـى وجـه الإعجـاز فقـال: ﴿فسينفقونها﴾ أي سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ثم تكون﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم وكأن ذات الأموال تنقلب حسرة وتصير ندماً، ثم في آخر الأمر: ﴿يغلبون﴾ ثم قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ إن استمروا على الكفر[1].

الاستعداد للقتال وترتيب الصفوف وتجهيز الجيش للمعركة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾[2].

الغدو: الخروج وقت الغداة، وهو أول النهار. يقال: غدا يغدو من باب، سما يسمو.

ومن: في قوله: ﴿من أهلك﴾ ابتدائية، والأهل: الزوج، والكلام بتقدير مضاف يدل عليه فعل «غدوت» أي من بيت أهلك وهو بيت عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿تبوىء﴾ أصله من التبوء وهو اتخاذ المنزل، يقال: بوأته، وبوأت له منزلاً، أي أنزلته فيه، وانتصب «المؤمنين» على أنه مفعول أول لـ «تُبوِّىء» ومقاعد مفعول ثانٍ إجراء لفعل تبوىء مجرى تعطى.

والقعود: ضد الوقوف والقيام[3].

والعامل في إذ: فعل مضمر تقديره واذكر.

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/٣٠٦.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٢١.
(٣) انظر تفسير القرطبي: ٤/ ١٨٤، وكذلك انظر حاشية الجمل على الجلالين: ١/ ٣١٠.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجدها ذكرت باستعداد النبي ﷺ والمسلمين للقتال يوم أحد.

والمعنى:

واذكر لهم يا محمد ليعتبروا ويتعظوا وقت خروجك مبكراً من حجرة زوجتك عائشة إلى غزوة أحد.

وقوله: ﴿**تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال**﴾ أي تنزلهم وتسوي لهم بالتنظيم والترتيب مواطن وأماكن للقتال، بحيث يكونون في أحسن حال، وأكمل استعداد لملاقاة أعدائهم.

وعبر عن الخروج بالغدوّ الذي هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة لأنه قد عبر بالغدو والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما كما يقال، أضحى وإن لم يكن وقت الضحى[1].

وقوله: ﴿**والله سميع عليم**﴾ تذييل قصد به غرس الرغبة في قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم في غزوة أحد، حيث خالفوا وصية رسول الله ﷺ..

ويلاحظ القارىء الكريم معي أن هذه الآية الكريمة تكلمت عن كيفية استعداد المسلمين لغزوة أحد، كما بينت أنه كان هناك تنظيم مباشر من الرسول ﷺ للجيش وطريقة القتال.

وفي أثناء سير الجيش إلى أحد انسحب زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش، فأثر ذلك في نفسية بعض المسلمين وراود قلوبهم الضعف والفشل فأوضح ـ سبحانه ـ ذلك بقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[2].

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/٣٧٧.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٢٢.

عن جابر رضي الله عنه قال: فينا نزلت: **﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾** قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى: **﴿والله وليهما﴾** رواه البخاري[١] ومسلم[٢].

والهم: هو حديث النفس واتجاهها إلى شيء معين دون أن تأخذ في تنفيذه فإذا أخذت في تنفيذه صار عزماً.

وتفشلا: من الفشل وهو الجبن.

قال الزمخشري: «والطائفتان حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس... هموا بإتباع عبد الله بن أبيّ عندما انخذل بثلث الناس وقال: يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس قال: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا ـ والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ـ كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر، ويوطنها على احتمال المكروه.. ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية[٣].

وقوله: **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** تقديم الجار والمجرور أفاد قصر التوكل على الله وحده، والمعنى: على الله وحده لا على غيره فيكل المؤمنون أمورهم إلى الله، بعد اتخاذ الأسباب التي أمرهم ـ سبحانه ـ باتخاذها فإنهم متى فعلوا ذلك تولاهم ـ سبحانه ـ بتأييده ورعايته.

وفي هذه الآية الكريمة تربية للمؤمنين حيث بينت لهم أن الله مطلع على

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا..: ١٢٣/٥.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل الأنصار: ١٩٤٨/٤.
(٣) تفسير الكشاف: ٤٦٠/١ ـ ٤٦١ ـ بتصرف يسير.

أعمالهم أثناء خروجهم إلى غزوة أحد، كما أرشدهم سبحانه على التوكل عليه وحده وذلك لأن دخول المعارك أمر ليس بالهين والسهل يحتاج فيه المقاتل إلى الصبر وقوة العزيمة، وخير فعلٍ يتخذ هو التوكل الحقيقي على الله.

* * *

المبحث الثاني
وصف غزوة أحد

وصف أطوار المعركة:

بين ـ سبحانه ـ ما حدث للمؤمنين في غزوة أحد، فبين كيف أنهم انتصروا، على أعدائهم في أول المعركة، ثم كيف أصيبوا بالجراحات بعد ذلك بسبب فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم لرسولهم ﷺ والآيات القادمة التي سنفسرها صورت أحوال المؤمنين في هذه المعركة تصويراً بليغاً مؤثراً، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[1].

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[2].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٣.

ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ (١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ (٢).

قوله تعالى: **﴿ولقد صَدَقكُم اللّهُ وعدهُ، إذ تحسونَهُم بإذنه حتى إذا فشِلتُم، وتنازعتُم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين﴾**.

سبب النزول: قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: **﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾** الآية إلى قوله: **﴿منكم من يريد الدنيا﴾** يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد (٣).

وصدق الوعد: معناه: تحقيقه والوفاء به، والصدق: مطابقة الخبر الواقع.

والمراد بهذا الوعد، ما وعد الله به المؤمنين من النصر والظفر مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ (٤).

ومعنى: **﴿تحسُّونهم﴾** تقتلونهم وتستأصلونهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٥.

(٣) أسباب النزول للواحدي ـ بتحقيق السيد أحمد صقر ـ ص ١٢١، وانظر القرطبي: ٤/ ١٢١.

(٤) سورة محمد، آية ٧.

قال الشاعر:

حَسَسْناهم بالسيف حَسّاً فأصبحت بقيتُهم قد شُردُوا وتبددوا[1]

قال أبو عبيد: الحَسُّ الاستئصال بالقتل، وأطلقه أكثر اللغويين على القتل، وقيده في الكشاف بالقتل الذريع، وهو الأصوب، يقال: حسَّه حسّاً، إذا قتله، وحقيقته أصاب حاسته بآفة فأبطلها..

والمعنى: ولقد حقق الله تعالى ـ لكم أيها المؤمنون ـ ما وعدكم به من النصر على أعدائكم، إذ أيدكم في أول معركة أحد بعونه وتأييده، فصرتم تقتلون المشركين قتلاً ذريعاً شديداً بإذنه وتيسيره، ورعايته. روى البخاري عن البراء بن عازب، قال: «جعل النبي ﷺ على الرجال يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير فقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشتدون قد بدت خلاخِلهن وأسوقهن[2] رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة أي قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون، فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ، قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين..»[3].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن ما أصاب المسلمين من ابتلاء وجراحات بعد ذلك كان بسبب فشلهم وتنازعهم فقال ـ تعالى ـ: **﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾**.

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/ ٢٣٥.

(٢) جمع ساق، أي ليعينهن ذلك على سرعة الهرب. (انظر الفتح: ٧/ ٣٥٠).

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب ما يكره من التنازع: ٤/ ٧٩، وانظر الفتح: ٦/ ١٦٢.

﴿حتى﴾: حرف انتهاء وغاية، يفيد أن مضمون الجملة التي بعدها غاية لمضمون الجملة التي قبلها، فالمعنى: إذ تقتلونهم بتيسير الله، واستمر قتلكم إياهم إلى حصول الفشل لكم والتنازع بينكم[1].

و ﴿إذا﴾: اسم زمان، وهو في الغالب للزمان المستقبل وقد يخرج عنه إلى الزمان مطلقاً كما هنا، ولعل نكتة ذلك أنه أريد استحضار الحالة العجيبة تبعاً لقوله: ﴿تحسونهم﴾[2].

والفشل: الجبن، والمراد جبنتم، وضعفتم. يقال: فَشِل يفْشَل فهو فشِل وفَشْل[3].

والتنازع: التخالف، والمراد بالعصيان هنا عصيان أمر الرسول، وقد رتب الأفعال الثلاثة في الآية على حسب ترتيبها في الحصول[4]..

﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾: يعني من الغلبة التي كانت للمسلمين يوم أحد أول أمرهم. وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادىء النصر، فكان أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام[5]..

قال الفخر الرازي: فإن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾؟ فالجواب عنه: أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم[6].

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ١٢٨/٤.
(٢) نفس المصدر: ١٢٨/٤.
(٣) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٣٥.
(٤) تفسير التنوير والتحرير: ١٢٨/٤.
(٥) تفسير القرطبي: ٢٣٦/٤ ـ ٢٣٧ ـ بتصرف.
(٦) تفسير الرازي: ٣٧/٩.

ثم قال تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة﴾.

قال القرطبي: قوله سبحانه: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ يعني الغنيمة.

قال عبد الله بن مسعود: «ما شعرنا أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد..»(١).

﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ هم الذين ثبتوا في مركزهم، ولم يخالفوا أمر نبيهم ﷺ مع أميرهم عبد الله بن جبير(٢).

ثم قال تعالى: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: وإنما قال: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ليدل على أن ذلك الصرف بإذن الله وتقديره، كما كان القتل بإذن الله، وأن حكمته من الابتلاء، ليظهر للرسول وللناس من ثبت على الإيمان من غيره، ولأن في الابتلاء أسراراً عظيمة في المحاسبة بين العبد وربه سبحانه وقد أجمل هذا الابتلاء هنا وسيبينه.

وعقب هذا الملام بقوله: ﴿ولقد عفا عنكم﴾ تسكيناً لخواطرهم. وفي ذلك تلطفّ معهم على عادة القرآن في تقريع المؤمنين.

وفيه أيضاً دلالة على صدق إيمانهم إذ عجل لهم الإعلام بالعفو لكيلا تطير نفوسهم رهبة وخوفاً من غضب الله تعالى(٣).

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ تأكيد ما اقتضاه قوله: ﴿ولقد عفا عنكم﴾.

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٣٧.
(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٣٧.
(٣) تفسير التنوير والتحرير: ٣/ ١٣٠.

والظاهر أنه عفو لأجل التأويل، فلا يحتاج إلى التوبة، ويجوز أن يكون عفواً بعدما ظهر منهم من الندم والتوبة[1].

ويستفاد من التعبير بكلمة: ﴿صرفكم﴾ دون كلمة: «هزمتم» لأن ما حدث في أحد لم يكن هزيمة وإن لم يكن نصراً، لأن الهزيمة تقتضي أن يولي المسلمون الأدبار وأن يتحكم فيهم أعداؤهم وما حدث في أحد لم يكن كذلك.

ثم فصل ـ سبحانه ـ ما حدث في المعركة، فبين ما كان من بعضهم بعد أن اضطربت أحوالهم، وجاءهم أعداؤهم من أمامهم ومن خلفهم بسبب ترك معظم الرماة لأماكنهم، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[2].

﴿تصعدون﴾ من الإصعاد وهو الذهاب في صعيد الأرض والإبعاد فيه، يقال: أصعد في الأرض إذا أبعد في الذهاب وأمعن فيه، فهو الصعد.

قال القرطبي: الإصعاد: السير في الأرض في مستو من الأرض وبطون الأودية والشعاب، والصعود: الارتفاع على الجبال والدرج[3]...

وعن السدي قال: لما شدّ المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء نبي الله ﷺ فقال: ﴿**إذ تصعدون**..﴾ الآية[4].

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ٣/ ١٣٠.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٣.
(٣) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٣٩.
(٤) تفسير الطبري: ٤/ ١٣٣.

يقول سيد قطب: في قوله: ﴿**إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، والرسول يدعوكم في أخراكم**﴾ العبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في ألفاظ قلائل.. فهم مصعدون في الجبل هرباً، في اضطراب ورعب، ودهش لا يلتفت أحد منهم إلى أحد، ولا يجيب أحد منهم داعي أحد! والرسول ﷺ يدعوهم، ليطمئنهم على حياته بعدما صاح صائح: إن محمداً قد قتل، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم.. إنه مشهد كامل في ألفاظ قلائل[1]..

وقوله: ﴿**فأثابكم غماً**﴾ إن كان ضمير ﴿**فأثابكم**﴾ ضمير اسم الجلالة وهو الأظهر والموافق لقوله بعده: ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغم**﴾ فهو عطف على ﴿**صرفكم**﴾ أي ترتب على الصرف إثابتكم.

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿**فأثابكم غماً بغم**﴾ الغم في اللغة: التغطية، يقال: غممت الشيء أي غطيته. ويوم غَمٌّ وليلة غَمّةٌ إذا كانا مظلمين[2].

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: والغم الأول القتل والجراح والغم الثاني الإرجاف بمقتل النبي ﷺ وقيل: الغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني استعلاء المشركين عليهم وعند ذلك قال النبي ﷺ: (اللهم لا يَعْلُنَّ علينا)، والباء في ﴿**بغم**﴾ على هذا بمعنى على، وقيل: هي على بابها. والمعنى أنهم غموا النبي ﷺ بمخالفتهم إياه فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم[3].

وقوله: ﴿**لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم**﴾ تعليل لقوله:

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٤٩٥.
(٢) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٤٠.
(٣) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٤٠ ـ بتصرف.

﴿ولقد عفا عنكم﴾ أي: ولقد عفا الله تعالى عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم ونصر، ولا على ما أصابكم من جراح وآلام، فإن عفو الله ـ تعالى ـ يذهب كل حزن، ويمسح كل ألم.

وقال الزمخشري: معنى: ﴿لكي لا تحزنوا﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع، ولا على مصيب من المضار..

ثم قال: ويجوز أن يكون الضمير في ﴿فأثابكم﴾ للرسول، أي: فآساكم في الاغتمام ـ أي فصار أسوتكم ـ لأنه كما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما فقد غمه ما نزل بكم، فأثابكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غمٍّ اغتممتوه لأجله، ولم يثبكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو[1].

وقوله: ﴿والله خبير بما تعملون﴾.

أي والله تعالى عليم بأعمالكم خبير بما انطوت عليه نفوسكم، وبهذا ختمت الآية الكريمة وفيها تربية للمؤمنين بعد الغزوة حيث قص ـ سبحانه ـ خبرهم وما حصل منهم. ثم ذكر المؤمنين بنعمة عظيمة أنعمها عليهم، حيث أنزل على طائفة منهم النعاس الذي أدخل الطمأنينة على قلوبهم، وزال الخوف والفزع من نفوسهم فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[2].

الأمنة: ـ بفتحتين ـ مصدر كالأمن. يقال: أمن أمناً، وأماناً وأمنة.

والنعاس: هو الفتور في أوائل النوم، ومن شأنه أن يزيل عن الإنسان

---

(١) تفسير الكشاف: ١/ ٤٧١ ـ بتصرف.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

بعض متاعبه، ولا يغيب صاحبه، فلذلك كان أمنة لهم، لأنه لو كان نوماً ثقيلاً لهاجمهم المشركون.

قال ابن كثير: يقول تعالى ممتناً على المؤمنين فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال في سورة الأنفال: ﴿**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه**﴾ فعن ابن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان[1].

وروى البخاري عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه[2].

وقوله: ﴿**نعاساً**﴾ بدل من أمنة أو عطف بيان.

قال الفخر الرازي: واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد:

أحدها: أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة للنبي ﷺ، ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدودا إيماناً مع إيمانهم ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم في محاربة العدو، ووثوقهم بأن الله منجز وعده.

ثانيها: أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال، والنوم يفيد عود القوة، والنشاط واشتداد القوة والقدرة.

وثالثها: أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم، فبقاؤهم في

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤١٨ ـ بتصرف.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قوله تعالى: ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً**﴾: ٥/ ١٢٧، وانظر فتح الباري: ٧/ ٣٦٥.

النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أول الدلائل على حفظ الله وعصمته لهم، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم، ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله[1].

موقف المنافقين في المعركة:

بين ـ سبحانه ـ موقف المنافقين في المعركة فقال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾[2].

قوله: **﴿وطائفةٌ قد أهمتهُم أنفسُهم يظنونَ بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية﴾**: الطائفة: تطلق على الواحد والجماعة[3]. والمراد بهذه الطائفة هم معتب بن قشير وأصحابه[4].

وقوله: **﴿أهمتهم أنفسهم﴾** حملتهم على الهم، والهم: ما يهتم له الإنسان أو يحزنه، يقال: أهمني الأمر أي أقلقني وأزعجني، كما يقال: أهمني الشيء، أي جعلني مهتماً به اهتماماً شديداً.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: معنى: **﴿أهمتهم أنفسهم﴾** أي حَدثتهم أنفسهم، بما يدخل عليهم الهمّ وذلك بعد رضاهم بقدر الله، ولشدة تلهفهم على ما أصابهم وتحسرهم على ما فاتهم مما يظنونه منجياً لهم لو علموه: أي من الندم على ما فات. وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرق يمنعهم من الاطمئنان ومن المنام[5].

---

(١) تفسير الرازي: ٩/ ٤٥ ـ بتصرف.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٤.
(٣) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٤٢.
(٤) تفسير الشوكاني: ١/ ٣٩١.
(٥) تفسير التنوير والتحرير: ٤/ ١٣٤.

وقوله: ﴿**يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية**﴾.

وصف آخر لسوء أخلاق هذه الطائفة التي ضعف إيمانها وصارت لا يهمها إلا ما يتعلق بمنافعها الخاصة.

أي أنهم ذهبت بهم هواجسهم إلى أن ظنوا بالله ظنوناً باطلة من أوهام الجاهلية، وإنما كان هذا الظنّ غير الحق لأنّه تخليط في معرفة صفات الله وصفات رسوله وما يجوز وما يستحيل، فإن لله أمراً وهدياً وله قدر وتيسير، وكذلك لرسوله الدعوة والتشريع وبذل الجهد في تأييد الدين، وهو في ذلك معصوم، وليس معصوماً من جريان الأسباب الدنيوية عليه، ومن أن يكون الحرب بينه وبين عدوه سجالاً، قال أبو سفيان لهرقل وقد سأله: كيف كان قتالكم له؟ فقال أبو سفيان: ينال منّا وننال منه، فقال هرقل: وكذلك الإيمان حتى يتمّ فظنهم ذلك ليس بحقّ[1].

ومن هذه الظنون أنهم توهموا أن الله تعالى لن ينصر رسوله ﷺ وأن الإسلام ليس ديناً حقاً، وأن المسلمين لن ينتصروا على المشركين بعد معركة أحد... إلى غير ذلك من الظنون الباطلة التي تتولد عند المرء الذي ضعف إيمانه، وصار لا يهمه إلا أمر نفسه.

وقوله: ﴿**ظنّ الجاهلية**﴾.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: أي ظن الذين لم يعرفوا الإيمان أصلاً فهؤلاء المتظاهرون بالإيمان لم يدخل الإيمان في قلوبهم، فبقيت معارفهم كما هي في عهد الجاهلية.

وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن الكريم، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم، ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذمّ في نحو قوله: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾، ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية**

---

(١) المصدر نفسه: ٣/ ١٣٥ ـ بتصرف.

الأولى﴾، ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾.

وقالوا: شعر الجاهلية وأيام الجاهلية ولم يسمع ذلك كله إلا بعد نزول القرآن وفي كلام المسلمين[1].

وقوله تعالى: **﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾.**

الاستفهام للإنكار بمعنى النفي، وهم يريدون بهذا القول تبرئة نفوسهم من أن يكونوا سبباً فيما أصاب المسلمين من آلام يوم أحد وأن الذين تسببوا في ذلك هم غيرهم.

وذلك أن عبد الله بن أبي لما استشاره النبي ﷺ في شأن الخروج لقتال المشركين في أحد أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، إلا أن رسول الله ﷺ خرج لقتال المشركين بناء على إلحاح بعض الصحابة فلما أخبر ابن أبي بمن قتل من الخزرج قال: هل لنا من الأمر شيء؟ يعني أن النبي ﷺ لم يقبل قوله حين أشار عليه بعدم الخروج من المدينة.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد على هؤلاء الظانين بالله ظن السوء، بقوله: **﴿قل إن الأمر كله لله﴾** أي ليس لكم ولا لعدوكم منه شيء، فالنصر بيده والظفر منه[2].

قوله: **﴿يخفون في أنفسهم﴾.**

قال ابن الجوزي في الذي أخفوه ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه قولهم: لو كنا في بيوتنا ما قتلنا ها هنا.

والثاني: أنه إسرارهم الكفر، والشك في أمر الله.

والثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد[3].

---

(١) التنوير والتحرير: ٣/ ١٣٦ ـ بتصرف.

(٢) تفسير الشوكاني: ١/ ٣٩١.

(٣) زاد المسير: ١/ ٤٨٢.

﴿**ما لا يبدون لك**﴾ ما لا يستطيعون إظهاره أمامك.

وقوله: ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ها هنا**﴾ أي ما قتل من قتل منا في هذه المعركة.

فأنت ترى أن القرآن يحكي عنهم أنهم يريدون تبرئة أنفسهم مما نزل بالمسلمين بأحد وأنهم لو كان لهم رأي مطاع لبقوا في المدينة ولم يخرجوا منها لقتال المشركين.

وأن التبعة في كل ما جرى في غزوة أحد يتحملها النبي ﷺ وأصحابه الذين ألحوا عليه في الخروج لقتال المشركين، خارج المدينة، وأن النبي ﷺ وأصحابه لو كانوا على الحق لانتصروا...

قال الطبري: وذكر أن ممن قال هذا القول ـ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ـ معتب بن قشير من بني عمرو بن عوف. فعن عبد الله بن الزبير عن الزبير قال: والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني، ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: «لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ها هنا»[١].

ثم قال تعالى: ﴿**قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**﴾.

قوله: ﴿**لبرز**﴾ من البروز وهو الخروج من المكان الذي يستتر فيه الإنسان.

والمضاجع: جمع مضجع وهو مكان النوم، والمراد به هنا المكان الذي استشهد فيه من استشهد من المسلمين.

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

والمعـــنى:

قل يا محمد للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين: لو كنتم قاعدين في بيوتكم لم يكن بد من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع التي صرعوا فيها فإن قضاء الله لا يرد[1].

ثم بين سبحانه بعض حكم الابتلاء في غزوة أحد فقال تعالى: **﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور﴾**.

و «الابتلاء»: الاختبار، وهو هنا كناية عن أثرة، وهو إظهاره للناس ليتميز قوي الإيمان من ضعيفه.

والتمحيص: تخليص الشيء مما يخالطه مما فيه عيب له والجملة معطوفة على كلام سابق يفهم من السياق.

والتقدير: نزل بكم ما نزل من الشدائد في أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن وليعاملكم ـ سبحانه ـ معاملة المختبر لنفوسكم، فيظهر ما تنطوي عليه من خير أو شر، حتى يتبين الخبيث من الطيب، وليخلص ما في قلوبكم ويزيل ما عساه يعلق بها من أدران.

ثم ختم الله ـ سبحانه ـ الآية بقوله: **﴿والله عليم بذات الصدور﴾** أي بما فيها، وقال ابن الأنباري: «معناه عليم بحقيقة ما في الصدور من المضمرات»[2].

الطائفة التي فرت يوم أحد وأكرمها الله بالعفو:

رجعت طائفة من الجيش إلى المدينة يوم أحد، وقد تحدث ـ سبحانه ـ

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ٣٩١.

(٢) زاد المسير: ١/ ٤٨٢.

عن هذه الطائفة وأخبر بأنه قد عفا عنها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾[1].

روى الطبري بسنده عن السديّ أنه قال: لما انهزموا يومئذ تفرق عن رسول الله ﷺ أصحابه، فدخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، فذكر الله عز وجل الذين انهزموا، فدخلوا المدينة، فقال: ﴿**إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان...**﴾ الآية[2].

قوله: ﴿**تولوا**﴾ من التولي ويستعمل هذا اللفظ بمعنى الإقبال وبمعنى الإدبار، فإن كان متعدياً بنفسه كان بمعنى الإقبال كما في قوله تعالى: ﴿**ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا**﴾.

وإذا كان متعدياً بعن أو غير متعد أصلاً كان بمعنى الإعراض كما في الآية التي معنا، ﴿**يوم التقى الجمعان**﴾ يوم أحد.

وقوله: ﴿**استزلهم الشيطان**﴾:

قال الراغب: استزله إذا تحرى زلته وقوله تعالى: ﴿**إنما استزلهم الشيطان**﴾ أي استجرهم الشيطان حتى زلوا، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مُسَهلةً لسبيل الشيطان على نفسه[3].

وقوله: ﴿**ببعض ما كسبوا**﴾ الباء للسببية، والمراد ﴿**ببعض ما كسبوا**﴾ ببعض ما عملوا من الذنوب.

وقوله: ﴿**ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم**﴾.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٥.

(٢) تفسير الطبري: ٤/١٤٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ص ٢١٤.

بيان بأن الله قد عفا عن هؤلاء الزالِّين.

قال ابن الجوزي: وذكر في سبب فرارهم يومئذٍ أنهم سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل، فترخصوا في الفرار، قاله ابن عباس[1].

عتاب من جزع من المسلمين يوم أحد:

ثم عاتب ـ سبحانه ـ من جزع من المسلمين فقال تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾[2].

الهمزة في قوله: ﴿أولما..﴾ للاستفهام الإنكاري.

والواو، للعطف على محذوف. ولما، ظرف بمعنى حين مضافة إلى ما بعدها، مستعملة في الشرط.

والمصيبة: أصلها في اللغة الرمية التي تصيب الهدف ولا تخطئه، ثم أطلقت على ما يصيب الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله أو غير ذلك من مضار.

وقوله: ﴿مثليها﴾ أي ضعفها، فإن مثل الشيء ما يساويه، ومثليه ضعفه.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: أو حين أصابتكم ـ أيها المؤمنون ـ مصيبة، وهي القتلى الذين قتلوا منهم يوم أحد، والجرحى الذين جرحوا منكم، وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفراً، ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يقول: قد أصبتم أنتم ـ أيها المؤمنون ـ من المشركين مثلي هذه المصيبة التي أصابوا هم منكم، وهي المصيبة التي أصابها المسلمون من المشركين ببدر، وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، ﴿قلتم أنَّى

---

(١) زاد المسير: ١/ ٤٨٣.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٦٥.

هذا﴾ يعني: أي من أيّ وجه هذا، ومن أين أصابنا هذا الذي أصابنا، ونحن مسلمون وهم مشركون، وفينا نبيّ الله ﷺ، يأتيه الوحي من السماء، وعدونا أهل كفر بالله وشرك؟[1]. . .

وقد رد الله تعالى عليهم بما من شأنه أن يعيد إليهم صوابهم وبما يعرفهم السبب الحقيقي في هزيمتهم فقال: **﴿قل هو من عند أنفسكم﴾**.

أي مما اقترفته أنفسكم من مخالفة بترك أمر النبي ﷺ.

فأنتم الذين أبيتم إلا الخروج مع أن النبي ﷺ أشار عليكم بالبقاء في المدينة.

وأنتم الذين خالفتم وصيته بترككم أماكنكم التي حددها لكم وأمركم بالثبات فيها وختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله: **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾**.

تذييل قصد به تأكيد كمال قدرته للمؤمنين حتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم في غزوة أحد مرة أخرى.

وفي ذكر قدرته ههنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره ولا تتكلوا على سواه[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾[3].

«ما» موصولة بمعنى الذي في محل رفع بالابتداء، وجملة: **﴿أصابكم﴾**

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١٦٤.

(٢) تفسير القاسمي: ٤/٢٨٦.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٦٦ و ١٦٧.

صلة الموصول، وقوله: ﴿فبإذن الله﴾ هو الخبر، ودخلت الفاء في الخبر لشبه المتبدأ بالشرط[1].

قوله: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾.

أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك[2].

قوله: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا والعلم هنا كناية عن الظهور والتقرر في الخارج لما قدره ـ سبحانه ـ في الأزل، أي أراد الله أن يحدث ما حدث في غزوة أحد ليظهر للناس ويميز لهم المؤمنين من غيرهم.

وقوله: ﴿وليعلم الذين نافقوا..﴾.

حكمة ثانية لما حدث في غزوة أحد. أي حدث ما حدث في غزوة أحد ليعلم ـ سبحانه ـ المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية وظهور يتميز معه عند الناس كل فريق عن الآخر تميزاً ظاهراً.

بيان دور المنافقين في يوم أحد:

قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾[3].

أخرج الطبري بسنده عن ابن إسحاق ﴿وقيلَ لهم تعالوا قاتلوا في

(١) حاشية الجمل على الجلالين: ١/ ٣٣٣.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢٥.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٦٧ و ١٦٨.

سبيل اللهِ أو ادفعوا﴾ يعني: عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه، الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ، حين سار إلى عدوه من المشركين بأحد، وقوله: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ يقول: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم، ولدفعنا عنكم، ولكن لا نظن أن يكون قتال، فظهر منهم ما كانوا يخفون في أنفسهم يقول الله عز وجل: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ وليس في قلوبهم ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ أي يخفون[1].

قوله: ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾.

قال الجمل: هذه الجملة تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون مستأنفة أخبر الله أنهم مأمورون إما بالقتال، وإما بالدفع أي تكثير سواد المسلمين ـ أي عددهم ـ.

والثاني: أن تكون معطوفة على ﴿نافقوا﴾ فتكون داخلة في خبر الموصول، أي وليعلم الذين حصل منهم النفاق والقول المذكور[2].

قوله: ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وأصحابه[3].. وكان ذلك حين خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة، انخزل عنهم عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم ـ أي رسول الله ﷺ ـ فخرج وعصاني، والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟.

فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ـ أخو بني سلمة ـ يقول لهم: يا قوم أذكركم الله أن

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١٦٨.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين: ١/ ٣٣٣.
(٣) تفسير الطبري: ٤/ ١٦٧.

تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوهم.

فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتال.

فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف عن المؤمنين قال لهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم، ثم مضى مع رسول الله ﷺ[1].

وقال الزمخشري: «لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم، يعنون أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال، وإنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة، لأن رأي عبد الله بن أبي كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج..»[2].

وقوله تعالى: ﴿**هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون**﴾.

قال ابن كثير: استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان[3]...

وقال الجمل: وقوله: ﴿**هم**﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿**أقرب**﴾ خبره، وقوله: ﴿**للكفر**﴾ وقوله: ﴿**للإيمان**﴾ متعلقان بأقرب، لأن أفعل التفضيل في قوة عاملين فكأنه قيل: قربوا من الكفر وقربوا من الإيمان وقربهم للكفر في هذا اليوم أشد لوجود العلامة وهي خذلانهم للمؤمنين[4]..

وقوله: ﴿**يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم**﴾.

قال الزمخشري: لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/١٦٨.

(٢) تفسير الكشاف: ١/٤٧٨.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/٤٢٥.

(٤) حاشية الجمل على الجلالين: ١/٣٣٤ ـ بتصرف يسير.

ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم، وأن إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم، بخلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم[1].

وختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: **﴿والله أعلم بما يكتمون﴾** تذييل قصد به زجرهم وتوعدهم بسوء المصير بسبب نفاقهم وخداعهم.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعض أقوالهم فقال: **﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾**.

قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبيّ وأصحابه[2]، والمراد من هذه الأخوة، الأخوة في النسب، أو الأخوة بسبب المشاركة في الدار[3].

قوله: **﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾**.

أي لو سمعوا مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، ورد الله عليهم بقوله: **﴿قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾**.

قال ابن كثير: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين[4].

تسلية المؤمنين ـ بعد انتهاء المعركة ـ بذكر ما أصاب الأمم السابقة ليصبروا على ما أصابهم:

---

(١) تفسير الكشاف: ١/ ٤٧٨.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢٥.
(٣) تفسير الرازي: ٩/ ٨٧.
(٤) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢٥.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (1).

أخذت السورة الكريمة تتحدث عن غزوة أحد وعن آثارها في نفوس المؤمنين، لتخفف عن المؤمنين مصابهم، ثم تأمرهم بالصبر والثبات ونهتهم عن الوهن والجزع لأنهم هم الأعلون، وإن تكن قد أصابتهم جراح فقد أصيب المشركون بأمثالها ولله تعالى فيما حدث في غزوة أحد حكم، منها تمييز الخبيث من الطيب، وتمحيص القلوب، واتخاذ الشهداء ومحق الكافرين..

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الله ـ سبحانه ـ وتعالى لم يترك المسلمين لوساوس الشيطان في هذه المحنة، بل خاطبهم بهذه الآيات التي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ويخفف عنهم آلامهم.

قال القرطبي: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين (2).

قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾.

أصل الخلو في اللغة: الانفراد، والمكان الخالي هو المنفرد عمن يسكن فيه ويستعمل أيضاً في الزمان بمعنى المضي لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه وكذا الأمم الخالية.

والسنن جمع سنة وهي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع.

وفي اشتقاق هذه اللفظة وجوه منها:

أنها فعلة من سن الماء يسنه والى صبَّه والسن الصب للماء، والعرب

---

(1) سورة آل عمران، آية ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٩.

(2) تفسير القرطبي: ٤/٢١٦.

شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنه لتوالي أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد[1]...

والمراد بالسنن هنا: وقائع في الأمم المكذبة، أجراها الله تعالى على حسب عادته، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره.

قوله: ﴿**فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾.

قال الرازي: «وليس المراد بقوله: ﴿**فسيروا في الأرض فانظروا**﴾ الأمر بذلك لا محالة، بل المقصود تعرف أحوالهم، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض كان المقصود حاصلاً. ولا يمتنع أن يقال أيضاً: إن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً أقوى من أثر السماع كما قال الشاعر:

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار[2]

والتعبير بلفظ كيف الدال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى العجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المؤمنين، لأن هؤلاء المكذبين مكن الله لهم في الأرض، ومنحهم الكثير من نعمه.. ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طغيانهم..

وقوله: ﴿**هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾.

قال القرطبي: يعني القرآن، عن الحسن وغيره[3]..

فاسم الإشارة يعود على القرآن: أي هذا القرآن بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين.

---

(١) تفسير الرازي: ١١/٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٢/٩.

(٣) تفسير القرطبي: ٢١٦/٤.

والبيان: هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة.

والهدى: هو الإرشاد إلى ما فيه خير الناس في الحال والاستقبال.

والموعظة: هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي من الأمور الدينية أو الدنيوية[1].

وهناك من ذهب إلى أن اسم الإشارة يعود إلى ما تقدم هذه الآية الكريمة من أوامر ونواه ومن وعد ووعيد، ومن حض على السير في الأرض للاعتبار والاتعاظ.

وقد رجح الإمام الطبري الرأي الأخير فقال: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال قوله: ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما تقدم هذه الآية من تذكير الله عز وجل المؤمنين وتعرفهم حدوده، وحضهم على لزوم طاعته، والصبر على جهاد أعدائه، لأن قوله: ﴿هذا﴾ إشارة إلى حاضر إما مرئي وإما مسموع، وهو في هذا الموضع إلى حاضر مسموع من الآيات المتقدمة، فمعنى الكلام: هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكموه بيان للناس[2]...

وقوله: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾.

قوله: ﴿**ولا تهنوا**﴾ أي لا تضعفوا ولا تجبنوا[3] من الوهن، بسكون الهاء، وفتحها، وهو الضعف، وأصله ضعف الذات.

قوله: ﴿**ولا تحزنوا**﴾ أي على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة[4] من الحزن وهو ألم نفسي يصيب الإنسان عند فقد ما يحب أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر يجعل النفس في هم وقلق.

---

(١) انظر تفسير الرازي: ٩/ ١٩٢.

(٢) تفسير الطبري: ٤/ ١٠١.

(٣) تفسير القرطبي: ٤/ ٢١٧.

(٤) المصدر نفسه: ٤/ ٢١٧.

والمقصود من النهي عن الوهن والحزن، النهي عن سببهما وعن الاسترسال في الألم مما أصابهم في غزوة أحد.

قوله: ﴿وأنتم الأَعْلَوْنَ إن كنتم مؤمنين﴾.

جملة حالية من ضمير الجماعة في ولا تهنوا ولا تحزنوا والمقصود بها بشارتهم وتسليتهم وإدخال الطمأنينة على قلوبهم.

قال القرطبي: في هذه الآية بيان فضل هذه الأمة، لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه، لأنه قال لموسى: ﴿إنك أنت الأعلى﴾ وقال لهذه الأمة: ﴿وأنتم الأعلون﴾ وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو ـ سبحانه ـ العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وأنتم الأعلون﴾[1].

وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بقوله: ﴿ولا تهنوا﴾ وما بعده أي إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا[2].

تسلية المؤمنين بتذكيرهم بما حصل لأعدائهم يوم بدر:

فقال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

قال الرازي: واعلم أن هذا من تمام قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون..﴾.

فبين تعالى أن الذي يصيبهم من القرح لا يجب أن يزيل جدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله من قبل ذلك فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٢١٧.

(٢) تفسير الشوكاني: ١/ ٣٨٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٤٠.

الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى[1]..

والمراد بالمس هنا: الإصابة بالجراح ونحوها. والقرح ـ بفتح القاف ـ الجرح الذي يصيب الإنسان، والقرح ـ بضم القاف ـ الألم الذي يترتب على ذلك، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد وهو الجرح وأثره.

وقال صاحب الكشاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فإنتم أولى أن لا تضعفوا، ونحوه: «ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون، كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون».

وقيل: كان ذلك يوم أحد، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ فإن قلت: كيف قيل: **﴿قرح مثله﴾** وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون..﴾**[2].

ويبدو لي أن القول الأول هو الظاهر، وهو أن المراد بقوله: **﴿فقد مس القوم قرح مثله﴾** ما كان يوم بدر. فعن الحسن قال: إن يقتلوا منكم يوم أحد فقد قتلتم منهم يوم بدر[3].

وأيضاً لأن قوله تعالى بعد ذلك: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** يؤيد ذلك.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنه كان يوم أحد بيوم بدر، قتل

---

(١) تفسير الرازي: ٩/ ١٤.
(٢) تفسير الكشاف: ١/ ٤٦٥.
(٣) تفسير الطبري: ٤/ ١٠٣.

المؤمنون يوم أحد، اتخذ الله منهم شهداء، وغلب رسول الله ﷺ يوم بدر المشركين فجعل الدولة عليهم[١].

وجواب الشرط في قوله: ﴿إن يمسسكم قرح..﴾ الخ، محذوف، والتقدير: إن يمسسكم قرح فاصبروا عليه واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم، فقد مسهم قرح مثله قبل ذلك.

وعبر عما أصاب المسلمين في أحد بصيغة المضارع ﴿يمسسكم﴾ لقربه من زمن الحال، وعما أصاب المشركين بصيغة الماضي لبعده، لأن ما أصابهم كان في غزوة بدر.

وقوله: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** بيان لسنة الله الجارية في كونه وتسلية للمؤمنين عما أصابهم في أحد.

وقوله: **﴿نداولها﴾** من المداولة، وهي نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال: هذا الشيء تداولته الأيدي، أي انتقل من واحد إلى آخر.

واسم الإشارة **﴿تلك﴾** مشار به إلى ما بعده، كما في الضمائر المبهمة التي يفسرها ما بعدها، ومثل هذا التركيب يفيد التفخيم والتعظيم.

والمراد بالأيام: الأوقات والأزمان المختلفة لا الأيام العرفية التي يتكون الواحد منها من مدة معينة.

وقد فسر صاحب الكشاف: مداولة الأيام بتبادل النصر، فقال وقوله: **﴿وتلك الأيام﴾** «تلك مبتدأ، والأيام صفته» ونداولها خبره.

ويجوز أن يكون **﴿تلك الأيام﴾** مبتدأ وخبراً كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد.

---

(١) تفسير الطبري: ٤/١٠٥.

والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة، ونداولها: نصرفها بين الناس تديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء[1]...

وقد تكلم الإمام الرازي عن الحكمة في مداولة الأيام بين الناس فقال ما ملخصه: واعلم أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين، وذلك لأن نصرة الله منصب شريف، وإعزاز عظيم فلا يليق بالكافر، بل المراد من هذه المداولة أنه يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين والفائدة فيه من وجوه:

الأول: أنه ـ سبحانه ـ لو شدَّد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات، لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية، والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام، فيعظم ثوابه عند الله..

الثاني: أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون تشديد المحنة عليه في الدنيا أدباً له، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضباً من الله عليه... الخ[2].

جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث في غزوة أحد:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا

---

(١) تفسير الكشاف: ١/٤٦٦.

(٢) تفسير الرازي: ٩/١٥.

ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[(١)].

قال القرطبي: قوله: ﴿**وليعلمَ اللّهُ الذين آمنوا**﴾.

معناه، وإنما كانت هذه المداولة ليُرَى المؤمنُ من المنافق فيميز بعضهم من بعض[(٢)].

وقال ابن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء[(٣)].

وقوله: ﴿**ويتخذ منكم شهداء**﴾.

قال ابن كثير: يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته[(٤)].

وقال القرطبي ما ملخصه: قوله تعالى: ﴿**ويتخذ منكم شهداء**﴾ أي يكرمكم بالشهادة، أي لِيُقتَلَ قوم منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم. وقيل: لهذا قيل شهيد.

وقيل: سمي شهيداً لأنه مشهود له بالجنة، وقيل: سمي شهيداً، لأن أرواحهم احتضرت دار السلام لأنهم أحياء عند ربهم، فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة. والشهادة فضلها عظيم ويكفيك في فضلها قوله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة..**﴾ الآية. وفي الحديث الشريف أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ فقال ﷺ: (كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة)[(٥)].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله: ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾.

---

(١) سورة آل عمران: الآيات، من آية ١٤٠ إلى آية ١٤٣.
(٢) تفسير القرطبي: ٢١٨/٤.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤٠٨/١.
(٤) نفس المصدر: ٤٠٨/١.
(٥) تفسير القرطبي: ٢١٨/٤ ـ بتصرف يسير.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين في غزوة أحد فقال: ﴿**وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**﴾.

وقوله: ﴿**وليمحص**﴾ من المحص بمعنى التنقية والتخليص يقال: محصت الذهب بالنار ومحصته إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث أو من التمحيص بمعنى الابتلاء والاختبار.

وقوله: ﴿**ويمحق**﴾ من المحق وهو محو الشيء والذهاب به. وأصله نقص الشيء قليلاً قليلاً حتى يفنى، يقال: محق فلان هذا الطعام إذا نقصه حتى أفناه، ومن المحاق لآخر الشهر لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان فيختفي.

قال الطبري: والمعنى: وليختبر الله الذين صدقوا الله ورسوله فيبتليهم بإزالة المشركين منهم حتى يتبين المؤمن منهم المخلص الصحيح الإيمان من المنافق[(١)].

وقال ابن كثير: قوله: ﴿**وليمحص الله الذين آمنوا**﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به.

وقوله: ﴿**ويمحق الكافرين**﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم[(٢)].

والمعنى: ولقد فعل ـ سبحانه ـ ما فعل في غزوة أحد، لكي يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكي يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم.

فأنت ترى أن الله تعالى قد ذكر أربع حكم لما حدث للمؤمنين في غزوة أحد وهي: تحقق علم الله تعالى وإظهاره للمؤمنين، وإكرام بعضهم بالشهادة

---

(١) تفسير الطبري: ١٠٧/٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٠٨/١.

التي توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين، ومحق الكافرين واستئصالهم رويداً رويداً.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[1].

﴿أم﴾ هنا يرى كثير من العلماء أنها منقطعة، بمعنى بل الانتقالية[2]، والهمزة المقدرة معها للإنكار والاستبعاد، وقيل: الميم زائدة.

والمعنى: أحسبتم يا من انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم؟ لا حتى ﴿يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء ﴿ويعلم الصابرين﴾[3].

وقال ابن كثير: أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء[4].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[5].

قال الطبري: كان قوم من أصحاب النبي ﷺ ممن لم يشهد بدراً، يتمنون قبل أحد يوماً مثل يوم بدر، فيعطون الله من أنفسهم خيراً، وينالون من الأجر ما نال أهل بدر، فلما كان يوم أحد، فر بعضهم وصبر بعضهم، حتى أوفى بما كان عاهد الله عليه قبل ذلك، فعاتب الله من فر منهم بقوله: ﴿ولقد كنتم

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٤٢.
(٢) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٢٢٠.
(٤) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠٩.
(٥) سورة آل عمران، آية ١٤٣.

تمنون الموت. . .﴾ الآية.

وعن الحسن قال: بلغني أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون: لئن لقينا مع النبي ﷺ المشركين لنفعلنَّ ولنفعلنَّ فابتلوا بذلك ـ في أحد ـ فلا والله ما كلهم صدق، فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد كنتم. . .﴾ الآية[1].

وقال ابن كثير: قد كنتم ـ أيها المؤمنون ـ قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا[2]. . .

وقال القرطبي: قوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ أي الشهادة ﴿من قبل أن تلقوه﴾ من قبل القتل[3] ﴿وأنتم تنظرون﴾ جملة حالية من ضمير المخاطبين مؤكدة لمعنى رأيتموه، أي رأيتموه معاينين له.

الرد على الإشاعات التي أطلقت في المعركة:

ذكر ـ سبحانه ـ المؤمنين بما كان منهم عندما أشيع بأن رسول الله ﷺ قد قتل، فقال تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾[4].

روى الطبري بسنده عن قتادة: قوله: ﴿وما محمد إلا رسول. .﴾ الآية، ذاكم يوم أحد حين أصابهم القرح والقتل، ثم تنازعوا نبيّ الله ﷺ بقية ذلك،

---

(١) تفسير الطبري: ٤/١٠٩ ـ بتصرف يسير.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/٤٠٩.
(٣) تفسير القرطبي: ٤/٢٢٠.
(٤) سورة آل عمران: الآيات من آية ١٤٤ إلى ١٤٥.

فقال أناس: لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس من علية أصحاب نبي الله ﷺ: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم، حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به، فقال الله عز وجل: ﴿**وما محمد إلا رسول...**﴾ الآية[1].

وروى الطبري بسنده عن السدي ـ قصة أحد ـ إلى أن قال: وفشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل، وقال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء. ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل[2]...

وقال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل... فحصل ضعف ووهن وتأخرٌ بين المسلمين عن القتال ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل..**﴾ الآية[3].

والمعـــنى الإجمالـي:

قال الطبري: «يعني، تعالى ذكره، بذلك: وما محمد إلا رسول كبعض رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه داعياً إلى الله وإلى طاعته، الذين حين انقضت آجالهم ماتوا وقبضهم الله إليه، يقول جلَّ ثناؤه: محمد ﷺ إنما هو فيما الله به صانع من قبضه إليه عند انقضاء مدة أجله ثم قال لأصحاب محمد معاتبهم على ما كان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد: إن محمداً

---

(١) تفسير الطبري: ٤/١١١.

(٢) المصدر نفسه: ٤/١١٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/٤٠٩ ـ بتصرف.

قتل، ومقبحاً إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدُوِّهم وانهزامه عنهم، أفإن مات محمد أيها القوم لانقضاء مدة أجله أو قتله عدوكم انقلبتم على أعقابكم، يعني ارتددتم عن دينكم الذي بعث الله محمداً بالدعاء إليه ورجعتم عنه كفاراً بالله بعد الإيمان به. . ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ أي ومن يرتد منكم عن دينه، ويرجع كافراً بعد إيمانه ﴿فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾[1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الآجال بيد الله وحده، وأنه ـ سبحانه ـ قد جعل لكل أجل وقتاً محدداً لا يعدوه فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[2].

أي: ما كان الموت حاصلاً لنفس من النفوس مطلقاً، لأي سبب من الأسباب إلا بمشيئة الله وأمره وإذنه، فهو ـ سبحانه ـ الذي كتب لكل نفس عمرها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر.

والمراد بالنفس هنا: جنسها، أي كل نفس لا تموت إلا بإذن الله والمراد بإذنه: أمره ومشيئته، فكل نفس لا تحيا إلا بأمره، ولا تموت إلا بإذنه.

و ﴿كان﴾ ناقصة. وقوله: ﴿أن تموت﴾ في محل رفع اسمها. وقوله: ﴿لنفس﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً لها. والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، والأسباب، أي ما كان لها أن تموت في حالة من الأحوال أو لسبب من الأسباب إلا مأذوناً لها منه ـ سبحانه ـ.

والباء في قوله: ﴿إلا بإذن الله﴾ للمصاحبة. وقوله: ﴿كتاباً﴾ مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة التي قبله وعامله مضمر، والتقدير: كتب الله كتاباً مؤجلاً، أي له أجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر، وهو آت لا ريب فيه.

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٤٥.

وقوله: ﴿مؤجلاً﴾ صفة لقوله: ﴿كتاباً﴾[1].

ثم ذم - سبحانه - الذين يؤثرون متاع الدنيا على الآخرة، فقال: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ ومدح - سبحانه - الذين يبتغون بأعمالهم ثواب الآخرة فقال: ﴿ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾.

أمر المؤمنين بالصبر أسوة بأتباع الرسل من قبل:

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[2].

قوله: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا...﴾.

كلمة كأين مركبة من كاف التشبيه وأي الاستفهامية المنونة، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على الكثير. ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها. وهي مبتدأ، وجملة: ﴿قاتل معه ربيون﴾ خبرها.

والربيون جمع ربي، وهو العالم بربه، الصادق في إيمانه به، المخلص له في عبادته، نسبة إلى الرب كالرباني.

قال القرطبي: قال ابن عباس: ربيون - بفتح الراء - منسوب إلى الرب.

وقال الخليل: الربي - بكسر الراء - الواحد من العباد الذين صبروا مع

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين: ١/ ٣٢٠ - بتصرف.
(٢) سورة آل عمران، الآيات، من آية ١٤٦ - ١٤٨.

الأنبياء وهم الربانيون، نسبوا إلى التأله والعبادة، ومعرفة الربوبية لله تعالى[1].

قال ابن كثير: عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال[2]...

وقال أبو السعود: قوله: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير...﴾ الآية كلام مبتدأ ناعٍ عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم في صدورهم عن سنن الربانيين المجاهدين في سبيل الله مع الرسل الخالية عليهم السلام[3]..

وقال الزهري: صاح الشيطان يوم أحد، قتل محمد، فانهزم جماعة من المسلمين. قال كعب بن مالك: فكنت أول من عرف رسول الله ﷺ، رأيت عينيه من تحت المغفر تزهران، فناديت بأعلى صوتي: هذا رسول الله ﷺ، فأومأ إليّ أنِ اسكت، فأنزل الله عز وجل: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير...﴾[4].

واختلفت القراء في قراءة: ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾ فقرأ جماعة قتل: بضم القاف، وقرأ جماعة أخرى: بفتح القاف، وبالألف، (قاتل) وهي قراءة جماعة من قراء الحجاز والكوفة[5].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: ﴿والله يحب الصابرين﴾ تذييل قصد به حض المؤمنين على تحمل المصاعب من أجل إعلاء دينهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ أقوال أتباع الرسل في مواطن القتال فقال: ﴿وما كان

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٣٠.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤١٠.
(٣) تفسير أبي السعود: ٢/ ٩٥.
(٤) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٢٨.
(٥) تفسير الطبري: ٤/ ١١٦.

قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسنَ ثوابِ الآخرة واللَّهُ يحبُّ المحسنين﴾.

والمراد بثواب الدنيا: النصر والغنيمة وقهر الأعداء وصلاح الحال، والمراد بحسن ثواب الآخرة الرضوان ورحمة الله ومثوبته.

نهي المؤمنين عن إطاعة الكفار الذين أخذوا في نشر الأراجيف بعد المعركة:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[1].

قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾.**

قال الآلوسي ما ملخصه: قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا...﴾** شروع في زجر المؤمنين عن متابعة الكفار ببيان مضارها، إثر ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء ببيان فضائله.

وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه، لإظهار الاعتناء بما في خبره.

ووصفهم بالإيمان لتذكيرهم بحال ينافي تلك الطاعة فيكون الزجر على أكمل وجه. والمراد من **﴿الذين كفروا﴾** إما المنافقون لأنهم هم الذين قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم في أحد: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم... وإما أبو سفيان وأصحابه وحينئذ فالمراد بإطاعتهم الإستكانة لهم وطلب الأمان

---

(1) سورة آل عمران من آية ١٤٩ إلى ١٥١.

منهم... وإما اليهود والنصارى لأنهم هم الذين يلقون الشبه في الدين ويقولون: لو كان محمدٌ نبياً حقاً لما غلبه أعداؤه... وإما سائر الكفار[1].

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ۝١٥٠ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٥١﴾[2].

﴿الرعب﴾: الخوف والفزع، يقال: رعبه يرعبه أي خوفه وأصله الملء يقال: سيل راعب، إذا ملأ الأودية.

والسلطان: الحجة والبرهان وسميت الحجة سلطاناً لقوتها ونفوذها، وأصل المادة يدل على الشدة والقوة ومنها السليط للشديد واللسان الطويل.

الآية الكريمة قد بشرت المؤمنين بأن الله تعالى سيلقي الرعب والفزع في قلوب أعدائهم حتى لا يتجاسروا عليهم.

ومن مظاهر الرعب التي ألقاها الله تعالى في قلوب المشركين، أنهم بعد أن انتصروا على المسلمين في غزوة أحد، كان في قدرتهم أن يوغلوا في مهاجمتهم وقتالهم، إلا أن الرعب صدهم عن ذلك.. ولقد حاولوا وهم في طريقهم إلى مكة أن يعودوا للقضاء على المسلمين، إلا أن الخوف دخل قلوبهم، وجعل أحد زعمائهم وهو صفوان بن أمية يقول: «يا أهل مكة لا ترجعوا لقتال القوم، فإني أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذي كان».

وقال ابن كثير: روى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ قال: قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة

---

(١) تفسير الآلوسي: ٤/٨٧.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٠، ١٥١.

فقال النبي ﷺ: (إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب. . .)[1].

قال الفخر الرازي: قوله: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ اختلفوا في أن هذا الوعد هل هو مختص بيوم أحد أو هو عام في جميع الأوقات؟.

قال كثير من المفسرين: إنه مختص بهذا اليوم، وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت في هذه الواقعة.

ثم القائلون بهذا القول ذكروا في كيفية إلقاء الرعب في قلوب المشركين في هذا اليوم وجهين:

الأول: أن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب في قلوبهم، فتركوهم وفروا منهم من غير سبب. .

والثاني: أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة، فلما كانوا في بعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً، قتلنا الأكثرين منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون. ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم.

والقول الثاني: أن هذا الوعد غير مختص بيوم أحد، بل هو عام. كأنه قيل: إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أحد، إلا أن الله تعالى سيلقي الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين حتى يقهر الكفار، ويظهر دينكم على سائر الأديان، وقد فصل الله ذلك حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل، ونظير هذه الآية قوله ﷺ: (نصرت بالرعب مسيرة شهر)[2].

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤١١.

(٢) تفسير الفخر الرازي: ٩/ ٣٢ ـ بتصرف.

المبحث الثالث
التوجيهات القرآنية بعد نهاية المعركة

ويشمل المواضيع التالية:

١ ـ الغنائم وحرمة الغلول فيها.

٢ ـ الحديث عن شهداء أحد.

٣ ـ توجيهات عامة للمؤمنين.

١ ـ الغنائم وحرمة الغلول فيها

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾[١].

سبب النزول:

قال ابن الجوزي: في سبب نزولها سبعة أقوال:

أحدها: أن قطيفة من المغنم فقدت يوم بدر، فقال ناس: لعل النبي ﷺ أخذها، فنزلت هذه الآية. رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلاً غلَّ من غنائم هوازن يوم حنين، فنزلت هذه الآية. رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: أن قوماً من أشراف الناس طلبوا من رسول الله ﷺ أن يخصهم بشيء من الغنائم، فنزلت هذه الآية. نقل عن ابن عباس أيضاً.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٦١.

والرابع: أن النبي ﷺ بعث طلائعاً، فغنم النبي ﷺ غنيمة، ولم يقسم للطلائع، فقالوا: قسم الفيء ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية. قاله ابن السائب ومقاتل.

والخامس: أن قوماً غلُّوا يوم بدر فنزلت هذه الآية. قاله الضحاك.

والسادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخاف أن يقول النبي ﷺ: «من أخذ شيئاً فهو له». فقال لهم النبي ﷺ: (ألم أعهد إليكم ألاَّ تبرحوا؟ أظننتم أنا نَغُلّ). فنزلت هذه الآية. قاله ابن السائب ومقاتل.

والسابع: أنها نزلت في غلول الوحي. قاله القرطبي، وابن إسحاق[1].

فالسبب السادس يذكر أنها نزلت في أحد، والذي جعلني أيضاً أضعها هنا ورود هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن غزوة أحد.

وقال الآلوسي: والمراد تنزيه ساحة النبي ﷺ على أبلغ وجه عما ظن به الرماة يوم أحد، فقد حكى الواحدي عن الكلبي ومقاتل أن الرماة حين تركوا المركز يومئذ طلباً للغنيمة قالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر فقال النبي ﷺ: (ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم) ولهذا نزلت الآية[2]. . .

وقوله: ﴿**يغل**﴾ من الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الغال يأتي بما غل يوم القيامة وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿**ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ وقد نهى النبي ﷺ عن الغلول. وروى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير ابن الجوزي: ١/ ٤٩٠.

(٢) تفسير الآلوسي: ٤/ ١٠٩.

ذات يوم، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال: (لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء. يقول: يا رسول الله! أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً. قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته فرس له حمحمة فيقول: يا رسول الله! أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً. قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاءٌ. يقول: يا رسول الله! أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئاً. . .) الحديث[1].

٢ ـ الحديث عن شهداء أحد

ثم بين ـ سبحانه ـ فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴾[2].

سبب النزول:

١ ـ أخرج الطبري بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب غلظ تحريم الغلول: ٣/ ١٤٦١.
(٢) سورة آل عمران، من آية ١٦٩ إلى ١٧١.

عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ هؤلاء الآيات)[1].

٢ ــ وروى الواحدي عن سعيد بن جبير: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم﴾**، قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير يوم أحد، ورأوا ما رزقوا من الخير، قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رغبةً، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ﴾** إلى قوله: **﴿لا يضيع أجر المؤمنين﴾**[2].

٣ ــ وروى مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾**.

قال: أما إنا سألنا عن ذلك، فقال: (أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ. لها قناديل معلقةٌ بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت. ثم تأوي إلى تلك القناديل. فاطلع إليهم ربهم اطلاعةً فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رَأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)[3].

٤ ــ وقيل: إنها نزلت في شهداء بئر معونة[4].

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١٧٠.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ص ١٢٥. وانظر تفسير الطبري: ٤/ ٢٦٩.

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة: ٣/ ١٥٠٢.

(٤) زاد المسير: ١/ ٥٠٠.

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار[١].

وقوله: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ قال ابن قتيبة: الفرح: المسرة. فأما الذي آتاهم الله، فما نالوا من كرامة الله ورزقه[٢].

وقوله: **﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾**.

الاستبشار: السرور بالبشارة[٣].

وأصل الاستبشار: طلب البشارة، وهو الخبر السار الذي تظهر آثاره على البشرة.

قال ابن كثير: ﴿ويستبشرون﴾ أي: ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم.

قال السدي: يؤتى الشهيد بكتاب فيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم.

وقال سعيد بن جبير: لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم ربهم أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك فذلك قوله:

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٤٢٨.
(٢) زاد المسير: ١/٥٠٢.
(٣) زاد المسير: ١/٥٠٢.

﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خَلْفِهِم﴾[1].

ثم قال تعالى: ﴿يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾.

قال محمد بن إسحاق: استبشروا أي سروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم[2].

وقد جاءت آية في سورة الأحزاب ذكر المفسرون أنها نزلت في بعض شهداء أحد وهي قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[3].

سبب النزول:

ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية روايات منها:

١ ـ أنها نزلت في أنس بن النضر وأصحابه.

روى ذلك الإمام البخاري[4] ومسلم[5] والإمام أحمد[6] والترمذي[7] وغيرهم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢٨.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٤٢٨.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٢٣.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب فضل الجهاد والسير ـ باب قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجالٌ..﴾ الآية: ٤/ ٢٣، وانظر فتح الباري: ٦/ ٢١.

(٥) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب ثبوت الجنة للشهيد: ٣/ ١٥١٢.

(٦) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٢٥٣.

(٧) الجامع الصحيح للترمذي ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة الأحزاب: ٥/ ٣٤٨.

عن أنس رضي الله عنه ـ واللفظ للبخاري ـ قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، غبت من أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين.

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها دون أحد.

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نرى ـ أو نظن ـ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه..﴾.

٢ ـ ومنها أنها نزلت في طلحة بن عبيد الله.

روى الترمذي من حديث موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما طلحة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل سله عمن قضى نحبه من هو؟.

وكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم إني طلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خضر، فلما رآني رسول الله ﷺ قال: (أين السائل عمن قضى نحبه؟) قال: أنا يا رسول الله، قال: (هذا ممن قضى نحبه)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير[1].

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة الأحزاب: ٥/ ٣٥٠.

٣ ـ ومنها أنها نزلت في مصعب بن عمير وأصحابه يوم أحد.

قال القرطبي: روى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول في طريقه، فوقف عليه ودعا له، ثم تلا هذه الآية: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾[1].

والذي أراه أن الآية الكريمة تصدق على كل من قتل في سبيل الله، بعد أن جاهد بإخلاص وثبات، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والله أعلم.

وقوله: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

بيان لحال المؤمنين الصادقين في عهدهم، أي من المؤمنين بالله رجال صدقوا وأوفوا ما عاهدوا الله عليه من الصبر على البأساء والضراء والقتال في سبيله.

وقوله: ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ بيان وتفصيل لأحوال المؤمنين الصادقين في عهدهم.

والنحب: يطلق على النذر والقتل والموت والنفس والخطر العظيم.

قال ابن قتيبة: قضى نحبه أي نذره وأصل النحب النذر[2]. وقال الطبري: والنحب النذر في كلام العرب.

وللنحب أيضاً في كلامهم وجوه غير ذلك: منها الموت ومنها الخطر

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/١٥٩، وانظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص ٢٣٧، وأسباب النزول للسيوطي ١٧٣.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة «سورة الأحزاب» ص ٣٤٩.

العظيم ومنها النحيب ومنها التنحيب[1].

أي من المؤمنين رجال أدركوا أمنيتهم وقضوا حاجتهم ووفوا بنذرهم فقاتلوا حتى قتلوا، فاستشهد بعضهم في بدر، وبعضهم في أحد كحمزة رضي الله عنه ومصعب بن عمير وأنس بن النضر رضي الله عنهم. وبعضهم في غير هذه المواطن[2].

وقوله: ﴿ومنهم من ينتظر﴾.

بيان لمن لم يقضِ نحبه أنه ينتظر الوفاء بعهده وينتظر الشهادة في سبيل الله حتى يحضر أجله كعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾.

تأكيد وبيان أنهم يلتزمون بالوفاء بعهدهم، والجملة معطوفة على صدقوا: أي ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم، بل ثبتوا على عهدهم.

٣ ـ توجيهات عامة للمؤمنين

ثم جاءت خمس آيات فيها توجيهات عامة للمؤمنين عقب غزوة أحد. وهي من قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ

---

(١) تفسير الطبري: ٢١/ ١٤٥ ـ بتصرف يسير.

(٢) تفسير الطبري: ٢١/ ١٤٥، وتفسير الشوكاني: ٤/ ٢٧٢.

مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[1].

قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا**﴾ أي كالمنافقين الذين قالوا لإخوانهم في النفاق. والمراد بالذين كفروا عبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه من المنافقين.

وقوله: ﴿**وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزَّىً**﴾.

قال المفسرون: ومعنى: ﴿**ضربوا في الأرض**﴾ ساروا وسافروا. و ﴿**غزى**﴾: جمع غازٍ. وفي الكلام محذوف تقديره: إذا ضربوا في الأرض، فماتوا، أوغزوا، فقتلوا[2].

وقوله: ﴿**لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعلَ اللَّهُ ذلك حسرةً في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير**﴾.

قوله: ﴿**ليجعل الله ذلك**﴾ قال ابن عباس: ليجعل الله ما ظنوا من أنهم لو كانوا عندهم سلموا، ﴿**حسرةً في قلوبهم**﴾ أي حزناً.

قال ابن فارس: الحسرة: التلهف على الشيء الفائت[3].

ثم قال تعالى: ﴿**ولئن قتلتم في سبيلِ اللَّهِ أو متم لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون**﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات من ١٥٦ إلى ١٦٠.

(٢) زاد المسير: ١/ ٤٨٤.

(٣) زاد المسير: ١/ ٤٨٥.

وهذه الآيات رد على أولئك الكافرين، يثبت الله فيها المؤمنين ويرغبهم فيها في الجهاد.

وقوله: ﴿لإلى الله تحشرون﴾ وعظٌ، وعظهم الله بهذا القول، أي لا تفرّوا من القتال ومما أمركم به، بل فروا من عقابه وأليم عذابه، فإن مردكم إليه لا يملك لكم أحد ضراً ولا نفعاً غيره[1]. . .

ثم قال تعالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلبِ لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمرِ فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾.

﴿ما﴾ صلة فيها معنى التأكيد، أي فبرحمة.

ومعنى الآية: أنه عليه السلام لما رفق بمن تولى يوم أحد ولم يعنفهم بين ـ سبحانه ـ إنما فعل ذلك بتوفيق الله تعالى إياه.

وقوله: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

والفظ الغليظ الجافي، وغِلَظُ القلب عبارة عن تجهم الوجه، وقلة الانفعال، وقلة الإشفاق والرحمة.

ومعنى: ﴿لانفضوا﴾ لتفرقوا، والمعنى: يا محمد لولا رفقك لمنعهم الاحتشامُ والهيبةُ من القرب منك بعدما كان من توليهم[2].

وقوله: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾.

قال القرطبي: قال العلماء: أمر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنه أمره أن يعفو عنهم ما له في خاصّته عليهم من تبعةٍ، فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضاً، فإذا

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/٢٤٧.

(٢) تفسير القرطبي: ٤/٢٤٨، ٢٤٩.

صاروا في هذه الدرجة صاروا أهلاً للاستشارة في الأمور[1].

ثم قال تعالى: ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾.

العزم: عقد القلب على الشيء ويريد أن يفعله.

ومعنى الكلام: فإذا عزمت على فعل شيء، فتوكل على الله، لا على المشاورة[2].

ثم قال تعالى: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالبَ لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصرُكم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾.

قال الطبري: إن ينصركم الله ـ أيها المؤمنون ـ بالله ورسوله على من ناوأكم وعاداكم من أعدائه، والكافرين به فلا غالب لكم من الناس.

﴿**وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده**﴾ يعني إن يخذلكم ربكم، بخلافكم أمره، وترككم طاعته، وطاعة رسوله، فيكلكم إلى نفسكم، فمن ذا الذي ينصركم من بعده..

﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ يعني: ولكن على ربكم ـ أيها المؤمنون ـ فتوكلوا دون سائر خلقه، وبه فارضوا من جميع من دونه، ولقضائه فاستسلموا، وجاهدوا فيه أعداءه، يكفكم بعونه، ويمددكم بنصره[3].

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/٢٤٩.

(٢) زاد المسير: ١/٤٨٩.

(٣) تفسير الطبري: ٤/١٥٤.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرض لغزوة أحد

وصف القرآن الكريم غزوة أحد وصفاً دقيقاً من قوله تعالى: ﴿**وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال...**﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب..**﴾.

وسنبين إن شاء الله معالم هذا المنهج على حسب الآيات الموجودة في المصحف لأننا متعبدون بقراءة القرآن الكريم على حسب ترتيب المصحف وليس على النزول.

وغزوة أحد فيها كثير من الدروس والعبر أشار الله سبحانه وتعالى إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران.

أهم معالم هذا المنهج:

١ ــ بدأت سورة آل عمران حديثها عن غزوة أحد من قوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ

عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

في الآية الأولى إشارة إلى غدو النبي ﷺ من بيت عائشة رضي الله عنها وقد لبس لامته ودرعه، بعد التشاور مع أصحابه في الأمر.

وبينت الآية كيف كان المصطفى ﷺ يصف الجيش ويحدد لهم أماكن القتال.. وختم الآية بقول: ﴿والله سميع عليم﴾.

وهذا الختام له وقع خاص يقول سيد قطب: «ويا له من مشهد، الله حاضره، ويا له من موقف، الله شاهده! والسرائر مكشوفة فيه لله، وهو يسمع ما تقوله الألسنة ويعلم ما تهمس به الضمائر»[1].

وفي الآية الثانية: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾.

الطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة وقد بين ـ سبحانه ـ أمرهم ثم بعد ذلك ذكرهم ـ سبحانه ـ بنصره للمؤمنين في غزوة بدر إلى قوله: ﴿والله غفور رحيم﴾[2].

وذكر بدر هنا بالذات له فوائد. فالمتأمل في هذه الآيات الكريمة يجدها تحدثت عن غزوة أحد وذكرت المؤمنين بما همّ به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة، ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بمعركة بدر، وكيف نصرهم الله على الرغم من قلة عددهم، وهذه المقارنة بين الغزوتين مما يتميز به منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة.

٢ ـ ثم وجه القرآن نداءً إلى المؤمنين نهاهم فيه عن تعاطي الربا، وأتبعه

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٤٦٨.

(٢) انظر تفسير هذه الآيات صفحة ١٦٦ من هذا الكتاب.

بتوجيهات للمؤمنين من قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾.

وهذه التوجيهات جاءت أثناء الحديث عن الغزوة. يقول سيد قطب: «ولعل مما يلفت النظر أكثر، الكلام - في صدد التعقيب على معركة حربية - عن الربا والنهي عنه، وعن الشورى والأخذ بها..»(١).

لكن أقول هذه طريقة القرآن، يدخل التوجيهات بين الحديث عن الغزوة استكمالاً للتربية وتشويقاً للنفوس.

٣ - ثم عادت الآيات للحديث عن غزوة أحد، فقال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٤٥٨.

وفي هذه الآيات حكم كثيرة بين بعضها الإمام ابن القيم فيقول:

* إن الله أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم: قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم ومن أعظمها ـ بعد كفرهم ـ بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم وقد ذكر ذلك سبحانه من قوله: **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا. . .﴾** إلى قوله: **﴿ويمحق الكافرين﴾**. فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم.

فقال: **﴿إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ﴾** فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: **﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾**[1].

فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم؟ فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي؟ إلى أن يقول: ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم: أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وأن هذا ممتنع، بحيث ينكر على من ظنه وحسبه[2]. . .

يقول الأستاذ محمد منير:

* اهتداؤنا بالبيان يعني أننا مؤمنون **﴿هذا بيانٌ للناس وهدىً وموعظةٌ للمتقين﴾**.

* المؤمنون هم الأعلون، وتلك أولى فقرات البيان: **﴿ولا تهنوا ولا**

---

(١) سورة النساء، آية ١٠٤.

(٢) زاد المعاد: ٢/ ٢٥٣.

تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

* لا عبرة بالخسائر المادية: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ وتلك الأيامُ نداولها بين الناس﴾.

* المحنة ضرورة لماذا:

أ ـ ﴿وليعلمَ اللَّهُ الذين آمنوا﴾.

ب ـ ﴿ويتخذَ منكُم شهداءَ﴾.

جـ ـ ﴿والله لا يحب الظالمين﴾، فلو أحبهم لاتخذ منهم شهداء إنها محنة الحب للمؤمنين الصادقين.

د ـ ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾.

هـ ـ ﴿ويمحق الكافرين﴾ فلا بد أن يتميز المحبون المخلصون من الأدعياء، وشتان شتان، بين التمحيص وبين المحق والإبادة[١].

أقول: والمتأمل في ذلك كله يجد أن القرآن الكريم في حديثه عن غزوة أحد فصل كثيراً من الأمور الخفية ومن أراد المزيد فعليه الرجوع إلى تفسير الآيات في هذا الكتاب[٢].

٤ ـ شاع أثناء معركة أحد أن النبي ﷺ قتل وقد حصل اضطراب كبير في صفوف المؤمنين، فلم يترك ـ سبحانه ـ هذا يمر مروراً عابراً وإنما عقب عليه بقوله:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ

---

(١) المنهج الحركي للسير النبوية: ١/ ٤٣٢.

(٢) انظر صفحة ١٩٠ من هذا الكتاب.

فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

٥ ـ ثم نهى ـ سبحانه ـ عن إطاعة الكفار الذين أخذوا في نشر الأراجيف بعد المعركة، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

في هذه الآيات بين ـ سبحانه ـ بأنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور، ثم أخبر أنه سيلقي الرعب في قلوب أعدائهم، وإلقاء الرعب حقيقته وكيفيته لا يعلمها إلا الله ولم نكن نعرف ذلك لولا حديث القرآن عنه، فهذا مما يتميز به حديث القرآن عن غيره، هنا كشف لنا ـ سبحانه ـ بأنه يؤيد حزبه بجندٍ من الرعب ينتصرون به على أعدائهم.

٦ ـ ثم وصف ـ سبحانه ـ المعركة فصور أحوالهم في هذه المعركة تصويراً بليغاً مؤثراً فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ

فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾.

وللإمام ابن القيم كلام جيد يحسن بنا أن نذكره:

«أخبرهم ـ سبحانه ـ أنه صدقهم وعده في النصرة على عدوه، وهو الصادق الوعد. وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين وقيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سَلَّط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نالوا؟ فقال: لولا عفوه عنهم لاستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم، بعد أن كانوا مجمعين على استئصالهم».

ثم ذكرهم بحالهم وقت الفرار مُصْعدين ـ أي جادين في الهرب والذهاب في الأرض، أو صاعدين في الجبل ـ لا يلوون على أحد من نبيهم ولا أصحابه والرسول يدعوهم في أخراهم: (إليَّ عباد الله، أنا رسول الله) فأثابهم بهذا الهرب والفرار غماً بعد الغم: غم الهزيمة والكسرة، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمداً قد قتل.

ثم إنه ـ سبحانه ـ تداركهم برحمته، وخفف عنهم ذلك الغم وغيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمنةً منه ورحمة.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن حكمة أخرى في هذا التقدير، وهي ابتلاء ما في صدورهم واختبار ما فيها من الإيمان والنفاق.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي تمحيص ما في قلوب المؤمنين.

ثم أخبر - سبحانه - عن تولي من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاستزلهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولوا، فكانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة[1].

٧ - ثم أتبع - سبحانه - وصف الغزوة بتوجيهات عامة للمؤمنين، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

هذه التوجيهات جاءت ضمن الحديث عن الغزوة، وهي تحذر من أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام، وقد اتخذ أولئك من مقاتل الشهداء في أحد مادة لإثارة الحسرة في قلوب أهليهم. فهذه الآيات تربية للمؤمنين وتحذير لهم من أولئك المنافقين والمشركين. وهذا مما يتميز به حديث القرآن حيث يعالج ما يعرض للمؤمنين ولا يتركهم هملاً[2].

يقول سيد قطب: والله في تربيته للجماعة المسلمة، وفي ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيها يحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا. أولئك الذين

---

(١) زاد المعاد: ٢/٢٥٦ إلى ٢٦٥ - بتصرف وتلخيص.

(٢) راجع تفسير هذه الآيات صفحة ٢١٦ من هذا الكتاب.

تصيبهم الحسرات، كلما مات لهم قريب أو قتل في ثنايا المعركة وهو يجاهد[1]. . . .

٨ ـ ثم نهى ـ سبحانه ـ عن الغلول في الغنائم فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾.

كان من بين العوامل التي جعلت الرماة يتركون أماكنهم من الجبل، خوفهم ألا يقسم لهم رسول الله ﷺ من الغنائم، وكان بعض المنافقين قد تكلموا بأن بعض غنائم بدر قد اختفت[2] واتهموا الرسول ﷺ بها، فجاءت هذه الآيات تنزه مقام النبوة من ذلك الاتهام، وتبين حرمة الغلول، كما أشارت إلى عظم المنة التي منها الله على عباده وهي إرسال رسول لهم من أنفسهم، يقول سيد قطب موضحاً ذلك: «إنها تجيء ابتداءً تعقيباً على الغنائم والطمع فيها والغلول، والانشغال بهذا الأمر الصغير. فالإشارة إلى حقيقة الرسالة الكبيرة، لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية الفريدة، تبدو في ظلها غنائم الأرض كلها، شيئاً تافهاً زهيداً، لا يذكر ولا يقدر شيئاً تخجل النفس المؤمنة أن تذكره، بل تستحي أن تفكر فيه! فضلاً عن أن تشتغل به»[3].

٩ ـ ثم عادت الآيات مرة أخرى تتحدث عن الغزوة وتعقب على ما حدث فيها فقال تعالى:

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٤٩٨.

(٢) انظر تفسير هذه الآية صفحة ٢٠٨ من هذا الكتاب.

(٣) في ظلال القرآن: ١/ ٥٠٦ ـ بتصرف وتلخيص.

ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

في هذه الآيات حكى لنا القرآن أقوال المؤمنين: ﴿أَنَّى هَٰذَا﴾ ورد عليهم ـ سبحانه ـ: ﴿قل هو من عندِ أنفُسِكُم﴾ فمنهج القرآن يتضح هنا حيث يبين الحقائق ويصحح المفاهيم، ويربي بالأحداث.

وبين ـ سبحانه ـ أيضاً أقوال المنافقين ورد عليهم أقوالهم وفي البيان يتضح عناية الله بالمؤمنين حيث كشف لهم أقوال المنافقين ورد عليهم وهذا دليل على كمال عناية الله بهم.

يقول الإمام ابن القيم في هذه الآيات:

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ بعد قوله: ﴿قل هو من عندِ أنفُسِكُم﴾ إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادل قادر... وفي ذكر قدرته هنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلوا على سواه. وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: ﴿وما أصابكم يومَ التقى الجمعانِ فبإذن الله﴾ وهو الإذن الكوني القدريّ..

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يَعْلَمَ المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية، يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تميزاً ظاهراً.

وكان من حكمة هذا التقدير: تكلم المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون وسمعوا ردّ الله عليهم وجوابه لهم.. فلّله كم من حكمة في ضمن

هذه القصة بالغة؟ ونعمة على المؤمنين سابغة؟ وكم فيها من تحذير وتخويف؟ وإرشاد وتنبيه وتعريف بأسباب الخير والشر، ومآلهما وعاقبتهما[1]. . .

وأيضاً حكى القرآن أقوال المنافقين الذين رجعوا مع عبد الله بن أُبَيّ بن سلول قبل حدوث المعركة، وحكمة مجيء قصة عبد الله بن أبي بن سلول متأخرة يقول سيد قطب: ومما يلفت النظر في الاستعراض القرآني لأحداث المعركة، تأخير ذكر هذا الحادث ـ حادث نكول عبد الله بن أبي ومن معه عن المعركة ـ وقد وقع في أول أحداثها وقبل ابتدائها. . . تأخيره إلى هذا الموضع من السياق. .

وهذا التأخير يحمل سمة من سمات منهج التربية القرآنية. . . فقد أخره حتى يقرر جملة القواعد الأساسية للتصور الإسلامي التي قررها، وحتى يقر في الأخلاد جملة المشاعر الصحيحة التي أقرها، وحتى يضع تلك الموازين الصادقة للقيم التي وضعها. . ثم يشير هذه الإشارة إلى ﴿الذين نافقوا﴾ وفعلتهم وتصرفهم بعدها، وقد تهيأت النفوس لإدراك ما في هذه الفعلة وما في هذا التصرف من انحراف عن التصور الصحيح، وعن القيم الصحيحة في الميزان الصحيح. .

إلى أن يقول: فكان من حكمة المنهج إظهار الاستهانة به وبفعلته وبقوله، وعدم تصدير الاستعراض القرآني لأحداث الغزوة بذلك الحادث الذي وقع في أولها، وتأخيره إلى هذا الموضع المتأخر من السياق، مع وصف الفئة التي قامت به بوصفها الصحيح: ﴿الذين نافقوا﴾ والتعجب من أمرهم في هذه الصيغة المجملة: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ وعدم إبراز اسم كبيرهم أو شخصه، ليبقى نكرة في: ﴿الذين نافقوا﴾ كما يستحق من يفعل فعلته، وكما تساوي

---

(١) زاد المعاد: ١/٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ بتصرف يسير.

حقيقته في ميزان الإيمان... ميزان الإيمان الذي أقامه فيما سبق من السياق[1]...

١٠ ــ وفي آخر حديث القرآن عن غزوة أحد تكلم القرآن عن منزلة الشهداء في سبيل الله، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

حزن المسلمون كثيراً على قتلاهم، فسمع البكاء من دور الأنصار حتى أن الرسول ﷺ مر بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل، فسمع البكاء على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله ﷺ، فبكى، ثم قال: (لكن حمزة لا بواكي له..).

فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، إلى دار بني عبد الأشهل أمر نساءهم أن يتحَزّمن، ثم يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله ﷺ.

فلما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهنّ وهن على باب مسجده يبكين عليه، فقال: (ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتن بأنفسكن)[2].

في هذا الموقف العصيب جاء القرآن يعزي الرسول ﷺ والمؤمنين بقوله: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عِندَ ربهم يرزقون﴾**.

يقول ابن القيم: عزى الله نبيه وأولياءه عمن قتل منهم في سبيله أحسن تعزية وألطفها، وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لها، فقال: **﴿ولا تحسبن الذين**

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٥١٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/٩٩.

قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون . . ﴾.

فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضا، بل هو كمال الرضا، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته[1].

ومنهج القرآن هنا يتضح اتضاحاً بيناً، فبعد أن بين الحكم من هذه الغزوة في الآيات السابقة، يأتي القرآن هنا يطيب خواطر المؤمنين، ويعزيهم أحسن عزاء، فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة، ونعمة على المؤمنين سابغة. . . وصدق الله إذ يقول: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وهُدًى وموعِظَةٌ للمُتقينَ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾[2].

هذه هي آخر آية جاءت في حديث القرآن عن غزوة أحد، وهي درس هام تختم به دروس الغزوة، حيث يدعو ـ سبحانه ـ إلى الإيمان به، الإيمان الذي يقتضي التسليم لله والرضا بقضائه، وأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

يقول الإمام ابن القيم: «أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد. ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ الذي يميزُ بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في علمه وغيبه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تميزاً

---

(١) زاد المعاد: ٢/ ٢٦٧.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٧٩.

مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة.

وقوله: ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب. كما قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول﴾[1] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واتقيتم: كان لكم أعظم الأجر والكرامة[2].

وفي الختام، ألخص أهم معالم المنهج القرآني في عرضه لغزوة أحد فأقول:

١ ـ الصورة القرآنية للغزوة أقوى حيوية ووضوحاً من الروايات التي جاءت في الغزوة، كما أن أسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة والمسكنة والواعظة كان رائعاً وقوياً[3]...

٢ ـ وصف القرآن الكريم نفوس جيش النبي ﷺ، وهذا تميز لحديث القرآن عن الغزوة، ينفرد به عن ما جاء في كتب السيرة.

٣ ـ إبراز الأمور الخفية، هي ميزة تميز بها منهج القرآن في عرضه للغزوة ففي قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكُم اللَّهُ وعدهُ إذ تحسونَهُم بإذنهِ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتُم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريدُ الدنيا ومنكم من يريدُ الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضلٍ على المؤمنين﴾[4].

فالمتأمل في قوله: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ يجد

---

(١) سورة الجن، آية ٢٦، ٢٧.
(٢) زاد المعاد: ٢/ ٢٥٠.
(٣) سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة: ٢/ ٢٨١.
(٤) سورة آل عمران، آية ١٥٢.

القرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم. .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا، حتى نزل فينا يوم أحد: **﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾**.

٤ ـ وفي ختام الآية السابقة جاء قوله تعالى: **﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾**.

فهذا التلطف من الله تعالى بهؤلاء المجاهدين الذين هفوا هذه الهفوة يجعل العتاب منه تعالى من قبيل الملاطفة التي تحمل في طياتها التأنيس لهم بعد أن نأت بهم جفوة المعاتبة[١].

وهذا مما يتميز به منهج القرآن في عرضه للغزوة وهو اللطف والتأنيس في أشد المواقف وأصعبها.

٥ ـ والناظر عموماً في منهج القرآن في التعقيب على غزوة أحد، يجد الدقة والعمق والشمول. . . يقول سيد قطب: الدقة في تناول كل موقف، وكل حركة، وكل خالجة، والعمق في التدسس إلى أغوار النفس ومشاعرها الدفينة، والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث.

كما نجد الحيوية في التصوير والإيقاع والإيحاء، بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف، والتعقيب فهو وصف حي، يستحضر المشاهد ـ كما لو كانت تتحرك ـ ويشيع حولها النشاط المؤثر والإشعاع النافذ، والإيحاء المثير[٢]. .

---

(١) محمد رسول الله ﷺ: ٣/ ٦٢١.

(٢) في ظلال القرآن: ١/ ٥٣٢.

البَاب الثَالِث

حَديث القرآن عَن غزوة بَني النضير

تمهيد

غزوة بني النضير من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة على القول الراجح[1] .. وكلامنا عن هذه الغزوة يتضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ويشتمل على:

١ ــ نبذة يسيرة عن يهود الحجاز.

٢ ــ أسباب غزوة بني النضير.

٣ ــ تحديد زمان هذه الغزوة.

المبحث الثاني: أحداث غزوة بني النضير.

المبحث الثالث: نتائج غزوة بني النضير.

---

(١) انظر صفحة ٢٥٢ من هذا الكتاب.

المبحث الأول

ويشتمل أولاً: يهود الحجاز.

نبذة يسيرة عنهم نوضح فيها:

*** متى جاءوا إلى الحجاز وعدد قبائلهم.**

*** وأين سكنوا وعلاقتهم مع الأوس والخزرج.**

ثانياً: أسباب غزوة بني النضير.

ثالثاً: تحديد زمان هذه الغزوة.

أولاً ــ يهود الحجاز

إن يهود[1] بني النضير هم طائفة من يهود الحجاز ولعل من الخير أن نعطي القارىء الكريم نبذة يسيرة عنهم فنقول:

١ ــ يذكر المؤرخون روايات مختلفة في كيفية وصولهم إلى الحجاز ونسوق بعضاً منها:

أ ــ فبعض الروايات تذكر أن موسى عليه السلام حج إلى الكعبة، وفي رجوعه تخلف بعض اليهود فسكنوا يثرب (المدينة)، فسكناهم فيها عن طريق

---

(١) كلمة يهود يرى كثير من العلماء أنها نسبة إلى (يهوذا) وهو الابن الرابع ليعقوب عليه السلام. انظر على سبيل المثال: تاريخ يهود المدينة ص ١٤.

المصادفة أو عن طريق الاختيار[1].

ب ـ وهناك قول يقول: إن تلك الهجرة كانت في أواخر عهد موسى عليه السلام أي في القرنين الثاني عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد، وذلك أن موسى عليه السلام بلغه أن قوماً من العماليق كانوا يسكنون الحجاز وأنهم قد عاثوا في الأرض فساداً بالنهب والقتل وغير ذلك.

وكان ملكهم الأرقم من الجبابرة المعدودين، فأرسل إليهم موسى عليه السلام جيشاً من الإسرائيليين وأمر قائده أن لا يستبقي من بلغ الرشد من العماليق.

وقد حارب بنو إسرائيل العماليق وانتصروا عليهم وقتلوا جميع الرجال ما عدا شخصاً واحداً وهو ابن الملك استحيوه، وقالوا سوف يرى فيه موسى عليه السلام رأيه، ثم رجعوا إلى الشام وقد توفي موسى عليه السلام.

ولما سمع بقدومهم إخوانهم من بني إسرائيل الذين كانوا يسكنون الشام خرجوا ليستقبلوهم، فلما وجدوهم قد خالفوا أمر نبيهم بإبقاء ابن الملك حالوا بينهم وبين دخول الشام، حينئذ رجع المحاربون من بني إسرائيل للعماليق إلى الحجاز، وسكنوا المدينة مسكن العماليق[2].

جـ ـ وتؤكد روايات أخرى أنهم جاءوا من فلسطين قاصدين سكنى هذه المنطقة، لأن التوراة بشرت بظهور نبي يهاجر إلى أرض ذات نخل وماء تقع بين حرتين.

---

(١) انظر وفاء الوفا للسمهودي: ١/١٥٧، وكذلك المدينة في العصر الجاهلي للدكتور محمد العيد الخطراوي ص ٦٩.

(٢) انظر وفاء الوفا: ١/١٥٩، والأغاني: بتحقيق إبراهيم الأبياري ـ أخبار أوس ونسب اليهود النازلين بيثرب: ٢٥/٨٨٠١، وتاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي: ٦/٩، والمدينة في العصر الجاهلي العرب ص ٧٠، ومرويات تاريخ يهود المدينة ـ رسالة ماجستير ـ للطالب أكرم حسين السندي ص ١٦.

وكانت هذه الصفة تنطبق على أربعة أماكن تقريباً مروا بها، هي: تيماء وخيبر وفدك (وتسمى اليوم بالحائط والحويط) ويثرب.

لكن كثيراً من علماء بني إسرائيل كانوا يرون أنها يثرب لذلك نرى كثيراً من القبائل الإسرائيلية نزلوا يثرب ورغبوا أن يعيشوا فيها، ويتخذوها وطناً لهم، حتى إذا ظهر النبي المبشر به من قبل الأنبياء آمنوا به. فكان للمعتقد الديني أثره إذاً في استقرارهم بالحجاز[1].

د ـ ويرى آخرون أن اليهود وصلوا إلى يثرب فراراً من عسف (بختنصر) الذي حكم بابل في سنة (٥٠٤ ـ ٥٦١ م). وقد قويت شوكة هذا الملك فحارب مع الترك، وقاد جيشاً ضخماً إلى دمشق، ثم إلى بيت المقدس لمحاربة بني إسرائيل، فصالحه ملك بني إسرائيل ثم نقض الإسرائيليون عهودهم مع بختنصر.

ولما سمع بختنصر ذلك غضب، وعاد إلى بيت المقدس وحارب بني إسرائيل وغلب عليهم، وأخذ المدينة عنوة، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية.

ففر كثير منهم إلى أقطار مختلفة. وفر بنو النضير، وبنو قريظة وبنو هدل إلى أرض الحجاز (بيثرب) وغيرها[2].

هـ ـ وبعض المؤرخين يقول: إنه لما تم انتصار الروم على بني إسرائيل سنة ٧٠ م على يد الامبراطور تيتوس الذي نكل ببني إسرائيل شر تنكيل حيث قتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ أموالهم عندئذ فر من وجهه بنو هدل، وبنو

---

(١) وفاء الوفاء: ١/ ١٦٠، والمدينة في العصر الجاهلي: ص ٧٠.

(٢) انظر فتوح البلدان للبلاذري: ١/ ١٥، وتاريخ الطبري: ١/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩، ووفاء الوفا: ١/ ١٦٠، والبداية والنهاية: ٢/ ٣٩، والمدينة في العصر الجاهلي ص ٧١، ومرويات تاريخ يهود المدينة ص ١٧.

قريظة وبنو النضير هاربين إلى الحجاز، وسكنوا يثرب[1].

قال الدكتور جواد علي: أما ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخي صحيح.

فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين.

ومن هؤلاء المهاجرين على رأي الأخباريين بنو قريظة وبنو النضير وبنو هدل. ساروا إلى الجنوب تجاه يثرب، فلما بلغوا موضع الغابة، وجدوه وبياً، فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائداً أمروه أن يلتمس لهم منزلاً طيباً، وأرضاً عذبة فذهب حتى إذا بلغ «العالية»[2] أعجبه ماؤها وهواؤها، فرجع إليهم ليخبرهم بأمرها، وبما رآه منها، فقر رأيهم على الإقامة فيها فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان.

ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزوز[3]. . .

ويبدو أن هذا الرأي الأخير هو أقرب الآراء إلى الصواب، ومع هذا فإننا لا نستبعد أنه كان يوجد عدد قليل من اليهود توطنوا الجزيرة العربية قبل هذا التاريخ.

---

(١) انظر: الأغاني: ٢٥/ ٨٨٠٣، وتاريخ العرب قبل الإسلام: ٦/ ١٠، وغزوة بني قريظة لباشميل ص ٣٨، والمدينة في العصر الجاهلي ص ٧١، ومرويات تاريخ يهود المدينة ص ١٨.

(٢) العالية: جزء من المدينة المنورة كانت تطلق في الماضي على وادي بطحان ووادي مهزوز، وهما واديان بهما مياه عذبة وعيون غزيرة.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي ص ١٠ ـ ١١.

٢ ـ أما عدد قبائلهم وبطونهم فكثيرة. فقد أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين فرعاً[١].

منهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو هدل، وبنو عكرمة، وبنو تعلبة، وبنو محمم، وبنو زعوراء، وبنو القصيص.. وغيرهم وقد اشتهر من تلك القبائل: (بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة).

وسبب شهرتهم: أنهم كانوا ذوي عدد وعدة، ولهم وقائع مع الأوس والخزرج، ثم مع رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة[٢].

وأما اليهود خارج المدينة فأشهرهم: (يهود خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى).

٣ ـ وأما مساكن اليهود في الحجاز فبعضها كان بداخل المدينة المنورة وبعضها كان قريباً منها وبعضها كان بعيداً منها.

فبنو قينقاع كانوا يسكنون بداخل المدينة، وكانت لهم سوق تعرف بسوق (بني قينقاع) وتقع منازلهم في الجهة الجنوبية من المدينة. وكانوا موالي الخزرج وحلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبَيّ بن سلول، وكان عددهم قليلاً وصناعتهم الصياغة وهم أغنى سكان المدينة، ومنهم عبد الله بن سلام ذلك الصحابي الجليل الذي أسلم فبشره النبي ﷺ بالجنة.

وبنو النضير كانت مساكنهم بالعوالي في الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مدينب ـ وهو فرع لبطحان ـ ولم يبق من آثارهم غير بعض أطلال حصن كعب بن الأشرف[٣].

---

(١) انظر أسماءها بالتفصيل في كتاب المدينة في العصر الجاهلي ص ٧٤.

(٢) مرويات تاريخ يهود المدينة ص ٢٠.

(٣) أكد هذا القول الشيخ عبد القدوس الأنصاري ـ رحمه الله ـ في كتابه آثار المدينة المنورة ص ٦٥ ـ ٧٦.

وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين أو ثلاثة وكانوا يمتلكون نخلاً كثيراً بجوار المدينة.

وسنتكلم عنهم بالتفصيل عند حديثنا عن أحداث غزوة بني النضير[1].

وبنو قريظة كانوا يسكنون العوالي في الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزوز وهو فرع لبطحان.

ومن أشهر آطامهم بلحان، وكان لكعب بن أسد وفيه يقول الشاعر:

مــن ســره رطــب ومــاء بــارد ... فليأت أهل المجد من بلحان[2]

وتبعد حصونهم عن المدينة نحو ميلين أو ثلاثة، وكان يسكن مع بني قريظة بنو هدل.

هذا وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود (بالكاهنيين) نسبوا بذلك إلى جدهم الذي يقال له الكاهن.

والكاهن هو هارون بن عمران أخو موسى عليهما السلام[3].

وأما يهود خيبر فكانوا يسكنون على بعد ثماني برد من المدينة إلى جهة الشام وقد اشتهر يهود خيبر بغناهم لخصوبة أرضهم، وكثرة مزارعهم وبساتينهم.

وكانت حصونهم ضخمة وحصينة. وعلى مقربة منهم كان يسكن قسم آخر من اليهود، كيهود وادي القرى وتيماء وفدك.

ومساكن اليهود عموماً، كانت تمتاز بعزلتها، ومتانتها، وذلك ليتحصنوا

---

(١) انظر صفحة ٢٥٥ من هذا الكتاب.
(٢) المدينة في العصر الجاهلي ص ٧٤.
(٣) الأغاني: ٢٥/ ٨٨٠٥، وتاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٣.

بها عند الأخطار وليدافعوا عن أنفسهم من ورائها.

٤ ــ وأما عن علاقتهم مع الأوس والخزرج: فيذكر المؤرخون أن الأوس والخزرج أصلهما من قبيلة الأزد من اليمن، وأنهم جاءوا إلى المدينة بعد حادث سيل العرم التماساً لمكان جديد يصلح لمعيشتهم بعد أن غرقت مساكنهم باليمن.

وأنهم حين نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة ولذلك رضوا بما حصلوا عليه من أرض ضعيفة ومن رزق شحيح.

وبمرور الأيام اختلط الأوس والخزرج باليهود الذين كانوا يسكنون يثرب، وكانوا أصحاب الثروة والمال والكلمة النافذة فيها.

وقد بقي الأوس والخزرج على ضعفهم حتى ظهر فيهم رئيسهم مالك بن العجلان الذي استطاع بدهائه ومكره وشجاعته أن يفتك باليهود وأن يجعل الكلمة العليا لقومه(١).

ويصف الدكتور جواد علي ما كان عليه اليهود من ضعف وذلة فيقول: ولكن اليهود مع ما كان لهم من حصون وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها، يؤدون لهم إتاوة في كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدي عليهم.

وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم، فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين(٢).

وعلاقة اليهود بالأوس والخزرج كانت خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين متى وجدوا في

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١١، وبنو إسرائيل في الكتاب والسنة: ١/ ٧٢ وما بعدها.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٢.

إثارتها فائدة لهم كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج.

وأنهم كانوا يهمهم أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة، وكان حديثهم عن النبي المرتقب قد شجع الأوس والخزرج على الدخول في الإسلام.

وقد استمرت علاقة اليهود بالأوس والخزرج تسير على هذا المنوال إلى أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فاشتركوا في استقباله، ثم جرى بينه وبينهم ما جرى من أمور. وسنذكر منها بالتفصيل ما يتعلق بموضوعنا.

ثانياً ــ أسباب غزوة بني النضير

بنو النضير:

هم جماعة من يهود كانوا يسكنون ـ كما سبق أن بيّنا ـ العوالي بالقرب من المدينة على بعد ميلين منها[1].

ومن أهم الأسباب التي حملت النبي ﷺ على غزوة بني النضير وإجلائهم ما يأتي:

أولاً: نقض بنو النضير عهودهم التي تحتم عليهم ألا يؤوا عدواً للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النقض بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السويق[2] حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين

---

(١) انظر مزيداً من التفصيل ص ٢٤١ من هذا الكتاب.

(٢) غزوة السويق كانت في ذي الحجة من السنة الثانية بعد بدر.

رجع إلى مكة ـ بعد غزوة بدر ـ، نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزوَ محمداً.

فخرج في مائتي راكب من قريش، ليبر يمينه، فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب، من المدينة على بريد أو نحوه ثم خرج من الليل فأتى حيي بن أخطب فضَرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه، فانصرف إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك، وصاحب كنزهم.

فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه، وبطن له[1] خبر الناس، ثم خرج في عقب ليلته، حتى جاء أصحابه، فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة، فأتوا ناحية العريض، فحرقوا في أصوار[2] من نخل لها، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس[3]، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم، حتى بلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وقد رأوا من مزاود القوم ما قد طرحوه في الحرث، يتخففون للنجاة، وكان أغلب زادهم السويق[4].

قال موسى بن عقبة ـ صاحب المغازي ـ «كانت بنو النضير قد دسوا إلى قريش وحضوهم على قتال رسول الله ﷺ ودلوهم على العورة»[5].

ثانياً: رفض يهود بني النضير في غزوة أحد أن يعينوا المسلمين بسلاحهم أو بأموالهم.

وقبل المعركة أخذوا يصرفون الناس عن الخروج فقالوا لابن أبي: «أشرت عليه بالرأي ونصحته وأخبرته أن هذا رأي من مضى من آبائك، وكان

---

(١) بطن له: أي أعلمه سرهم.

(٢) الأصور: جمع صور، وهو النخل مجتمعة.

(٣) نذر: أي علموا بأمرهم يقال: نذر بفلان إذا علم به واستعد له.

(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٨٤.

(٥) فتح الباري: ٧/ ٣٣٢.

ذلك رأيه مع رأيك فأبى أن يقبله، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه»[1]، وصادف حديثهم هوىً في نفس عبد الله بن أبي بن سلول فانخذل عن الاشتراك في غزوة أحد.

هذا وذكر الزهري أن الأنصار استأذنوا حينئذ ـ أي حين رجع ابن أبي بثلث الناس ـ رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة، فقال: لا حاجة لنا فيهم[2].

ثالثاً: لم يكتف يهود بني النضير بكل ما فعلوه من إضرار بالمسلمين بل حاولوا اغتيال النبي ﷺ.

فقد ذكر الإمام الواقدي قصة محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ فقال[3]:

«أقبل عمرو بن أمية الضمري[4] من بئر معونة حتى كان بقناة، فلقي رجلين من بني عامر فنسبهما فانتسبا له فقايلهما حتى إذا ناما وثب عليهما فقتلهما.

ثم خرج حتى ورد على رسول الله ﷺ من ساعته في قدر حلب شاة، فأخبره خبرهما فقال رسول الله ﷺ: بئس ما صنعت، وقد كان لهما منا أمان وعهد!.

فقال: ما شعرت كنت أراهما على شركهما.

---

(١) المغازي للواقدي: ١/٢١٦.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/٢٧.

(٣) كذلك ذكرها ابن إسحاق ومعظم كتاب السيرة.

(٤) كان عمرو بن أمية الضمري هو الوحيد الذي أطلقه عامر بن الطفيل وأعتقه عن رقبة زعم أنها عن أمه.

فسار رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعين في ديتهما وكانت بنو النضير حلفاء لبني عامر.

فخرج رسول الله ﷺ يوم السبت فصلى في مسجد قباء ومعه رهط من المهاجرين والأنصار. ثم جاء بني النضير فوجدهم في ناديهم، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه، فكلمهم رسول الله ﷺ أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية.

فقالوا: نفعل، يا أبا القاسم، ما أحببت، قد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا. اجلس حتى نطعمك! ورسول الله ﷺ مستند إلى بيت من بيوتهم، ثم خلا بعضهم إلى بعض فتناجوا، فقال حيي بن أخطب(١):

يا معشر اليهود، قد جاءكم محمد في نفير من أصحابه لا يبلغون عشرة فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه، فلن تجدوه أخلى منه الساعة، فإنه إن قتل تفرق أصحابه، فلحق من كان معه من قريش بحرمهم، وبقي من ها هنا من الأوس والخزرج وحلفاؤكم، فما كنتم تريدون أن تصنعوا من الدهر فمن الآن.

فقال عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة(٢).

---

(١) هو حيي بن أخطب بن سعية، وقيل: سعنة بن عامر بن عبيد بن كعب النضري.

كان قد عرف صدق النبي ﷺ من أول ما رآه ـ عند مقدمة قباء ـ لكنه كفر بغياً وحسداً وعاهد نفسه على معاداة النبي ﷺ مدى الدهر، فكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وللمسلمين.

فهو الذي أشار بفكرة اغتيال النبي ﷺ، وهو الذي قاد الوفد اليهودي الذي حرض قريش على قتال النبي ﷺ في غزوة الأحزاب، وهو الذي حرض بني قريظة على نقض عهودهم مع النبي ﷺ، وقد قتل في غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة.

(٢) هو عمرو بن جحاش بن كعب بن بسيل النضري. وقد قتله يامين بن عمرو ـ أحد اللذين أسلما من بني النضير ـ جزاء لفعلته النكراء، ذكر ذلك ابن إسحاق. سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٢٣.

قال سلام بن مشكم[1]: يا قوم أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر.

والله إن فعلتم ليخبره بأنا قد غدرنا به، وأن هذا نقض العهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا..

وقد هيأ عمرو بن جحاش الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ ويحدرها.

فلما أشرف بها، جاء رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما هموا به، فنهض رسول الله ﷺ سريعاً كأنه يريد حاجة، فلما يئسوا من ذلك قال أبو بكر رضي الله عنه: ما مقامنا هنا بشيء لقد وجه رسول الله ﷺ لأمر[2].

فقاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة.

فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود قد أرادت من الغدر به.

وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم[3].

وذكرت المصادر قصة أخرى لمحاولة الاغتيال من بني النضير رواها عبد الرزاق عن معمر عن الزهري[4] ملخصها:

---

(١) هو سلام بن مشكم النضري. كان سيد بني النضير. وصاحب كنزهم، والمراد بالكنز هو ما كانوا يجمعون من أموال يحفظونها لمهماتهم ونوائبهم.
وكان ضمن الوفد اليهودي الذي حرض قريشاً لقتال النبي ﷺ في غزوة الأحزاب.

(٢) المغازي للواقدي: ١/ ٣٦٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٥١.

(٤) المصنف: ٥/ ٣٥٨، وهي رواية صحيحة الإسناد. قال الدكتور أكرم ضياء العمري: (وهذه الرواية إسنادها رجاله ثقات وفيه جهالة اسم الصحابي ولا تضر) المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٤٦.

أنه بعد كتابة قريش إليهم وتهديدها لهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ، فاستجاب بنو النضير لهم وعزموا على الغدر، وأرسلوا إلى النبي ﷺ أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلاً من أصحابه، ووعدوا أن يخرجوا بمثلهم من أحبارهم إلى موضع وسط ليستمعوا منه.

فإن صدقوه آمنت يهود، فلما اقتربوا اقترح اليهود أن يجتمع النبي ﷺ ومعه ثلاثة من أحبارهم فإن أقنعهم آمنت بنو النضير، وقد حمل الثلاثة خناجرهم لكن امرأة منهم أفشت خبرهم لأخ لها مسلم، فأخبر النبي ﷺ فرجع ولم يقابلهم، ثم حاصرهم بالكتائب وقاتلهم فنزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم[1].

كل هذه الأسباب وغيرها أدت إلى غزوة بني النضير وقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النعمة الجليلة وكيف نجى الله نبيهم محمداً ﷺ من مكر يهود بني النضير فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

وقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات فيها: روى عبد الرازق عن معمر عن الزهري عن أبي شامة عن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله، ثم أقبل عليه فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله عز وجل، فسقط السيف من يد الأعرابي، فدعا

---

(١) قال الدكتور أكرم العمري: ورغم أن رواية عبد الرزاق أقوى سنداً من رواية ابن إسحاق، لكن رواية ابن إسحاق حظيت بقبول كتاب السيرة (المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٤٦) وانظر قول ابن حجر في المسألة ص ٢٥٤ من هذا الكتاب.

(٢) سورة المائدة، آية ١١.

النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي. وهو جالس إلى جانبه ولم يعاقبه[1].

وأخرج ابن جرير عن ابن أبي زياد قال: جاء رسول الله ﷺ بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه ومعه أبو بكر وعمر وعلي. فقال: أعينوني في عقل أصابني، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن ذلك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه ينتظرون وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ ما قال، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولا ترون شراً أبداً.

فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه من ثم فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾.

فأخبر الله نبيه ﷺ ما أرادوا به[2].

وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد[3] أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بذلك أن جلس النبي ﷺ ـ تحت الجدار ـ واجتمعوا عنده أن يلقي الرحى من فوقه. فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية[4].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣١.
(٢) تفسير ابن جرير الطبري: ٦/ ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٣) هذه الآثار وإن كان فيها ضعف يمكن أن تعضد لتصبح بمجموعها صالحة للاحتجاج بها. (انظر المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٤٥).
(٤) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣١.

هذا وقد رجح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي ﷺ وأصحابه فقال:

«وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك قول من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به ورسوله التي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيهم ﷺ، مما كانت يهود بني النضير همت به من قتله وقتل من معه يوم سار إليهم في الدية التي تحملها عن قتيلي عمرو بن أمية. وإنما قلنا أولى بالصحة في تأويل ذلك، لأن الله عقب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها وقبيح فعالها، وخيانتها ربها وأنبياءها... الخ»[1].

ونحن نوافق ابن جرير في ترجيحه لما رجحه إلا أننا لا نمنع أن تكون الآية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعة، فقد تتعدد الحوادث والمنزل واحد كما قال العلماء.

والآية الكريمة قد افتتحت بأمر المؤمنين بأن يذكروا نعمة الله عليهم فقالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي يا من آمنتم بالله ورسوله، اذكروا نعمة الله عليكم، واشكروه عليها، ليزيدكم من إحسانه وإنعامه ودفع المكروه عنكم.

ثم وصف ـ سبحانه ـ نعمته التي أمرهم بالشكر عليها مع سائر نعمه فقال تعالى: ﴿إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾.

وقوله: ﴿إذ هم قوم﴾ ظرف لقوله: ﴿نعمة الله﴾.

والهم: إقبال النفس على فعل شيء.

وبسط اليد هنا كناية عن البطش والإهلاك. يقال: بسط يده إليه، إذا بطش به. وبسط إليه لسانه: إذا شتمه. والبسط في الأصل: مطلق المد. وإذا

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ٦/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

استعمل في اليد واللسان كان كناية عما ذكر.

وقوله: ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ معطوف على قوله: ﴿هم قوم﴾ وهذا الكف هو النعمة التي قصد تذكيرهم بها حتى يداوموا على شكر الله وطاعته.

والمعـــنى:

أي اذكروا نعمة الله عليكم، التي من أكبر مظاهرها كفه عنكم أيدي اليهود الذين هموا أن يمدوا أيديهم بالسوء إلى نبيكم، وشارفوا أن ينفذوا مؤامرتهم الخبيثة، ولكن الله أحبط مكرهم ونجى نبيكم ﷺ من شرورهم.

ثم أمر ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكل عليه فقال تعالى: **﴿واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾**.

أي اتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ في رعاية حقوق نعمته ولا تخلوا بشكرها فقد أراكم قدرته، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بكم وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون.

ونحن نجد الآية الكريمة قد ذكرت المؤمنين بنعمة الله عليهم ليزدادوا له شكراً وحمداً. فالله سبحانه وتعالى هو المستحق للحمد والشكر.

ثالثاً ــ تحديد زمان غزوة بني النضير

المحققون من المؤرخين يرون أن غزوة بني النضير كانت بعد أحد في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «ذكر البيهقي[١] والبخاري قبله[٢] خبر بني النضير قبل وقعة أحد».

---

(١) انظر دلائل النبوة: ٢/ ٤٤٢.

(٢) انظر صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة بني النضير: ٥/ ١١٢.

والصواب إيرادها بعد ذلك، كما ذكر ذلك محمد بن إسحاق[1] وغيره من أئمة المغازي[2].

وبرهانه ـ أي القول بأنها كانت بعد أحد ـ أن الخمر حرمت ليالي حصار بني النضير، وثبت في الصحيح[3] أنه اصطبح الخمر جماعة ممن قتل يوم أحد شهيداً فدل على أن الخمر كانت حلالاً، وإنما حرمت بعد ذلك، فتبين ما قلناه من أن قصة بني النضير بعد وقعة أحد والله أعلم[4]. اهـ.

ومن المؤرخين من يرى أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر، كما ذكر ذلك البيهقي[5] والبخاري[6] والزهري[7].

قال البخاري: قال الزهري عن عروة: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد[8].

وقال عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ... وذكر حديثاً طويلاً يشير إلى أن غزوة بني النضير بعد بدر[9].

---

(١) انظر قول ابن إسحاق في سيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٩.

(٢) ذهب إلى ذلك جلّ أهل المغازي. انظر على سبيل المثال (المغازي للواقدي: ١/ ٣٦٣، وسيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٩.

(٣) جاء ذلك من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «اصطبح الخمر يوم أحد ناس ثم قتلوا شهداء» والتصبيح: الشرب في الصباح. انظر صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة أحد: ٥/ ١٢١، وفتح الباري: ٧/ ٣٥٣.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ١٧.

(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي: ٢/ ٤٤٢.

(٦) انظر صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة بني النضير: ٥/ ١١٢.

(٧) انظر المصنف: ٥/ ٣٥٧، وفتح الباري: ٧/ ٣٢٩.

(٨) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة بني النضير: ٥/ ١٢٢.

(٩) المصنف: ٥/ ٣٥٨، وانظر ملخص القصة صفحة ٢٤٨، وانظر دراسة سند هذا الحديث في رسالة غزوة الخندق ص ٦١، ورسالة مرويات تاريخ يهود المدينة ص ١٢٥.

لكن الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ قال:

وزعم محمد بن شهاب الزهري: أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه، أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه: أنها بعد أحد والذي كانت بعد بدر بستة أشهر، هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق وخيبر بعد الحديبية[١].

وقال ابن العربي: والصحيح أنها بعد أحد[٢].

أما الحافظ ابن حجر فإنه لم يجزم برأي قاطع في المسألة[٣] وعلق التسليم برأي ابن إسحاق بثبوت تعلق الغزوة بقصة العامريين القتيلين.

قال ابن حجر معلقاً على رواية الزهري: فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه ﷺ أن يعينوه في دية الرجلين، لكن وافق ابن إسحاق جل أهل المغازي فالله أعلم.

وإذا ثبت أن سبب إجلاء بني النضير ما ذكر من همهم بالغدر به ﷺ عندما جاء إليهم ليستعين في دية قتيلي عمرو بن أمية، تعين ما قال ابن إسحاق، لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق[٤].

والذي تطمئن إليه النفس ما ذهب إليه ابن كثير وابن القيم وغيرهما من أن غزوة بني النضير كانت بعد أحد لأن إباحة شرب الخمر في غزوة أحد، وتحريمه خلال غزوة بني النضير يؤيد ذلك. ولأن الثقات من العلماء كابن كثير وابن القيم عندما رتبوا الغزوات وضعوا غزوة بني النضير بعد غزوة أحد، والله أعلم.

* * *

---

(١) زاد المعاد: ٢/ ٢٧٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٧٦٥.

(٣) فتح الباري: ٧/ ٣٣٢.

(٤) انظر تعليق الدكتور أكرم العمري على رأي ابن حجر في (المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٤٥).

المبحث الثاني
أحداث غزوة بني النضير

ستتكلم عن الأحداث من حين إنذارهم بالجلاء حتى نزولهم على حكم رسول الله ﷺ في النهاية.

أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة إليهم وقال له: اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رئي بعد منكم ضربت عنقه[1].

وأسقط في أيدي بني النضير، ولم يجدوا جواباً يردون به، سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يا محمد، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس.

فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود فقالوا: نتحمل ومكثوا أياماً يعدون العدة للرحيل[2].

وفي تلك الفترة أرسل إليهم عبد الله بن أبي بن سلول من يقول لهم: اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم[3]، ولا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم[4].

فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم (حيي بن أخطب) وأرسل

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى: ٢/ ٥٧.
(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٥٢.
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٢١.
(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٥٣.

إلى النبي ﷺ جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم ـ أي لن نبرح ـ دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون معه، وقال: حاربت يهود[1].

وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم فسار رسول الله ﷺ في أصحابه فصلى العصر بفضاء بني النضير، فلما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا على جدر حصونهم، معهم النبل والحجارة وأمسوا فلم يقربهم ابن أُبي ولا أحد من حلفائه.

وحاصرهم المسلمون خمس عشرة ليلة وكان سعد بن عبادة يحمل التمر إلى المسلمين، واستخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم على المدينة، وضربت قبة من أدم للرسول ﷺ. ودخل رسول الله ﷺ فيها.

وكان رجل من اليهود يقال له: غزول، وكان أعسر رامياً، فرمى فبلغ نبله قبة النبي ﷺ، فأمر بقبته فحولت إلى مسجد الفضيخ وتباعدت عن النبل[2].

وقد عمد النبي ﷺ إلى خطة بارعة تعد ضربة قاصمة لليهود، وهي حرق نخيلهم، فقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم لتزول حماستهم للقتال وجزع اليهود وتصايحوا:

يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله فما بال قطع النخيل وتخريبها؟.

ثم جعلت يهود كلما خلص رسول الله ﷺ من هدم ما يلي مدينتهم ألقى الله في قلوبهم الرعب. فهدموا الدور التي هم فيها من أدبارها، ولم يستطيعوا

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ١٤٦.

(٢) المغازي للواقدي: ١/ ٣٧١.

أن يخرجوا على النبي ﷺ وأصحابه يهدمون شيئاً فشيئاً[1].

وأدرك بنو النضير حينئذ أن لا مفر من جلائهم، ودب اليأس في قلوبهم وخاصة بعد أن أخلف ابن أبي وعده بنصرهم، وعجز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً أو يدفعوا عنهم شراً فأرسلوا إلى النبي ﷺ يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم.

فوافقهم النبي ﷺ على ذلك وقال لهم: «اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة ـ وهي الدروع والسلاح ـ فرضوا بذلك».

وكان اليهود عند مغادرتهم يعمدون إلى سقف بيوتهم وعمدها وجدرانها فينقضونها لئلا يستفيد منها المسلمون.

وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق[2] وحده حمل جلد ثور مملوء ذهباً وفضة وكان يقول هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل[3].

وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفـنّ من خلفهم حتى لا يشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام.

وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر:

(سلام بن أبي الحقيق[4]، وحيـي بن أخطب[5]، وكنانة بن الربيع بن أبي

---

(١) التاريخ الكبير للذهبي: ١/ ١٧٣.

(٢) ستأتي ترجمته في هامش رقم ٤.

(٣) السيرة الحلبية: ٢/ ٢٦٧.

(٤) هو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق وكان شديد العداوة للمسلمين، فكان ممن حزب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وقد استأذن الصحابة من الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام بن أبي الحقيق ـ وكان ذلك بعد غزوة قريظة ـ وهو بخيبر، فأذن لهم فقتلوه بقيادة عبد الله بن عتيك الخزرجي الأنصاري. وذلك لأن الأوس والخزرج تتسابقان في الخيرات بعد الإسلام.

(٥) تقدمت ترجمته ص ٢٤٧ من هذا الكتاب.

الحقيق[1]) فلما نزلوها دان لهم أهلها[2].

وقد حزن المنافقون لإجلائهم حزناً شديداً.

وقسم الرسول ﷺ أموال بني النضير التي تركوها بين المهاجرين دون الأنصار، بعد أن استبقى قسماً خصصت غلته للكراع[3] والسلاح.

وبذلك أصبح من هاجر من المسلمين إلى المدينة في غنى عن معونة الأنصار وأصبح لهم مثل ثروتهم، ولم يشترك في القسمة من الأنصار سوى (أبي دجانة وسهل بن حنيف) فقد ذكرا فقراً فأعطاهما النبي ﷺ كما أعطى المهاجرين.

ونقل البلاذري عن الكلبي قوله: كانت أموال بني النضير مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فقال رسول الله ﷺ للأنصار: ليست لإخوانكم المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة.

فقالوا: بل اقسم هذه فيهم خاصة واقسم لهم من أموالنا ما شئت فنزلت: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[4]. فقال أبو بكر: جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

---

(١) هو كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق قتل في فتح خيبر وهو أحد اليهود من بني النضير. كان زوج صفية وكان خلف على صفية بعد سلام بن سلمة القرظي. وقد جيء به إلى رسول الله ﷺ أيام خيبر وكان عنده كنز بني النضير فسأله عنه فجحده فأتى رجل من يهود إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة فأنكر. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم. وأخيراً دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة وقد كان كنانة ممن ألف الأحزاب على رسول الله ﷺ.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٢٢٢.

(٣) الكراع: الخيل.

(٤) سورة الحشر، آية ٩.

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت[1] بنا نعلنا في الوطأتين فزلت
أبوا أن يملونا فلو أن أمنا تلاقي الذي تلقون منا لملت
فذو المال موفور وكل مغضب إلى حجرات أدفأت وأظلت[2]

ولم يسلم من بني النضير غير رجلين: (يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب).

فأحرز النبي ﷺ أموالهما ولم تقسم.

* * *

المبحث الثالث
نتائج غزوة بني النضير

من أهم نتائج غزوة بني النضير ما يلي:

١ ـ أن إجلاء بني النضير كان خطة حكيمة، وضربة صائبة أصابت مقتلاً من اليهود والمنافقين في وقت واحد، لأنهما كانا يمثلان جبهة متحدة ضد المسلمين، فلما تصدعت تلك الجبهة خفت صوت المنافقين وفترت عزائمهم، وحزنوا على بني النضير.

٢ ـ كان إجلاء بني النضير تطبيقاً رائعاً للسياسة الحكيمة التي سار عليها النبي ﷺ وهي الأخذ بمبدأ الوقاية[3]، لا سيما في أعقاب غزوة أحد لأن بقاءهم بجوار المدينة ـ بعد أن ظهر غدرهم ـ كان سيشكل خطراً كبيراً على المدينة.

---

(١) أزلقت: من زلق وهو في الأصل مصدر (زلقت) رجله و (أزلقها) غيره والمزلق الموضع الذي لا تثبت عليه قدم.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري: تحقيق د. صلاح المنجد: ١/ ٢١.

(٣) مبدأ الوقاية من مبادىء الحرب وتعرفه القوانين الحربية بأنه التدابير التي يتخذها القائد لسلامة قوته من المفاجأة ولإخفاء مواقعه من العدو.

٣ ـ إن المسلمين بهذا النصر الذي أحرزوه بدون تضحيات تذكر، توطد سلطانهم في المدينة، وعمها الأمن والاطمئنان.

٤ ـ تحسنت موارد الدولة الإسلامية الناشئة، فقد انتفع المهاجرون بما أفاء الله عز وجل على رسوله ﷺ من أموال يهود بني النضير وكما نعلم أن للاقتصاد أثراً كبيراً في قوة الدولة وضعفها.

٥ ـ ازداد حقد بني النضير على المسلمين بعد إجلائهم من المدينة فما أن استقر زعماؤهم في خيبر حتى أخذوا يفكرون في استئصال شأفة المسلمين عن آخرهم بتأليب جموع الأحزاب عليهم ولتنفيذ فكرتهم قرروا إرسال وفد إلى مكة يتكون من:

١ ـ حيي بن أخطب[١].

٢ ـ سلام بن مشكم[٢].

٣ ـ كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق[٣].

٤ ـ سلام بن أبي الحقيق[٤].

٥ ـ هوذة بن قيس الوائلي.

٦ ـ وأبو عمار الوائلي[٥].

هذا وفي شأن بني النضير نزلت سورة الحشر، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر، قال: سورة بني النضير[٦]. وسنقوم بتفسيرها إن شاء الله في الفصل الأول.

---

(١) تقدمت ترجمته ص ٢٤٧ من هذا الكتاب.

(٢) تقدمت ترجمته ص ٢٤٨ من هذا الكتاب.

(٣) تقدمت ترجمته ص ٢٥٨ من هذا الكتاب.

(٤) تقدمت ترجمته ص ٢٥٧ من هذا الكتاب.

(٥) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٣.

(٦) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم: ٥/ ١١٣.

الفصل الأول

حديث القرآن عن غزوة بني النضير وتفسير الآيات التي وردت في ذلك

لقد تحدث القرآن الكريم عن غزوة بني النضير في سورة كاملة وهي سورة الحشر. يقول ابن هشام: «ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم الله من نقمته، وما سلط عليهم به رسوله ﷺ وما عمل به فيهم»[١].

وقد سمى حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر بسورة بني النضير. ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت: لابن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر، قال: سورة بني النضير[٢].

والمراد كما قال ابن حجر نقلاً عن الداودي: كأن ابن عباس كره تسميتها سورة الحشر لئلا يظن أن المراد بالحشر هنا يوم القيامة، أو لكونه مجملاً فكره النسبة إلى غير معلوم[٣].

وروى البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: آلتوبة؟ قال: بل هي الفاضحة. ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٢.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب حديث بني النضير: ٥/ ١١٣.

(٣) فتح الباري: ٧/ ٣٣٢.

قال: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر.

قال: قلت: فالحشر، قال: نزلت في بني النضير (واللفظ لمسلم)[1].

ويشمل هذا الفصل على مبحثين:

المبحث الأول: عرض إجمالي للسورة.

المبحث الثاني: تفسير السورة الكريمة.

* * *

المبحث الأول
عرض إجمالي للسورة

في القرآن الكريم خمس سور بدء فيها بقوله تعالى: ﴿سبح لله﴾ و ﴿يسبح لله﴾ وتسمى المسبحات[2]، وسورة الحشر من هذه المسبحات.

وسورة الحشر من السور المدنية وآياتها أربع وعشرون بلا خلاف[3].

وقد نزلت في أعقاب غزوة بني النضير التي وقعت في السنة الرابعة من الهجرة ـ كما سبق أن بينا ـ والذي يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل يراها قد بينت ملابسات هذه الغزوة، وفصلت القول فيها، وبينت أحكام الفيء ومن هم المستحقون له؟ وأوضحت موقف المنافقين من اليهود، كما كشفت عن حقائق نفسيات اليهود. وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود.

وبعد هذا الحديث المستفيض عن الغزوة وجه ـ سبحانه ـ الخطاب إلى

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحشر: ٦/ ١٨٣، وفتح الباري: ٨/ ٦٢٩، وصحيح مسلم ـ كتاب التفسير ـ (رقم الحديث ٣٠٣١) ـ ٤/ ٢٣٢٢.

(٢) المسبحات: هي سورة الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن.

(٣) تفسير القرطبي: ١٨/ ص ١.

المؤمنين فأمرهم بتقواه وحذرهم من معصيته، ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالثناء على القرآن الكريم وتحدث عن أسمائه وصفاته.

وبمزيد من التأمل في آيات السورة بشكل عام نرى أنها:

١ ـ ابتدأت بالثناء على الله، وأن الكون كله بجميع ما فيه من مخلوقات من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، ينزه الله ويمجده ويشهد بوحدانيته وقدرته وجلاله وناطق بعظمته وسلطانه.

قال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾.

٢ ـ ثم أعقبت السورة ذلك ببيان كمال قدرته وعظمته ورأفته بالمؤمنين ومظاهر عزته حيث أجلى أعداءهم عن المدينة فقال تعالى:

: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ ﴾.

٣ ـ ثم وضحت حكم ما صنعه المسلمون من تقطيع النخيل وبينت أن ذلك جائز، وكذلك أوضحت أحكام الفيء وما يتعلق به من مسائل. قال تعالى:

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ ﴾.

ثم تناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر والذكر الحسن،

وبينت فضائلهم وصفاتهم وكذلك نوهت بفضائل الأنصار وكيف استقبلوا المهاجرين بالحب والأثرة. قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

٥ ـ ثم وضحت حالة المنافقين، فبينت موقفهم وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود وكشفت أيضاً موقفهم من المسلمين، وموقف اليهود ونفسياتهم. قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

٦ ـ ثم وعظت المؤمنين وذكرتهم باليوم الآخر، وبينت البون الشاسع بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وبينت عظمة القرآن وعلو منزلته ومكانته. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ

نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

٧ ـ ثم ختمت السورة الكريمة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ .

وبعد هذا العرض المجمل نبدأ في تفسير السورة الكريمة.

* * *

المبحث الثاني
تفسير السورة الكريمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1]

التسبيح: مشتق من سبح.

والسبح هو المر السريع في الماء أو الأرض. قال الألوسي: التسبيح على المشهور تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق بجنابه سبحانه وتعالى. من سبح في الأرض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما[1].

العزيز: أي المنيع الجانب.

الحكيم: أصل الحكمة: المنع، ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها من الإعوجاج وتقال للعلم لأنه يمنع عن ارتكاب الباطل[2].

---

(١) تفسير الألوسي ٢٧/ ١٦٤.

(٢) تفسير الألوسي ١/ ٢٢٧.

فمعنى الحكيم: هو الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة في تقديره وشرعه.

والمعنـــى:

أخبر سبحانه أن جميع ما في السموات وما في الأرض من كائنات ينزه الله تعالى عما لا يليق به.

وتكرير (ما) هنا لتأكيد هذا التنزيه مع التنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح.

و (ما) هنا تتناول جميع المسبحين سواء أكانوا من العقلاء أم من غيرهم.

قال الألوسي ما ملخصه:

واختلف في التسبيح على قولين:

١ ـ قال الجمهور: المراد به معنى مجازي شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين، ولسان الحال كتسبيح غيرهم.

٢ ـ وذهب البعض إلى أن التسبيح على الحقيقة المعروفة في الجميع وهو مبني على ثبوت النفوس الناطقة والإدراك لسائر الحيوانات والجمادات على ما يليق بكل[١].

والذي أراه أن تسبيح جميع الكائنات لله ثابت له ـ عز وجل ـ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[٢] إلا أن كيفية التسبيح مفوض أمرها إليه سبحانه.

---

(١) تفسير الألوسي ٢٧/ ١٦٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

وبعد هذه الافتتاحية المشعرة بالرهبة والجلال لله عز وجل بدأ سبحانه الحديث عن غزوة بني النضير فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾.

﴿من أهل الكتاب﴾: المراد بهم بنو النضير.

﴿لأول الحشر﴾: أي في أول الحشر واللام للتوقيت[1].

والحشر: الجمع، وحشر الناس: جمعهم[2].

يقال: حشر القائد الجند أي جمعهم ومنه قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[3].

قال الإمام الرازي: وسمي هذا الحشر بأول الحشر لوجوه:

أحدها: وهو قول ابن عباس والأكثرين أن هذا أول حشر أهل الكتاب، أي أول مرة حشروا أو أخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم هذا الذي قبل ذلك، لأنهم كانوا أهل نعمة وعز.

وثانيها: أنه تعالى جعل إخراجهم من المدينة حشراً. وجعله أول الحشر من حيث يحشر الناس للساعة من ناحية الشام، ثم تدركهم الساعة هناك.

وثالثها: أن هذا أول حشرهم، وأما آخر حشرهم فهو إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام.

---

(١) المصدر السابق ٢٨/ ٣٩.
(٢) مختار الصحاح، ص ١٣٧.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٧.

ورابعها: معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما يحشر لقتالهم، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ.

وخامسها: قال قتادة هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وذكروا أن تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار[1].

ويبدو لي من الأقوال التي ساقها الإمام الرازي أن أقربها هو القول بأن هذا هو أول حشر لهم من الجزيرة العربية، أما آخر حشرهم فهو إجلاء عمر - رضي الله عنه - لهم من خيبر.

﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾: أصل القذف الرمي بقوة أو من بعيد. والرعب: الخوف الشديد.

﴿يخربون﴾: من خرب بمعنى هدم وأفسد.

﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾: يا أولي الأفهام والعقول. قال الطبري: وإنما عنى بالأبصار في هذا الموضع إبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون، والأبصار: جمع بصر، وهو في الأصل الإدراك بالعين، ويطلق على القوة التي يقع بها الإبصار وبالعين نفسها[2].

المعنـى:

وقوله - سبحانه -: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر. . .﴾.

بيان لعظيم قدرته - سبحانه - أي هو - سبحانه - الذي أخرج بني النضير

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ٢٩/٢٧٨.

(٢) تفسير الإمام الطبري ٢٨/ ص ٣١.

من ديارهم التي سكنوها وحصنوها واعتقدوا أنهم لن يستطيع أحد إخراجهم منها وكان ذلك لأول حشر لهم من الجزيرة إلى الشام.

وقوله تعالى: ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾.

خطاب للمؤمنين يذكرهم ـ سبحانه ـ فيه بفضله عليهم.

أي: ما ظننتم ـ أيها المؤمنون ـ أن أعداءكم سيخرجون من تلك الديار المحصنة ولكن الله تعالى أخرجهم منها بقدرته وقدره.

قال ابن كثير: ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها[١].

وقوله: ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ كشف عما كان يدور في نفوس بني النضير من غرور وصلف.

أي وظن أولئك اليهود أن حصونهم التي حصونها بألوان من التحصينات والمواقع، ستحول بينهم وبين الوصول إليهم أو الخروج منها.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾.

بيان لعظيم قدرته عز وجل حيث أتاهم ببأسه وقدرته من حيث لم يخطر ببالهم، وألقى ـ سبحانه ـ في قلوبهم الرعب الشديد، الذي جعلهم يخرجون من ديارهم صاغرين. ثم بين ـ سبحانه ـ ما جرى لهذه الديار المحصنة من تخريب فقال: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾.

أي أن هؤلاء اليهود وصل بهم الحال أنهم هم أنفسهم كانوا يهدمون بيوتهم، وذلك ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة،

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٢. وهناك قول بأن مدة الحصار خمسة عشر يوماً.

وليأخذوا بعضها معهم عندما حكم عليهم بالجلاء.

﴿وأيدي المؤمنين﴾أي شاركهم المسلمون في ذلك التخريب بأمر الله ورسوله.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآية بتلك العبارة الحكيمة فقال: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

أي فاتعظوا بما حدث لهؤلاء اليهود يا أصحاب العقول السليمة، والأفكار القويمة.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام حيث أول حشرهم في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لقوتها ومنعتها.

لكن الله خالق الأسباب والمسببات جاءهم من حيث لم يحتسبوا. جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها فقذف فيها الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

وفي هذا الإخراج عبر وعظات فليعتبر أولو الأفهام بما حل بهؤلاء اليهود. وبهذه الآية الكريمة بدأ الحديث عن غزوة بني النضير التي سجلها القرآن الكريم بطريقته الفريدة حيث تكون بها تربية بالأحداث والوقائع، تختلف تماماً عن طريقة أهل السير، وتمتاز بأنها تكشف الحقائق وتوضح الخفايا، وتربط كل الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو الله رب العالمين. ومن ذلك أنها بينت أن الذي أخرج بني النضير هو الله جل جلاله ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾.

واستمرت الآية توضح أنهم حسبوا كل شيء وأحاطوا بجميع الأسباب

الأرضية لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه وهو أنفسهم فإذا الرعب يأتي من داخلهم فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظة. لذلك يجب على كل إنسان عاقل أن يعتبر بهذه الغزوة وأن يعرف أن الله هو المتصرف في الأمور وأنه لا تقف أمام قدرته العظيمة لا الأسباب ولا المسببات فهو القادر على كل شيء فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ويصلحوا أمرهم فإذا اتبعوا أمر الله أصلح الله لهم كل شيء وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

وتسجيل القرآن الكريم للغزوة وما فيها من عبر جليلة تجعلها درساً للأمة الإسلامية في جميع عصورها تذكرهم أن طريق النصر قريب وهو الرجوع إلى الله والاعتماد عليه والتسليم لشريعته، وتقديره حق قدره فإذا عرف ذلك المؤمنون نصرهم الله ولو كان عدوهم قوياً وكثيراً فإن الله لا يعجزه شيء وأقرب شاهد واقعي لذلك هو إجلاء بني النضير، وهي عبرة فليعتبر بها، والسعيد من اعتبر بغيره.

ثم أوضح سبحانه أنه لو لم يعاقبهم بالجلاء لعذبهم في الدنيا بالقتل أما في الآخرة فلهم عذاب النار. قال تعالى: **﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار﴾**.

﴿الجلاء﴾: مفارقة الوطن، والانتقال من موضع إلى موضع ومن بلدة إلى أخرى. والجلاء أخص من الخروج لأنه لا يقال إلا للجماعة، والإخراج يكون للجماعة وللواحد[1].

المعنــى:

ولولا أن قضى الله وكتب على هؤلاء اليهود من بني النضير في أم الكتاب الجلاء لعذبهم في الدنيا بالقتل كبني قريظة ثم لهم في الآخرة عذاب النار.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٣١٦.

ثم علل ـ سبحانه ـ الأسباب التي أدت إلى ما قضاه فيهم: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾.

﴿شاقوا﴾: من المشاقة، بمعنى المخالفة والمعاداة، مشتق من الشق أي الجانب فكأن كل واحد من المتعادين أو المتخالفين صار في شق غير شق صاحبه[1].

والمعنـــى:

أن ذلك العذاب الذي حل بهم هو بسبب مخالفتهم لله ولرسوله وعصيانهم لأوامره ﴿ومن يشاق الله﴾ أي يحاربه ويعاديه ﴿فإن الله شديد العقاب﴾.

قال الألوسي: وشديد العقاب هذه الجملة إما نفس الجزاء، وقد صرف العائد عند من يلتزمه، أي شديد العقاب له، أو تعليل للجزاء المحذوف أي يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب[2].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك بشيء من التفصيل ما حدث من المؤمنين عند محاصرتهم لبني النضير فقال تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾.

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها:

ما أخرجه البخاري[3] ومسلم[4] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع البويرة[5]، فأنزل الله تعالى: ﴿ما

---

(١) التفسير الوسيط ـ سورة الأنفال ـ للشيخ محمد سيد طنطاوي ص ٦٤.
(٢) تفسير الألوسي ٢٨/ ٤٣.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحشر: ٦/ ١٨٤، وفتح الباري ٨/ ٦٢٩.
(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب جواز قطع نخيل الكفار ٣/ ١٣٦٥.
(٥) البويرة: قال ابن حجر (بالموحدة مصغر بؤرة وهي الحفرة)، وهي هنا مكان معروف بين =

قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾ .

وروى الطبري عن يزيد بن رومان قال: لما نزل رسول الله ﷺ بهم ـ يعني بني النضير ـ تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ .

فأنزل الله عز وجل: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[1] .

واللينة: واحدة اللين، وهو النخل كله، أو إلا العجوة أو كرام النخل.

وقيل: واحدة اللون، وهو جميع ألوان التمر سوى البرني والعجوة ويسميه أهل المدينة الألوان وأصل لينة لونة، فقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها[2] . . .

والمعنـى:

ما قطعتم ـ أيها المسلمون ـ من نخلة أو تركتموها قائمة بدون قطع فكل ذلك بإذن الله أي بأمر الله.

قال الطبري: وقوله: ﴿فبإذن الله﴾ يقول فبأمر الله قطعتم، وتركتم ما تركتم، وليغيظ بذلك أعداءه، ولم يكن فساداً بل هو إذلال للخارجين عن طاعة الله عز وجل، المخالفين أمره ونهيه وهم يهود بني النضير[3] .

= المدينة وتيماء، وهي من جهة قبلة مسجد قباء إلى جهة الغرب ويقال لها أيضاً الوبيلة باللام بدل الراء فتح الباري: ٧/ ٣٣٣.

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٣٤.

(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن ٢/ ٤١٥.

(٣) تفسير الطبري ٢٨/ ٣٥.

فالآية الكريمة تزيل الحرج الذي لحق بقلوب المؤمنين من قطعهم للنخيل وتزيد في طمأنينتهم على صواب ما صنعوا ببيان أن ما فعلوه إنما هو بأمر الله وإرادته وأن الغرض منه إنما هو إخزاء الفاسقين ودحرهم وهزيمتهم.

ومن الأحكام التي تؤخذ من هذه الآية الكريمة:

منع التخريب:

وقد أفاض في شرح هذه المسألة الشيخ محمد أبو زهرة فقال ما ملخصه بعد أن ساق آراء الفقهاء في ذلك:

«والذي ننتهي إليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي ﷺ في حروبه:

١ ـ أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء، لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

٢ ـ أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين فإنه لا مناص من قطع الأشجار وهدم البناء، على أنه ضرورة من ضرورات القتال كما فعل النبي ﷺ هنا وفي حصن ثقيف.

٣ ـ أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد، فالعدو ليس الشعب إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا»[1].

ثم أوضح سبحانه وتعالى حكم الأموال التي أخذها المسلمون من بني النضير بعد أن تم إجلاؤهم فقال تعالى:

---

(١) خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة، ٢/٢٦٥ ـ ٢٦٩، ومن أراد التوسع فعليه بالرجوع إلى كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني.

﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾.

قال الطبري: فاء الشيء على فلان: إذا رجع إليه، وأفأته أنا عليه: إذا رددته عليه[1].

والفيء: ما كان شمساً فنسخه الظل والجمع أفياء وفيوء. وأصل الفيء الرجوع. مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع كأنه كان في الأصل لهم فرجع إليهم ومنه قيل للظل الذي يكون بعد الزوال فيء لأنه يرجع من جانب الغرب إلى جانب الشرق[2].

ونقل الراغب عن بعضهم: سمي ذلك بالفيء الذي هو الظل تنبيهاً أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل[3].

والفيء شرعاً: ما رده الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالفهم في الدين بلا قتال إما بالجلاء أو بالمصالحة على جزية أو غيرها[4].

وقوله تعالى: ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾.

بيان لجانب من نعمة الله ـ تعالى ـ على رسوله وعلى المؤمنين حيث مكنهم من أموال بني النضير بدون قتال يذكر.

قال القرطبي: والإيجاف: الإيضاع في السير وهو الإسراع، يقال: وجف الفرس إذا أسرع، وأوجفته أنا أي حركته وأتعبته.

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٣٥.

(٢) لسان العرب ـ مادة فيأ ـ ١/ ١٢٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني ـ ص ٣٨٩.

(٤) أحكام الغنيمة والفيء لعوض هلال العمري ص ٢٣ ـ ٢٤.

ومن قول تميم بن مقبل:

مذاويد بالبيض الحديث صقالها عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا

(أي أسرعوا)[1].

والضمير في (عليه) يرجع إلى ما في قوله: ﴿وما أفاء الله﴾[2].

والركاب: ما يركب وهو اسم جمع وقد خص في لسان العرب بما كان من الإبل خاصة، لا يكادون يطلقون اسم الركاب إلا على راكب البعير وإن كانت التسمية للاشتقاق من الركوب.

ويوجد هذا المعنى في غير راكب البعير ولكن العرب كثيراً ما يقتصرون اللفظ على بعض ما يوجد فيه من الاشتقاق[3].

والمعنـــى:

إن الله تعالى قد أوضح في هذه الآية أن الأموال التي عادت إلى المسلمين من بني النضير قد تفضل بها عليهم بدون قتال شديد، وذلك لأن المسلمين مشوا إلى أعدائهم ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً وافتتحها ﷺ صلحاً وأجلاهم وأخذ أموالهم ووضعها حيث أمره الله. أخرج الشيخان من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله، مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى[4].

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ص ١٠.

(٢) تفسير آيات الأحكام للسايس ٤/ ١٣٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحشر: ٦/ ١٨٤، وصحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب حكم الفيء ٣/ ١٣٧٦، رقم الحديث ١٧٥٧.

ثم أشار الله عز وجل إلى السبب الحقيقي الذي بلغهم النصر فقال تعالى: **﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾**، أي ولكن جرت سنة الله أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائه وينصرهم ويؤيدهم والله على كل شيء قدير أي قادر على نصرهم.

ثم بين أحكام الفيء في قرى الكفار عامة فقال تعالى: **﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**.

قوله تعالى: **﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾**: قال الإمام ابن كثير: أي جميع البلدان التي تفتح هكذا حكمها حكم أموال بني النضير[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي قريظة والنضير وفدك وخيبر[2].

وقوله ـ سبحانه ـ **﴿فللَّه﴾**: للمفسرين في ذلك اتجاهان، ذكر ذلك الإمام ابن كثير عند تفسير آية الغنيمة.

١ ــ قال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة.
٢ ــ وقال آخرون: ذكر الله هنا استفتاح كلام للتبرك فسهم الله ورسوله واحد.

وممن ذكر هذا الرأي عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي والحسن بن محمد بن الحنفيَّة والحسن البصري والشعبي وعطاء بن أبي رباح وعبدالله بن بريدة وقتادة وغيرهم[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٧.
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٦٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٠ ـ ٣١١.

ففي هذه الآية يأخذ الرسول ﷺ ما شاء من الفيء ويعطي ذا القربى واليتامى والمساكين منه والفيء لا يخمس[1].

﴿وللرسول﴾: أي يأخذ الرسول ﷺ من الفيء ما شاء ويضعه حيث أراد.

﴿ولذي القربى﴾: الأقارب جمع قريب من قرب ككرم. وهو في الأصل مصدر يقال: قريبي، وذو قرابتي، وأقرباؤك: عشيرتك الأدنون، والمراد بهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب[2].

﴿واليتامى﴾: حقيقة اليتم هو الانفراد.

ومنه الرابية المنفردة تسمى يتيمة.

والمرأة المنفردة من الأزواج تسمى يتيمة.

والمراد باليتيم هنا: هو الصغير الذي مات أبوه[3].

قال النبي ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»[4].

﴿والمساكين﴾: جمع مسكين، وهو من لا شيء له، فيحتاج إلى سؤال الناس لسد حاجاته ومطالب حياته.

وهو مأخوذ من السكون الذي ضد الحركة، لأن احتياجه إلى غيره أسكنه وأذله[5].

﴿وابن السبيل﴾: السبيل في اللغة: الطريق، وابن السبيل هو ابن

---

(١) انظر آراء الفقهاء في ذلك ص ٢٨٨ من الكتاب.

(٢) القاموس المحيط ١/ ١١٤، وتاج العروس ١/ ٤٢٣.

(٣) أحكام الفيء والغنيمة في الشريعة الإسلامية -رسالة ماجستير للطالب عوض هلال العمري - ص ٢١٢.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ٣/ ٢٩٣ - كتاب الوصايا - باب متى ينقطع اليتم.

(٥) انظر التفسير الوسيط - سورة التوبة - للشيخ محمد سيد طنطاوي ص ٢٠٠.

الطريق. أي الذي يكثر الأسفار في الطرقات. وإنما قيل له ابن السبيل لكونه ملازماً للسبيل كملازمة الولد لوالدته فكأنه ابنه والعرب تسمي الملازم لشيء يعرف به ابنه فيقال لمن يكثر الخروج في الليل: ولد الليل. ويقال لطير الماء: ابن الماء(1).

وجمعه: سبل.

والمراد به هنا: هو المسافر المنقطع عن ماله في سفر، ولو كان غنياً في بلده، فيعطى ما يرجع به.

﴿دولة﴾: قال القرطبي: قال أبو عمرو بن العلاء: الدولة (بالفتح) الظفر في الحرب وغيره، وهي المصدر. و (بالضم) اسم الشيء الذي يتداول من الأموال(2).

المعنـــى:

تبين الآية الكريمة أن الأموال التي أفاءها الله على رسوله من كفار أهل القرى بدون قتال ولا حرب يكون مصرفها في وجوه البر والخير وأنها لا تقسم تقسيم الغنائم، ولا تخمس، بل هي للرسول ﷺ يضعها حيث شاء فيأخذ منها ما يشاء ويعطي ذي قرباه من بني هاشم وبني عبد المطلب، وكذلك يعطي المساكين واليتامى وابن السبيل وكل من يراه مستحقاً للعطاء يعطيه منها.

ثم علل ـ سبحانه ـ هذا الحكم فقال تعالى: **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**.

قال القرطبي: فعلنا ذلك في هذا الفيء، كي لا تقسمه الرؤساء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس

---

(1) تاج العروس من جواهر القاموس ـ فصل السين من باب اللام ـ مادة (سبل): ٧/ ٣٦٦.
(2) تفسير القرطبي: ١٨/ ص ١٦.

ربعها لنفسه، وهو المرباع ثم يصطفي منها أيضاً بعد المرباع ما يشاء[١].

ثم عقب سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرسول ﷺ وأن ينتهوا عما نهاهم عنه، وأن هذا من لوازم الإيمان، وأمرهم بالتقوى فإن عقابه شديد وأليم للعصاة. فقال تعالى: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**.

أي: ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد.

وقوله: **﴿واتقوا الله﴾**: خافوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: **﴿إن الله شديد العقاب﴾**: أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به، قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر الله به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره[٢].

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله)[٣].

فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها «أم يعقوب» ـ وكانت تقرأ القرآن ـ فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا!! وذكرته له.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) تفسير الإمام الرازي ٢٩/٢٨، وانظر صفوة التفاسير ٣/ ٣٥١.

(٣) قال العلماء: الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يحشى بكحل، والمستوشمة: هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك، والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج أسنانها من أجل الحسن، وكل ذلك منهي عنه لأن فيه تغييراً لخلق الله (صفوة التفاسير) ٣/ ٣٥١.

فقال ابن مسعود: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى؟.

فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته.

فقال: إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت قول الله عز وجل: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** رواه البخاري ومسلم[1].

وبعد أن بينت الآيات السابقة حكم فيء بني النضير وأنه خاص برسول الله ﷺ ليضعه حيث شاء وكذلك بينت حكم الفيء عموماً ومصارفه.

بعد ذلك نرى القرآن الكريم يسوق لنا بأسلوبه الفريد صورة مشرقة مضيئة للمهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة قال تعالى:

﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾.

قوله تعالى:

﴿للفقراء المهاجرين﴾: الجار والمجرور في قوله تعالى: **﴿للفقراء المهاجرين﴾** متعلق بما دل عليه قوله تعالى: **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**.

والمعنــى:

مال الفيء الذي أفاء الله عليكم أيها المسلمون في غزوة بني النضير يكون للفقراء المهاجرين.

وقوله تعالى: **﴿الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾**.

صفة أولى للمهاجرين فقد أخرجهم كفار مكة من ديارهم واستلبوا منهم

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحشر ٦/ ١٨٤.
وصحيح مسلم: كتاب اللباس والزينة ـ باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة ٣/ ١٦٧٨.

أموالهم بدون حق إلا أن يقولوا ربنا الله.

وقوله تعالى: ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾.

صفة ثانية للمهاجرين فهم عندما هاجروا من مكة تاركين أموالهم وديارهم وعشيرتهم كانوا يبتغون بهذا العمل وجه الله طالبين رضوانه.

وقوله تعالى: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾.

صفة ثالثة للمهاجرين فإنهم ما خرجوا إلا من أجل نصرة عقيدتهم وإسلامهم في كل موطن.

وقوله سبحانه: ﴿أولئك هم الصادقون﴾.

شهادة عظيمة من الله على صدق المهاجرين وكفاهم فخراً وشرفاً بها فهي صادرة من علام الغيوب وعالم الأسرار والخفايا رضي الله عنهم وأرضاهم.

وتوسط الضمير بين المبتدأ والخبر يفيد الحصر أي حصر الصدق فيهم.

وبعد أن أثنى الله سبحانه وتعالى على المهاجرين أتبع ذلك بالثناء على الأنصار فقال تعالى:

﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

وقوله: ﴿تبوأوا﴾: بمعنى تمكنوا وسكنوا مأخوذ من التبؤ: وهو التمكن والاستقرار.

والمراد بـ ﴿الدار﴾: هي دار الهجرة.. المدينة المنورة.

ولفظ ﴿الإيمان﴾: منصوب بفعل مقدر أي أخلصوا الإيمان.

والضمير في قوله: ﴿من قبلهم﴾: يعود إلى المهاجرين.

والمعنـــى:

بين سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية أهم الملامح والصفات المميزة للأنصار. فهم رضي الله عنهم سكنوا المدينة قبل المهاجرين وأخلصوا إيمانهم لله قبل وصول المهاجرين إليهم.

فقوله تعالى: **﴿يحبون من هاجر إليهم﴾**.

صفة أولى من صفات الأنصار فقد استقبلوا المهاجرين بالحب الصادق والفرحة الغامرة بلا استثقال. وهكذا يفعل الإيمان إذا تمكن من النفوس. . .

وقوله تعالى: **﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾**.

صفة ثانية من صفات الأنصار.

و **﴿حاجة﴾**: الحاجة إلى الشيء الفقر إليه مع محبته وجمعها حاجات وحوائج[1].

والمراد بها هنا الحسد وعدم الرضا.

أي: ولا يحسدون المهاجرين على ما ينالونه من مقام وفضل في بعض المواضع، كتقديم المهاجرين على الأنصار في الفضل مثلاً، ولا على ما يختصون به من مال كهذا الفيء وغيره، فالأنصار صدورهم طاهرة نقية لا تحمل إلا الحب والبذل والإيثار لإخوانهم المهاجرين.

وقوله تعالى: **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**.

صفة ثالثة للأنصار.

﴿ويؤثرون﴾: مأخوذ من الإيثار، وهو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبة في الحظوظ الدينية[2].

---

(١) المفردات في غريب القران للراغب: ٣٥. (٢) تفسير القرطبي: ١٨/ ٢٣.

وقوله: ﴿خصاصة﴾: أصلها في اللغة: الحاجة التي تختل بها الحال، والخصاصة من الاختصاص، وهو انفراد بالأمر.

فالخصاصة: الانفراد بالحاجة.

والمراد بها في الآية الكريمة الفاقة والفقر.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية آثاراً منها ما أخرجه الإمام البخاري[1] ومسلم[2] والترمذي[3] وغيرهم عن أبي هريرة: قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً. فقال عليه الصلاة والسلام: (ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله)، فقام رجل من الأنصار ـ وفي رواية فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله ـ فذهب به إلى أهله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. قالت: ما عندي إلا قوت الصبية.

قال: إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفيء السراج ونطوي الليلة لضيف رسول الله ﷺ.

ففعلت ثم غدا الضيف على رسول الله ﷺ، فقال: لقد عجب الله عز وجل الليلة من فلان وفلانة، أو ضحك من فلان وفلانة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.

والمعنــى:

أن من صفات الأنصار أنهم يفضلون غيرهم على أنفسهم حتى ولو كانوا

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحشر، باب ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ ٦/ ١٨٥، وفتح الباري ٨/ ٦٣١.

(٢) صحيح مسلم: ـ كتاب الأشربة ـ باب إكرام الضيف وفضل إيثاره ٣/ ١٦٢٤، رقم الحديث ١٧٢ ـ ٢٠٥٤.

(٣) الجامع الصحيح للترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب (ومن سورة الحشر) ٥/ ٤٠٩.

في حاجة ماسة إلى ما يقدمونه لهذا الغير. وذلك إنما ينشأ عن قوة اليقين وتوكيداً لمحبة الله برسوله. وفي قصة سبب النزول مثال معبر ملموس لهذا الإيثار.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآية بتلك الجملة الجامعة لصفات الخير فقال تعالى:

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

الشح: هو البخل مع الحرص، وذلك فيما كان عادة، ومنه قوله تعالى: **﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾**[1]. قال سعيد بن جبير: شح النفس هو أخذ الحرام من الزكاة.

وقال مقاتل: شح نفسه: حرص نفسه[2].

وقوله: **﴿فأولئك هم المفلحون﴾**: أي الفائزون بما طلبوا، والفلاح هو الفوز والظفر بإدراك البغية.

وأصل الفلاح: من الفلح ـ بسكون اللام ـ وهو الشق والقطع ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث، واستعمل منه الفلاح في الفوز كأن الفائز شق طريقه وفلحه للوصول إلى البغية[3].

وهذه العبارة تفيد الحصر وذلك لتوسط الضمير بين المبتدأ والخبر: **أولئك هم المفلحون.**

والمعنـــى:

ومن يترك شح نفسه التي تأمره بالسوء ويحملها على السخاء والبذل

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٦٣.

(٢) تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني ٥/ ٢٠١.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف ١/ ١٥.

والعطاء، فأولئك هم الظافرون بالسعادة في الدنيا والآخرة.

وبعد أن مدح ـ سبحانه ـ المهاجرين والأنصار هذا المدح العظيم أتبع ذلك بمدح التابعين لهم بإحسان فقال تعالى:

﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.

الضمير في قوله: **﴿من بعدهم﴾**: يعود إلى المهاجرين الأولين والأنصار وقوله: **﴿غلاًّ﴾**: مأخوذ من الغل، بمعنى العداوة والحقد والحسد[1].

والمعنـــى:

يبين ـ سبحانه وتعالى ـ موقف هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار إنهم يقولون على سبيل التضرع والدعاء: يا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واغفر كذلك **﴿لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾** ولا تجعل يا مولانا في قلوبنا غلاً ولا حسداً ولا ضغينة للذين آمنوا فإنك يا ربنا أنت الرؤوف الرحيم بنا وبهم.

هذا وقد توسع بعض المفسرين والفقهاء في ذكر الآداب والأحكام التي تؤخذ من هذه الآيات من قوله تعالى: **﴿وما أفاء الله على رسوله منهم...﴾** إلى قوله تعالى: **﴿ربنا إنك رؤوف رحيم﴾** وإليك بعض هذه الآداب والأحكام:

أ ـ حكم الفيء:

لقد استنبط الفقهاء كثيراً من الأحكام الخاصة بالفيء من هذه الآيات، ويجدر بنا أن نتعرض لذكر هذه الأحكام بشيء من الاختصار لتتضح للقارىء الكريم أحكام الفيء.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٣٦٣.

أولاً: الفرق بين الغنيمة والفيء:

١ ـ الغنيمة: مأخوذ من الغنم.

وهو الفوز بالشيء من غير مشقة، والاغتنام انتهاز الغنم، يقال: غنم القوم غنماً بالضم[١].

ويقال: غنمت أغنم غنماً وغنيمة، والغنائم جمعها.

وفي الاصطلاح:

اسم لما يؤخذ من أموال الكفرة بقوة الغزاة وقهر الكفر على وجه يكون فيه إعلاء كلمة الله تعالى[٢].

أما الفيء: فهو ما كان شمساً فنسخه الظل. والجمع: أفياء وفيوء.

وأصل الفيء الرجوع. مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع كأنه كان في الأصل لهم فرجع إليهم. ومنه قيل للظل الذي يكون بعد الزوال فيء لأنه يرجع من جانب الغرب إلى جانب الشرق[٣].

وفي الاصطلاح:

هو ما رده الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالفهم في الدين بلا قتال، إما بالجلاء أو بالمصالحة على جزية وغيرها[٤].

٢ ـ الغنيمة تخمس: قال تعالى: ﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ

---

(١) لسان العرب (مادة: غنم): ١٢/ ٤٤٥.

(٢) أحكام الفيء والغنيمة في الشريعة الإسلامية ـ رسالة ماجستير ـ ص ٢٣.

(٣) لسان العرب (مادة: فيأ) ١/ ١٢٤، ١٢٦.

(٤) أحكام الغنيمة والفيء في الشريعة الإسلامية ص ٢٤.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[١].

أما الفيء فإنه لا يخمس على قول الجمهور بل يصرف في مصالح المسلمين وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد في أصح ما روي عنه إلا أن الإمام الشافعي وأحمد في رواية قالوا إن الفيء يخمس[٢].

ثانياً: اختلف العلماء في الغنيمة والفيء هل هما بمعنى واحد أو هما مختلفان على قولين:

القول الأول: إن الغنيمة والفيء بمعنى واحد فجميع ما يأخذه المسلمون من الكفار على أي وجهٍ كان غنيمةً وفيئاً وإلى هذا ذهب قتادة والماوردي[٣].

القول الثاني: إن الغنيمة تختلف عن الفيء وإلى هذا ذهب جمهور العلماء.

ثالثاً: مصرف الفيء:

لا خلاف بين الفقهاء على أن الفيء في حياة الرسول ﷺ يصرف تبعاً لما يراه ﷺ.

واختلفوا في مصرفه بعد وفاته ﷺ على قولين:

القول الأول: إن مال الفيء يصرف في أهل الجهاد لأن ذلك كان للنبي ﷺ في حياته لحصول النصرة والمصلحة به فلما مات صار للجند[٤].

القول الثاني: إن مال الفيء يصرف في مصالح المسلمين لكن يبدأ بجند

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٤١.

(٢) أحكام الغنيمة والفيء في الشريعة الإسلامية ص ٥٩٥، والمغني ٦/ ٤١٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٨٧.

المسلمين لأنهم أهل المصالح لكونهم يحفظون المسلمين فيعطون كفايتهم فيما فضل قدم الأهم فالمهم من عمارة المساجد والقناطر وإصلاح الطرق وكراء الأنهار وسد الثغور وأرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين والفقهاء ونحو ذلك فيما للمسلمين فيه نفع وإليه ذهب الإمام أحمد والشافعي[1].

وبالنظر في هذين القولين يترجح أن مال الفيء يصرف في مصالح المسلمين فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قرأ قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾[2] قال: هذه استوعبت المسلمين[3].

ب ـ عدالة الإسلام في توزيع الأموال:

ومما يؤخذ من الآيات، عدالة الإسلام في تقسيم الأموال، فالآيات وضحت حكم الفيء وتعريفه ثم وضحت مصارفه ثم عللت سبب هذا التقسيم: ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾.

فالجملة الكريمة تعتبر قاعدة كبرى من قواعد الإسلام، لأن كل وضع اقتصادي لا تحكمه هذه القاعدة فمصيره إلى الزوال وإلى الانهيار والاضطراب.

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة، ففرض الزكاة وبين مصارفها وشرع كثيراً من الأحكام التي من شأنها أن توسع على المحتاجين وحرم الاحتكار والربا، وهما من أهم الوسائل لجعل المال دولة بين الأغنياء دون الفقراء، وبذلك وضع الإسلام نظاماً اقتصادياً فريداً، متوازي

---

(١) أحكام الغنيمة والفيء في الشريعة الإسلامية، ص ٢٨٧.

(٢) الآيات من سورة الحشر، من آية ٧ إلى آية ١٠.

(٣) المغني لابن قدامة ٦/ ٤١٥.

الجوانب متعادل الحقوق والواجبات، يكفل لمن تبعه السعادة والرخاء، والراحة والهناء.

جـ ــ وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله ﷺ:

وذلك في كل الأمور: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**.

وقد جاءت آيات كثيرة في هذا المعنى منها: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**. سورة النساء، آية: ٦٥.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **(دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان من قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم)** متفق عليه[١].

د ــ فضل المهاجرين:

بينت الآيات فضل المهاجرين على غيرهم، فهم لهم الدرجة الأولى في الفضل، وقد بوب الإمام البخاري في كتابه الصحيح بقوله: باب مناقب المهاجرين منهم أبو بكر عبدالله بن أبي قحافة رضي الله عنه، ثم ذكر قوله تعالى: **﴿للفقراء المهاجرين...﴾**[٢] مستدلاً بها على فضلهم.

قال ابن حجر:

وأشار المصنف بها إلي ثبوت فضل المهاجرين لما اشتملت عليه من

---

(١) صحيح البخاري: ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ١١٧/٩، وانظر فتح الباري ٢٥١/١٣.

صحيح مسلم: ـ كتاب الفضائل ـ باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله ١٨٣٠/٤.

(٢) صحيح البخاري، ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب المهاجرين وفضلهم ٣/٥.

أوصافهم الجميلة وشهادة الله تعالى لهم بالصدق[1].

هـ ـ فضل الأنصار:

فقد بينت الآيات فضل الأنصار، وهم الذين وصفهم الله بأنهم **﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**.

أخرج الإمام البخاري من حديث شعبة قال: حدثني عدي بن ثابت قال: سمعت البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ أو قال: قال النبي ﷺ: (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[2].

و ـ فضل التابعين لهم بإحسان:

وهم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون في السر والعلانية، وذلك كما قال تعالى في آية براءه: **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾**.

أخرج الإمام مسلم من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قالت لي عائشة: يا ابن أختي: أُمِروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبُّوهم[3].

قال النووي: قال القاضي:

الظاهر أنها قالت هذا عندما سمعت أهل مصر يقولون في عثمان ما قالوا، وأهل الشام في علي ما قالوا والحرورية في الجميع ما قالوا. وأما الأمر

---

(١) فتح الباري جـ ٧ ص ٩.

(٢) صحيح البخاري، ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب الأنصار ٥/ ٤٠، وفتح الباري جـ ٧ ص ١١٣.

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب التفسير ـ ٤/ ٢٣١٧، حديث رقم ٣٠٢٢.

بالاستغفار الذي أشارت إليه فهو قوله تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾[1].

ثم ساقت السورة الكريمة بعد هذه الصورة المشرقة للمهاجرين والأنصار والتابعين... موقف المنافقين من الدعوة الإسلامية وكيف أنهم تحالفوا مع أعدائها لمحاربتها فقال تعالى:

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب * لئن أُخْرِجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ألم تر﴾: هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير لمن علم بما يأتي كالأحبار وأهل التواريخ، وقد تذكر لمن لا يكون علمه كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه.

وقد اشتهرت في ذلك حتى أجريت مجرى المثل في هذا الباب، بأن شبه من لم يرَ الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه وأنه ينبغي أن يتعجب منه.

ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع من رأى قصداً للمبالغة في شهرته وعراقته في التعجب[2].

وقوله تعالى: ﴿الذين نافقوا﴾:

المنافق: هو الذي يظهر الإيمان، ويبطن الكفر. قال ابن الأنباري: وهو

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/١٥٨.
(٢) تفسير الألوسي: ٢/ ١٦٠.

مأخوذ من النفق، وهو السرب فهم يتسترون بالإسلام، كما يتستر الرجل في السرب.

وقال غيره: إنه مشتق من النافقاء ـ وهو جحر اليربوع ـ أو أحد بابيه.

قال أبو عبيدة ـ إنه يجعل لجحره بابين:

أحدهما: القاصعاء، والآخر النافقاء، فإذا طلب من أحدهما خرج من الآخر، وهكذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين من باب الإيمان، وللكافرين من باب الكفر فإذا أصابته مشقة من أحدهما لجأ إلى الآخر[1].

والمراد بهم في الآية الكريمة عبدالله بن أبي بن سلول، وجماعته.

وقوله تعالى: ﴿يقولون لإخوانهم﴾: أي لإخوانهم في الكفر.

وقوله تعالى: ﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾: هم يهود بني النضير.

والمعنـــى:

لقد علمت يا محمد علم اليقين حال أولئك المنافقين الذين شجعوا اليهود على حربك فقد قالوا لهم ﴿لئن أخرجتم﴾ من دياركم بسبب محاربة المسلمين لكم ﴿لنخرجن معكم﴾ ولا نترككم تخرجون وحدكم، ﴿ولا نطيع فيكم أحداً﴾ أي: ولا نطيع في إلحاق الأذى بكم أحداً أبداً. ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ وإن قاتلكم المسلمون لنكونن على جواركم ضدهم.

وقوله تعالى: ﴿والله يشهد إنَهم لكاذبون﴾.

رد من الله تعالى على مزاعمهم الكاذبة.

ثم زاد سبحانه في تأكيد الرد عليهم فقال تعالى:

﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم﴾.

---

(١) من مفردات القرآن ـ المنافقون ـ للدكتور محمد جميل غازي ص ٦.

أي ولئن أخرج المسلمون اليهود فإن المنافقين لن يخرجوا معهم.

وقوله تعالى: ﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾.

أي: ولئن قاتل المسلمون اليهود فإن المنافقين لن ينصروهم.

وقوله تعالى: ﴿ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾.

أي: ولئن نصر المنافقون اليهود ـ على سبيل الفرض ـ فإن نصرهم لن يضر المسلمين شيئاً، بل إن الفريقين سيولون الأدبار أمام المسلمين، ثم لا ينصر الله بني النضير.

ثم قرر القرآن الكريم حقيقة قائمة في نفوس اليهود والمنافقين فقال تعالى: ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾.

وقوله: ﴿رهبة﴾: أي أشد مرهوبية.

على أن ﴿رهبة﴾ مصدر من المبني للمفعول لأن المخاطبين وهم المؤمنون مرهوب منهم لا راهبون[1]...

والمعنى:

لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في صدور اليهود والمنافقين من الله.

وذلك بسبب أنهم قوم لا يفقهون شيئاً من عظمة الله وقدرته.

ومن كان هذا شأنه كانت خشيته للناس أشد من خشيته لله تعالى.

ثم أكد سبحانه وتعالى هذه الحقيقة بصفات أخرى فيهم، فقال تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾.

---

(١) تفسير الألوسي ٢٨/ ٥٧.

والمعنـــى:

يكشف سبحانه وتعالى عن حقائق نفسية اليهود فهم جبناء لا يستطيعون أن يواجهوا المسلمين في مواطن مكشوفة، بل لا يقاتلون إلا من وراء قراهم المحصنة بالخنادق وجدرانهم وحوائطهم التي يتسترون من خلفها.

ثم كشف القرآن عن بعض أسباب ضعفهم وخورهم فقال تعالى:

﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

والمعنـــى:

أن هؤلاء اليهود في الظاهر تراهم مجتمعين صفاً واحداً ضد المسلمين لكن الآية تبين أنهم عكس ذلك في الحقيقة فهم **﴿بأسهم بينهم شديد﴾**، أي: عداوتهم بعضهم لبعض شديدة **﴿تحسبهم جميعاً﴾** أي تظنهم مجتمعين على أمر ورأي ولكنهم في الحقيقة **﴿قلوبهم شتى﴾** أي متفرقة.

وقوله سبحانه: **﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.**

أي: وذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون الحق ولا يدورون معه، وإنما يدورون في ركاب الباطل.

وفي الآية تشجيع للمؤمنين على قتال اليهود خصوصاً إذا عرف المقاتلون المؤمنون أن اليهود جبناء.

ثم بين سبحانه أن ما نزل ببني النضير من بلاء بسبب غدرهم قد نزل ما يشبهه بإخوان لهم من قبل جزاء خيانتهم وغرورهم فقال تعالى:

﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾.

والمعنـــى:

أن صفة هؤلاء اليهود الذين نزلت بهم العقوبات من المسلمين وهم - بنو

النضير ـ كصفة الذين من قبلهم فيما نزل بهم من عقوبات، وهم يهود بني قينقاع فقد ذاقوا على أيد المسلمين عاقبة غدرهم فحاصرهم الرسول ـ ﷺ ـ وأجلاهم إلى الشام، ثم إن لهم في الآخرة العذاب المؤلم جزاءً لهم.

ثم ضرب الله مثلاً آخر للمنافقين، الذين أغروا بني النضير بالمقاومة ثم خذلوهم عند المحنة، فقال تعالى:

﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾.

قوله تعالى: **﴿كمثل الشيطان﴾**: قال ابن كثير:

الشيطان في لغة العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء. وهو مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير.

وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار.

والأول أصح، إذ عليه يدل كلام العرب. يقولون تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين، ولو كان من شاط لقالوا: تشيط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح[١].

والمعنـــى:

قال ابن كثير:

يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ثم لما حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في هذا كمثل الشيطان

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٤، وانظر المفردات للراغب: ص ٢٦١.

إذ سول للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه، وتنصل وقال: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ وقوله: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾ أي: فكان عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بإتباع الشيطان[1].

وبعد أن فصل ـ سبحانه ـ في هذه السورة الكريمة أحداث غزوة بني النضير، أتبع ذلك بآيات فيها إرشاد للمؤمنين إلى ما يسعدهم، فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾.

أي: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، اتقوا الله ـ تعالى ـ حق تقاته، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

وقدموا العمل الصالح الذي ينفعكم في أخراكم، فإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

واحذروا أن تكونوا كالذين غفلوا عن ذكر الله فأنساهم الله العمل لمصالح نفوسهم، فصاروا من الفاسقين عن أمره الخارجين عن حدود دينه.

قال الإمام الرازي:

الغد: يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له، ثم ذكر النفس والغد على سبيل التفكير.

أما الفائدة في تنكير النفس فاستقلال الأنفس التي تنظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال:

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٦.

فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره، كأنه قيل: الغد لا يعرف كنهه لعِظَمِه[1].

ثم نفى ـ سبحانه ـ المساواة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فقال تعالى:

﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾.

أي: لا يستوي في حكم الله وفي قضائه **﴿أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾** فإن أصحاب الجنة هم الفائزون بالنعيم الخالد الناجون من عذاب الله.

أما أصحاب النار فهم الأشقياء التعساء الخالدون في النار بسبب كفرهم وفسوقهم عما أمر به.

ثم بين عظمة القرآن وعلو منزلته فقال تعالى:

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾.

﴿خاشعاً﴾: أي منقاداً متذللاً.

﴿متصدعاً﴾: أي متشققاً.

﴿خشية الله﴾: أي خوفه وشديد عقابه.

والمعنى:

لو جعلنا في الجبل عقلاً كما جعلنا فيكم أيها الناس، ثم أنزلنا عليه القرآن لخشع هذا الجبل وخضع وتشقق من خشية الله. وهذا تمثيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ٢٩١.

وفيه توبيخ للإنسان على قسوة قلبه[1] وقلة تخشعه حين قراءة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع التي تذل لها الجبال الراسيات[2].

وقوله تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**﴾.

أي: وهذه الأمثال الموجودة في القرآن نضربها للناس لعلهم يتفكرون فيما اشتملت عليه من هدايات وإرشادات.

قال الزمخشري: الآية تمثيل والغرض من هذا التمثيل توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه، عند تدبر القرآن، وتدبر قوارعه وزواجره[3].

وبعد أن وصف ـ سبحانه ـ القرآن بالعظمة وعلو المنزلة وقوة التأثير، ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بما يليق بجلاله من صفات جليلة، فقال تعالى:

﴿**هو الله الذي لا إلّه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم**﴾ هو الله: لفظ الجلالة (الله) علم على ذات الخالق ـ عز وجل ـ تفرد به ـ سبحانه ـ ولا يطلق على غيره، ولا يشركه فيه أحد.

قال القرطبي: «الله» هذا الاسم أكبر أسمائه ـ سبحانه ـ وأجمعها حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع.

فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه[4].

---

(١) قال تعالى: ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون**﴾ سورة البقرة، آية: ٧٤.

(٢) انظر تفسير المراغي ٢٨/٥٧ بتصرف يسير.

(٣) تفسير الكشاف ٤/٥٠٩.

(٤) تفسير القرطبي ١/١٠٢.

﴿الذي لا إله إلا هو عالم الغيب﴾: الغيب: مصدر غاب يغيب، وكثيراً ما يستعمل بمعنى الغائب، ومعناه: ما لا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل[١].

﴿والشهادة﴾: تطلق على ما يشاهده الإنسان، وهي تقابل الغيب.

قال الراغب: الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة وقد يقال للحضور مفرداً، قال: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾.

لكن الشهود بالحضور المجرد أولى والشهادة مع المشاهدة أولى[٢].

﴿هو الرحمٰن الرحيم﴾: أي ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات فهو رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما[٣].

قال ابن كثير:

أخبر تعالى أنه لا إلّه إلا هو فلا رب غيره، ولا إلّه للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه باطل.

وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات[٤].

﴿هو الله الذي لا إلّه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾.

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك﴾.

---

(١) التفسير الوسيط ـ تفسير سورة الفاتحة والبقرة ـ محمد سيد طنطاوي ص ٥٣.
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٦٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٣٤٣.
(٤) المصدر نفسه.

أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة.

وقوله: ﴿القدوس﴾: قال وهب بن منبه: أي الطاهر. وقال مجاهد وقتادة: أي المبارك. وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام.

﴿السلام﴾: أي من جمع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿المؤمن﴾.

قال الضحاك عن ابن عباس: أي أمن خلقه من أن يظلمهم. وقال قتادة: أمن بقوله أنه حق. وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به.

وقوله ﴿المهيمن﴾: قال ابن عباس وغير واحد: أي الشاهد على خلقه بأعمالهم بمعنى رقيب عليهم كقوله: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾[1].

وقوله: ﴿العزيز﴾: أي الذي قد عزّ كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ولهذا قال: ﴿الجبار المتكبر﴾ أي الذي لا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته كما جاء في الصحيح «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منها عذبته»،

وقال قتادة: الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء.

وقال ابن جرير: الجبار المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم.

وقال قتادة: المتكبر يعني عن كل سوء.

﴿سبحان الله عما يشركون﴾: أي تنزه وتقدس عن إشراك المشركين.

قال تعالى: ﴿هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٤٣.

له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

الخلق التقدير والبرء هو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل.

وقوله تعالى: **﴿الخالق البارىء المصور﴾**: أي الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار.

﴿له الأسماء الحسنى﴾: التي سمى بها نفسه.

﴿يسبح له ما في السموات والأرض﴾: كقوله تعالى: **﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾**.

وقوله تعالى: **﴿وهو العزيز﴾** فلا يرام جنابه.

﴿الحكيم﴾: في شرعه وقدره[١].

عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ كان يقرأ المسبحات[٢] كل ليلة قبل أن يرقد، يقول: (فيهن آية خير من ألف آية)[٣].

واختلف في هذه الآية:

فقال ابن كثير: هي قوله تعالى في أول سورة الحديد: **﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾**.

وقال غيره: هي أواخر سورة الحشر[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ـ بتصرف ـ.

(٢) المسبحات: هي سورة الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٢٨، وأبو داود: كتاب الأدب ـ باب ما يقول عند النوم ٥/ ٣٠٤. والترمذي: كتاب فضائل القرآن ـ باب: (٢١) ٥/ ١٨١.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٢.

وبهذه الآية ختمت السورة الكريمة. ويمكن أن نجمل أهم ما حوته من المقاصد والأغراض فيما يلي:

١ ــ تنزيه الله لنفسه عن كل نقص.

٢ ــ تفصيل الحديث عن غزوة بني النضير، وبيان ما نزل بهم من عقاب، جزاء نقضهم لعهودهم، وتذكير المؤمنين بفضل الله عليهم في ذلك.

٣ ــ بيان أحكام الفيء الذي أفاءه الله على المسلمين في هذه الغزوة وفي غيرها.

٤ ــ مدح القرآن الكريم للمهاجرين والأنصار على قوة إيمانهم، وسخاء نفوسهم وصفاء قلوبهم وحسن بلائهم في سبيل إعلاء كلمة الله.

٥ ــ كشف موقف المنافقين، وذكر أقوالهم لليهود، وبيان كذبهم فيما قالوه حتى يكون المؤمنون على بصيرة من أمرهم.

٦ ــ الإخبار عن جبن اليهود، وبيان أن خوفهم من المؤمنين أشد من خوفهم من الله، وفي ذلك ما فيه من تحريض المؤمنين على قتالهم.

٧ ــ توجيه النداء إلى المؤمنين لكي يتقوا الله ـ تعالى ـ في السر والعلن ولكي يقدموا العمل الصالح الذي ينفعهم يوم القيامة.

٨ ــ تعظيم شأن القرآن الكريم وبيان شدة تأثيره على القلوب.

٩ ــ وصف الله ـ سبحانه ـ نفسه بأوصاف الجلال والكمال.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرضه لغزوة بني النضير

كان لهذه السورة «سورة بني النضير» صدى طيب عظيم في نفوس المسلمين، فهي أول نصر تحقق بعد المحن المتتابعة: أحد والرجيع وبئر معونة وإليك أهم معالم هذا المنهج:

١ ــ تميّز عرض القرآن لغزوة بني النضير أنه تكلم عنها من أول السورة الكريمة، وذكر فائدة عظيمة لا بد للمؤمنين أن يربطوا قلوبهم بها وهي أن المؤمن يعمل السبب ولا يتكل عليه بل يُعْمِلُ السبب ويخلص التوكل على الله ويسأله التوفيق.

ويذكّر القرآن أن الله هو الذي أخرج اليهود من حصونهم. قال تعالى: **﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . . .﴾**.

يقول سيد قطب: «نزلت هذه السورة في حادث بني النضير ـ حيّ من أحياء اليهود ـ في السنة الرابعة من الهجرة، تصف كيف وقع؟ ولماذا وقع؟ . . . وما كان في أعقابه من تنظيمات في الجماعة الإسلامية . . . ترويها بطريقة القرآن الخاصة، وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حيّة بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات»[1] . . . إلى أن يقول:

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٥١٨، ٣٥٢١.

ومن هذه الآيات نعلم أنّ الله هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر، والله هو فاعل كل شيء، ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة في صورة مباشرة، توقع في الحس أن الله تولّى هذا الإخراج من غير ستار لقدرتهم من فعل البشر! وساق المخرجين للأرض التي منها يحشرون، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التي أخرجوا منها[1]...

٢ ــ كان المسلمون يعلمون تمكّن اليهود في حصونهم، وكذلك كان يعتقد اليهود أنّهم باقون في المدينة وأنهم لن يخرجوا منها قال تعالى: **﴿ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾**.

قال سيد قطب: «فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم ولا هم كانوا يسلمون في تصور وقوعه! فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أُخرجوا، وبحيث غرّتهم المنعة حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون![2]»...

٣ ــ ثم يقّرر ـ سبحانه ـ أن هزيمة يهود بني النضير جاءت من طريق لم يكونوا يتوقعونه فقال تعالى: **﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب﴾**.

قال سيد قطب: أتاهم من داخل أنفسهم، لا من داخل حصونهم! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم! فضلاً أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم... إلخ[3].

٤ ــ ثم أخبر ـ سبحانه ـ عما حلّ بهم فقال: **﴿يخربون بيوتهم بأيديهم**

(١) المصدر نفسه ٦/ ٣٥٢١.

(٢) المصدر نفسه ٦/ ٣٥٢١.

(٣) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٥٢١.

وأيدي المؤمنين﴾. . . يخربون بيوتهم بأيديهم ويمكّنون المؤمنين من إخرابها. وفي هذا عبرة لمن يعتبر، لذلك قال تعالى: **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾**.

٥ ـ وبيّن ـ سبحانه ـ أنّه كتب على بني النضير الجلاء وترك الديار وأنّ لهم في الآخرة عذاب النار. قال تعالى: **﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار﴾**.

٦ ـ استغلّ اليهود حادثة قطع النخيل، وتحدثوا عنه، فنجد القرآن الكريم يطمئن المؤمنين على صواب ما فعلوه في بني النضير فقال تعالى: **﴿ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله، وليخزي الفاسقين﴾**.

٧ ـ ثم بينت السورة الكريمة حكم الفيء الذي أخذه المؤمنون من بني النضير وبه ختم الحديث عن الغزوة.



الباب الرابع

حديث القرآن عن غزوة بني المصطلق

تمهيد

غزوة بني المصطلق من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في شعبان من السنة الخامسة من الهجرة على القول الراجح[1].

وبنو المصطلق: هم فرع من خزاعة وكانوا حلفاء بني مدلج[2].

وكلامنا عن هذه الغزوة يتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: الأحداث التي سبقت هذه الغزوة.

المبحث الثاني: من هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت هذه الغزوة؟.

المبحث الثالث: أسباب هذه الغزوة وأحداثها.

المبحث الرابع: نتائج هذه الغزوة.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في المبحث الثاني ص ٣١٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٣١١ من هذا الكتاب.



المبحـــث الأول
الأحداث التي سبقت هذه الغزوة

أ ــ كانت غزوة بني النضير ـ كما سبق وأن أشرنا ـ في ربيع الأول من السنة الرابعة، ثم كانت بعدها غزوة ذات الرقاع في جماد الآخرة، أي بعد شهرين من غزوة بني النضير.

غزوة ذات الرقاع:

وذلك أنه وصلت أخبار إلى النبي ﷺ أن جماعة من غطفان بنجد يحتشدون للقيام بغزو المدينة، لذلك خرج الرسول ﷺ بأربعمائة راكب وراجل حتى نزل نخلاً[1] حيث يجتمع بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان.

وقد كان هؤلاء الأعراب كثيرين في العدد إلا أن مباغتة الرسول ﷺ أربكتهم، فتفرقوا تاركين وراءهم نساءهم وأموالهم وحمل المسلمون الغنائم. وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة بعد غياب خمسة عشر يوماً.

سبب تسميتها بذات الرقاع:

وسميت بذات الرقاع لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر.

وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم.

---

(١) نخلاً: هو منزل من منازل بني ثعلبة من المدينة على مرحلتين.

وقيل: لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع.

والصحيح الأول إذ روى الشيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري وكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا[1].

ب ـ وفي شعبان من السنة نفسها كانت غزوة بدر الآخرة وذلك أن أبا سفيان قال عند انصرافه من أحد موعدكم وإيانا العام المقبل ببدر.

فلما كان شعبان من العام المقبل خرج رسول الله ﷺ لموعده. وكان العام عام جدب، وكان أبو سفيان يود لو يؤجل اللقاء إلى عام آخر، فبعث رجلاً إلى المدينة يقول للمسلمين: «إن قريشاً جمعت جيشاً لا قبل لجيش في العرب بمواجهته لتحاربهم به حتى تقضي عليهم».

ولكن الرسول ﷺ لم يكترث بهذا الوعيد، وأصر على الخروج. ووصل المسلمون بدراً، وانتظروا قريشاً هناك، ولكن المشركين الذين خرج بهم أبو سفيان من مكة ترددوا بين الإقدام والإحجام، فآثروا السلامة وعادوا أدراجهم إلى مكة بعد أن قطعوا مسيرة مرحلتين منها...

وعاد المسلمون إلى المدينة بعد أن طال انتظارهم للمشركين ثمانية أيام ببدر[2].

جـ ـ وفي شهر ربيع الأول من السنة الخامسة كانت غزوة دومة الجندل ـ أي بعد سنة كاملة من غزوة بني النضير ـ ودومة الجندل مكان يقع على

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي ـ باب غزوة ذات الرقاع ٥/ ١٤٥.
صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير ـ باب غزوة ذات الرقاع ٣/ ١٤٤٩ رقم الحديث ١٨١٦.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٧.

الحدود بين الحجاز والشام وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة وهي من دمشق خمس ليال.

وسبب خروجه ﷺ إليها أنه بلغه أن بها جمعاً كثيراً يريدون أن يدنوا من المدينة.

فخرج الرسول ﷺ في ألف من المسلمين يكمن بهم نهاراً ويسير ليلاً.

فلما وصلها فرت القبائل خوفاً من لقاء المسلمين كما فر أهل دومة الجندل ولم يلق كيداً فعاد ﷺ بالجيش إلى المدينة.

د ــ ثم في شهر شعبان من السنة الخامسة كانت هذه الغزوة «غزوة بني المصطلق».

وسنتناولها بشيء من التفصيل لأنها موضوع بحثنا فنسأل الله التوفيق والسداد.

* * *

المبحث الثاني
من هم بنو المصطلق؟
ومتى وقعت هذه الغزوة؟

بنو المصطلق: هم بطن[١] من خزاعة...

والمصطلق[٢] جدهم وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء.

---

(١) أي فرع.
(٢) المُصْطَلِق: بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وكسر اللام.

واختلفوا في خزاعة[1] فمنهم من قال إنها قبيلة عدنانية ومنهم من ذهب إلى أنها قبيلة قحطانية يمنية.

والراجح ما ذهب إليه أكثر العلماء من أنها قبيلة قحطانية يمنية[2].

واختلف في زمن هذه الغزوة على ثلاثة أقوال: -

القول الأول: يرى أصحابه أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، وإلى هذا الرأي ذهب جمهور المتقدمين من أصحاب السير كموسى بن عقبة[3] والإمام الواقدي[4] وابن سعد[5] وابن قتيبة[6] والبلاذري[7] والذهبي[8] وابن القيم[9] وابن هشام[10].

وقد تبعهم في ذلك جمع من المتأخرين ممن كتب في السيرة[11].

---

(١) خزاعة: من التخزع وهو التأخر والمفارقة، وذلك أن خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام، فنزلت خزاعة بمر الظهران فأقامت بها.

(٢) انظر القول مفصلاً في مرويات غزوة بني المصطلق: من ص ٤٥ إلى ص ٥١.

(٣) انظر رأي موسى بن عقبة في البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٢٤٢، ٤/ ١٥٦.

(٤) المغازي للواقدي ١/ ٤٠٤.

(٥) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٣.

(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٧٠.

(٧) أنساب الأشراف للبلاذري ١/ ٣٤١.

(٨) العبر في خبر من غبر ١/ ٧، وتاريخ الإسلام له ٢/ ٢٧٥.

(٩) زاد المعاد ٢/ ٢٧٨.

(١٠) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٣٨.

(١١) من هؤلاء المتأخرين:

محمد الخضري في نور اليقين ص ١٥٢، ومحمد الغزالي في فقه السيرة ص ٣١٦، والدكتور محمد سعيد البوطي في فقه السيرة ص ٢٩٦ وفضيلة الشيخ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة في السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٢/ ٢٠٨ والشيخ الساعاتي في الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد ١٤/ ١٠٩ والشيخ محمد علي الصابوني في روائع البيان تفسير آيات الأحكام ٢/ ١١٩، والشيخ حسن مشاط في إنارة الدجى ٢/ ٥٠، والشيخ محمد أبو زهرة في خاتم النبيين ٢/ ٣٤٨، والأستاذ سيد قطب في الظلال ٤/ ٢٤٩٥.

قال ابن سعد في طبقاته: ثم غزوة رسول الله ﷺ، المريسيع في شعبان سنة خمس من مهاجره[١].

وقال ابن القيم: فصل في غزوة المريسيع وكانت في شعبان سنة خمس[٢].

أما القول الثاني: فيرى أصحابه أنها كانت في السنة السادسة. وإلى هذا ذهب ابن إسحاق[٣] وتبعه خليفة بن خياط[٤] والإمام ابن جرير الطبري[٥] وابن حزم[٦] وابن عبد البر[٧] وابن الأثير[٨] وابن خلدون[٩].

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجباً، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست[١٠].

وأما القول الثالث: فيرى أصحابه أنها كانت في السنة الرابعة من الهجرة وذهب إلى ذلك المسعودي[١١] وابن العربي المالكي[١٢] وغيرهم.

قال المسعودي: وفي سنة أربع كانت غزوته المعروفة بذات الرقاع، وفيها تزويجه بأم سلمة بنت أمية، وفيها كانت غزوته إلى اليهود من بني

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٣.
(٢) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٢٧٨.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٩.
(٤) تاريخ خليفة بن خياط ص ٨٠.
(٥) تاريخ الطبري ٢/ ٦٠٤.
(٦) جوامع السيرة لابن حزم ص ٢٠٣.
(٧) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ٢٠٠.
(٨) الكامل لابن الأثير ٢/ ١٣٠.
(٩) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣.
(١٠) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٦٨.
(١١) مروج الذهب ٢/ ١٨٣.
(١٢) عارضة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٧/ ١٧٣.

النضير، وفيها كانت غزوته إلى بني المصطلق[1].

والذي يبدو لي أن الرأي الأول ـ الذي يقول أصحابه بأنها كانت في السنة الخامسة ـ أقرب إلى الصواب لأسباب من أهمها:

١ ــ أن هذا القول هو قول جمهور أصحاب السير والمغازي كما أنه سار عليه عدد كبير ممن كتب في السيرة من المعاصرين.

٢ ــ أن في شعبان سنة أربع من الهجرة كانت غزوة بدر الموعد فيتعين أن غزوة بني المصطلق كانت في غيرها.

٣ ــ أن هذا القول يؤيده وجود سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ في هذه الغزوة فقد جاء ذكره في حديث الإفك الذي كان في أعقاب غزوة بني المصطلق والذي أخرجه الإمام البخاري.

«فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك. . . الحديث»[2].

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة، وغزوة بني قريظة كانت في ذى القعدة من السنة الخامسة على القول الراجح، فيتعين أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها.

فإذا لم تكن غزوة بني المصطلق في السنة الرابعة لوجود غزوة بدر الموعد فيها وإذا لم تكن في السنة السادسة لأن غزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السنة الخامسة التي في أعقابها توفي سعد بن معاذ وهو الذي كان

---

(١) مروج الذهب ٢/ ١٨٣.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة النور ٦/ ١٣٠.

موجوداً في غزوة بني المصطلق بدليل حديث الإفك تعين آن تكون غزوة بني المصطلق في شعبان من السنة الخامسة والله أعلم[١].

* * *

المبحث الثالث
أسباب هذه الغزوة وأحداثها

من أهم الأسباب لهذه الغزوة ما يلي:

١ ـ تأييد هذه القبيلة لقريش واشتراكها معها في معركة أحد ضد المسلمين[٢] ضمن كتلة الأحابيش[٣] التي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

٢ ـ أن الرسول ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم. فلما سمع بهم خرج إليهم ﷺ حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فهزمهم شر هزيمة.

---

(١) من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى كتاب مرويات غزوة بني المصطلق ص ٩٧.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٤.

(٣) الأحابيش: الجماعة أياً كانوا.

وأحابيش قريش: بطن اختلف فيه فقال ابن قتيبة: هم بنو المصطلق والحياء بن سعد بن عمرو وبنو الهون بن خزيمة، اجتمعوا بذنب حبش، وحبش بالضم: جبل باسفل مكة ـ فتحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا، ما سجى ليل وأوضح نهار.

وقال حماد الراوية: إنما سموا بذلك لاجتماعهم. والتحابش: هو التجمع في كلام العرب (المعارف ص ٢٦٩) وقال الجوهري بطن من قريش.

وقال أبو الفداء هم بطون من كنانة من خزيمة ـ ثم قال وليسوا من الحبشة كما يتوهم البعض.

انظر القاموس المحيط ٢/ ٢٦٧، وتاج العروس ـ فصل الحاء من باب الشين مادة (حبش) ٤/ ٢٩٣، ومعجم قبائل العرب ١/ ٥.

أحداث غزوة بني المصطلق:

١ ـ كان خروجه ﷺ لليلتين مضتا من شعبان سنة خمس من الهجرة في سبعمائة من أصحابه إلى بني المصطلق[١].

وقد أغار عليهم ﷺ وهم غارون كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبدالله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، فقال: قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون في أنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم وأصاب يومئذ أحسبه قال جويرية ابنة الحارث، وحدثني هذا الحديث عبدالله بن عمر وكان بذلك الجيش. (هذا لفظ مسلم)[٢].

وقال الواقدي: لما انتهى إليهم ﷺ دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ ويقال كان مع عمار بن ياسر راية المهاجرين.

ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فنادى في الناس أن قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم. فأبوا فتراموا بالنبل.

ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد. فما أفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة وأسر سائرهم وما قتل إلا رجل واحد[٣].

٢ ـ وقسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث وكانت بركة على قومها ولنسمع قصتها من السيدة

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٩.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب في العتق وفضله ـ باب من ملك من العرب رقيقاً ٣/ ١٩٤.
صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة ٣/ ١٣٥٦، رقم الحديث ١٧٣٠.

(٣) المغازي للواقدي ١/ ٤٠٧.

الحَصَان عائشة رضي الله عنها حيث قالت: «لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ما هو أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت.

فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك استعينك على كتابتي.

قال: فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أقض عنك كتابك وأتزوجك. قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث.

فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد اعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها[1]...

وجاء الحارث بن أبي ضرار ـ بعد الوقعة ـ بفداء ابنته إلى المدينة فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٣٠٢.

(٢) انظر ص ٣٨٩ من هذا الكتاب.

٣ ــ ومن أهم الأحداث التي وقعت في هذه الغزوة:

وقعت أحداث من أهمها:

أ ــ محاولة عبدالله بن أبي بن سلول إثارة الفتنة بين المسلمين.

ب ــ حديث الإفك. وسنرجىء الحديث عن الإفك إلى الفصل الأول.

محاولة عبدالله بن أبي بن سلول[١] إثارة الفتنة بين المسلمين:

وذلك أنه قد خرج مع المسلمين في هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين، وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة. لكنهم لما رأوا اطــراد النصر للمسلمين خرجوا طمعاً في الغنيمة.

قال ابن هشام:

فبينما رسول الله ﷺ على مائهم الذي يقال له المريسيع وردت واردة الناس (هم القوم الذين يردون الماء) ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني، حليف بني عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجهاه: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبدالله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال: أوقد فعلوها؟، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ماعدنــا وجلابيب قريش[٢] إلا كمــا قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم،

---

(١) عبدالله بن أبي بن سلول: هو عبدالله بن أبي بن مالك بن الحارث ابن عبيد الخزرجي المشهور بابن سلول. كان رأس المنافقين ـ توفي سنة تسع من الهجرة.

(٢) هو لقب كان المشركون يلقبون به المهاجرين.

أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا. ولكن أذِّن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس(١).

وقد مشى عبدالله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به ـ فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلما سار رسول الله ﷺ، لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال:

يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ:

أوبلغك ما قال صاحبكم؟

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال: عبدالله بن أبي؟

قال: وما قال؟

قال: زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو الذليل وأنت العزيز.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٧٠.

ثم قال: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك قد استلبت ملكه.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً.

وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبدالله بن أبي.

ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقون في ابن أبي ومن كان على مثل أمره.

فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه[1].

هذه خلاصة تلك المحاولة، وقد سجل القرآن ذلك في سورة «المنافقون» التي بدأت بقوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾[2].

إلى آخر السورة الكريمة التي سنقوم ـ بإذن الله ـ بتفسيرها في الفصل الثاني.

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٧.

وحديث نزول سورة المنافقين في أعقاب غزوة بني المصطلق جاء في كل من: المغازي للواقدي ٢/ ٤١٥ ـ ٤٢١، وتاريخ الطبري ٢/ ٤٠، والبداية والنهاية لابن كثير ٤/١٥٨، وغيرها من كتب السيرة.

(٢) سورة المنافقون، آية: ١.

المبحث الرابع

نتائج هذه الغزوة

من أهم نتائج هذه الغزوة ما يلي:

١ ــ فرار الجموع التي جمعها الحارث بن أبي ضرار ليغزو بها المدينة خوفاً من المسلمين من قبل حدوث المعركة.

٢ ــ ازدادت قوة المسلمين بعد انتصارهم على بني المصطلق، فلم تعد أي قبيلة تفكر في غزو المدينة بمفردها.

٣ ــ أصبح الخط الرئيسي المؤدي إلى مكة سالكاً للمسلمين، فقد كان بنو المصطلق يكونون حاجزاً مانعاً من نفوذ المسلمين إلى مكة.

٤ ــ وقعت ثلاثة أحداث في هذه الغزوة كانت لها آثار عظيمة هي:

أ ــ وقوع جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في الأسر، وتحمل النبي ﷺ كتابتها، وزواجه منها، كل ذلك كان بركة على قومها حيث أدى إلى فكاكهم من الأسر(١).

ب ــ ما حصل من عبدالله بن أبي رأس النفاق من محاولة إثارة الفتنة بين المسلمين، وتدارك النبي ﷺ للموقف، ونزول القرآن الكريم مؤيداً لزيد بن أرقم، كل ذلك كان تربية عملية للمسلمين في كيفية مواجهة المصائب والفتن والخروج منها بسلام(٢).

جـ ــ حادثة الإفك، ونزول القرآن ببراءة السيدة الحَصَان عائشة رضي الله عنها، كل ذلك كان درساً قاسياً تلقته الجماعة المسلمة، وخاصة البيت النبوي الطاهر.

٥ ــ إسلام الحارث بن أبي ضرار وإسلام بني المصطلق معه، وحسن إسلامهم فأصبحت ديار بني المصطلق داخلة في نفوذ المسلمين.

---

(١) انظر ص ٣١٦ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٣١٨ من هذا الكتاب.



الفصل الأول

حديث القرآن عن غزوة بني المصطلق وتفسير الآيات الواردة في ذلك

لقد أنزل الله - تعالى - في كتابه آيات متعددة في شأن هذه الغزوة وما حصل فيها من أحداث.

ومن هذه الآيات: معظم سورة «المنافقون» والآيات التي فصلت القول في حادث الإفك وهي بسورة «النور» وها نحن نبدأ بتفسير هذه الآيات في مبحثين:

المبحث الأول: تفسير سورة «المنافقون».

المبحث الثاني: تفسير آيات الإِفك وآية الحجرات.

* * *

المبحث الأول
تفسير سورة «المنافقون»

وكلامنا في ذلك يتضمن النقاط التالية: -

١ ـــ عدد آياتها وترتيبها في المصحف.

٢ ـــ متى نزلت هذه السورة وسبب نزولها.

٣ ـــ عرض عام للسورة.

٤ ـــ تفسير السورة الكريمة.

عدد آياتها وترتيبها في المصحف

سورة المنافقون من السور المدنية. وآياتها إحدى عشرة آية بلا خلاف[1].

وكان نزولها بعد سورة الحج وشأنها شأن السور المدنية التي تبين الأحكام الشرعية للأحداث المستجدة في المجتمع الإسلامي.

وهي السورة الثالثة والستون في ترتيب المصحف.

متى نزلت هذه السورة وسبب نزولها

سورة المنافقون نزلت في أعقاب غزوة بني المصطلق حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة.

وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي «فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون»[2].

وسبب نزولها:

أخرج الإمام البخاري من حديث زيد بن أرقم قال: «كنت في غزاة فسمعت عبدالله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا.

وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكر عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني، فأصابني هم لم يصبني مثله، فجلست في بيتي، فأنزل الله عز وجل: ﴿إذا جاءك

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ١٢٠.

(٢) انظر ص ٣٢٦ من هذا الكتاب.

المنافقون﴾ إلى قوله: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾ إلى قوله: ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾.

فأرسل لي رسول الله ﷺ فقرأها عليّ، ثم قال: (إن الله قد صدقك)»[1].

وأخرج الإمام الترمذي عن زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء[2]، وكان الأعراب يسبقونا إليه.

فيسبق الأعرابي أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة، ويجعل النطع عليه[3] حتى يجيء أصحابه.

قال: فأتى رجل من الأنصار أعرابياً فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه، فانتزع حجراً ففاض الماء، فرفع الأعرابي خشبة فضرب بها الأنصاري فشجه.

فأتى عبد الله بن أبي فأخبره ـ وكان من أصحابه ـ فغضب عبد الله بن أبي ثم قال:

لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ـ يعني الأعراب ـ وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام.

فقال عبدالله: إذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمداً بالطعام، فليأكل هو ومن عنده.

ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة المنافقون: ٦/١٨٦، وانظر أسباب النزول للسيوطي ص ٢١٤.

(٢) نبتدر الماء: يعني نتسابق ونسرع إليه، والغزوة هي غزوة بني المصطلق.

(٣) النطع: بساط من الجلد.

قال زيد: وأنا ردف عمي فسمعت عبدالله بن أبي فأخبرت عمي، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ، فأرسل إليه[1] ﷺ فحلف وجحد.

قال: فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني.

فجاء عمي إليَّ فقال: ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك، والمنافقون.

قال: فوقع عليَّ من جرأتهم ما لم يقع على أحد. قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ، فعرك أذني وضحك في وجهي، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا.

ثم إن أبا بكر لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ؟

قلت: ما قال شيئاً إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي، فقال: أبشر!.

ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر.

فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة «المنافقون».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[2].

عرض عام للسورة:

تكلمت السورة بإسهاب عن المنافقين وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم، وفضحت أكاذيبهم.

وقد استوعبت كل السورة إلا أنها في الختام حذرت المؤمنين من الإنشغال بزينة الدنيا ومتاعها وحثت على الإنفاق.

وبمزيد من التأمل في آيات السورة بشكل عام نرى أنها:

---

(١) فأرسل إليه: أي إلى عبدالله بن أبي بن سلول.

(٢) سنن الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب: ومن سورة المنافقون ٥/ ٤١٥.

١ ــ تحدثت السورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم ووصفت حالهم قال تعالى:

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون (١) اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٢) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٣) وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون (٤)﴾.

٢ ــ ثم بينت عنادهم وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحق وبينت مقالاتهم الشنيعة بالتفصيل خاصة ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنهم سيطردون الرسول الله ﷺ والمؤمنين من المدينة وأن العزة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة قال تعالى:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥) سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين (٦) هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون (٧) يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٨)﴾.

٣ ــ ثم ختمت السورة بتحذير الذين آمنوا من الانشغال بزينة الدنيا وعدم التشبه بالمنافقين، وحثتهم على الصدقة ـ التي هي برهان على الإيمان باليوم الآخر ـ قبل فوات الآوان. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٩) وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من

الصالحين (١٠) ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (١١)﴾.

تفسير السورة الكريمة

لقد افتتح الله ـ تعالى ـ هذه السورة الكريمة بتكذيب المنافقين، وبالشهادة لرسوله ﷺ بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه فقال تعالى:

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾.

﴿والمنافقون﴾: جمع منافق، من النفاق[١]، وهو مصطلح إسلامي لم تعرفه العرب بهذا المعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفاً[٢].

والمراد بالمنافقين هنا عبدالله بن أبي ومن نهج نهجه من المنافقين.

وقوله: **﴿نشهد﴾**: من الشهادة «وهي الخبر القاطع.

تقول شهد على كذا من باب سلم، وقولهم: أشهد بكذا أي أحلف»[٣].

قال القرطبي، عند تفسير قوله تعالى: **﴿قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾**: قيل معنى: **﴿نشهد﴾** نحلف. فعبر عن الحلف بالشهادة، لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مغيب.

ويحتمل أن يكون محمولاً على ظاهره أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله ﷺ اعترافاً بالإيمان ونفياً للنفاق عن أنفسهم، وهو الأشبه[٤].

---

(١) انظر ص ٣١١ من هذا الكتاب.
(٢) لسان العرب ١٠/٣٥٩.
(٣) مختار الصحاح ص ٣٤٩.
(٤) تفسير القرطبي: ١٨/١١٢.

والمعنــى:

إذا أتاك يا محمد المنافقون وحضروا مجلسك «قالوا: نشهد إنك لرسول الله» أي بألسنتهم مع أن قلوبهم تكذب ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ شهادة من الله ـ تعالى ـ بصدقه ﷺ فيما يبلغه عنه.

قال في التسهيل:

وقوله تعالى: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ ليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالى، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ إبطال للرسالة، فوسطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة[1]...

وقوله سبحانه: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ تأكيد لتكذيبهم فيما زعموه من اتباعهم للرسول ﷺ وما أظهروه من شهاداتهم وحلفهم بألسنتهم.

ثم بين سبحانه مظهراً آخر من مظاهر نفاقهم وخبث طويتهم فقال تعالى:

﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾.

وقوله: ﴿أيمانهم﴾: الأيمان: جمع يمين وهي الحلف، والجنة الترس وهو المجن الذي تتقي به السيوف والنبال والسهام في الحرب[2].

وقوله: ﴿جنة﴾: أي وقاية من القتل ونحوه يستترون بها كما يستتر المستجن بجنته ـ أي بترسه ـ في الحرب[3].

والمراد بهذا اللفظ هنا شهادتهم بألسنتهم بصدق الرسول ﷺ مع أن

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: ٤/ ١٢١.
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٨/ ٣٢٢.
(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن ٢/ ٤٣٣.

قلوبهم تخالف ذلك وإنما قالوا ما قالوا وقاية لهم من القتل.

وقوله: ﴿فصدوا﴾: من الصد: وهو الصرف عن الشيء والمنع منه[1].

والمعنــى:

اتخذ هؤلاء المنافقون حلفهم الباطل بأن الرسول صادق في دعوته وقاية لهم حتى لا يفتضح أمرهم ويكشف سرهم.

وقوله: **﴿فصدوا عن سبيل الله﴾** أي: منعوا الناس عن الجهاد، وعن الإيمان بمحمد ﷺ.

قال قتادة: كلما ظهر على شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم[2].

وقال ابن كثير: إن المنافقين اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وهم في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً فحصل بذلك ضرر كبير على كثير من الناس[3]...

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بذم صنيعهم هذا فقال تعالى: **﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾** أي قبح عملهم وصنيعهم هذا، لأنهم يظهرون بمظهر الإيمان وهم من أهل النفاق والعصيان.

هذا ويرى الإمام ابن العربي أن هذه الآية ليست ترجع إلى الآية الأولى **﴿نشهد إنك لرسول الله﴾** وإنما ترجع إلى سبب النزول ـ الذي سبق ذكره ـ فهي إشارة إلى أن ابن أبي حلف ما قال، وقد قال[4].

---

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٢/ ٤٣٣.

(٢) تفسير الألوسي ٢٨/ ١٠٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٨.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٢.

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التي أدت إلى نفاقهم وخداعهم فقال تعالى: **﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾**.

﴿ذلك﴾: إشارة إلى ما تقدم من القول الناعي عليهم أنهم أسوأ الناس أعمالاً.

أو إلى ما ذكر من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان الفاجرة[1].

وقوله: **﴿فطبع﴾**: الطبع: الختم أي ختم عليها بالكفر.

والمعنـــى:

ذلك الذي فعلوه من الشهادة الكاذبة، والاستتار بالحلف الباطل بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم فعاقبهم الله بأن ختم على قلوبهم فلا يصل إليها هدى ولا نور فأصبحوا لا يعرفون الخير ولا الإيمان ولا يفرقون بين الحسن والقبيح فهم لا يفقهون.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض صفاتهم الذميمة وكشف عن طبائعهم السيئة فقال تعالى: **﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾**.

قوله: **﴿خشب﴾**: جمع خشبة والمراد ما هو معروف.

قوله: **﴿مسندة﴾**: يقال مسند إلى شيء، أي: مائل إليه، وأسنده إلى الشيء، أي أماله فهو مسند، والتشديد للمبالغة[2].

---

(١) تفسير الألوسي ٢٨/ ١١٠.

(٢) تفسير الرازي: ٣٠/ ١٥.

والخطاب في هذه الآية لكل من يصلح للخطاب أو هو لسيد المخاطبين ﷺ[1].

والمعنـــى:

وإذا رأيت ـ أيها الرسول الكريم ـ هؤلاء المنافقين ﴿**تعجبك أجسامهم**﴾ بجمال منظرها.

قال ابن عباس: كان عبدالله بن أبي وسيماً جسيماً صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته. وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة[2]...

وقال الكلبي: المراد أن ابن أبي وجد بن قيس ومعتب بن قشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة[3]...

ثم شبههم ـ سبحانه ـ بالخشب المسندة التي لا فائدة فيها فقال تعالى: ﴿**كأنهم خشب مسندة**﴾.

قال الطبري: كأن هؤلاء المنافقين خشب مسندة لا خير عندهم ولا فقه لهم ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول[4]...

وقال الألوسي: شبهوا في جلوسهم مجالس رسول الله ﷺ مستندين فيها وما هم إلا أجرام خالية من الإيمان والخير بخشب مسندة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية من الفائدة لأن الخشب تكون مسندة إذا لم تكن بناء أو دعامة شيء آخر[5]...

---

(١) التفسير الواضح ٢٨/ ٤٤.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٢٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تفسير الطبري ٢٨/ ١٠٧.
(٥) تفسير الألوسي ٢٨/ ١١١.

ثم صور ـ سبحانه ـ ما هم عليه من جبن وخور فقال تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ وهذا لشدة فزعهم من كل صيحة يحسبون أنهم هم المقصودون بها.

قال مقاتل والسدي: أي: إذا نادى مناد في العسكر أن انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون، لما في قلوبهم من الرعب[1]...

وقال الطبري: يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم وسوء ظنهم، وقلة يقينهم كل صيحة عليهم، لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم وسلب ذراريهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطبهم[2]...

ثم حذر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين من شرور هؤلاء المنافقين فقال تعالى: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾ أي هم الكاملون في العداوة.

قال صاحب أضواء البيان: فيه ما يشعر بحصر العداوة في المنافقين مع وجودها في المشركين واليهود ولكن إظهار المشركين شركهم، وإعلان اليهود كفرهم مدعاة للحذر طبعاً. أما هؤلاء فادعاؤهم الإيمان وحلفهم عليه، قد يوحي بالركون إليهم ولو رغبة في تأليفهم. فكانوا أولى بالتحذير منهم لشدة عداوتهم ولقوة مداخلهم مع المسلمين، مما يمكنهم من الإطلاع على جميع شؤونهم[3]...

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ أي

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ١٢٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/ ١٠٧.

(٣) أضواء البيان ـ تكملة الشيخ عطية سالم ٨/ ٣٢٥.

أخزاهم الله، وأبعدهم عن رحمته.

قال ابن عباس: قوله: ﴿قاتلهم الله﴾ كلمة ذم وتوبيخ[1]...

﴿أنى يؤفكون﴾: أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل والكفر الذي هم فيه. وهو تعجب من حالهم.

ثم بين - سبحانه - إصرارهم على كفرهم، وإعراضهم عن نصيحة الناصحين فقال تعالى:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥) سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين (٦)﴾.

سبب النزول:

١ - قال المفسرون: لما نزلت الآيات تفضح المنافقين وتكشف الأستار عنهم، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين، وقالوا لهم: ويلكم لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا وحركوا رؤوسهم سخرية واستهزاء فنزلت الآية.

ثم جاءوا إلى عبدالله بن بي بن سلول وقالوا له: امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك يستغفر لك، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ثم قال لهم: لقد أشرتم علي بالإيمان فآمنت، وأشرتم علي بأن أعطي من زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد[2].

٢ - قال ابن كثير: وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ١٢٦.

(٢) انظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٥، وتفسير القرطبي ١٨/ ١٢٦، وصفوة التفاسير ٣/ ٣٨٦.

نزل في عبدالله ابن أبي بن سلول[1] . . .

وقوله: ﴿لووا رؤوسهم﴾: اللَّيُّ فَتْلُ الحَبْل، يقال لويتُه ألويه ليّاً، ولوى يده ولوى رأسه وبرأسه أماله، ﴿لووا رؤوسهم﴾ أمالوها[2].

وقوله: ﴿يصدون﴾: من الصدود والصدُّ قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً نحو «يصدّون عنك صدوداً»[3].

والمعنـــى:

إذا قيل لهؤلاء المنافقين: هلموا إلى رسول الله ﷺ حتى يطلب لكم المغفرة من الله ﴿لووا رؤوسهم﴾ أي حركوها وأمالوها استهزاءاً واستكباراً ﴿ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾ أي وتراهم يعرضون عما دعوا إليه، وهم متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ زاهدون فيه.

فالآية الكريمة بينت للناس بأبلغ بيان أن هؤلاء المنافقين ليس في قلوبهم حبة خردل من إيمان فهم لا يكتفون بالإعراض عمن دعاهم إلى الذهاب إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم بل أضافوا إلى ذلك استهزاءاً واضحاً وصداً للناس عن دعوة محمد ـ ﷺ ـ وغروراً وتطاولاً وبطراً للحق.

ثم بين ـ سبحانه ـ عدم فائدة طلب الاستغفار لهم بسبب فسوقهم عن أمر ربهم فقال تعالى:

﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

وقوله: ﴿سواء عليهم﴾: يقال سَواءٌ وسِوًى وسُوًى أي يستوي طرفاه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٩/٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٤٥٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٥.

ويستعمل ذلك وصفاً وظرفاً.

وأصل ذلك مصدر. وقوله: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم...﴾ أي يستوي الأمران في أنهما لا يغنيان[1].

والمعنـــى:

إنك أيها الرسول الكريم سواء أستغفرت لهم بمقتضى رحمتك بأمتك ورأفتك بها أم لم تستغفر لهم بسبب صدهم عن ذلك الحق فإن الله يتساوى الأمر عنده بالنسبة لهم، فإنه لا ينفع استغفارك لهم شيئاً لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله.

وفي الآية الكريمة دليل على عدم مغفرته سبحانه للمنافقين حتى ولو كان المستغفر لهم رسول الله ﷺ. قال الألوسي: والمراد الإخبار بعدم الفائدة كما يفصح عنه قوله سبحانه: ﴿لن يغفر الله لهم﴾[2].

وقال الصاوي: هذا تيئيس من إيمانهم أي أن استغفارك يا محمد وعدمه سواء، فهم لا يؤمنون لسبق الشقاوة لهم[3].

وعلل - سبحانه - عدم المغفرة لهم بقوله: ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي والله - تعالى - لا يهدي إلى طريق الخير أولئك الذين فسقوا عن أمره، وخرجوا عن طاعته، ولم يستمعوا إلى نصح الناصحين، وإرشاد المرشدين، وإنما آثروا الغواية على الهداية.

هذا ويؤخذ من الآية الكريمة شدة شفقته - ﷺ - بأمته، وحرصه على هدايتها، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة، وأنه مع إيذاء المنافقين له كان

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٢٥٢.

(٢) تفسير الألوسي ٢٨/١١٣.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٩٨.

يستغفر لهم ـ أملاً في توبتهم ـ إلى أن نهاه الله عن ذلك[1].

وروى ابن جرير عن ابن عباس:

قوله: **﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾** قال: نزلت هذه الآية بعد الآية التي في سورة التوبة **﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾**.

فقال رسول الله ﷺ زيادة على سبعين مرة، فأنزل الله: **﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾**[2].

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عما تفوهوا به من قول خبيث يدل على كفرهم، فقال تعالى:

﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون (٧) يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.

سبب النزول:

١ ـ أخرج الإمام البخاري من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا في غزاة ـ قال سفيان مرة في جيش ـ فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار[3]، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار،

---

(١) التفسير الوسيط ـ سورة التوبة ـ ص ٢٤٧.

(٢) تفسير الطبري ١١١/٢٨.

(٣) كسع: أي ضربه، وهو ضرب الدبر باليد أو الرجل وذلك عند أهل اليمن شديد. والغزوة: هي غزوة بني المصطلق.

فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبدالله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم أن المهاجرين كثروا بعد[1].

٢ ـ وأخرج الإمام البخاري أيضاً من حديث زيد بن أرقم قال: كنت في غزاة[2] فسمعت عبدالله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا. وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكر عمي لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله وكذبني، فأصابني هم لم يصبني مثله، فجلست في بيتي، فأنزل الله عز وجل:

﴿إذا جاءك المنافقون﴾ إلى قوله: ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾[3].

هذه بعض الروايات التي وردت في سبب النزول.

وقوله تعالى: ﴿حتى ينفضوا﴾: من فض والفض كسر الشيء والتفريق بين بعضه كفض ختم الكتاب ومنه استعير انفض القوم، قال تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾، ﴿لانفضوا من حولك﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ولله خزائن السموات والأرض﴾:

من خزن: الخزن حفظ الشيء في الخزانة ثم يعبر به عن كل حفظ كحفظ السر ونحوه. وقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾، ﴿ولله خزائن

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ صورة المنافقون ٦/ ١٩٢.
(٢) هي غزوة بني المصطلق.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة المنافقون: ٦/ ١٨٩.
(٤) المفردات في غريب القرآن ص ٣٨١.

السموات والأرض﴾ فإشارة منه على قدرته تعالى على ما يريد إيجاده أو إلى الحالة التي أشار إليها بقوله عليه السلام: «فرغ ربكم من خلق الخلق والرزق والأجل»[1].

وقوله تعالى: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾.

القائل هو عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وإسناد القول إلى جميع المنافقين لرضائهم به وعنى بالأعز نفسه ومن يلوذ به، والأذل من أعزه الله عز وجل وهو الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾:

العزة: حالة مانعة للإنسان من أن يغلب. من قولهم: أرض عزاز، أي صلبة[2].

فالعزة الغلبة والقوة.

والمعنـى:

أي هؤلاء المنافقون ﴿هم الذين يقولون﴾ لأصحابهم ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾ من الفقراء المهاجرين. وقوله: ﴿حتى ينفضوا﴾ الانفضاض: التفرق و ﴿حتى﴾ للتعليل، أي: لا تنفقوا عليهم كي يتفرقوا عنه عليه الصلاة والسلام ولا يصحبوه.

قال الألوسي:

والظاهر أن التعبير ـ برسول الله ﷺ ـ أي بهذا اللفظ وقع منهم ولا يأباه كفرهم لأنهم منافقون مقرون برسالته عليه الصلاة والسلام ظاهراً.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٢.

وجوز أن يكونوا قالوا تهكماً أو لغلبته عليه ﷺ حتى صار كالعلم لم يقصد منه إلا الذات.

ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة فغيرها الله عز وجل إجلالاً لنبيه عليه الصلاة والسلام وإكراماً[1]...

وقوله تعالى: ﴿ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ رد وإبطال لما زعموا من عدم إنفاقهم على من عند رسول الله ﷺ يؤدي إلى انفضاضهم وانصرافهم عنه ﷺ. فقد بين - سبحانه - أن له خزائن الأرزاق ومفاتيحها يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾، أي ولو كان عندهم شيء من الفقه لما قالوا ما قالوا وإنما ذلك يدل على جهلهم بالله تعالى وبشؤونه عز وجل.

وقوله سبحانه: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل...﴾ الآية. حكاية لبعض قبائح هؤلاء المنافقين، ولبعض أقوالهم الشنيعة.

أي يقول هؤلاء المنافقون لمن على شاكلتهم: لئن رجعنا إلى المدينة من سفرنا، ليخرجن الأعز الأذل.

وهذا شأن المنافقين في كل زمان، يدعون بأن لهم السيادة والقيادة في المجتمعات الإسلامية. لكن الواجب على المؤمنين أن يقفوا لهم بالمرصاد، وأن يوقفوهم على حقيقة أمرهم، وقد حث عمر - رضي الله عنه - النبي ﷺ على قتل عبدالله بن أبي بن سلول لكن الرسول الكريم - ﷺ - لم يأخذ برأي عمر بقتل هذا المنافق وسار بالجيش على غير عادته[2] وترك حتى العتاب

---

(١) تفسير الألوسي: ٢٨/ ١١٥.

(٢) راجع أحداث الغزوة ص ٣١٨ من هذا الكتاب.

واكتفى من عبدالله بن أبي بتكذيبه لما قالوا فيه.

وهذه حكمة عظيمة من أعظم القادة لمعالجة النفوس حيث ترك كل فرد في الجيش يعلم الحقيقة ولكن بهدوء بدون ضوضاء وهذا ما حصل.

فقد قام بالواجب الإسلامي أقرب الناس إلى هذا المنافق. ذلك هو عبدالله بن عبدالله بن أبي ـ رضي الله عنه ـ وهو المعروف بصدق إيمانه.

فها هو لم يطق كلام أبيه. فإذا بإيمانه يتحرك ويقف على باب المدينة وسيفه مشهر!.

ولكن مشهر في وجه من؟ إنه في وجه أبيه. فلم يتركه حتى أقر صراحة بأنه هو الذليل وأن العزيز الأعز هو الرسول ﷺ.

ولم يكتف بهذا... بل لم يتركه يدخل المدينة إلا بعد أن سمح له الرسول ﷺ بدخولها.

قال ابن كثير: ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبدالله بن عبدالله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبو عبدالله بن أبي قال له ابنه: وراءك فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل.

فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة ـ أي مؤخرة الجيش يسوقه ـ فشكا إليه عبدالله بن أبي ابنه فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذا أذن لك رسول الله فجز الآن[1].

ثم لم يكتف بهذا كذلك ـ وهو بلا شك قد سمع رأي عمر بطلب إنزال

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٢.

عقوبة القتل بوالده ـ فنراه يذهب إلى الرسول الله ويطلب أن يكون هو من ينفذ ذلك. فعن قتادة: أن عبدالله بن عبدالله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)[1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

فهي رد على قول عبدالله بن أبي وإثبات أن لله جلّ وعلا القوة والغلبة وكذلك لرسوله ﷺ وللمؤمنين لا لغيرهم.

والصيغة تفيد الحصر أي حصر العزة في الله ورسوله والمؤمنين وغيرهم لا عزة له.

قال القرطبي: توهموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع، فبين الله أن العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين[2].

وهناك فرق بين الكبر والعزة:

فعن الحسن بن علي: أن رجلاً قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً قال: ليس بتيه ولكنه عزة وتلا هذه الآية. وأريد بالتيه الكبر وقد نص على ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٧٢. هذا والروايات في هذا الموضوع كثيرة جداً فقد ذكر الإمام الطبري والحافظ ابن كثير في تفسيرهما ما يزيد عن عشرة روايات متعددة هذا عدا ما ذكره أصحاب السير والمغازي، انظر أحداث الغزوة ص (٣١٩)، وأسباب النزول ص (٣٢٤).

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٢٩.

أبو حفص السهرودي فقال: العزة غير الكبر لأن العزة معرفة الإنسان بنفسه وإكرامها أن لا يضعها لأقسام عاجلة، كما أن الكبر ضد التواضع[1].

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون هذه الحقائق لفرط جهلهم وعدم معرفتهم بالله.

قال الألوسي: والإظهار في موضع الإضمار لزيادة الذم مع الإشارة إلى علة الحكم في الموضعين. ويقصد بالموضعين[2] قوله: ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾، ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.

وأما الحكمة من قوله: ﴿لا يفقهون﴾، ﴿لا يعلمون﴾، فقد بين ذلك الإمام الرازي بقوله: فإن قيل: قال في الآية الأولى ﴿لا يفقهون﴾ وفي الأخرى ﴿لا يعلمون﴾ فما الحكمة فيه؟

فنقول: ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم، وبالثاني كثرة حماقاتهم وجهلهم[3]...

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد فضحت المنافقين وبينت حقيقتهم وهذه السورة كما سبق وأن علمنا أنها نزلت في أحداث غزوة بني المصطلق لتكشف الحقائق للمجتمع المسلم وليكون المجتمع الإسلامي على بصيرة من أمره.

ثم ختمت السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من الانشغال بزينة الدنيا التي هي من أخلاق المنافقين فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن

---

(١) تفسير الألوسي ٢٨/١١٦.
(٢) تفسير الألوسي ٢٨/١١٧.
(٣) تفسير الإمام الرازي ٣٠/١٨.

يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٩) وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكُنْ من الصالحين (١٠) ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (١١)﴾.

أي: يا من آمنتم بالله ورسوله لا تشغلكم أموالكم مهما كثرت، ولا أولادكم عن المداومة على ذكر الله وطاعته.

وقوله: **﴿ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾**.

بيان لسوء عاقبة من يخالف أوامر الله ونواهيه، أي: ومن التهى بتدبر أموره الدنيوية والتمتع بها عن طاعة الله وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

ثم حثهم ـ سبحانه ـ على الإنفاق في طاعته فقال تعالى:

﴿وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾.

في هذه الآية الكريمة حث ـ سبحانه ـ المؤمنين على الإنفاق بما تفضل به عليهم من الأموال ليكون ذلك ذخراً لهم في الآخرة وأن يغتنموا الفرصة قبل أن يحين الأجل وحينئذ يندمون ولا ينفعهم الندم.

وقوله: **﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾**.

المراد دلائله وعلاماته وأماراته.

وقوله تعالى: **﴿فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾**.

أي هلا أمهلتني وأخرتني إلى زمان قليل، فإن كل مفرط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ليستعتب ويستدرك ما فاته ولكن هيهات له ذلك.

أخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت).

فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله تعالى فإنما يسأل الرجعة الكفار فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآناً **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله...﴾** إلى آخر السورة[1]. ويتضح من هذه الرواية أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ذهب إلى أن الآية في الإنفاق الواجب خاصة دون النفل، وسيأتي تفصيل ذلك.

وقوله: **﴿فأصدق وأكن من الصالحين﴾** أي فأتصدق، وبذلك أكن من الصالحين.

ثم أكد ـ سبحانه ـ سنته في هذا الكون بعدم تأخير الأجل إذا حل فقال تعالى:

﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾، أي: ولن يمهل الله أحداً أياً كان إذا انتهى أجله، ولن يزيد في عمره، وفيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات، حذراً من أن يجيء الأجل وقد فرط الإنسان ولم يستعد للقاء ربه.

﴿والله خبير بما تعملون﴾: أي مطلع وعالم بأعمالكم من خيرَ أو شر ويجازيكم عليها.

ويؤخذ من قوله تعالى: **﴿وأنفقوا من ما رزقناكم...﴾** الآية، أي المراد بالإنفاق هنا الإنفاق الواجب.

---

(١) الدر المنثور للإمام السيوطي ٦/ ٢٢٦.

قال ابن العربي: أخذ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بعموم الآية في الإنفاق الواجب خاصة دون النفل، وهو الصحيح، لأن الوعيد إنما يتعلق بالواجب دون النفل[1].

وبهذا ختم تفسير سورة «المنافقون».

* * *

«المبحث الثاني»
تفسير آيات الإفك وآية الحجرات

ويشتمل على ما يلي: ـ

١ ـ حادثة الإفك[2].

٢ ـ تفسير الآيات النازلة فيها.

٣ ـ تفسير آية الحجرات.

١ ـ حادثة الإفك:

وذلك أنه في أعقاب غزوة بني المصطلق ألمت بالبيت النبوي نازلة شديدة ومحنة عظيمة، كان القصد منها النيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته تلك هي حادثة الإفك التي حاكها المنافقون بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى في إثارة النعرة الجاهلية.

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسير[3] على أن حادثة الإفك كانت في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٣.

(٢) الإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان وهو الأمر الذي لا تشعر به حتى يفجأك. وأصل الإفك: القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه.

(٣) انظر المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٧، والتاريخ الكبير للذهبي ١/ ٢٣٧، وتاريخ الطبري ٢/ ٦١٠، وطبقات ابن سعد ٢/ ٦٥، وجوامع السيرة النبوية لابن حزم ص ٢٠٦، والسيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٣٠٤، وسيرة ابن هشام ٣/ ٣٨١، وغيرها من كتب السيرة.

أعقاب غزوة بني المصطلق، وتابعهم في ذلك المفسرون[1] والمحدثون[2].

وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحيهما. وإليك سياق القصة من صحيح البخاري.

أخرج البخاري من حديث يحيى بن بكير عن الليث عن يونس عن ابن شهاب: قال أخبرني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، وكل حدثني طائفة من الحديث وبعض حديثهم أوعى له من بعض.

الذي حدثني عروة عن عائشة رضي الله عنها أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها[3] فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي[4] وأنزل فيه.

فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٨/ ٩٣، وتفسير الإمام ابن كثير ٣/ ٢٧٠، وتفسير الإمام الرازي ٢٣/ ١٧٥، وغيرها من كتب التفسير.

(٢) انظر قول ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٥٨، وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي ١٧/ ١٠٩، وغيرهما من كتب الحديث.

(٣) هي غزوة بني المصطلق.

(٤) الهودج: بفتح الهاء والدال بينهما واو ساكنه وآخره جيم: محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه، يوضع على ظهر البعير يركب فيه النساء ليكون أستر لهن. فتح الباري ٨/ ٤٥٨، وفي القاموس المحيط الهودج: مركب النساء ١/ ٢١٢.

ظفار[1] قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط[2] الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما نأكل العُلْقَة[3] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب فأقمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي[4] ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج[5] فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[6] حين عرفني فخمرت[7] وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها.

فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[8] في

---

(١) جزع ظفار: الجزع: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق، وظفار بوزن فطام وهي مبنية على الكسر اسم مدينة لحمير باليمن، انظر فتح الباري ٨/٤٥٨، والقاموس المحيط ٣/ ١٢.

(٢) الرهط: هو عدد من ثلاثة إلى عشرة وقيل إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة، انظر فتح الباري ٨/٤٥٨.

(٣) العلقة: بضم المهملة وسكون اللام من الطعام: أي البلغة منه انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٣/ ٢٨٩.

(٤) صفوان بن المعطل: صحابي جليل، كان صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته ـ أي يسير في مؤخرة الجيش يسوقه ـ وكان حصوراً لا يأتي النساء. ذكره ابن إسحاق من طريق عائشة، قتل شهيداً رضي الله عنه في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمان عمر رضي الله عنه انظر صحيح مسلم ٤/٢١٣٨.

(٥) فأدلج: بالتشديد سار آخر الليل، وبالتخفيف سار أول الليل (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ١٢٩).

(٦) باسترجاعه: أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٧) فخمرت وجهي: أي (غطيته النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ٧٧).

(٨) موغرين: الوغرة: بسكون الغين المعجمة شدة الحر، المصدر نفسه ٥/ ٢٨.

نحر الظهيرة[1] فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول.

انتشار الدعاية في المدينة:

وقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني[2] أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم[3]؟ ثم ينصرف، وذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع[4] وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف[5] قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة[6] فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها[7] فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين

---

(١) نحر الظهيرة: أولها وهو وقت شدة الحر، ونحر النهار والشهر أوله (انظر القاموس المحيط ٢/ ١٣٩).

(٢) يريبني: يشككني، يقال رابني الشيء وأرابني بمعنى شككني (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ٢٨٦).

(٣) كيف تيكم: بالمثناة المكسورة وهي للمؤنث مثل ذاكم للذكر واستدلت عائشة بهذه الحالة على أنها استشعرت منه بعض جفاء (فتح الباري: ٨/ ٤٦٥).

(٤) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة واحدها منصع كمقعد (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٥/ ٦٥).

(٥) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر وأرادت به هنا المكان المعد لقضاء الحاجة (القاموس المحيط ٣/ ١٩٢ ومختار الصحاح ص ٥٨٠).

(٦) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب ومسطح لقبه، واسمه عوف يكنى أبا عباد وقيل أبا عبد الله شهد بدراً توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه (فتح الباري ٨/ ٤٦٥).

(٧) فعثرت في مرطها: أي وطئته برجلها فسقطت والمرط: بكسر الميم واحد المروط وهي أكسية =

رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي ـ هنتاه[1] أولم تسمعي ما قال. قلت: وما قال. فأخبرتني بخبر أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي قالت فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ ـ تعني فسلم ـ ثم قال كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة[2] عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها[3] قالت: فقلت سبحان الله، ولقد تحدث الناس بهذا؟.

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع[4]، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عند تأخر نزول الوحي:

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث[5] الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت فأما أسامة فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم من الود فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك النساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء

من صوف أو خز كان يؤتزر بها (مختار الصحاح ص ٦٢١).

(١) أي هنتاه: تفتح النون وتسكن وتضم الهاء الآخرة وتسكن ومعناها: ـ يا بلهاء كأنها نسبت إلى قلة المعرفة، بمكايد الناس وشرورهم (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٥/ ٢٧٦).

(٢) وضيئة: الوضاءة الحسن والبهجة.

(٣) إلا أكثرن عليها: أي القول في عيبها.

(٤) لا يرقأ لي دمع: لا ينقطع ولا يسكت.

(٥) استلبث الوحي: استفعل من اللبث وهو الإبطاء والتأخر (النهاية في غريب الحديث ٤/ ٢٢٤) واستلبث الوحي بالرفع طال نزوله، وبالنصب استبطأ النبي ﷺ نزوله (فتح الباري ٨/ ٤٦٨).

يريبك؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه[1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن[2] فتأكله. فقام رسول الله فاستعذر[3] يومئذٍ من عبد الله بن أبي بن سلول قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً[4] ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

آثار فتنة الإفك:

قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية[5] ـ فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن خضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان[6] الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فمكثت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع يظنان

---

(١) أغمصه عليها: أي أعيبها به وأطعن بها عليه (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٨٦).

(٢) الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم، وقد يقع على غير الشاة من كل ما يألف البيوت من الطير وغيرها (النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٠٢).

(٣) فاستعذر: أي قال من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني (النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٩٧).

(٤) هو صفوان بن المعطل السلمي المصرح به أول الحديث صفحة ٣٤٨.

(٥) احتملته الحمية: أي حملته الأنفة والغضب على الجهل (النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٢٢).

(٦) فتثاور الحيان: أي تناهضوا للنزاع والعصبية (شرح مسلم للنووي ٥/ ٦٣٥).

أن البكاء فالق كبدي، قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ ما قيل قبلها.

مفاتحة الرسول ﷺ لعائشة وجوابها له:

وقد لبث الوحي شهراً[١] لا يوحى إليه في شأني قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال أما بعد: يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا[٢] فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص[٣] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني منه بريئة، والله يعلم أني لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتصدقن، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[٤] قال: ﴿**فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾[٥]، قالت ثم

---

(١) ذهب الإمام ابن حزم إلى أن المدة كانت خمسين يوماً أو أزيد (جوامع السيرة ص ٢٠٦) وقال ابن حجر ويجمع بأنها المدة التي كانت بين قدومهم المدينة ونزول القرآن في قصة الإفك وأما التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها حين بلغها الخبر (فتح الباري ٨/ ٤٧٥).

(٢) كذا وكذا: قال ابن حجر هو كناية عما رميت به من (الإفك فتح الباري ٨/ ٤٧٥).

(٣) قلص دمعي: أي ارتفع وذهب (النهاية في غريب الحديث ٤/ ١٠٠).

(٤) هو يعقوب عليه السلام.

(٥) جزء من آية ١٨ من سورة يوسف: ﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم

تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئة، وإن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

نزول الوحي ببراءة عائشة:

قالت: فوالله ما رام[1] رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[2] حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان[3] من الفرق، وهو يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه.

قالت فلما سري[4] عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة أما الله عزّ وجلّ فقد برأك.

فقالت أمي: قومي إليه، قالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عزّ وجلّ.

وأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى

= أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

(١) ما رام: أي ما برح وما فارق مجلسه، يقال رام يريم إذا برح وزال من مكانه، وأكثر ما يستعمل في النفي (النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٩٠).

(٢) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي.

(٣) الجمان: هو اللؤلؤ الصغار وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ (النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٠١).

(٤) سرى: انكشف عنه ما يجده من الهم والثقل (مختار الصحاح ص ٢٥٧ (والمراد هنا انكشف عنه ما يجده من ثقل نزول الوحي.

ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [١].

موقف أبي بكر الصديق ممن تكلم في عائشة رضي الله عنها:

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [٢].

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش[٣] عن أمري، فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟، فقالت: يا رسول الله أحمي[٤] سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني[٥] من أزواج

---

(١) سورة النور، من آية ١١ ـ ٢٠.

(٢) سورة النور، آية ٢٢.

(٣) هي زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وهي بنت عمته ﷺ.

(٤) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه ومن العذاب لو كذبت عليهما (النهاية في غريب الحديث ١/ ٤٤٨).

(٥) تساميني: أي تعاليني وتفاخرني، وهو مفاعلة من السمو أي تطاولني عنده ﷺ (النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٠٥).

رسول الله ﷺ فعصمها الله[1] بالورع[2].

وطفقت[3] أختها حمنة[4] تحارب لها، فهلكت ممن هلك من أصحاب الإفك[5].

٢ ـ تفسير الآيات النازلة فيها:

قال تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ

---

(١) ومعنى عصمها: حفظها ومنعها.

(٢) الورع في الأصل: الكف عن المحارم والتحرج منها (النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٧٤).

(٣) وطفقت: بكسر الفاء، أي جعلت أو شرعت (فتح الباري ٨/ ٤٧٨).

(٤) هي حمنة بنت جحش بنت عمته ﷺ وهي أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٥) أخرج هذا الحديث البخاري ومسلم، انظر صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة النور ٦/ ١٢٧، وصحيح مسلم ـ كتاب التوبة ـ ٤/ ٢١٢٩.

وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

سبب نزول هذه الآيات:

١ ـ أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة الطويل[١]: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم**﴾، العشر آيات كلها[٢].

هذا نص البخاري وزاد مسلم «قالت: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم**﴾، عشر آيات، فأنزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات ببراءتي...»[٣].

٢ ـ وذكره الواحدي النيسابوري بسنده عن الزهري في أسباب النزول[٤] وأورده الإمام السيوطي كذلك في أسباب النزول وقال: أخرج الشيخان وغيرهما من حديث عائشة... وذكر الحديث بطوله[٥].

٣ ـ قال القرطبي: وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل في قصة عائشة رضوان الله عليها، وهو خبر صحيح مشهور، أغنى اشتهاره عن ذكره[٦].

٤ ـ وقال الإمام الرازي: أما سبب النزول: فقد روى الزهري... وذكر حديث عائشة رضي الله عنها بطوله[٧].

---

(١) ذكرنا الحديث بطوله ص ٣٤٧ من هذا الكتاب.
(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة النور ٦/ ١٢٧.
(٣) صحيح مسلم ـ كتاب التوبة: ٤/ ٢١٢٩.
(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٢١٤.
(٥) أسباب النزول للسيوطي ص ١٥٤.
(٦) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٩٧.
(٧) تفسير الإمام الرازي ٢٣/ ١٧٤.

والذي يتأمل هذه الآيات التي نزلت في حديث الإفك، يراها قد سبقتها آيات أخرى تحدثت عن حكم الزاني والزانية وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه.

وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام.

وقد افتتحت هذه الآيات بعد ذلك بقوله تعالى: **﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾**.

الإفك: أسوأ الكذب وأشنع صور البهتان، يقال أفك كضرب وعلم أي كذب وهو قذف السيدة الحَصَان عائشة بالفاحشة.

قال الرازي: والإفك أبلغ ما يكون من الكذب والإفتراء وقيل هو البهتان وهو الأمر الذي لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الإفك وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه[1].

العصبة: من الثلاثة إلى العشرة، وأصلها في اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض[2].

كبره: قرىء كبره بالضم والكسر، وهو عِظمه والذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول وهو الصحيح[3].

قال الرازي: والأقرب في الرواية أن المراد به عبد الله بن أبي بن سلول فإنه كان منافقاً يطلب ما يكون قدحاً في الرسول عليه السلام، وغيره كان تابعاً له فيما كان يأتي[4].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٣/ ١٧٢.
(٢) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٩٨.
(٣) المصدر نفسه: ١٢/ ٢٠٠، وانظر صحيح البخاري: ٦/ ١٣٣.
(٤) تفسير الرازي: ٢٣/ ١٧٤.

المعنى الإجمالي:

ذكر ـ سبحانه ـ في ست عشرة آية قصة الإفك التي اتهمت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان فبرأها الله ـ سبحانه ـ مما افتروه عليها وتوعد الذي تولى كبره وهو عبد الله بن أبي بن سلول بالعذاب العظيم.

فقال تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾.

أي إن الذين جاءوا بالكلام الكاذب هم جماعة منكم أيها المؤمنون لأن عبد الله بن أبي بن سلول كان من جملة من حكم له بالإسلام ظاهراً.

وقد أشاع المنافقون خبر الإفك في المدينة وتكلم به بعض المؤمنين فنشروا الخبر ولم يتثبتوا.

وقوله تعالى: ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم﴾ تسلية للمؤمنين عما أصابهم من غم بسبب هذا الحادث وهو خطاب لمن تأذى بهذه الفرية.

ينبه فيه ـ سبحانه ـ أن ما حصل إنما هو ابتلاء، والمؤمن إذا ابتلي وصبر واحتسب كان له الأجر العظيم من الله، فنرى ـ سبحانه ـ يوجه الخطاب لهم مطمئناً بأن الله كتب لهم الأجر العظيم لصبرهم واحتسابهم فكان هذا الأمر خيراً لهم.

قال الرازي: أنه سبحانه شرح حال المقذوفة ومن يتعلق بها بقوله ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم﴾، والصحيح أن هذا الخطاب ليس مع القاذفين، بل من قذفوه وأذوه، فإن قيل هذا مشكل لوجهين:

أحدهما: أنه لم يتقدم ذكرهم.

الثاني: أن المقذوفين هما عائشة وصفوان فكيف تحمل صيغة الجمع في قوله: ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم﴾.

والجواب عن الأول: أنه تقدم ذكرهم في قوله ﴿منكم﴾.

وعن الثاني: أن المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم ومعلوم أنه ﷺ تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومن يتصل به[1].

وقوله تعالى: ﴿لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم﴾ بيان لعدالة الله - تعالى - في خلقه أي لكل فرد من القضية الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه.

وقوله تعالى: ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ بيان للعقوبة الشديدة التي أعدها الله - تعالى - للذين تولوا إشاعة هذا الحديث عن السيدة عائشة رضي الله عنها وكِبْره - بكسر الكاف وسكون الباء - هو عِظَمَه.

فقد أعد الله لمن تولى نشر الفرية واختلقها العذاب العظيم المؤلم في الآخرة جزاء ما اقترفت يداه.

واختلف فيمن تولى كبره على قولين:

١ - أنه عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق وهو الصحيح والراجح والأقرب إلى الصواب.

٢ - قيل إنه حسان بن ثابت - رضي الله عنه - وهو قول ضعيف لا حجة له.

ويستفاد من الآية الكريمة ما يلي:

أولاً: نرى إعجاز القرآن وبلاغته في الآية الأولى حيث أبطل الفرية وجلا الحقيقة وذكر حال المقذوفين كل ذلك في آية واحدة، ثم جعل بقية الآيات بما يليق بالقصة من آداب وتوجيهات وزواجر.

---

(١) تفسير الإمام الرازي: ٢٣/ ١٧٣.

ثانياً: وصف سبحانه الفرية التي أُلصِقَت بالسيدة عائشة رضي الله عنها بالإفك وهو أشنع أنواع الكذب لحكمة أوضحها الإمام الرازي حين قال: .

وإنما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه إفكاً لأن المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه:

أحدها: أن كونها زوجة للرسول ﷺ المعصوم يمنع من ذلك لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم، فوجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم.

وثانيها: أن المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور، ومن كان كذلك كان اللائق إحسان الظن به.

وثالثها: أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم وقد عرفوا أن كلام العدو المفترى ضرب من الهذيان، فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي[1].

ثم عاتب ـ سبحانه ـ المؤمنين على ما حصل منهم من الخوض في حديث الإفك فقال تعالى.

﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾[12].

لولا: بمعنى هلا وتستعمل للحث على الشيء وتأكيد طلبه.

ظن: تستعمل للشك وتستعمل للإعتقاد والمراد بالظن هنا الإعتقاد.

بأنفسهم: بإخوانهم وبالتعبير بأنفسهم فيه من البلاغة ما لا يخفى حيث أكد أن المؤمنين كالنفس الواحدة والجسد الواحد كما جاء في الحديث (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو

---

(١) تفسير الإمام الرازي ٢٣/ ١٧٣.

تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

إفك مبين: أي كذب ظاهر واضح مبين.

قال سليمان الجمل في حاشيته:

لما بين تعالى حال الخائضين في الإفك بقوله: ﴿لكل امرىء منهم..﴾ الخ شرع هنا في توبيخهم وتعييرهم وزجرهم بتسعة زواجر:

الأول: هذا.

والثاني: ﴿لولا جاءوا عليه..﴾ الخ.

الثالث: ﴿ولولا فضل الله...﴾ الخ.

والرابع: ﴿إذ تلقونه...﴾ الخ.

والخامس: ﴿لولا إذ سمعتموه...﴾ الخ.

والسادس: ﴿يعظكم الله..﴾ الخ.

والسابع: ﴿إن الذين، يحبون...﴾ الخ.

والثامن: ﴿ولولا فضل الله عليكم..﴾ الخ.

والتاسع: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ إلى ﴿سميع عليم﴾[1].

المعنـــى:

يعاتب سبحانه وتعالى المؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا ويوضح أنه كان الأجدر بهم التروي وأن يظنوا خيراً بإخوانهم في العقيدة، وأن يقيسوا ما أشيع عنهم على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة وصفوان أبعد. قال ابن كثير: هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وهلا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٣/ ٢١٧.

قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى[1].

وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته ونقل صاحب الكشاف: أن أبا أيوب الأنصاري، قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله ﷺ فعائشة خير مني. وصفوان خير منك[2].

وقد ذكر الإمام محمد بن إسحاق بن يسار هذه الرواية عن أبيه عن بعض بني النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته... الخ[3].

وقد أوضح الزمخشري بعض النواحي البلاغية في هذه الآية فقال: فإن قلت هلا قال لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً. ولماذا عدل عن الخطاب إلى الغيبة.

قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا هذا إفك مبين﴾ فيه تنبيه على أن من الواجب على المؤمن إذا سمع مقالة في أخيه أن يبني الأمر على الظن الحسن، وأن يقول بملء فيه على ظنه بالمؤمن الخير ﴿هذا إفك مبين﴾ هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال[4].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٣.
(٢) تفسير الكشاف ٣/ ٢١٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٣.
(٤) تفسير الكشاف ٣/ ٢١٨.

فكان من الواجب على كل مؤمن منكم أن يقول بدون شك وبدون تردد: هذا بهتان بين، واختلاق واضح، لا يليق بالمؤمنين، فكيف بعائشة أم المؤمنين، وزوج رسول الله ﷺ.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد رسمت للمؤمنين المنهج السليم في كيفية مواجهة الأمور وذلك بأن يرجع كل مؤمن إلى نفسه ويستفتي قلبه وأن يقيس الأمر على نفسه فإذا استبعده قلبه وأنكره عن نفسه عليه أن يستبعد عن إخوانه المسلمين ما أبعده عن نفسه.

قال القرطبي: قال العلماء إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن، ولبسة العفاف التي يتستر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً[1].

ثم علل ـ سبحانه ـ كذب الآفكين ووبخهم على ما اختلقوه وأذاعوه، فقال تعالى:

﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾.

وحرف لولا: هنا كسابقه، أي هو للتحضيض بمعنى هلا.

والمعنــى:

أن الله ـ تعالى ـ يوبخ الذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة قائلاً: **﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾**.

أي هلا جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ثبوت ما قالوا.. **﴿فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾** أي فإن لم

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٣.

يقيموا الدليل ويأتوا بالبينة على صدق ما قالوا فهم كاذبون فيما تفوهوا به من زور وبهتان.

وقد أوضح الإمام أبو السعود بعض الجوانب البلاغية في هذه الآية فقال هذا إما من تمام القول المخصص عليه مسوق لحث السامعين على إلزام المستمعين وتكذيبهم ما سمعوه منهم بقولهم: ﴿هذا إفك مبين﴾ وتوبيخهم على تركه.

أي هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا: ﴿فإذ لم يأتوا﴾ بهم وإنما قيل: ﴿بالشهداء﴾ لزيادة التقرير ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الخائضين وما فيه من معنى البعد للإيذان بغلوهم بالفساد وبعد منزلتهم في الشر أي أولئك هم المفسدون.

﴿عند الله﴾ أي في حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة ﴿هم الكاذبون﴾ الكاملون في الكذب المشهود عليهم بذلك المستحقون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم كذلك رتب الحد عليه خاصة.

وإما كلام مبتدأ مسوق من جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم يكون ما قالوا قولاً لا يساعده الدليل أصلاً(١).

هذا وقد حُدَّ مسطح وحسان وحمنة، روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة: مسطحاً وحسان وحمنة وذكره الترمذي(٢).

قال القرطبي والمشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حُدَّ حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحد عبد الله بن أبي(٣).

---

(١) تفسير الإمام أبو السعود ٤/٩٩.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/١٩٧.
(٣) المصدر نفسه ١٢/٢٠١.

وقد وردت آثار ضعيفة تدل على أن عبد الله بن أبي أُقيم عليه الحد ولكنها كلها ضعيفة لا تقوم بها الحجة[1].

وكون عبد الله بن أبي تولى كبره وأنه كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ثبت ذلك في صحيح البخاري من حديث عائشة..

(وكان الذي تكلم فيه مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم..) الحديث[2].

وقد ذكر الإمام ابن القيم وجه الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي فقال:

١ ـ قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه عن الحد.

٢ ـ وقيل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

٣ ـ وقيل الحد لا يثبت إلا ببينة أو إقرار وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

٤ ـ وقيل بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثم قال: ـ في ختام كلامه ـ ولعله ترك لهذه الوجوه كلها[3].

---

(١) انظر فتح الباري ٨/ ٤٧٩، ومرويات غزوة بني المصطلق ص ٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب قوله: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾ الآية إلى قوله ﴿والله غفور رحيم﴾ ٦/ ١٣٣.

(٣) زاد المعاد ٢/ ٢٨٤.

ثم واصلت الآيات الكريمة حديثها لتوضيح ملابسات حديث الإفك ولتبيين جانب من فضل الله عليهم فقال تعالى:

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾.

لولا: هنا للربط والتعليق، وهي التي يقال فيها حرف امتناع لوجود أي امتنعت عنهم العقوبة المتوقعة لوجود الفضل والرحمة من الله عليكم.

لمسكم: لأصابكم.

أفضتم: من الإفاضة: وهي الأخذ في الحديث، يقال أفاض القوم في الحديث إذا أخذوا فيه[1].

عذاب عظيم: أي عذاب هائل ومريع يستحقر دونه الجلد والتعنيف والعقاب.

والمعنـــى:

أنه ـ سبحانه ـ لولا فضله على المؤمنين الخائضين في شأن عائشة لنزل بهم عذاب شديد وهائل بسب خوضهم في حديث الإفك لكن رحمته سبحانه وسعت المؤمنين فلم يعاجلهم بالعقوبة المستحقة.

قال القرطبي: وهذا عتاب من الله بليغ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً[2].

ويؤخذ من قوله تعالى: **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾** كمال عنايته ـ سبحانه ـ بالأمة المحمدية وتداركه لهذه الجماعة

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه.

الناشئة بالفضل والرحمة، فهو يسدد خطاها ويقوم بتربيتها بالدروس والعظات.

ثم رسم القرآن الكريم صورة بليغة لحالة الاضطراب التي حلت بالمسلمين بعد إشاعة حديث الإفك فقال تعالى:

﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾.

﴿تلقونه﴾ يأخذه بعضكم من بعض. يقال: تلقى القول وتلقنه إذا أخذه عن غيره بسرعة، ومنه قوله تعالى: **﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾**[1].

والمعنـــى:

أن الله ـ سبحانه ـ يذكر المؤمنين بأخطائهم فيقول لهم: اذكروا أيها المؤمنون وقت أن أشاع المنافقون حديث الإفك فكنتم **﴿تلقونه بألسنتكم﴾** أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا[2] **﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾**.

أي تقولون بالأفواه قولاً باطلاً لا يستند إلى دليل أو يقين أو علم وتظنونه هيناً سهلاً وهو من أكبر الكبائر وأعظمها عند الله.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى قوله: **﴿بأفواهكم﴾** والقول لا يكون إلا بالفم؟.

قلت: معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، فيترجم عنه اللسان وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري بألسنتكم ويدور في أفواهكم من غير

---

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٢١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٤.

ترجمة عن علم به في القلب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[١،٢].

وقد لخص الإمام المراغي أهم ما جاء في هذه الآية فقال:

وخلاصة ذلك ـ أنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها:

١ ـ تلقي الإفك بالألسنة، فقد كان الرجل يلقى أخاه فيقول له: ما وراءك؟ فيحدثه حديث الإفك حتى شاع وانتشر حتى لم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه، فهم قد فعلوا جهد المستطاع في نشره.

٢ ـ أنه قول بلا روية ولا فكر، فهو قول باللسان لا يترجم عما في القلب، إذ ليس هناك علم يؤيده ولا قرائن ولا أحوال وشواهد لصدقه.

٣ ـ استصغار ذلك وحسبانه مما لا يؤبه له، وهو عند الله عظيم الوزر، مستحق لشديد العقوبة[٣].

ويؤخذ من الآية وجوب الحرص والحذر في الأقوال فإن المسلم محاسب على كل ما يقوله فقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات،وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم)[٤].

وجاء ـ أيضاً ـ في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ

(١، ٢) سورة آل عمران، آية ١٦٧، تفسير الكشاف ٣/ ٢١٩.

(٣) تفسير المراغي ١٨/ ٨٥.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب حفظ اللسان ٨/ ١٢٥، وانظر فتح الباري ١١/ ٢٠٨.

قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة، ينزل بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب)[1].

فعلى المؤمنين الحذر كل الحذر من إلقاء القول جزافاً فإن الآثام التي ارتكبها المؤمنون في حديث الإفك كانت نتيجة لهذا التساهل.

وتستمر الآيات في إرشاد المؤمنين إلى الذي كان ينبغي أن يصدر منهم فيقول تعالى:

﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾.

سبحانك: للتعجب من عظيم الأمر، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه[2]، والمراد هنا التعجب من عظيم هذا الأمر وممن تفوه به[3].

هذا بهتان عظيم: أي كذب يبهت ويحير سامعه لفظاعته لا يقدر قدره لعظمة المبهوت عليه، يقال: بَهَتَه بُهْتاً وبَهْتاً وبُهْتَاناً، قال عليه ما لم يفعل[4].

وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه[5].

المعنـــى:

وهلا أيها المؤمنون وقت أن سمعتم بهذا الحديث الكاذب عن أم

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب حفظ اللسان ٨/ ١٢٥، وصحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ـ باب التكلم بالكلمة يهوى بها في النار ٤/ ١٢٩٠، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/ ١١٧.

(٢) تفسير الكشاف ٤/ ٢٢٠.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن ٢/ ٧٧.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٥.

المؤمنين عائشة أن تقولوا: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾.

أي لا ينبغي أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد وأن تنزهوا الله عن أن يقع مثل هذا من زوجة رسول الله - ﷺ - الطاهرة البريئة فإن هذا الإفتراء كذب وبهتان عظيم.

قال صاحب غرائب القرآن: والفرق بين هذه الآية وبين قوله: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون﴾ هو أن تلك تميل إلى العموم وهذه تميل إلى الخصوص، فكأنه بين أن هذا القذف خاصة مما ليس لهم أن يتفوهوا به لما فيه من إيذاء نبيه وإيذاء زوجته التي هي حبيبته[١].

ثم حذر - سبحانه - عباده المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا الأمر العظيم:
﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾.

﴿ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾.

أي يعظكم الله بهذه المواعظ التي بها تعرفون عظم الذنب، وكبر هذا الجرم وإن فيه النكال والعقاب بالحد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، كي لا تعودوا لمثله أبداً إن كنتم من أهل الإيمان تتعظون بعظات الله[٢].

وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾.

قال القرطبي: توقيف وتوكيد، كما تقول ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً[٣]، ﴿ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾.

أي ويوضح - سبحانه - لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٨/ ٧٨.
(٢) تفسير المراغي ١٨/ ٨٦.
(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٥.

لتتعظوا وتتأدبوا بها فإن الله عالم بما يصلح العباد، حكيم في تدبيره وتشريعه.

ومما يؤخذ من قوله: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ ما ذكره القرطبي قال: قال هشام بن عمار سمعت مالكاً يقول: من سب أبا بكر وعمر أدب، ومن سب عائشة قتل، لأن الله تعالى يقول: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾[1].

ولما كان من أنفع المواعظ بيان ما يستحقه المذنب من العقاب على جرمه بين ذلك بقوله:

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

قوله تشيع: أي تفشو، يقال شاع الشيء شيوعاً وشيعاً وشيعاناً، أي ظهر وتفرق[2].

الفاحشة: هي الفعل القبيح المفرط في القبح كالزنى واللواط وغير ذلك من المنكرات القبيحة[3].

المعنـــى:

يوضح ـ سبحانه ـ أن الذين يحبون أن ينتشر الزنا وغيره من الفواحش في المحصنين والمحصنات من المؤمنين والمؤمنات، لهم أشد أنواع العذاب في الدنيا بإقامة الحد عليهم واللعن والخزي والعزل عن أفراد المجتمع المسلم، ولهم في الآخرة عذاب النار الذي تقشعر منه الأبدان، وذلك إذا ماتوا مصرين غير تائبين.

---

(١) المصدر نفسه ١٢/٢٠٦.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/٢٠٦.
(٣) المصدر نفسه.

قال الحسن: عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا، وقصدوا، إذاية الرسول ﷺ وذلك كفر وملعون صاحبه(١).

ويقول المودودي رحمه الله: إن المفهوم المباشر لهذه الآية هو أن الذين يختلقون مثل هذه الاتهامات الكاذبة ويعملون بنشرها على إشاعة الفاحشة في المجتمع ووصم أخلاق الأمة المسلمة، يستأهلون العقاب، إلا أن ألفاظ القرآن شاملة لجميع صور إشاعة الفاحشة والانحلال الخلقي.

فهي تنطبق كذلك على إنشاء دور الفاحشة والبغاء، وما يرغب الناس فيها ويثير غرائزهم الدنيئة من القصص والروايات والأشعار والغناء والصور والألعاب والمسارح والسينما، كما هي تنطبق كذلك على المجالس والنوادي، والفنادق التي يعقد فيها الرقص والطرب يشترك فيه الرجال والنساء على صور خليعة مختلطة.

فالقرآن يصرح بأن هؤلاء جميعاً من الجناة يجب أن ينالوا عقابهم لا في الآخرة فقط بل في الدنيا كذلك فمن واجب كل دولة إسلامية أن تبذل جهدها في استئصال جميع هذه الوسائل والأسباب لإشاعة الفاحشة(٢).

وقوله تعالى: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

أي هو تعالى عالم بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك.

قال الرازي: وهذه الجملة فيها حسن الموقع بهذا الموضع، لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات أما الله ـ سبحانه ـ فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهاية في الزجر لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٤٣٩.

(٢) تفسير سورة النور للمودودي ص ١٣٣.

بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه[1].

ثم كرر ـ سبحانه ـ ذكر فضله ورحمته على عباده فقال تعالى: ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم**﴾.

جواب لولا محذوف لتهويل الأمر.

أي: لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذبهم بسبب خوضهم في حديث الإفك، ولكنه ـ سبحانه ـ رؤوف رحيم بعباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة.

ثم حذر ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين من اتباع الشيطان فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم**﴾.

خطوات الشيطان: واحد الخطوات خطوة، وهو ما بين القدمين. والخطوة (بالفتح) المصدر، يقال خطوت خطوة وجمعها خطوات والمراد بها هنا مسالكه ومذاهبه[2].

الفحشاء: الاسم من الفحش، ويطلق لفظ الفحشاء على كل خصلة قبيحة شديدة القبح، بيد أن الفحشاء إذا أُطلِقت في القرآن تتناول أولاً فاحشة الزنى واللواط ثم تعم كل خصله قبيحة شديدة القبح.

المنكر: اسم مفعول من أنكر الشيء ينكره إذا لم يعرفه، وهو هنا: كل ما أنكره الشرع لفساده وضرره من كل المعتقدات والأقوال والأفعال.

---

(١) تفسير الإمام الرازي ٢٣/ ١٨٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٦.

ما زكى: يقال: زكى يزكو زكاءً، أي صلح، والمعنى أي ما اهتدى ولا عرف رشداً، قال أبو حيوة: أي أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم[1].

والمعنـــى:

ناداهم ـ سبحانه ـ بصفة الإيمان لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** أي يا من صدقتم بالله ورسوله لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه، ولا تقتفوا آثاره.

ثم ذكر سبب النهي فقال تعالى: **﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾** أي ومن يتبع وساوس الشيطان وهمزاته، يقع في الهلاك والخسران، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر.

ثم أكد ـ سبحانه ـ منته على عباده فقال: **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً﴾** أي ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بالتوفيق للتوبة التي تمحو الذنوب وتغسل أدرانها ما طهر أحد منكم من ذنبه، **﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾** أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة النصوح وقبولها منه **﴿والله سميع عليم﴾** أي والله سميع لما تقولون بأفواهكم من القذف وإثبات البراءة عليم بما في قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو كراهيتها، ومجازيكم بكل ذلك.

وفي هذا حث لهم على الإخلاص في التوبة، والابتعاد جهد المستطاع عن المعصية وارتكاب الأوزار والآثام[2].

ثم دعا ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين إلى الصفح والغفران بين بعضهم البعض فقال تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/٢٠٦.

(٢) تفسير المراغي بتصرف ١٨/٨٨.

﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾.

ولا يأتل: معناها يحلف وزنها يفتعل، من الألية وهي اليمين[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾[2].

وليعفوا وليصفحوا: اللام فيه لام الأمر، وهي غالباً لأمر الغائب.

العفو: ترك العقاب على الذنب، وأصل العفو المحو من قولهم عفت الريح رسم الديار وآثارها أي محتها.

والصفح: ترك المؤاخذة على الذنب، فكل صفح عفو ولا عكس.

سبب النزول:

١ ـ أخرج الإمام البخاري ومسلم من حديث عائشة الطويل في الإفك[3] قالت: فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله:

﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾[4].

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فأرجع إلى مسطح

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠٨/١٢.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٢٦.

(٣) ذكرنا الحديث بطوله ص ٣٤٧ من هذا الكتاب.

(٤) زاد مسلم: قال حبان بن موسى، قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله.

النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً... الحديث[1] واللفظ للبخاري.

٢ ـ وكذلك أخرج الإمام البخاري من حديث أسامة[2] عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي عن عائشة ـ وذكر جزءاً من حديثها الطويل ـ قالت: فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً. فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾** يعني أبا بكر **﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين﴾** يعني مسطحاً إلى قوله: **﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾** حتى قال أبو بكر: بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا، وعاد له بما كان يصنع[3].

٣ ـ قال القرطبي: المشهور من الروايات أن الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ومسطح بن أثاثة.

وقال الضحّاك وابن عباس: أن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم، والأول أصح، غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته غابر الدهر[4].

هذه بعض الروايات التي جاءت في سبب نزول هذه الآية[5].

والمعنـــى:

عليكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تصلوا أرحامكم، حتى ولو أساءوا إليكم،

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة النور ٦/ ١٣٢.
وصحيح مسلم ـ كتاب التوبة ـ ٤/ ٢١١٩.

(٢) ذكر هذه الرواية عند باب قوله: **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾** إلى **﴿والله غفور رحيم﴾**.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة النور ٦/ ١٣٦.

(٤) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٧.

(٥) انظر بقية الروايات في تفسير الرازي ٢٣/ ١٨٦.

ولا تحلفوا بالله ألا تعطوهم شيئاً من أموالكم بسبب إساءتهم وعليكم بالصفح والعفو عنهم.

وقوله سبحانه: ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ زيادة في الحض على فعل الخير، والتحريض على الاستمرار فيه.

أي إن كنتم تحبون أن يغفر الله لكم ذنوبكم فداوموا على الصفح والعفو عمن أساء إليكم.

﴿والله غفور رحيم﴾ أي والله غفور لذنوب من أطاعه واتبع أمره من عباده وهو رحيم به لا يعذبه عليها إذا استغفر منها وتاب ورجع.

قال ابن كثير:

وهذه الآية غاية في الترفق والعطف على صلة الأرحام.

وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعد ما قال في عائشة ما قال كما تقدم في حديث الإفك فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنّة يُعَطِّفُ الصديق على قريبه ونسيبه مسطح بن أثاثة فإنه كان ابن خالة الصديق وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها.

وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ الآية.

فإن الجزاء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك

وكما تصفح يصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً. فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن ابنته[1].

قال القرطبي: قال بعض العلماء[2]: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة[3].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ عقوبة الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات فقال تعالى:

﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾.

المحصنات: من الإحصان وهو في اللغة بمعنى المنع.

يقال هذه درع حصينة، أي مانعة صاحبها من الجراحة ويقال هذا موضع حصين، أي مانع من يريده بسوء.

ويقال امرأة حصينة أي مانعة نفسها من كل فاحشة بسبب عفتها أو حريتها أو زواجها.

قال الراغب: ويقال حَصَان للمرأة العفيفة ولذات الحرمة قال تعالى: **﴿ومريم بنت عمران التي أحصنت فرجها﴾** وقال ـ تعالى ـ: **﴿فإذا أُحصِن﴾** أي تزوَّجْنَ.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٦.

(٢) منهم عبد الله بن المبارك وجاء هذا في رواية مسلم لحديث الإفك انظر هامش ص ٣٧٥ من الكتاب.

(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٨.

والحَصَان في الجملة: المرأة المحصنة إما بعفتها أو تزوجها أو بمانع من شرفها وحريتها[1].

والمراد بها هنا: الحرة البالغة العفيفة.

الغافلات: أي عن الفواحش وهن التقيات القلوب اللاتي لا يفكرن في فعلها.

لعنوا في الدنيا والآخرة: (اللعن) الطرد والإبعاد من الخير وبابه قطع و (اللعنة) الاسم والجمع (لعان) و (لعنات)[2].

والمراد به هنا الحد، يعني حدوا في الدنيا وعذبوا في الآخرة[3] وللإمام القرطبي تفصيل سنذكره قريباً عند تفسير الآية.

المعنــى:

يهدد الله ـ تعالى ـ الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا فيقول: **﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾**.

أي أن الذين يقذفون المحصنات العفيفات الطاهرات الغافلات عن الفواحش وعن التفكير فيها المؤمنات بالله ورسوله لهم الخزي في الدنيا بإقامة الحد عليهم ولهم في الآخرة عذاب أليم شديد.

وقد فصل العلماء القول في المراد بقوله: **﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾** قال القرطبي:

قال العلماء: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٢١.

(٢) مختار الصحاح ص ٥٩٩.

(٣) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص ٤١٦.

الإبعاد وضرب الحد واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين.

وعلى قول من قال نزلت في عائشة (خاصة) تترتب هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أبي وأشباهه[1].

وفصل الإمام الطبري القول في المراد بالمحصنات فقال:

واختلف أهل التأويل في المحصنات اللاتي هذا حكمهن، فقال بعضهم:

١ ـ إنما ذلك لعائشة خاصة، وحكم من الله فيها وفيمن رماها دون سائر نساء أمة نبينا ﷺ.

٢ ـ وقال آخرون: نزلت هذه الآية في شأن عائشة، وعني بها كل من كان بهذه الصفة التي وصف الله في هذه الآية، قالوا: فذلك حكم كل من رمى محصنة، لم تقارف سوءاً.

٣ ـ وقال آخرون: نزلت هذه الآية في أزواج النبي ﷺ فكان ذلك كذلك حتى نزلت الآية التي في أول السورة فأوجب الجلد وقبل التوبة.

وأولى الأقوال عندي بالصواب، قول من قال نزلت هذه الآية في شأن عائشة والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصف الله بها فيها[2].
وقال ابن كثير:

واختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

(اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/٢٠٩.
(٢) تفسير الطبري ١٨/١٠٣.

والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[1].

هذا وقد أجمع العلماء على أن حكم المحصنين في القذف كحكم المحصنات قياساً واستدلالاً[2].

وقوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾.

بيان لسوء عاقبتهم يوم الحساب.

أي ولهم ذلك العذاب العظيم يوم يجحدون ما اكتسبوا في الدنيا من الذنوب حين سؤالهم عنها، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون من قول أو فعل، إذ ينطقها الله بقدرته.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[4].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك: قال كنا عند النبي ﷺ فضحك فقال: (هل تدرون مم أضحك)؟.

قال: قلنا: الله ورسوله أعلم.

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الوصايا ـ باب قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ ٤/١٢، وفتح الباري ٥/٣٩٣، وصحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الكبائر وأكبرها ١/٩٢، وانظر تفسير ابن كثير ٣/٢٧٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/٢٠٩.

(٣) سورة فصلت، آية ٢١.

(٤) سورة يس، آية ٦٥.

قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال يقول: بلى. قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني.

قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي فتنطق ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لَكُنَّ وسُحقاً فعنكن كنت أناضل)[1].

وقوله تعالى: **﴿يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾**.

دينهم: المراد بها هنا عقابهم وحسابهم. والآية بيان للعقاب العادل الذي عاقب الله ـ تعالى ـ به هؤلاء الذين يرمون المحصنات.

أي وفي هذا اليوم الهائل الذي يوفيهم الله فيه جزاءهم العادل على أعمالهم، ويعلمون حينئذ أن ما كانوا يوعدون به في حياتهم الدنيا من العذاب هو الحق الذي لا شك فيه.

ثم بين ـ سبحانه ـ سنته الإلهية الجارية في الكون فقال تعالى:

﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون، لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

للعلماء في تفسير هذه الآية قولان:

أحدهما: قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء.

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق: ٤/ ٢٢٨٠، رقم الحديث ١٧ ـ ٢٩٦٩.

والقول الثاني: قول عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول[1].

واختار هذا القول ابن جرير الطبري فقال:

وأولى هذه الأقوال في تأويل الآية، قول من قال: عنى بالخبيثات الخبيثات من القول، وذلك قبيحه وسيئه للخبيثين من الرجال والنساء.

والخبيثون من الناس للخبيثات من القول، هم بها أولى، لأنهم أهلها.
والطيبات من القول، وذلك حسنه وجميله للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول لأنهم أهلها وأحق بها.

وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل الآية، لأن الآيات قبلها إنما جاءت بتوبيخ الله للقائلين في عائشة الإفك، والرامين المحصنات الغافلات المؤمنات وإخبارهم ما خصهم به على إفكهم، فكان ختم الخبر عن أولى الفريقين بالإفك من الرامي والمرمى به، أشبه من الخبر عن غيرهم[2].

﴿أولئك مبرؤون مما يقولون﴾.

أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان. **﴿لهم مغفرة﴾**، أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب **﴿ورزق كريم﴾** أي عند الله في جنات النعيم.

قال ابن كثير:

وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٨.
(٢) تفسير الإمام الطبري ١٨/ ١٠٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٨.

وبهذه الآية الكريمة ختم الحديث عن الإفك.

قال ابن الدَيْبَع الشافعي[1]:

فائدة في توضيح أوجه المناسبة بين نزول «سورة المنافقون» وحديث الإفك.

لا يخفى أن بين حديث نزول «سورة المنافقون» وحديث الإفك مناسبة من وجوه منها:

* أنهما وقعا في الرجوع من غزوة واحدة.

ومنها:

* أن سورة المنافقون في براءة «زيد بن أرقم» عن الإفك «وهو الكذب المتهم به».

وحديث «الإفك» في براءة «عائشة» عما قذفت به[2].

«أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك»

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآيات الكريمة التي نزلت في حادثة الإفك أحكاماً وآداباً من أهمها ما يأتي:

١ ـ تبرئة السيدة الحصان عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ الآية.

٢ ـ أن حكمة الله ـ تعالى ـ اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد

---

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني الزبيدي الشافعي، وجيه الدين «المعروف بابن الديبع»، ٨٦٦ ـ ٩٤٤ هـ، مؤرخ، محدث من أهل زبيد من اليمن ولد وتوفي فيها.

(٢) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ٢/ ٥٧٥.

كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بحديث الإفك خيراً لهم حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم، قال تعالى: ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم﴾ الآية.

٣ ـ الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم. قال تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾.

٤ ـ تكذيب القائلين بالإفك، قال تعالى: ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾.

٥ ـ بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة...﴾ الآية.

٦ ـ وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾.

٧ ـ النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه، قال تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾.

٨ ـ النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

٩ ـ بيان فضل الله ـ سبحانه ـ على عباده المؤمنين ورأفته بهم وكرر ذلك تأكيداً له، قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم﴾.

١٠ ـ النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾.

١١ ـ الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا. قال تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾.

١٢ ـ غيرة الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين الصادقين، ودفاعه عنهم وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات:

ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم ترَ الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه. ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث ﴿إن الذين يرمون المحصنات....﴾ إلى قوله: ﴿هو الحق المبين﴾ لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله[1].

---

(١) تفسير الكشاف ٣/ ٢٢٣.

١٣ ـ بيان سنة من سُنَن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين. قال تعالى: ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

١٤ ـ والناس عندما رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

* قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديث يتعلق بقصة الإفك ـ: إن الناس عندما رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسم وهم أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا ولم ينطقوا إلا بخير ولم يصدقوا ولم يكذبوا.

وقسم سارع إلى التكذيب وهو أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب رضي الله عنهما فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نسب إليها في الحال.

أما القسم الثالث فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوا، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يعرضهم لعقوبة الله لأن ناقل الكفر ليس بكافر وحاكي الإفك ليس بقاذف ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع فهم الذين جاءوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف فقال: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن

المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾.

أما القسم الثالث فقد أشار الله عزّ وجلّ إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾.

وقد أثبت الله عزّ وجلّ لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح ولن يتصدق عليه وهو من ذوي قرابته فقال عزّ وجلّ: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾.

أما القسم الرابع وهو جماعة عبد الله بن أبي الذين جاءوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة حيث قال: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾[1].

«تفسير آية الحجرات»

وهي قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. [آية ٦ من سورة الحجرات].

---

(١) فقه الإسلام ٩/ ٥.

فاسق: الفسق الخروج عن الطاعة، من قولهم: فسق الرطب فسوقاً ـ من باب قعد ـ إذا خرج عن قشره.

ويقع بالقليل والكثير من الذنوب، ولكن تعورف فيما كان كثيراً وهو أعم من الكفر، فيقال للعاصي: فاسق، وللكافر: فاسق، لخروجه عما ألزمه به العقل واقتضته الفطرة[١].

بنبأ: النبأ هو الخبر المهم.

أن تصيبوا: تعليل للأمر بالتبين أي فتبينوا كراهة أن تصيبوا أو لئلا تصيبوا.

بجهالة: أي متلبسين بجهالة لحالهم.

سبب النزول:

ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق[٢].

وقد روي هذا السبب من ثلاثة طرق مرفوعة، وهي حديث الإمام أحمد في قدوم الحارث بن أبي ضرار المدينة وإسلامه[٣]، وحديث أم سلمة رضي الله عنها[٤] وحديث ابن عباس رضي الله عنهما[٥]، كما ورد من خمس طرق مرسلة[٦].

---

(١) تفسير صفوة البيان لمعاني القرآن ١/ ٢٢.
(٢) انظر على سبيل المثال تفسير الطبري ٢٦/ ١٢٣، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٨.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٧٩.
(٤) انظر تفسير الطبري ٢٦/ ١٠٣.
(٥) المصدر السابق.
(٦) راجع مرويات غزوة بني المصطلق: من ١١٩ إلى ١٣٥.

قال ابن كثير: ومن أحسنها[١] ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن الحارث ابن أبي ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به.

ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت: يا رسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته، وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول ولم يأته، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه، فانطلقوا بنا.

فأتى رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة حتى بلغ بعض الطريق فرق ـ أي خاف ـ فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي. فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث.

فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله.

قال رضي الله عنه: لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: (منعت الزكاة وأردت قتل رسولي) قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين

---

(١) وصفه الإمام السيوطي (في أسباب النزول: ص ١٩٦) بأن سنده جيد.

احتبس عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله. قال فنزلت الحجرات.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ إلى قوله ـ ﴿حكيم﴾[1].

والحديث حسن لغيره[2].

وقد ذكر الإمام الرازي توجيهاً جيداً للاستدلال بهذا الحديث فقال: ما ذكره المفسرون من أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة حين بعث إلى بني المصطلق. . . الخ.

إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبت من خبر الفاسق، وأنها نزلت في ذلك الحين الذي وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد.

وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهو ضعيف، لأن الوليد لم يقصد الإساءة إليهم، وحديث أحمد يدل على أن الوليد خاف وفرق حين رأى جماعة الحارث وقد خرجت في انتظاره فظنها خرجت لحربه فرجع وأخبر رسول الله ﷺ بما أخبره ظناً منه أنهم خرجوا لقتاله. . إلى أن قال: ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ (الفسق) على الوليد شيء بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ والمخطىء لا يسمى فاسقاً[3].

المعنــى:

يأمر الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين بالتثبت في خبر الفاسق والتأكد من صدق قوله وعدم الاستعجال في الحكم احتياطاً فقد يكون كاذباً في قوله أو

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٠٩، وانظر مسند الإمام أحمد ٤/٢٧٦.

(٢) مرويات غزوة بني المصطلق ص ١٣٥.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/١١٩، وانظر روائع البيان تفسير آيات الأحكام للصابوني ٢٠/٤٧٦، فالعبارة بتصرف.

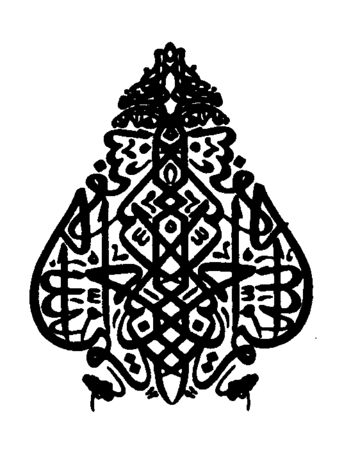
مخطئاً فإذا أخذ المؤمنون بقوله وقعوا حينئذٍ في الخطأ والظلم.

وقوله: ﴿فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ أي بسبب استعجالكم وأخذكم بقوله بلا تثبت أو روية.

ومن ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر.

وقبلها آخرون لأنه إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال[1].

ومناسبة تفسيري لهذه الآية هنا، ذلك لأن سبب نزولها يتعلق بزكاة بني المصطلق فذكرتها هنا لإتمام الفائدة.



---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٠٨.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرضه لغزوة بني المصطلق

تحدث القرآن الكريم عن حوادث هامة وقعت في هذه الغزوة ومن أهمها:

١ ـ حادثة الإفك: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن هذا القرآن الذي تنزل في شأنها:

وأنا أعلم حينئذٍ أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي. ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ ﷺ ـ في النوم رؤيا ليبرئني الله تعالى بها.

يقول سيد قطب معلقاً على قول عائشة رضي الله عنها: «ولكن الأمر ـ كما يبدو من ذلك الاستعراض ـ لم يكن أمر عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولا قاصراً على شخصها، فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ـ ﷺ ـ ووظيفته في الجماعة يومها، بل تجاوزه إلى صلته بربه وبرسالته كلها. وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها. . . من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة، ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله وما يعلمها إلا الله **﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم**

والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ [سورة النور آية ١١][١].

وكذلك نجد القرآن الكريم إذا حدث موقف من المؤمنين وكان هذا الموقف صحيحاً نجد القرآن الكريم يتحدث عنه ويقرره ويثني عليه كما كان موقف أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال الأستاذ محمد منير الغضبان: «ليبق الميزان الحساس على الحكم على الإشاعة هو الميزان الذاتي فلا بدّ من ثقة الأخ بإخوانه ثقته بنفسه. وقد أقر القرآن الكريم هذا الميزان وأثنى عليه وذلك بمناسبة الحديث الذي جرى بين أبي أيوب الأنصاري وزوجه أم أيوب رضي الله عنها إذ قالت لزوجها: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله: فقال فعائشة والله خير منك...»[٢].

وقد جاءت آيات الحديث عن الإفك كثيرة، ويوضح سيد قطب أهمية ذلك فيقول: «لقد كانت معركة خاضها رسول الله ـ ﷺ ـ وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار، محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره، فلم يؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاذ صبره وضعف احتماله.

والآلام التي تناوشته لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته، والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار في تاريخه...»[٣].

٢ ـ ومن الحوادث التي تحدث عنها القرآن الكريم تلك القصة التي وقعت في غزوة بني المصطلق والتي بسببها نزلت سورة المنافقين وملخصها:

ما أخرجه البخاري من حديث زيد بن أرقم قال: كنت في غزاةٍ فسمعت عبد الله بن أبي يقول: «لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا». وقال

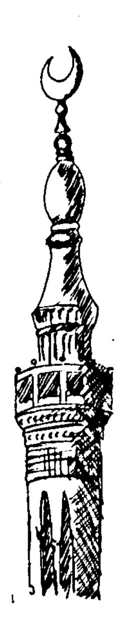
---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٥٠٠.
(٢) المنهج الحركي للسيرة النبوية: ٢/ ص ٨.
(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٥٠١ ـ بتصرف ـ.

أيضاً: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». فذكرت ذلك لعمي، فذكر عمي لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله وكذبني، فأصابني هم لم يصبني مثله، فجلست في بيتي فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ إلى قوله ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾.

فنجد القرآن الكريم ثبت تلك المقولة على عبد الله بن أبي، وكشف حقائق المنافقين، وبين براءة زيد بن أرقم من الكذب وذلك في سورة المنافقين.

قال سيد قطب في آخر تفسير سورة المنافقين: «وهكذا يربي الله المسلمين بهذا القرآن الكريم...»[1].



(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٥٨١.

حديث القرآن الكريم

عن

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

الدكتور ابو بدر محمد بن بكر آل عابد

الجزء الثاني



الباب الخامس

حديث القرآن عن غزوة الأحزاب

«تمهيد»
غزوة الأحزاب من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في شوّال من السنة الخامسة من الهجرة على القول الراجح[1]، وكلامنا عن هذه الغزوة يتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: متى وقعت هذه الغزوة؟ وما أسبابها؟.

المبحث الثاني: أحداث غزوة الأحزاب.

المبحث الثالث: نتائج هذه الغزوة.

---

(١) انظر ص ٣٩٩ من هذا الكتاب.

«المبحث الأول»
متى وقعت هذه الغزوة؟ وما أسبابها؟

١ ـ ذهب جمهور أهل السير والمغازي على أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوّال من السنة الخامسة.

وقد ذهب إلى هذا القول ابن سعد في طبقاته[١] وابن إسحاق في سيرة ابن هشام[٢] والواقدي في مغازيه[٣] وابن كثير في السيرة النبوية[٤] والطبري في تاريخه[٥] والذهبي في كتابه التاريخ الكبير[٦] وابن القيم في زاد المعاد[٧].

قال ابن سعد:

ثم غزا رسول الله، ﷺ الخندق، وهي غزوة الأحزاب في ذي القعدة سنة خمس من مهاجره[٨].

وقال ابن كثير: والصحيح قول الجمهور: أن أُحُداً في شوّال سنة ثلاث

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٥.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٣.
(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٠، ٤٤١.
(٤) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٨٠.
(٥) تاريخ الطبري ٢/ ٥٦٢، ٥٦٤.
(٦) التاريخ الكبير للذهبي ١/ ٢٦٠.
(٧) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٢٨٦.
(٨) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٥.

وأن الخندق في شوّال سنة خمس[1].

٢ ـ وذهب طائفة من العلماء على أنها في السنة الرابعة، منهم: الإمام مالك بن أنس[2] والإمام ابن حزم[3]، وموسى بن عقبة[4] والإمام البخاري[5]، وابن قتيبة[6] والإمام النووي[7] وغيرهم.

قال موسى بن عقبة في مغازيه[8]:

كانت في شوّال سنة أربع ونقل عنه الإمام البخاري هذا القول وذهب إليه[9].

وقال الإمام ابن حزم:

ذكر أصحاب المغازي أن الخندق كانت سنة خمس من الهجرة، والثابت أنها في الرابعة بلا شك لحديث عبد الله بن عمر: قال: عرضت على رسول الله ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة، فردني، ثم عرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني. رواه البخاري[10] ومسلم[11]

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٨١.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٨٠.
(٣) جوامع السيرة لابن حزم، ص ١٨٥.
(٤) فتح الباري ٥/ ٢٧٨.
(٥) المصدر نفسه ٧/ ٣٩٣.
(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٧٠.
(٧) شرح صحيح مسلم للنووي ١٣/ ١٢.
(٨) نقلاً عن ابن حجر (انظر فتح الباري) ٧/ ٣٩٣.
(٩) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٣٧.
(١٠) صحيح البخاري ـ كتاب الشهادات ـ باب بلوغ الصبيان وشهادتهم ٣/ ٢٣٢، وكذلك في كتاب المغازي (باب غزوة الخندق) ٥/ ١٣٧.
(١١) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب بيان سن البلوغ ٣/ ١٤٩٠.

وأبو داود[1] والترمذي[2] والنسائي[3] وابن ماجه[4].

فصح أن بينهما سنة واحدة[5].

٣ ـ وقد حاول البيهقي الجمع بين هذه الأقوال فقال:

قلت لا اختلاف بينهم في الحقيقة وذلك لأن رسول الله ﷺ قاتل يوم بدر لسنة ونصف من مقدمه المدينة في شهر رمضان ثم قاتل يوم أُحد من السنة القابلة لسنتين ونصف من مقدمه في شوّال ثم قاتل يوم الخندق بعد أُحد بسنتين رأس أربع سنين ونصف من مقدمه المدينة فمن قال سنة أربع أراد بعد أربع سنين ونصف قبل بلوغ الخمس ومن قال سنة خمس أراد به الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها والله أعلم[6].

وقد رجح الإمامان المحققان ابن القيم وابن حجر على أنها في السنة الخامسة من الهجرة معتمدين على تأويل الإمام البيهقي:

قال ابن القيم:

وكانت سنة خمس من الهجرة في شوّال، على أصح القولين إذ لا خلاف أن أُحُداً كانت في شوّال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربع، ثم أخلفوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه. هذا قول أهل السير والمغازي.

---

(١) سنن أبو داود ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء ـ باب متى يفرض للرجل في المقاتلة ٣/ ١٣٧. وكذلك في كتاب الحدود ـ باب في الغلام يصيب الحد ٣/ ١٤١.

(٢) سنن الترمذي ـ كتاب الجهاد ـ باب ما جاء في حد بلوغ الرجل ومتى يفرض له ٤/ ١٦١، وكذلك في أبواب الأحكام ـ باب ما جاء في بلوغ الرجل والمرأة ٣/ ٦٤١.

(٣) سنن النسائي ـ كتاب الطلاق ـ باب متى يقع طلاق الصبي ٦/ ١٥٥.

(٤) سنن ابن ماجه ـ كتاب الحدود ـ باب من لا يجب عليه الحد ٢/ ٨٥٠.

(٥) جوامع السيرة لابن حزم ص ١٨٥.

(٦) مرويات غزوة الخندق ص ٥٠، نقلاً عن دلائل النبوة ٢/ ١٢٢ ل ب.

ورد استدلال الإمام ابن حزم بحديث ابن عمر فقال:

وأجيب عن هذا بجوابين:

١ ـ أن ابن عمر أخبر: أن النبي ﷺ رده لما استصغره عن القتال، وأجازه لما وصل إلى السن التي رآه مطيقاً وليس في هذا ما ينفي تجاوزها بسنة أو نحوها.

٢ ـ أنه لعله كان في أُحد في أول الرابعة عشرة، ويوم الخندق في آخر الخامسة عشرة[١].

وقال ابن حجر:

بعد أن ذكر رأي موسى بن عقبة وحديث ابن عمر: «لا حجة فيه، إذ ثبت أنها سنة خمس، لاحتمال أن يكون ابن عمر في أُحد كان أول ما طعن في الرابعة عشر وكان في الأحزاب قد استكمل الخمس عشرة، وبهذا أجاب البيهقي، ويؤيد قول ابن إسحاق أن أبا سفيان قال للمسلمين لما رجع من أُحد: موعدكم العام المقبل ببدر فخرج النبي ﷺ من السنة القابلة إلى بدر.

فتأخر مجيء أبي سفيان تلك السنة للجدب الذي كان حينئذٍ وقال لقومه إنما يصلح الغزو في سنة الخصب، فرجعوا بعد أن وصلوا إلى عسفان أو دونها، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي.

وقد بين البيهقي سبب الاختلاف، وهو أن جماعة من السلف كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة، ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان في تاريخه، فذكر أن غزوة بدر الكبرى كانت في السنة الأولى، وأن غزوة أُحد كانت في السنة الثانية، وأن الخندق كانت في الرابعة، وهذا عمل غير صحيح على ذلك

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٢٨٨.

البناء، لأنه بناءٌ واهٍ مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة.

وعلى ذلك تكون بدر في الثانية وأُحد في الثالثة والخندق في الخامسة وهو المعتمد[1].

٤ ـ هذا والذي أرجحه هو قول الجمهور ـ القائل بأنها سنة خمس من الهجرة ـ لما يأتي:

١ ـ أن عامة أهل المغازي والسير قالوا به، فهذا من المرجحات على صحته فهم أعلم بهذا الفن من غيرهم.

٢ ـ قول المحققين من المؤرخين ـ أمثال ابن القيم وابن كثير وابن حجر على أنها في السنة الخامسة من الهجرة ـ يقوي هذا الرأي ويجعله راجحاً على غيره.

٣ ـ نرد على استدلال الإمام ابن حزم بحديث عبد الله بن عمر بإجابة الإمـام البيهقي، وهو توجيه سديد قد أخذ به الإمام ابن القيم وابن كثير وابن حجر.

أما أسباب هذه الغزوة فمن أهمها:

أن يهود بني النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر، خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين.

فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين وكونوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكون من سلام بن أبي

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٩٣.

الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبي عمار الوائلي[1].

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمته، حيث وافقت قريش وغطفان ومن تابعهما على الاتحاد جميعاً لغزو المدينة ليكون لهم النصر المبين وكسر شوكة المسلمين.

ولم يعد وفد خيبر من رحلته إلا وهو على رأس عشرة آلاف مقاتل ـ أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها ـ وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة[2].

والمطالع لكتب السيرة والمغازي يراهم قد أطبقوا جميعاً على ذكر هذا السبب لهذه الغزوة.

وهكذا نرى المسلمين ما أن خرجوا من محنة الإفك التي أذاعها المنافقون حتى واجهوا الكيد العلني من كل من المشركين واليهود والمنافقين وهذا ما سنفصله في المباحث التالية.

أما سبب تسميتها بغزوة الأحزاب:

فذلك لاجتماع طوائف المشركين على حرب المسلمين وعلى رأسهم قريش وغطفان ومعهم اليهود.

وأما تسميتها بغزوة الخندق: فلأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمر الرسول ﷺ.

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٣، وانظر ص ٢٦٠ من هذا الكتاب.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٢.

«المبحث الثاني»

أحداث غزوة الأحزاب

غزوة الأحزاب من أهم الغزوات التي خاضها النبي ﷺ وخاضها المسلمون معه، فقد كانت معركة حياة أو موت.

وكان المسلمون فيها على خطر كبير من جموع الأحزاب، ولكن الله سلم وصرف الله الأحزاب وكفى الله المؤمنين القتال.

وسأذكر إن شاء الله أحداث هذه الغزوة بتسلسل منظم[1] يجلو للقارىء حقيقة هذه الغزوة موضحاً ومرتباً أحداثها حسب ترتيبها في الوقوع.

وسنتكلم إن شاء الله في الموضوعات الآتية.

ما حدث قبل المعركة:

أولاً: استعداد المسلمين لملاقاة الأحزاب.

ثانياً: بيان كيفية حفر الخندق وما صاحبه من أحداث (مع بيان طوله، ومدته، وعرضه).

ثالثاً: وصول جيوش الأحزاب إلى المدينة.

رابعاً: مفاجأة الأحزاب بالخندق وضربهم الحصار على المدينة.

سير المعركة وأحداثها:

لكثرة أحداثها وطول زمان هذه الغزوة فإني سأقسمها على ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: (ازدياد قوة الأحزاب وضعف موقف المسلمين):

---

(١) قد سرت في ترتيب الحوادث على منهج أهل السير والمغازي خاصة الإمام ابن كثير.

أولاً: نقض بني قريظة للعهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف.

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين.

ثالثاً: انسحاب المنافقين من الجيش الإسلامي ونشر أراجيفهم بين المسلمين.

رابعاً: محاولة الرسول ﷺ تخفيف الحصار بعقد صلح مع غطفان.

المرحلة الثانية: (اقتحام بعض المشركين الخندق - وتكرار محاولة العبور - وتأزم الموقف بالنسبة للمسلمين):

أولاً: الالتحام بكوكبة من الفرسان ومقتل فارس قريش.

ثانياً: تكرار محاولة عبور الخندق - وتشديد الحصار على منزل النبي ﷺ.

ثالثاً: اشتدادُ الكرب ودعاؤه ﷺ على الأحزاب.

المرحلة الثالثة: (تغير الموقف لصالح المسلمين كما يلي):

أولاً: موقف نعيم بن مسعود.

ثانياً: وقوع الخلاف الشديد بين اليهود والأحزاب.

ثالثاً: اشتداد الريح الباردة ونزول الملائكة.

نهاية المعركة:

* كيفية فك الحصار وانسحاب الأحزاب.

سير النبي ﷺ إلى بني قريظة وذكر ما حدث فيها (بإيجاز).

* أحداث غزوة بني قريظة.

ما حدث قبل المعركة

أولاً: استعداد المسلمين لملاقاة الأحزاب:

١ ـ سبق أن ذكرنا أن اليهود خططوا لتجميع جموع الأحزاب لقتال المسلمين وقد نجحوا في ذلك. فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان. وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن محصن في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة في بني مرة ومسعود بن رخيلة في بني أشجع وطليحة بن خويلد في بني أسد.

وقد تولى قيادة جموع الأحزاب أبو سفيان وكان عددهم عشرة آلاف مقاتل، بينما كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف فقط وكان قصدهم احتلال المدينة.

٢ ـ ولما سمع بهم النبي ﷺ وبما أجمعوا عليه اجتمع بأصحابه للمشورة.

وقد أشار الصحابي الجليل سلمان الفارسي على النبي ﷺ بقوله: «يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا».

وأعجب النبي ﷺ بفكرة سلمان رضي الله عنه وأمر المسلمين بالشروع في حفر الخندق (وسنفصل ذلك بعد قليل).

٣ ـ نظم المسلمون أنفسهم بقيادة النبي ﷺ وذلك كما يلي:

أ ـ وضع الأطفال والنساء في الحصون المنيعة في المدينة. وقد وضع النبي ﷺ زوجاته وأهل بيته في أحصنها وهو حصن بني حارثة.

ب ـ جعل المسلمون جبل سلع خلفهم وعسكروا هناك.

ثانياً: بيان كيفية حفر الخندق وما صاحبه من أحداث:

١ ـ بدأ المسلمون في حفر الخندق في ليال شاتية وكان المسلمون في ضيق وضنك من العيش.

وكان طول الخندق لا يقل عن خمسة آلاف ذراع[١]، وعرضه حوالي ثلاثة أمتار[٢].

وقد وزع الرسول ﷺ العمل على المهاجرين والأنصار بحيث يكون لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً[٣].

واستمر العمل فيه ستة أيام[٤] كان المسلمون يعملون فيه نهاراً فإذا جاء الليل أووا إلى دورهم. وقد أشرف النبي ﷺ على الحفر بنفسه وحمل التراب معهم، وأمر المؤمنين ألا يغادر أحد منهم مكانه إلا بإذن منه، لكن المنافقين كانوا يتسللون خفية من أماكن العمل ويذهبون إلى منازلهم.

وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ

---

(١) غزوة الأحزاب لمحمد أحمد باشميل ص ١٧٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الرسول القائد ص ١٥٠.

(٤) قال القسطلاني في المواهب اللدنية (١/ ١١٢):

وقد وقع عند موسى بن عقبة أنهم أقاموا في عمل الخندق قريباً من عشرين ليلة وعند الواقدي أربعاً وعشرين ليلة. وعند النووي في الروضة خمسة عشر يوماً. وعند ابن القيم في الهدى النبوي شهراً. اهـ. وذهب ابن سعد في الطبقات ٢/ ٦٧ أنهم فرغوا من حفره في ستة أيام.

كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[١].

وهذه الآيات ساقها ابن هشام[٢] وغيره للاستدلال على الفريقين، لكنها عامة في الاستئذان سواء في الحرب أو في السلم.

وهي في الحقيقة نزلت كما قال ابن كثير في الذين يستأذنون في الخروج إلى الجمعة[٣].

٢ ـ وقد أشار سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ أن يحفر الخندق في المنطقة الشمالية للمدينة المنوّرة وذلك يرجع إلى أن المدينة محصنة طبيعياً من ثلاث جهات.

الجهة الشرقية: وفيها حرة واقم (وتسمى اليوم بالحرة الشرقية) ومن الناحية الغربية: توجد حرة الوبرة (وتسمى اليوم بالحرة الغربية)، ومن الناحية الجنوبية: محصنة بالحرة وجبل عير.

والمنطقة المفتوحة: هي المنطقة الشمالية وهي الواقعة ما بين جبل أُحد وحرة الوبرة، لذلك فقد حفر الخندق فيها.

وقد حفرت كذلك خنادق جزئية ثانوية يرتبط بعضها ببعض تمتد من طرف الخندق الرئيسي عند الطرف الغربي لجبل سلع وتتجه جنوباً حتى مجمع وادي بطحان ورانوناء بحيث تجيء هذه الخنادق المترابطة خلف المسجد النبوي من الناحية الغربية[٤].

---

(١) الآيتان من سورة النور.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٦.
(٤) غزوة الأحزاب لمحمد أحمد باشميل ص ١٥٠.

٣ ـ وقد أوضحت الأحاديث النبوية جوانب عديدة من ملابسات حفر المسلمين للخندق نذكرها فيما يلي:

أ ـ برودة الطقس وقت حفر الخندق:

جاء في صحيح البخاري[١] ومسلم[٢] ـ واللفظ للبخاري ـ من حديث أنس رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: (اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة).

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

ب ـ اعتراض صخرة كبيرة في الخندق وشدة الفاقة بين المسلمين:

روى البخاري[٣] ومسلم[٤] من حديث جابر رضي الله عنه ـ واللفظ للبخاري ـ قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كيدة[٥] شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية[٦] عرضت في الخندق فقال: أنا نازل. ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٣٧، وانظر فتح الباري ٧/ ٣٩٢.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب غزوة الأحزاب ٣/ ١٤٣١.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٣٨، وانظر فتح الباري ٧/ ٣٩٥.
(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الأشربة ـ باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يتقى برضاه، واستحباب الاجتماع على الطعام ٣/ ١٦١٠. وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/ ٢١٥.
(٥) كيدة: بفتح الكاف وسكون التحتانية هي القطعة الشديدة الصلبة من الأرض. فتح الباري ٧/ ٣٩٦.
(٦) كدية: (بضم الكاف وتقديم الدال المهملة على التحتانية) هي القطعة الصلبة، وفي رواية أحمد عن وكيع عن عبد الواحد بن أيمن (وههنا كدية من الجبل). فتح الباري ٧/ ٣٩٦.

فضرب في الكدية، فعاد كثيباً أهيل أو أهيم[1].

فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق[2]. فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة[3]. ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي[4] قد كادت تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب.

قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي.

فقال: قوموا: فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك، قلت: نعم. فقال ادخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية قال كل هذا وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة.

وقد جاء تفصيل أكثر لحديث الصخرة عند النسائي:

حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا ضمرة، عن أبي زرعة الشيباني، عن أبي سكينة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: لما أمر رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام النبي ﷺ وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال: (﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾) فندر ثلث الحجر، وسلمان الفارسي

---

(١) فعاد كثيباً أهيل أو أهيم: المعنى أنه صار رملاً يسيل ولا يتماسك وقوله «أو أهيم» شك من الراوي أي المراد الرمال التي لا يرويها الماء فتح الباري ٧/ ٣٩٧.

(٢) عناق: بفتح العين المهملة وتخفيف النون هي الأنثى من المعز.

(٣) البرمة: هي القدر. مختار الصحاح ص ٥٠.

(٤) البرمة بين الأثافي: أي الحجارة التي يوضع عليها القدر وهي ثلاثة. فتح الباري ٧/ ٣٩٨.

قائم ينظر فبرق مع ضربة رسول الله ﷺ برقة، ثم ضرب الثانية وقال: (﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾) فندر الثلث الآخر فبرقت برقة فرآها سلمان ثم ضرب الثالثة وقال:

(﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾) فندر الثلث الباقي.

وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس، قال سلمان: يا رسول الله رأيتك حين ضربت ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة قال له رسول الله ﷺ: يا سلمان رأيت ذلك؟.

فقال: إي والذي بعثك بالحق يا رسول الله.

قال: فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني. قال له من حضره من أصحابه: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارهم ويخرب بأيدينا بلادهم فدعا رسول الله ﷺ بذلك.

ثم ضربت الضربة الثانية فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني. قالوا: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارهم ويخرب بأيدينا بلادهم فدعا رسول الله ﷺ بذلك. ثم ضربت الثالثة فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعيني قال رسول الله ﷺ دعو الحبشة ما وادعوكم واتركوا الترك ما تركوكم[1].

جـ ـ حمل النبي ﷺ التراب بنفسه من الخندق:

---

(١) سنن النسائي. كتاب الجهاد وغزو الترك والحبشة ٣/ ٤٣، وانظر السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٩٥. وتفسير القرطبي ١٤/ ١٣١، وتفسير الطبري ٢١/ ١٣٥.

أخرج البخاري[1] ومسلم[2] من حديث البراء ـ واللفظ للبخاري ـ قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو أغبر بطنه، يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ثالثاً: وصول جيوش الأحزاب إلى مشارف المدينة:

كانت قيادة الأحزاب قد خططت أن تعسكر في المنطقة الشمالية بين الحرتين لتزحف على المدينة على هيئة قوس يمتد من الشمال الغربي حتى الشمال الشرقي.

فيطبق هذا القوس في زحف سريع عارم على المسلمين.

لذلك كانت الأماني والأحلام تراودهم بأن الانتقام من المسلمين أصبح وشيكاً، فقد اعتمدوا على جميع الوسائل المادية الكفيلة بسحق المسلمين من الوجود، مطمئنين على أن الكثرة تغلب الشجاعة مهما بلغت.

هذا وقد تكاملت حشود الأحزاب حول المدينة في أول شهر شوّال، وقد أسندت القيادة إلى أبي سفيان بن حرب.

ونزلت قريش وأحلافها في مجمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة، كما نزلت غطفان وأحلافها بذنب نقمى في الطرف الغربي من جبل أحد.

رابعاً: مفاجأة الأحزاب بالخندق وضربهم الحصار على المدينة:

وبينما الأحزاب فرحين بأحلامهم وأمانيهم التي جاءوا من أجلها إذا بهم

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٤٠.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب غزوة الأحزاب ٣/ ١٤٣٠.

يفاجؤون بما لم يكن بالحسبان، حيث فوجئوا بالخندق يحول بينهم وبين المسلمين. وسقط في أيديهم، فهم ما عهدوا إلا الغزوات الخاطفة السريعة التي لا تستمر أكثر من يوم أو يومين وتكون غالبيتها مواجهة الأعداء في ساحة المعركة بدون حواجز.

والذي زاد من دهشتهم وحطم جميع آمالهم أنهم لم يألفوا هذه المكائد وهذه الخدع الحربية.

فما كان أمامهم إلا أن يرابطوا أمام الخندق.

وأصبحت المدينة واقعة تحت حصار جموع الأحزاب التي ما فتئت تحاول البحث عن ثغرات في الخندق تمكنها من الزحف إلى المدينة واستمروا على تلك الحالة والغيظ يفري قلوبهم، وأبلسوا حين رأوا الخندق يحول بينهم وبين اقتحامها، ومضت أيام تبادل المسلمون فيها مع أعدائهم التراشق بالنبال ودب اليأس من النصر في قلوب قادة الأحزاب، وذلك لأن المدينة محصنة بقوة وحكمة، والخندق يحول بينهم وبين الوصول إليها، ولأن المؤمنين مصرون على الدفاع عن أنفسهم، والطقس قارس البرودة، عاصف الرياح، وخيامهم لا تحميهم من أذاه.

وكثرة جيش الأحزاب تتكون من الأعراب الذين لم يتعودوا المكث في مكان واحد لفترة طويلة.

وبنو قريظة ما زالوا على عهدهم مع النبي ﷺ.

إذن ففي إمكان المسلمين أن يقاوموا شهوراً طويلة، وبناءً عليه فمن الخير للأحزاب أن تعود أدراجها ثم ترجع لقتال المسلمين في الوقت المناسب.

وشعر حيي بن أخطب[1] وبطانته بعزم الأحزاب على العودة إلى ديارهم فجن جنونهم، لأن عودتهم إلى ديارهم معناها تمكين المسلمين من رقاب اليهود.

فحاول حيي بن أخطب وزمرته بكل وسيلة أن يغريهم بالبقاء، وأن يهون عليهم الصعاب، وأن يبشرهم بأنه مقنع بني قريظة بنقض عهودهم مع المسلمين حتى ينقطع عنهم المدد، ويحاط بهم من كل جانب، وتنفتح الطريق أمام الأحزاب لدخول المدينة من الجهة الجنوبية التي يسكنها بنو قريظة، وفرحت الأحزاب بفكرة حيي، وارتفعت روحها المعنوية.

«سير المعركة وأحداثها»

المرحلة الأولى ـ ازدياد قوة الأحزاب ـ وضعف موقف المسلمين:

أولاً: نقض بني قريظة العهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان أخشى ما يخشاه المسلمون هو غدر يهود بني قريظة عندما تتحرج الحالة، لأن ذلك يعني الإجهاز على المسلمين، حيث يسكن اليهود في جنوب المدينة، فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين: اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم.

وهذا ما حدث بالفعل.

إذ سارع حيي بن أخطب بالذهاب إلى كعب بن أسد[2] ليغريه بنقض

---

(١) انظر ترجمته ص ٢٤٧ من هذا الكتاب.

(٢) هو كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم وكان وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده وعاهده. وقد نقض عهده مع النبي ﷺ يوم الأحزاب فكان جزاءه القتل فقتل مع من قتل من بني قريظة بعد حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فيهم وكان ذلك في السنة الخامسة من الهجرة. انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٣.

العهد مع المسلمين، وسمع به الأخير فأغلق دونه حصنه، قال ابن إسحاق: فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي، فأستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه: ويحك يا كعب افتح لي.

قال: ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

قال: ويحك افتح لي أكلمك.

قال: ما أنا بفاعل.

قال: والله إن أغلقت دوني إلا خوفاً على جشيشتك[1] أن آكل معك منها. فأحفظ الرجل ففتح له، فقال: ويحك يا كعب! جئت بعز الدهر وبحر طام[2].

قال: وما ذاك؟.

قال: جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام[3] قد هراق[4] ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلا وفاءً وصدقاً.

---

(١) الجشيشة: طعام يصنع من الجشيش وهو البر يطحن غليظاً ثم تجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ. النهاية في غريب الحديث ـ باب الجيم مع الشين مادة جشيش: ١/ ٢٧٣.

(٢) البحر الطامي: المرتفع الكثير الماء، وأراد تشبيه عدد القوم في كثرتهم بالبحر لأنه يغطي جوانبه كلها.

(٣) بجهام: الجهام: هو السحاب الذي لا ماء فيه.

(٤) وهراق: في رواية ـ أهريق، بضم الهمزة وسكون الهاء وكسر الراء، ومعناها: صب ماؤه.

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب[1] حتى سمع له، ونقض كعب بن أسد عهده مع النبي ﷺ، وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين، ومزق الصحيفة التي كانت بينه وبينهم[2].

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم، وأراد الرسول ـ ﷺ ـ أن يتثبت مما بلغه، فأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ـ رضي الله عنهم ـ وقال لهم:

(انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فالحنو لي لحناً[3] أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس)[4].

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد.

وحينئذٍ حاول سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ أن يذكرهم بعهودهم مع النبي ﷺ وأن يحذرهم من سوء المصير إذا استمروا على نقضهم بالعهد.

فاستهزؤا به قائلين: أكلت أيـر أبيك.

ووقعوا في النبي ﷺ فقال كبيرهم كعب بن مالك: من رسول الله!!؟ لا عهد بيننا وبينه ولا عقد.

---

(١) الذروة والغارب: مثل، أصله البعير يستصعب عليك فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنمه فيجد لذة فيأنس عند ذلك، فضرب مثلاً في المراوضة.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٩٨، وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٣.

(٣) أي كلموني بكلام يخالف ظاهره معناه ولا يفهمه أحد سواي وأصل اللحن: العدول بالكلام عن الوجه المعروف إلى وجه لا يعرفه إلا صاحبه، كما أن اللحن هو الخطأ: عدول عن الصواب الذي هو معروف.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٩٩. وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٤.

وبلغ الغضب بسعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ منتهاه، وكان رجلاً فيه حدة، فشاتمهم وشاتموه فقال له سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

وعاد الصحابة الأربعة إلى الرسول ﷺ ثم قالوا: عضل والقارة ـ أي غدرت قريظة بالمسلمين كما غدرت عضل والقارة بخبيب وأصحابه ـ وفرحت الأحزاب لغدر قريظة وارتفعت روحها المعنوية وأعدت كتائبها لغزو المدينة من كل جانب.

قال موسى بن عقبة:

ثم تقنع رسول الله ﷺ بثوبه حين جاءه الخبر عن بني قريظة، فاضطجع ومكث طويلاً، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع، وعرفوا أنه لم يأته عن بني قريظة خير، ثم أنه رفع رأسه وقال: ابشروا بفتح الله ونصره[١].

هكذا استقبل الرسول ﷺ غدر بني قريظة بالثبات والحزم، واستخدام كل الوسائل التي من شأنها أن تقوي روح المؤمنين، وتصرع جبهات المعتدين.

فأرسل النبي ﷺ في الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة.

وفي هذه الأثناء استعدت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب فأرسلت إلى جيوش الأحزاب عشرين بعيراً كانت محملة تمراً وشعيراً وتبناً، لتمدهم بها وتقويهم على البقاء.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٠٠.

لكن من حسن التوفيق ظفر بها رجال من الأنصار خرجوا ليدفنوا ميتاً لهم في المدينة فصادفوا هذه القافلة، فصادروها وأتوا بها إلى النبي ﷺ[1].

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها واشتد الكرب على المسلمين وتأزم الموقف.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور التي أصابت المسلمين ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف حيث قال تعالى:

﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتُلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾[2] [الأحزاب الآيتان ١٠، ١١].

وكان ظنُّ المسلمين بالله قوياً وقد سجله القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾**. [الأحزاب ٢٢][3].

وهذا الموقف المشرف من المؤمنين يتباين كل التباين عن موقف المنافقين الذي كان على العكس تماماً.

ثالثاً: انسحاب المنافقين من الجيش ونشرهم الأراجيف بين المسلمين:

واشتد البلاء واشتد الخوف حتى نجم النفاق وحتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر،

---

(١) السيرة الحلبية ٢/٣٢٣.

(٢) انظر تفسير الآية، ص ٤٥١ من هذا الكتاب.

(٣) انظر تفسير الآية، ص ٤٧٨ من هذا الكتاب.

وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

وحتى قال أوس بن قيظي أحد بني حارثة: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك على ملأ من رجال قومه، فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة.

وهؤلاء وأمثالهم هم المرادون بقوله تعالى[1]:

﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان ١٢، ١٣][2].

رابعاً: محاولة النبي ﷺ تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان:

أراد النبي ﷺ أن يخذل المشركين بعضهم ببعض ونظراً لمعرفته بأحوال أعدائه فهو يعلم سبب مجيء غطفان إلى المدينة حيث لم يكن لها سوى الطمع في خيرات خيبر التي وعدهم بها اليهود.

لذلك أراد أن يطمع غطفان ومن معها من نجد، فأرسل إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري وهما قائدا غطفان وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه.

فجرى بينه وبينهم الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع شهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٠١.

(٢) انظر تفسير الآيات، ص ٤٥٥ من هذا الكتاب.

ذلك، واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء اصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما[1].

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال النبي ﷺ: (أنت وذاك).

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: «ليجهدوا علينا»[2].

وقد أفاد عرض الصلح أمرين عظيمين:

أولهما: أن النبي ﷺ علم عزيمة أصحابه، وأنهم يريدون لقاء الأحزاب.

ثانيهما: أن ذلك أطمع غطفان ومن معها من القبائل، والطمع إذا سكن حل العزيمة. فقد ترتب على ذلك الإطماع، أنهم تململوا بطول الحصار وجرى بينهم وبين القرشيين خلاف وهموا أن يعودوا من حيث جاءوا من غير أن ينالوا شيئاً[3].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٠٢.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٠٢.

(٣) خاتم النبيين ـ لمحمد أبو زهرة ـ ٢/ ٣٠٩.

المرحلة الثانية: اقتحام بعض المشركين الخندق، وتكرار محاولة العبور، وتأزم الموقف بالنسبة للمسلمين:

أولاً: الالتحام بكوكبة من الفرسان ومقتل فارس قريش:

استمر الحصار من قبل الأحزاب للمسلمين وضاقوا بالخندق، وأخذ الفرسان الشجعان منهم يبحثون عن ثغرة في الخندق يهجمون منها على المسلمين.

وأخيراً وجدوا ثغرة ضيقة اقتحمها بعض الفرسان وكلهم من قريش. قال ابن إسحاق:

فأقام رسول الله ﷺ وأصحابه محاصرين، ولم يكن بينهم وبين عدوهم قتال إلا أن فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد ودٍّ بن أبي قيس، أحد بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان، وضرار بن الخطاب بن مرداس أحد بني محارب بن فهر، تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيأوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم.

ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع.

وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليه الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تسرع نحوهم[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٨، والسيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٠٢.

مصرع فارس قريش:

وكان عمرو بن عبد ودّ قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أُحد.

فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه، فلما خرج هو وخيله قال له علي: يا عمرو، إنك كنت تعاهد الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما، قال: أجل. قال له علي بن أبي طالب: فإني أدعوك إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك. قال: فإني أدعوك إلى النزال، قال: ولم يا بن أخي، فوالله ما أحب أن أقتلك.

قال علي: ولكن والله أحب أن أقتلك.

قال: فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره ـ أو ضرب وجهه ـ ثم أقبل على علي، فتنازلا وتجاولا، فقتله علي رضي الله عنه وخرجت خيله منهزمه، حتى اقتحمت الخندق هاربة[1].

وذكر ابن إسحاق، أن علياً طعنه في ترقوته حتى أخرجها من تراقه، فمات في الخندق.

وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال: هو لكم لا نأكل ثمن الموتى.

وفي رواية الإمام أحمد: قال النبي ﷺ: (ادفعوا إليهم جيفته، فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية). فلم يقبل منهم شيئاً[2].

ثانياً: تكرار محاولة عبور الخندق، وتشديد الهجوم على منزل النبي ﷺ:

وقد تزايد نشاط خيل المشركين، فكانت هذه الخيل تطوف بأعداد كبيرة

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٠، والسيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٠٣، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٧٤.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٠٥.

كل ليلة حول الخندق حتى الصباح.

وفي ليلة من ليالي الأحزاب العصيبة حاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحية ضيقة منه، ويأخذهم على حين غرة.

لكن كان أسيد بن حضير في مئتين من الصحابة يراقبون تحركاتهم وقد حصلت مناوشات استشهد فيها الطفيل بن النعمان والذي قتله وحشي ـ قاتل حمزة يوم أُحد ـ رماه بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلاً.

إصابة سعد بن معاذ[1] سيد الأوس:

كان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً، وضرار بن الخطاب يوماً فلا يزالون يجيلون خيلهم.

وكان معهم رماة منهم حبان بن العرقة، وأبو أسامة الجشمي وغيرهم. ورمي حبان بن العرقة سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ بسهم فأصاب أكحله[2] وقال: خذها وأنا ابن العرقة!.

فقال رسول الله ﷺ: عرق الله وجهك في النار[3].

وقال سعد عندما أصيب:

اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فأنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللهم وإن كنت وضعت

---

(١) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأوسي الأنصاري، سيد الأوس. أسلم على يد مصعب بن عمير، شهد بدراً باتفاق، ورمي بسهم يوم الخندق، فعاش بعده شهراً حتى حكم في بني قريظة وأجيبت دعوته في ذلك، ثم انتفض جرحه فمات وكان ذلك سنة خمس من الهجرة. وهو ابن سبع وثلاثين سنة. انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٢/ ص ٢).

(٢) أكحله: الأكحل: عرق في اليد أو عرق الحياة (القاموس المحيط ٤/ ٤٤).

(٣) المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٩.

الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

قال ابن كثير:

وقد استجاب الله دعوة وليه سعد بن معاذ في بني قريظة[1] ـ وسيأتي ذلك مفصلاً ـ[2].

ثم وجه المشركون كتيبة غليظة نحو منزل رسول الله ﷺ فقاتلهم المسلمون يوماً إلى الليل.

فلما حانت صلاة العصر دنت كتيبة فلم يقدر النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا، وشغل بهم النبي ﷺ فلم يصل العصر ولم تنصرف الكتيبة إلا مع الليل.

فقال الرسول ﷺ: (ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)[3].

وأخرج البخاري من حديث جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش وقال: يا رسول الله ما كدت أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبي ﷺ: (والله ما صليتها) فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غابت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[4]:

ثالثاً: اشتداد الكرب، ودعاؤه ﷺ على الأحزاب:

وقد اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً عظيماً لدرجة الإعياء فما كان منهم إلا أن توجهوا إلى

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٠٨.

(٢) انظر ص ٤٣٨ من هذا الكتاب.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٤١، وانظر فتح الباري ٧/ ٤٠٥.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ غزوة الخندق ٥/ ١٤١، وانظر فتح الباري ٧/ ٤٠٥.

الرسول ﷺ فقالوا ـ كما جاء في الحديث ـ يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر!.

قال: (نعم اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا)(١).

وأخرج الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ أتى مسجد يعني الأحزاب فوضع رداءه وقام ورفع يديه مداً يدعو عليهم ولم يصل قال: ثم جاء ودعا عليهم وصلى(٢).

وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله على الأحزاب فقال: (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)(٣).

وروى الإمام البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقول:

(لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده)(٤).

وقد استجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء نبيه ﷺ فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته وزلزل أبدانهم وقلوبهم وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة وألقى الرعب في قلوبهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري عن أبيه: ٣/ ص ٣.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٩٣.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٤٢، وانظر فتح الباري ٧/ ٤٠٦.
وصحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو ٣/ ٣٦٣.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٤٢، وانظر فتح الباري ٧/ ٤٠٦.
وصحيح مسلم ـ كتاب الحج ـ باب ما يقوله إذا فصل من سفر الحج وغيره ٢/ ٩٨٠.

ولهذا تغير الموقف وأصبح في صالح المسلمين وذلك بدعائه ﷺ وصدقه وصدق المسلمين معه، وهذا ما سنفصله وإليك بيانه.

المرحلة الثالثة: تغير الموقف لصالح المسلمين:

أولاً: موقف نعيم بن مسعود الغطفاني ـ رضي الله عنه ـ:

وبينما المسلمون في هذه الشدة وهذا الضنك والخوف الشديد بدأت البشائر بالفرج تظهر.

فقد استعمل النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن. فلقد كان يعلم ﷺ أن هناك تصدعاً خفياً بين صفوف الأحزاب فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها.

والآن في هذه الساعات الحرجة حدث أن أسلم سراً نعيم بن مسعود الغطفاني وأتى النبي ﷺ ليعلن إسلامه وقال له:

يا رسول الله إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة[١].

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ـ وكان لهم نديماً في الجاهلية ـ فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم.

قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم.

فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم

---

(١) قال الإمام النووي:
اتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره.

وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم. فإن رأوا نهزة (فرصة) أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلو بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش:

قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وأنه بلغني أمر قد رأيت عليَّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني.

قالوا: نفعل.

قال: اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من إشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم.

فأرسل إليهم أي نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج إلى غطفان فقال:

يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهموني.

قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم.

قال: فاكتموا عني.

قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم[1].

ثانياً: وقوع الخلاف الشديد بين اليهود والأحزاب:

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم وتهبيط عزمهم.

قال ابن إسحاق:

فلما كانت ليلة السبت من شوّال، وكان من صنيع الله - تعالى - لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان.

فقال لهم: إنا لسنا بدار مقام، هلك الخف والحافر، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه.

فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد أخذت فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم. ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق.

فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا،

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢١٥، وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٨.

فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر اكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً. فأبوا عليهم وخذل الله بينهم[1].

ثالثاً: اشتداد الريح ونزول الملائكة:

وخذل الله بين الأحزاب وبعث الريح عليهم في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم وتطفىء نيرانهم وأزعجتهم غاية الإزعاج فلم يطب لهم المقام.

وأنزل الله الملائكة تنصر رسوله وتؤيده.

قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾. (الأحزاب، آية ٩)[2].

هذا والجدير بالذكر أن جو المدينة في الشتاء شديد البرودة خاصة إذا كان معه ريح باردة.

والجيش القرشي لم يعتد هذا الجو القارس فمكة جوها دافىء في الشتاء مما جعلهم يتضررون أشد الضرر بهذه الريح الباردة، وجعلهم يفكرون جدياً في الرجوع.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢١٦، وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٨.

(٢) انظر تفسير هذه الآية ص ٤٤٦ من هذا الكتاب.

«نهايـة المعركـة»

كيفية فك الحصار وانسحاب الأحزاب:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه، قال:

كنا عند حذيفة فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت.

فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر[1] فقال رسول الله ﷺ:

(ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة؟) فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله، ثم قال: يا حذيفة قم فأتنا بخبر القوم ولا تذعرهم[2] عليَّ. قال فمضيت كأنما أمشي في حمام فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد قوس وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ لا تذعرهم عليَّ ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: (قم يا نومان)[3]!.

قال ابن كثير[4]:

روى الحاكم والحافظ البيهقي في الدلائل هذا الحديث مبسوطاً من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز بن

---

(١) وقر: القر هو البرد (مختار الصحاح ص ٥٢٨).
(٢) لا تذعرهم: أي لا تفزعهم عليّ ولا تحركهم عليّ.
(٣) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب غزوة الأحزاب ٣/ ١٤١٤.
(٤) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢١٩.

أخي حذيفة قال: ذكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه: أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا.

فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان ومن معه فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه.

فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة.

فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم ويتسللون، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك.

إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى عليَّ وما عليّ جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، قال: فأتاني وأنا جاثٍ على ركبتي فقال؛ من هذا؟ فقلت: حذيفة فقال: حذيفة فتقاصرت للأرض فقلت: بلى يا رسول الله. كراهية أن أقوم. فقمت. فقال: إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم. قال وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قُرّاً. قال: فخرجت فقال رسول الله ﷺ: (اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته).

قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قراً في جوفي إلا خرج من جوفي فما أجد فيه شيئاً!.

قال: فلما وليت قال: يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني.

قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نارهم توقد،

وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيديه على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل.

ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش فوضعته في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: (لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني). فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي، ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أنا بناسٍ من بني عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ فلما انتصفت بي الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه.

قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلي، فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القر وجعلت أقرقف[1] فأومأ إليّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه فأسبل عليّ شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى فأخبرته خبر القوم، أخبرته أني تركتهم يرحلون[2].

وأخرج البخاري من حديث سليمان بن صرد يقول: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: (الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم)[3].

وهكذا ارتدت جيوش الأحزاب مدحورة إلى ديارها، تحمل معها الفشل والخيبة. وتنفس المسلمون الصعداء وشكروا الله على نعمته حيث نجاهم من عدوهم.

---

(١) أقرقف: أرتجف من البرد.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٢١.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٤٢، والفتح ٧/ ٤٠٥.

«سير النبي ﷺ إلى بني قريظة»

أحداث غزوة بني قريظة(١):

١ ـ شاء الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يكون القصاص العادل من بني قريظة سريعاً وحاسماً. فقد أخرج الشيخان عن عائشة قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه فاخرج إليهم. فقال النبي ﷺ: فإلى أين؟ قال: هنا، وأشار إلى بني قريظة فخرج النبي ﷺ إليهم(٢).

ثم أمر النبي ﷺ المسلمين أن يسرعوا في الخروج لقتال بني قريظة، وألا يشغلهم أي شاغل عن الخروج.

أخرج الإمام البخاري من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم(٣).

٢ ـ لقد كان الرسول ﷺ حريصاً أن يخرج المسلمون إلى بني قريظة بأقصى سرعة، ليباغتموهم ويبادئوهم قبل أن يستكملوا عدتهم ويقووا حصونهم، ويستجمعوا أشتات فكرهم.

---

(١) ستتكلم عنها ـ بإيجاز ـ وذلك لتعلقها بغزوة الأحزاب إتماماً للفائدة.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب مرجع النبي من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ١٤٢/٥، وانظر فتح الباري ٤٠٧/٧.

وصحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم ١٣٨٩/٣ (رقم الحديث ١٧٦٩).

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب مرجع النبي من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ١٤٣/٥، وانظر فتح الباري ٤٠٨/٧.

لذا بادر المسلمون إليهم، يحمل رايتهم علي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ فلما اقترب من منازلهم وجدهم مصرين على غوايتهم وغرورهم، فقد تطلعوا إلى المسلمين بغل وحقد، ثم سبوا النبي ﷺ ونساءه سباً قبيحاً.

ولكي يصرف الإمام علي ـ كرّم الله وجهه ـ رسول الله ﷺ بعيداً عن منازل أولئك السفهاء حتى لا يسمع سبهم أعطى الراية لأبي قتادة الأنصاري.

ثم ذهب إلى النبي ﷺ فاعترض طريقه وهو مقبل إليهم، فقال له: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث!.

فقال: لم؟ أظنك سمعت لي منهم أذى؟.

قال: نعم يا رسول الله، قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً. ثم دنا من حصونهم: فقال لهم: يا إخوان القردة والخنازير، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟.

فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً[1].

٣ ـ وقد ضيق الرسول ﷺ عليهم الخناق، وأحكم عليهم الحصار لمدة خمس وعشرين ليلة، لم يستطع بنو قريظة خلالها أن يخرجوا من حصونهم، وأيقنوا أن حصونهم لن تغني عنهم من الهلاك شيئاً إذا استمر الحال على ذلك.

وفي أحلك الأوقات التي مرت بهم وهم في غمرة يأسهم جمعهم كبيرهم ـ كعب بن أسد ـ وقال لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم.

قالوا: وما هي؟.

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل،

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٤.

وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً ومعنا السيوف، لم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنتخذن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم.

قال: فإن أبيتم هذه عليّ، فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فأنزلوا لعلنا نصيب منهم غرة.

قالوا: تفسد علينا سبتنا، ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه من المسخ ما لم يخف عليك.

قال كعب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً[1].

٤ ـ حاول بنو قريظة بعد ذلك أن يظفروا بصلح يضمنون معه حياتهم، فأرسلوا شاس بن قيس ليعرض على النبي ﷺ أنهم يريدون أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح، فأبى عليهم الرسول ﷺ.

فأرسلوا ثانياً يعلنون تنازلهم عن الأموال بشرط أن تحقن دماؤهم وتسلم لهم نساؤهم وذرياتهم.

فأبى الرسول ﷺ أن يقبل منهم إلا النزول على حكمه بدون شرط.

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٨٣ ـ ٥٨٤.

٥ ـ وأخيراً لجأوا إلى وسيلة يستدرون بها عطف حلفائهم من الأوس فأرسلوا إليهم من يقول لهم: ألا تأخذون لإخوانكم مثل ما أخذت الخزرج لإخوانهم؟ يريدون أن الخزرج قد وقف واحد منهم هو عبد الله بن أبي ابن سلول بجانب حلفائه بني قينقاع، حتى نجوا من القتل واكتفى النبي ﷺ منهم بالجلاء من المدينة، فعلى الأوس أن يفعلوا مع حلفائهم بني قريظة مثل ما فعل واحد من الخزرج مع حلفائه من بني قينقاع.

ومشى رجال من الأوس إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج؟ فقال لهم: يا معشر الأوس، ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم، قالوا: بلى.

فقال: فذاك، إلى سعد بن معاذ، وفرح بنو قريظة بحكم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فيهم، ظناً منهم أن الحلف الذي كان بينهم وبينه في الجاهلية سينفعهم ويشفع لهم عنده فيخفف حكمه عليهم.

هذا وقد أكثر الأوس عليه الرجاء فقال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم[١].

فلما انتهى ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، ـ وقد كان جريحاً يمرض في خيمة رفيدة بالمسجد النبوي من جراء سهم أصابه في غزوة الأحزاب[٢] ـ قال الرسول ﷺ: قوموا إلى سيدكم فقاموا في صفين، كل رجل منهم يحيِّي سعداً حتى وصل إلى النبي ﷺ فقال: احكم يا سعد. فقال: الله ورسوله أحق بالحكم فقال رسول الله ﷺ: قد أمرك الله أن تحكم فيهم. فالتفت سعد إلى الجهة التي فيها بنو قريظة وقال: أترضون بحكمي. قالوا: نعم. فأخذ عليهم العهد بذلك، ثم قال: ومن ها هنا ـ يريد النبي ﷺ ولم

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩٢، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٨٧.

(٢) انظر تفصيل الحادثة ص ٤٢٤ من هذا الكتاب.

يستطع أن يلتفت إليه حياءً وإجلالاً له ـ فقال النبي ﷺ: نعم.

فقال سعد: «فإني حكمت فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء».

فقال النبي ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات(١).

٦ ـ هذا، وفي إصابة سعد بن معاذ يوم الخندق، وفي حكمه على بني قريظة وفي انفجار جراحته أخرج الشيخان(٢) حديثاً طويلاً نرى من المناسب ذكره هنا.

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له (ابن العرقة)، رماه في الأكحل ـ عرق وسط الذراع إذا قطع لم يرقأ الدم ـ فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعت السلاح والله ما وضعته اخرج إليهم، قال النبي ﷺ: فأين؟. فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه فرد رسول الله ﷺ الحكم إلى سعد.

قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تُسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩٣، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٨٨.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم ٥/ ١٤٤.

وانظر فتح الباري ٧/ ٤١١، ٤١٢.

وصحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم ٣/ ١٣٨٨، رقم الحديث (١٧٦٨).

قال هشام: فأخبرني أبي عن عائشة أن سعداً قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها.

فانفجرت من ليلته، فلم يرعهم ـ وفي المسجد معه خيمة من بني غفار ـ إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة: ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد جرحه يغذو دماً ـ أي يسيل بقوة ـ فمات منها رضي الله عنه. رواه البخاري ومسلم[1].

٧ ـ ثم حفرت الخنادق في سوق المدينة لتنفيذ حكم سعد فيهم، وسيق إليها رجال بني قريظة، ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم، وكان عددهم ما بين الستمائة والسبعمائة.

وقال بعضهم في ذهول لسيدهم كعب بن أسد وهم يقدمون لمصارعهم: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟.

فأجابهم، أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من دعي به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل[2].

وأُتي في النهاية برأس الفتنة حيي بن أخطب[3] ليلقى جزاءه العادل فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال:

«أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذَل، كتاب

---

(١) المصدر السابق..

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩٤.

(٣) انظر ترجمته ص ٢٤٧ من هذا الكتاب.

وقدر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه».

وفيه قال الشاعر:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنـه مـن يخـذل الله يخـذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقلقل يبغي العز كل مقلقل[1]

ولم يقتل المسلمون من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة، لأنها ألقت رحى على أحد المسلمين فقتلته، ولم يقتلوا من ذكورهم إلا من كان بالغاً. وقد قسم النبي ﷺ أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج منها الخمس.

فأعطى للفارس سهمين ولفرسه سهماً، وأعطى الراجل سهماً وكانت الخيل يوم قريظة ستاً وثلاثين فرساً[2].

وهكذا انتهت أحداث غزوة بني قريظة[3].

هذا وقد قطع النبي ﷺ في غزوة الخندق وبني قريظة بقية شوّال، وذي القعدة وبعضاً من ذي الحجة.

وقد أجمع المعنيون بأخبار معارك الإسلام على أن المسلمين لم يكونوا على درجة من الخوف والشدة والقلق والجزع والاضطراب، مثلما كانوا عليه في غزوة الأحزاب.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩٤.
والمعنى: أنه جاهد في حرب الإسلام وعداوته حتى بلغ الحد الذي يعذر نفسه فيه. وقلقل: يعني سعى وتحرك.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٤٢.

(٣) ذكرتها باختصار، ومن أراد التوسع عليه بالرجوع إلى كتاب غزوة بني قريظة لمحمد أحمد باشميل، وكتاب بنو إسرائيل في الكتاب والسنّة ١/ ٣٨٤، وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٢، وغيرها من كتب السيرة.

وقد نجح المؤمنون في هذا الاختبار الصعب.

قالت أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها: «شهدت مع رسول الله ـ ﷺ ـ مشاهد فيها قتال وخوف: المريسيع وخيبر وكنا بالحديبية وفي الفتح وحنين، لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة ـ الشجرة الصغيرة الملتف عليها الشجر من كل ناحية ـ وأن قريظة لا نأمنها على الذراري.

فالمدينة تحرس حتى الصباح يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً»[(١)].

وفي شأن غزوة الأحزاب وبني قريظة نزلت تسع عشرة آية في سورة الأحزاب سنقوم بتفسيرها إن شاء الله في الفصل الثاني.

* * *

«المبحث الثالث»

نتائج هذه الغزوة

كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وقد وجد فيها المسلمون شدة وخوفاً[(٢)].

ومن أهم النتائج لهذه الغزوة ما يلي:

١ ـ انتصار المسلمين وانهزام أعدائهم وتفرقهم ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

٢ ـ تغير الموقف لصالح المسلمين فانتقلوا من موقف الدفاع إلى الهجوم

---

(١) المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٧، ٤٦٨.

(٢) انظر حديث أم سلمة السابق في هذه الصفحة.

وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: (الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم)[1].

٣ ـ كشفت هذه الغزوة خبث يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم. فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.

٤ ـ كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود بني قريظة فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود. وقد تكلم القرآن الكريم بالتفصيل عن هذه المواقف.

٥ ـ كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب حيث تمَّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها.



(١) رواه الإمام البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٤٢، وانظر فتح الباري ٧/ ٤٠٥.

الفصل الأول

حديث القرآن عن غزوة الأحزاب
وتفسير الآيات التي وردت فيها

والآن وقد انتهينا من الحديث عن زمان غزوة الأحزاب، وعن أسبابها وعن أحداثها ونتائجها، نتجه إلى القرآن الكريم لنتأمل الآيات التي نزلت في شأن هذه الغزوة فنجد أن سورة كاملة قد سميت باسم هذه الغزوة وهي سورة الأحزاب. وهذه السورة كلها مدنية وعدد آياتها ثلاث وسبعون[1].

والذي سنتولاه بالدراسة من هذه السورة الجليلة هو ذاك الحديث المستفيض الذي جاء فيها عن غزوة الأحزاب.

وإذا تأملنا الآيات الكريمة التي نزلت في هذه الغزوة نراها تناولت ما يأتي[2]:

١ ـ الوصف العام للغزوة، وذلك من الآية ٩ إلى الآية ١١.

٢ ـ موقف المنافقين من المسلمين، من الآية ١٢ إلى الآية ٢٠.

٣ ـ موقف المؤمنين، من الآية ٢٠ إلى الآية ٢٧.

٤ ـ نهاية المعركة، الآية ٢٥.

---

(١) تفسير البغوي ٥/١٨٩، والقرطبي ١٤/١١٣.

(٢) التفسير الواضح ٢١/٦٧.

٥ ـ نهاية اليهود الذين ظاهروا المشركين ـ وهم بنو قريظة ـ من الآية ٢٦ إلى الآية ٢٧.

هذا وأغلب المفسرين أطنب من ذكر الغزوتين وجمع مروياتهما من السيرة والسنن[١].

وقد ابتدأت هذه السورة الكريمة حديثها عن الغزوة من قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً (٩) إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا (١٠) هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً (١١) وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً (١٢).

وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً (١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً (١٤).

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً (١٥) قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً (١٦) قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً (١٧) قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً (١٨).

أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي

---

(١) نذكر على سبيل المثال لا الحصر: تفسير الطبري ١٢٨/٢٤.
وتفسير الخازن ٢٠٥/٥، وتفسير البغوي ١٩٣/٥، (المطبوع بحاشية الخازن) وتفسير القاسمي ٤٨٣٩/١٣.

يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ أشحةً على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً (١٩).

يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً (٢٠) لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً (٢١) ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً (٢٢) من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً (٢٣) ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً (٢٤) ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً (٢٥).

وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً (٢٦) وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيءٍ قديراً (٢٧)﴾.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها:

١ - ما أخرجه البيهقي في الدلائل عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا.

وما أتت قط ليلة أشد ظلمةً ولا أشد ريحاً منها فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة فما يستأذن أحد منهم النبي إلا أذن له فيتسللون.

إذ استقبلنا النبي ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى عليَّ، فقال: ائتني بخبر القوم، فجئت فأخبرته خبر القوم، وأنزل الله:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود. .﴾ الآية[1].

٢ ـ ومنها ما أخرجه ابن إسحاق والبيهقي أيضاً عن عروة بن الزبير ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قال: قال معتب بن قشير: كان محمد يرى أن يأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط.

وقال أوس بن قيظي في ملأ من قومه: إن بيوتنا عورة، وهي خارجة عن المدينة ائذن لنا نرجع إلى نسائنا وأبنائنا.

فأنزل الله على رسوله حين فرغ عنهم ما كان من البلاء يذكرهم نعمته عليهم وكفايته إياهم بعد سوء الظن منهم ومقالة من قال من أهل النفاق: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود. . .﴾ الآية[2].

تفسير هذه الآيات:

لقد جاءت هذه الآيات الكريمة في أعقاب دعوة المؤمنين ـ في شخص رسول الله ﷺ ـ إلى تقوى الله ـ تعالى ـ وإلى توضيح بعض التشريعات والتنظيمات في المجتمع الإسلامي الناشىء، وإلى بيان منزلته ﷺ ومنزلة أزواجه وإلى تبشير الصادقين بحسن الثواب، وإنذار الكافرين بسوء العذاب.

وقد افتتحت هذه الآيات بنداء المؤمنين قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾.

يا أيها الذين آمنوا: في هذه الآية الكريمة يتوجه الخطاب من الله إلى الذين آمنوا طالباً منهم أن يذكروا نعمته عليهم ـ وناداهم بصفة الإيمان،

---

(١) أسباب النزول للسيوطي ص ١٧٢.

(٢) أسباب النزول للسيوطي ص ١٧٣.

لتحريك حرارة الإيمان في قلوبهم، وتحريضهم على الامتثال والطاعة ـ. روى ابن أبي حاتم ـ بسنده ـ أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إليَّ، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه[1].

اذكروا نعمة الله عليكم: المراد بالذكر التذكر وعدم النسيان والمداومة على شكر الله على نعمه.

قال القرطبي: الذكر اسم مشترك، فالذكر بالقلب ضد النسيان، والذكر باللسان ضد الإنصات. وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذكراً، واجعله منك على ذكر (بضم الذال) أي لا تنسه[2].

والمراد بالنعمة هنا إنجاؤهم من أعدائهم الذين جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

ومن فوائد تذكر النعم أنها تنبه العقل والقلب لدى المؤمنين لتلك المنافع التي جاءتهم وبالتالي عليهم القيام بحقوقها، والإكثار من الحديث عنها بألسنتهم فالتحدث بها يغري بشكرها.

وقوله ـ سبحانه ـ:

﴿إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾: تفصيل وبيان للنعمة التي أنعم الله بها على المؤمنين خلال غزوة الأحزاب والمراد بقوله: ﴿إذ جاءتكم جنود﴾ قريش وغطفان ويهود بني النضير وقريظة[3]، فأرسل الله عليهم من عنده ريحاً وجنوداً لم يرها المسلمون. قال الرازي: قضى حاجاتكم وأنتم لا ترون[4].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٤٨.
(٢) تفسير القرطبي: ١/ ٣٣١.
(٣) تفسير الإمام البغوي ٥/ ١٩٥ (مطبوع بحاشية الخازن).
(٤) تفسير الرازي ٢٥/١٩٨.

والمراد بالريح: ما أرسله الله على جنود الأحزاب من ريح زلزلتهم وأكفأت قدورهم وكانت ريحاً شديدة الهبوب، شديدة البرودة، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً.

قال مجاهد: وهي ريح الصبا، ويؤيده الحديث الذي جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (نصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدبور)[1].

والمراد بالجنود في قوله: ﴿وجنوداً لم تروها﴾: هم الملائكة الذين أرسلهم الله ـ تعالى ـ لنصر المؤمنين ودحر الكافرين. قال ابن كثير: هم الملائكة زلزلتهم وألقت الرعب والخوف فكان كل رئيس قبيلة يقول إليَّ، فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء لما ألقى الله عزّ وجل في قلوبهم الرعب[2].

وقد شاركت الملائكة في غزوة الأحزاب بجانب المسلمين ـ وذلك بإلقاء الرعب وغيره في قلوب الأحزاب ـ وقد جاء ذكر حمل الملائكة للسلاح في غزوة الأحزاب في صحيح البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال: وضعت السلاح، والله ما وضعناه. فاخرج إليهم قال: أين؟ قال: ها هنا، وأشار إلى قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم[3].

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق ٥/ ١٤٠، وانظر فتح الباري ٧/ ٣٩٩، وصحيح مسلم ـ كتاب صلاة الاستسقاء ـ باب في ريح الصبا والدبور ٢/ ٦١٧، رقم (٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٠.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ٥/ ١٤٢، وانظر فتح الباري ٧/ ٤٠٧.

وصحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب قتال من نقض العهد ـ ٣/ ١٣٨٩ رقم (٢١٧٦٩).

وكذلك قد منَّ الله على رسوله فأيده بنصره في حنين بالملائكة فقال تعالى: ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾[1] [التوبة ٢٦]، فكانت الملائكة نعمة أنعمها الله على عباده المؤمنين.

والمعنـــى:

يا من آمنتم بالله واليوم الآخر داوموا على شكر الله ـ تعالى ـ على نعمه حيث منَّ عليكم بنصره ولطفه، وقت أن جاءتكم جنود كثيرة من كل حدب وصوب لاستئصال شأفتكم، ومحو دولتكم فأرسلنا على هؤلاء الجنود المعتدين ريحاً شديدة البرودة، كما أرسلنا عليهم جنوداً من ملائكتنا لم تروها.

وكان سبحانه بما تعملون أيها المؤمنون من اتخاذكم التدابير الوقائية من حفر الخندق والالتجاء إليه بصيراً لا تخفى عليه خافية من أقوالكم وأعمالكم.

وترى معي أيها القارىء الكريم أن هذه الآية رغم أنها موجزة الكلمات إلا أنها تتضمن معانٍ كثيرة أشار إليها صاحب الظلال فقال:

وهكذا. . . يرسم القرآن الكريم في هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها، والعناصر الحاسمة فيها. . يرسم مجيء الأعداء وإرسال ريح الله التي لم يرها المؤمنون ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم وبصره بعملهم[2].

وناداهم سبحانه بصفة الإيمان على سبيل التكريم لهم والحض على شكر نعمه.

وكذلك أضاف النعمة إليه سبحانه تشريفاً وتعظيماً لهذه النعمة وبيان رفعتها وسمو قدرها.

---

(١) أضواء البيان ٦/ ٥٧٣.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٣٦.

ونكر لفظ «جنود» في قوله: ﴿إذ جاءتكم جنود﴾ للتهويل والتكثير.

وكذلك الشأن في قوله: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ جاءت بالتنكير وهو يفيد التهويل والتعظيم.

والتعبير بالريح دون الرياح يشير إلى أنها ريح مهلكة.

قال الراغب: والريح معروف وهي فيما قيل الهواء المتحرك وعامة المواضع التي ذكر فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة[1].

فمن المواضع التي ذكر فيها الريح قوله تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر﴾ [القمر ١٩].

وقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ [الأحزاب ٩].

وقوله تعالى: ﴿وأما عاد فاهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية﴾ [الحاقة ٦].

وقوله تعالى: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ [الذاريات ٤١].

ومن المواضع التي جاءت بصيغة الجمع قوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ [الحجر ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ [الروم ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ [الأعراف ٥٧].

ثم وصف ـ سبحانه ـ حالة المؤمنين في المدينة وهم محاصرون من قبل جموع الأحزاب فقال تعالى: ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٢٠٦.

زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾.

وقوله تعالى: ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم﴾ تصوير للهول الذي داهم المؤمنين بسبب جموع الأحزاب التي كشرت عن أنيابها تريد أن تستبيح المدينة.

وأنه حقاً رعب روع المدينة بأسرها بلغ الكرب فيه كل مبلغ والآية توضح كيفية مجيئهم.

وإذ: هنا في موضع نصب بمعنى واذكر[1].

ومعنى **من فوقكم**: يعني من فوق الوادي، وهو أعلاه من قبل المشرق جاء منه عوف بن مالك في بني نصر، وعيينة بن حصن في أهل نجد، وطلحة بن خويلد في بني أسد.

ومعنى **من أسفل منكم**: يعني بطن الوادي من قبل الغرب، جاء منه أبو سفيان بن حرب على أهل مكة[2].

وذهب ابن كثير: إلى أن الذين جاؤوهم من فوقهم هم جموع الأحزاب وأن الذين جاؤوا من أسفل منهم هم بنو قريظة واستشهد برواية حذيفة رضي الله عنه[3].

هذا ومن فسر بالأول اعتبر أصل القدوم ومن أخذ بالثاني اعتبر نفس الموقعة، فكانت قريظة أسفل وجموع الأحزاب فوق من ناحية أحد.

والحقيقة أن المقصود أن الأحزاب أحاطوا بالمؤمنين من أعلى الوادي

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ١٢٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر الرواية ص ٤٤٥ من هذا الكتاب وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٢.

وأسفله، لأنهم كانوا يريدون استئصالهم.

وقوله سبحانه: ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾.

تصوير لما أصاب المسلمين من كروب بسبب مداهمة أعدائهم لهم.

وزاغت الأبصار: أي مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً[١] وذلك لعظم المصاب وشدة الهول.

ثم قال تعالى: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾.

أي اشتد بها الخوف والفزع، فانتقلت من مكانها إلى مكان الحناجر وهو نهاية الحلقوم.

وذلك أن الرئة تنتفخ من الفزع، فترتفع، ويرتفع القلب بارنفاعها قال قتادة:

أي زالت عن أماكنها عن الصدور حتى بلغت الحناجر وهي الحلاقيم، واحدها حنجرة، فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت[٢].

والجملة الكريمة تصور ما أصاب المسلمين من اضطراب القلوب تصويراً بليغاً.

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يوم الخندق يا رسول الله هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: (نعم قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا) قال فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح[٣].

---

(١) تفسير الكشاف ٣/٥٢٦.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/١٤٥.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٢، والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي عامر العقدي عن الزبير بن عبد الله عن ربيح بن أبي سعيد الخدري عن أبيه ٣/ ص ٣.

وقوله: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾.

قال الحسن: ظنون مختلفة. ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون[1].

وقال الطبري:

﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ يقول وتظنون بالله الظنون الكاذبة وذلك كظن من ظن منهم أن رسول الله ﷺ يغلب وأن ما وعده الله من النصر لا يكون، ونحو ذلك من ظنونهم الكاذبة التي ظنها ممن كان مع رسول الله ﷺ في عسكره[2].

وقال محمد بن إسحاق: في قوله: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾.

ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط[3].

ويحدثنا الإمام الرازي عن النواحي البلاغية في الآية فيقول:

﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعني تظنون كل ظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً.

ويمكن أن يكون ظنونهم المعهودة، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام (ظنوا بالله خيراً) ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى: ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾.

والفائدة من قوله: ﴿الظنونا﴾ هي أن الله تعالى لو قال: تظنون ظناً جاز

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٢.
(٢) تفسير الطبري ٢١/ ١٣١.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٢.

أن يكونوا مصيبين فإذا قال: ظنونا، تبين أن فيهم من كان ظنه كاذباً لأن الظنون قد تكذب كلها، وقد يكذب بعضها إذا كانت في أمر واحد فقوله: ﴿الظنونا﴾ أفاد فيهم من أخطأ الظن.

ولو قال تظنون ظناً ما كان يفيد هذا[1].

ثم ذكر سبحانه أن هذه الشدائد محصت المؤمنين، وأظهرت المنافقين: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾.

هنالك ابتلي المؤمنون: قال القرطبي: هنا: للقريب من المكان، وهنالك: للبعيد، وهناك: للوسط، ويشار به إلى الوقت أي عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق، وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال[2].

وزلزلوا زلزالاً شديداً: أصل الزلزلة شدة التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها[3] و «الزلازل» الشدائد أي شدد عليهم وهول[4].

والمعنـــى:

في ذلك الوقت العصيب اختبر الله المؤمنين فتميز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، وزلزلوا وأُزعِجوا وحركوا تحريكاً شديداً وبلغوا غاية الجهد والضيق.

وعلل الإمام الرازي هذا الابتلاء بقوله:

والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له بل لحكمة أخرى، وهي أن الله

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ١٩٨ بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ١٤٦.

(٣) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٣/ ١٣٤.

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ـ بتحقيق سيد صقر ص ٣٤٨.

تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء.

كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده من العبيد وغيرهم، فيأمره بأمر عالماً بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير، فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم[1].

ثم تحدث ـ سبحانه ـ بإسهاب عن موقف المنافقين في هذه الغزوة فقال تعالى:

﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾.

غروراً: من غرر يقال غررت فلاناً أصبت غُرتَه ونلت منه ما أريده.

والغرة غفلة في اليقظة، والغرار غفلة مع غفوة، وأصل ذلك من الغَرِّ وهو الأثر الظاهر من الشيء ومنه غُرَّة الفرس.

وغره كذا غروراً كأنما طواه على غرة[2].

وقوله تعالى: ﴿وإذ يقول المنافقون﴾.

شرع ـ سبحانه ـ في تفصيل موقف المنافقين الذين يظهرون الإيمان، ويخفون الكفر.

وقوله تعالى: ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾.

صفة أخرى للمنافقين فهم قلوبهم مريضة مليئة بالشبهات والوساوس.

وقال الألوسي: ظاهر العطف أنهم قوم لم يكونوا منافقين فقيل: هم قوم

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/١٩٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٣٥٨.

كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم.

وقيل: قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام.

وجوز أن يكون المراد بهم المنافقين أنفسهم والعطف لتغاير الوصف كقولك إلى الملك القرم وابن الهمام[١].

وقوله تعالى: ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾.

هذه مقالة المنافقين، ويقصدون أي ما وعدنا الله إلا باطلاً من القول.

قال القرطبي[٢]:

وذلك أن طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير وجماعة نحو من سبعين رجلاً قالوا يوم الخندق: كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز[٣]؟.

والمعنـــى:

اذكروا ـ أيها المؤمنون ـ لتزدادوا حذراً من المنافقين وأشباههم وقت أن قالوا على سبيل التهكم والتشكيك، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً وخداعاً.

ثم بينت الآيات مزيداً من مواقف المنافقين المخزية، فهم لم يكتفوا باتهام النبي ﷺ بخداعهم بل قام فريق منهم يدعوا إلى الفرار من المعركة قال تعالى:

﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾.

قوله تعالى: **﴿وإذ قالت طائفة منهم﴾** الطائفة تقع على الواحد فما

---

(١) تفسير الألوسي ٢١/١٥٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/١٤٦.

(٣) انظر رواية ابن إسحاق والبيهقي في أسباب النزول ص ٤٤٦.

فوقه[1]، واختلف في تحديدها، قال السدي: هم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، وقال مقاتل: هم بنو سَلِمَة، وقال أوس بن رومان: هم أوس بن قيظي وأصحابه بنو حارثة[2].

قوله تعالى: ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب﴾ يثرب: هي المدينة المنوّرة، وقال أبو عبيد: يثرب اسم أرض، والمدينة ناحية منها، وقال ابن كثير: يعني المدينة كما جاء في الصحيح: (أريت في المنام دار هجرتكم أرض بين حرتين فذهب وهلي أنها هجر فإذا هي يثرب) وفي لفظ المدينة[3].

وقال السهيلي: وسميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهائيل بن عوف بن عملاق بن لاوذ بن آدم[4].

وقال الراغب: التثريب التقريع بالذنب والثرب شحمة رقيقة، ويثرب يصح أن يكون أصله من هذا الباب[5]. هذا ويكره تسمية المدينة يثرب لورود النهي بذلك وما جاء هنا هو حكاية عن قول المنافقين وليس إقراراً للإسم[6].

وقوله: ﴿لا مقام لكم فارجعوا﴾ قال القرطبي: بفتح الميم قراءة العامة - أي عامة القراء - وقرأ حفص والسلمي والجحدري وأبو حيوة بضم الميم، يكون مصدراً من أقام يقيم أي لا إقامة، ومن فتح فهو اسم مكان، أي لا موضع لكم تقيمون فيه[7].

والمعنـــى:

يحدثنا - سبحانه - في هذه الآية عن أقوال المنافقين، فيخبرنا عن قول

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/١٣٦.

(٢) تفسير الألوسي ٢١/١٥٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٣.

(٤) تفسير القرطبي ١٤/١٤٦.

(٥) تفسير الألوسي ٢١/١٥٩.

(٦) انظر وفاء الوفا: ١/٨، والمدينة في العصر الجاهلي ص ٢٣ وتفسير الألوسي ٢١/١٥٩.

(٧) تفسير القرطبي ١٤/١٤٨.

طائفة منهم حيث قالوا: «يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا» أي لا مكان لكم وعليكم بالرجوع إلى المدينة واتركوا النبي - ﷺ - يواجه الأحزاب وحده.

ثم بينت الآية الكريمة كيفية انسحاب المنافقين من جبهة القتال فقد استأذنوا من النبي ﷺ معتذرين بشتى الأعذار الواهية قال تعالى: **﴿ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾**.

وأصل العورة من العار وذلك لما يلحق في ظهوره من العار والمذمة والعوار والعورة شق في الشيء كالثوب والبيت ونحوه[١].

والمراد يستأذن فريق من المنافقين النبي ويقولون له إن بيوتنا مكشوفة غير محروسة وهي في الحقيقة محصنة، فالمنافقون يكذبون ويختلقون الأعذار الواهية، وما مقصدهم من ذلك إلا الفرار من ساحة المعركة وترك المسلمين في أشد الظروف وأحرج الأوقات.

قال ابن كثير: قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السراق وكذا قال غير واحد[٢].

ونستفيد من هذه الآية أن موقف المنافقين كان سلبياً بل كانوا مرجفين.

فهم بدلاً من المساعدة قاموا بأشد مما قام به الأحزاب حيث انسحبوا في أحلك الأوقات ناشرين الأراجيف في الجيش الإسلامي بأن لا مقام لهم وأن بيوتهم مكشوفة.

ومعروف أن الأراجيف لها أثر كبير في هزيمة الجيوش وهي أشد من وقع السيوف وذلك لأنها تهبط الحالة المعنوية للجيش فيصيبه الخور والضعف.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب: ص ٣٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٣.

وهكذا مرت ساعات عصيبة على الجيش الإسلامي تعرض فيها المسلمون لأشد المحن وصدق الله العظيم حيث قال: **﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾**.

وتستمر الآيات في كشف خبايا المنافقين وما تضمره نفوسهم وما تتمناه قلوبهم وتهوى إليه أفئدتهم فقال تعالى:

﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾.

وقوله: **﴿دخلت﴾**: فعل مبني للمجهول والفاعل محذوف للعلم به والتقدير ولو دخل الأعداء، قال الألوسي: وفاعل الدخول من أهل الفساد من كان. أي لو دخل كل من أراد الدخول من أهل الدعارة والفساد بيوتهم وهم فيها[1].

والأقطار في قوله تعالى: **﴿من أقطارها﴾**: جمع قطر، قال الشوكاني: يعني بيوتهم أو المدينة، والأقطار: النواحي جمع قطر، وهو الجانب والناحية[2].

والمراد بالفتنة في قوله تعالى: **﴿ثم سئلوا الفتنة﴾** هي الدخول في الكفر. قال ابن كثير: يخبر سبحانه عن هؤلاء الذين **﴿يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾** أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف

---

(١) تفسير الألوسي ٢١/ ١٦١.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ٤/ ٢٦٧.

وفزع. هكذا فسرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير وهذا ذم في غاية الذم[1].

واختلف القراء في قراءة قوله: ﴿لأتوها﴾:

فقرأ عامة قراء المدينة وبعض قراء مكة (لأتوها) بقصر الألف، بمعنى جاؤوها منهم نافع وابن كثير، وقرأه بعض المكيين وعامة قراء الكوفة والبصرة (لآتوها) بمد الألف بمعنى لأعطوها[2].

وقال الجمل (لأتوها) بالمد والقصر سبعيتان[3].

والضمير المجرور في قوله: ﴿وما تلبثوا بها﴾: يعود إلى المدينة التي هي محل مساكنهم والمعنى على ذلك: ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين بيوتهم، ثم طلبوا منهم الدخول في الكفر لاستجابوا لهم بعد قبولهم للفتنة وما تلبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا يسيراً حتى يهلكهم الله، وذهب إلى هذا السدي والحسن[4].

ويرى كثير من المفسرين أن الضمير يعود إلى الفتنة والمعنى على ذلك: ما ترددوا في قبولها إلا زمناً قليلاً، ثم هرولوا إليها مسرعين، لضعف إيمانهم وفساد نفوسهم[5].

فالآية الكريمة تصور - أكمل تصوير - ما جبلت عليه نفوس هؤلاء المنافقين من جبن خالع، ومن مسارعة إلى الدخول في الكفر والفسوق والعصيان بدون تريث أو تفكير.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٣.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٦.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٣/ ٤٢٧.

(٤، ٥) انظر تفسير القرطبي ١٤/ ١٤٩.

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بما كانوا قد عاهدوه عليه من قبل فقال تعالى:

﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾.

قال الطبري: ذكر أن ذلك نزل في بني حارثة لما كان من فعلهم في الخندق بعد الذي كان منهم بأحد.

ثم قال عن يزيد بن رومان في قوله تعالى:

﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾ هم بعض بني حارثة، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أُحد مع بني سلمة حين هما بالفشل يوم أُحد، ثم عاهدوا الله لا يعودون لمثلها، ـ لكنهم عادوا ـ فذكر الله لهم الذي أعطوه أنفسهم[1].

المعنـى:

ولقد كان هؤلاء المنافقون ـ وهم بنو حارثة ـ ومن كان على شاكلتهم قد هربوا يوم أُحد وفروا من لقاء عدوهم، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا إلى مثلها وألا ينكصوا على أعقابهم حين قتالهم مع رسول الله ﷺ وقوله تعالى: **﴿وكان عهد الله مسؤولاً﴾** تذييل قصد به تأكيد ما للعهد من حرمة أي وكان عهد الله محلاً للسؤال يسأل عنه الوفاء به يوم القيامة، وسيجازي ـ سبحانه ـ الناقضين لهذا العهد بما يستحقونه من عقاب.

وفي قوله تعالى: **﴿لا يولون الأدبار﴾** كناية عن الفرار من الزحف[2].

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن فراركم لا يؤخر آجالكم ولا يطيل أعماركم فقال تعالى:

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٧ بتصرف يسير.

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٥١٨.

﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً﴾.

أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الفارين من قتال العدو ومنازلته في الميدان قل لهم: إن فراركم هذا لن ينجيكم من الموت متى حل بكم وقته، أو من القتل متى حضركم أوانه، فهذه سنّة الله في الكون، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[3].

فالآية الكريمة تحرض هؤلاء الجبناء على الثبات في وجوه الأعداء وتأمر النبي ﷺ أن يوبخهم على سوء أفعالهم، وأن يبين لهم أن الموت آتٍ لا ريب فيه، وأنهم حتى ولو فروا منه فسيدركهم، ولو بعد زمن يسير.

وقوله: ﴿وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً﴾ بيان لقلة تمتعهم بالحياة حتى وإن نجوا من الموت والقتل بالفرار.

فالمعنــى:

وإن نفعكم الفرار بأن دفع عنكم الموت فمتعتم بالحياة فإن ذلك التمتع لن يدوم إلا زمناً قليلاً، فإن أيام الحياة مهما طالت قصيرة.

ثم أكد ـ سبحانه ـ هذا المعنى السابق وهو أن فرارهم لن ينجيهم من الموت أو القتل فقال تعالى:

﴿قــل من ذا الـذي يعصمكم من الله إن أراد بكم ســوءاً أو أراد بكم رحمــة

---

(١) سورة نوح، آية ٤.

(٢) سورة الأعراف، آية ٣٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا﴾.

الاستفهام في قوله: **﴿من ذا الذي يعصمكم من الله؟﴾**:

للنفي قال الألوسي: استفهام في معنى النفي أي، لا أحد يمنعكم من الله ـ عزّ وجلّ وقدره جل جلاله إن خيراً وإن شراً[1].

والمعنـــى:

قل يا محمد لهؤلاء المنافقين على سبيل التوبيخ والتذكير: لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم شراً ـ من قتل أو بلاء ـ قدره الله عليكم، أو يؤتيكم خيراً إن لم يكن أراده لكم، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾[2].

وقوله ـ سبحانه ـ: **﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾** تذييل قصد به التأكيد لما سبق من الحض على الطاعة، والنهي عن الجبن والمعصية، أي ولا يجد هؤلاء المنافقون ولياً ينفعهم غير الله، ولا نصيراً يدفع السوء عنهم.

قال الرازي: أي ليس لكم ولي يشفع لمحبته إياكم ولا نصير ينصركم ويدفع السوء إذا أتاكم[3].

ثم يقرر ـ سبحانه ـ علمه المؤكد بالمرجفين والمُخَذِّلين من المنافقين فقال تعالى:

﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً﴾.

---

(١) تفسير الألوسي ٢١/١٦٣.

(٢) سورة فاطرة، آية ٢.

(٣) تفسير الرازي ٢٥/٢٠١.

قد: هنا للتحقيق والتأكيد، والتحقيق هنا أتى من موضوعها وهو علم الله ـ تعالى ـ لا من ذاتها.

قال أبو حيان: (قد) كربما في التعليل والصرف إلى معنى المضي يعني إذا دخلت على المضارع قال هذا ظاهر قول سيبويه، فإن خلت من معنى التقليل خلت غالباً من الصرف إلى معنى المضي، وتكون حينئذٍ للتحقيق والتوكيد نحو قوله: **﴿قد نعلم إنه ليحزنك﴾** وقوله: **﴿لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾**[1].

المعوقين: المثبطين عن القتال.

قال القرطبي: والمعوقين مشتق من عاقني عن كذا، أي صرفني عنه، وعوق: على التكثير.

والعوق: المنع والصرف يقال: عاقه يعوقه عوقاً وعوقه واعتاقه بمعنى واحد[2].

هلم: بمعنى أقبل.

قال الزمخشري: وهي لغة أهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة وأما تميم فيقولون: هلم يا رجل وهلموا يا رجال وهو صوت سمي به فعل متعد مثل احضر وقرب[3].

وهناك ثلاثة أقوال في تفسير قوله تعالى: **﴿والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾** ذكرها القرطبي فقال:

أحدها: أنهم المنافقون، قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة

---

(١) تفسير البحر المحيط ٤/ ١١٠.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ١٥١.
(٣) تفسير الكشاف ٣/ ٥٢٠.

رأس ـ أي هم قليل يشبعهم رأس واحد وهو جمع آكل ـ وهو هالك ومن معه فهلم إلينا.

وممن ذهب إلى هذا القول قتادة حيث قال:

كان المنافقون يقولون لإخوانهم من ساكني المدينة من الأنصار:

ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ـ يريدون أنهم قليلو العدد ـ لو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، فخلوهم[(١)].

وقال الشوكاني: قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ، وذلك أنهم قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وحزبه فخلوهم وتعالوا إلينا[(٢)].

الثاني: أنهم اليهود من بني قريظة، قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلم إلينا، أي تعالوا إلينا وفارقوا محمداً فإنه هالك وأن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحداً.

الثالث: ما حكاه ابن زيد:

أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال له أخوه ـ وكان من أمه وأبيه ـ هلم إليّ، قد يقع بك وبصاحبك، (أي قد أحيط بك وبصاحبك) فقال له كذبت، والله لأخبرنه بأمرك وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجده قد نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بقوله: **﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾**[(٣)].

هذا والذي أميل إليه أن الآية الكريمة تشمل كل من وقف موقفاً متخاذلاً في غزوة الأحزاب، ولم يشارك المؤمنين في جهادهم، ويدخل في ذلك

---

(١) تفسير الألوسي ٢١/ ١٦٤.

(٢) تفسير فتح القدير ٤/ ٢٦٩.

(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ١٥١.

المنافقون دخولاً أولياً فهم على رأس هؤلاء المعوقين للمؤمنين عن الجهاد.

وقوله تعالى: ﴿ولا يأتون البأس إلا قليلاً﴾:

البأس: القتال والحرب قال ابن قتيبة: في قوله: ﴿وحين البأس﴾[1] أي حين الشدة، ومنه يقال لا بأس عليك، وقيل للحرب: البأس[2].

قال الراغب: والبؤس والبأس والبأساء الشدة والمكروه إلا أن البأس في الفقر والحرب أكثر[3].

قال الطبري: ولا يشهدون الحرب والقتال إن شهدوا إلا تعذيراً ودفعاً عن أنفسهم[4].

المعنـــى:

الخطاب في الآية الكريمة للرسول ﷺ - فهي تابعة للآية السابقة - وهي تحذر هؤلاء المنافقين من الأعمال التي قاموا بها مؤكدة علم الله بهم وهم يثبطون المسلمين عن القتال وعن نصرة رسول الله ﷺ.

وكذلك أكدت علم الله بالمنافقين القائلين لإخوانهم من الأنصار هلم إلينا، فهم يريدون أن يبقى النبي ﷺ وحده في المعركة ليهلك فيحصل مبتغاهم، وهم مع هذا كله لا يشهدون القتال إلا نادراً - وذلك ليعتذروا به ويدفعون به التهم عن أنفسهم.

ويمكن أن نلخص أعمال المنافقين التي ذكرتها الآية كما يلي:

١ - أن المنافقين لم يكتفوا بالأنسحاب بدعوى أن بيوتهم عورة بل قاموا

---

(١) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٧٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب ص ٦٦.

(٤) تفسير الطبري ٢١/١٣٩.

بمحاربة المسلمين كجبهة داخلية منشقة تريد هدم معنويات الجيش الإسلامي.

٢ ـ استعمل المنافقون أساليب عديدة للوصول لغرضهم، منها:

أ ـ القيام بالتثبيط والإرجاف في الجيش الإسلامي.

ب ـ دعوة الجيش للتمرد والإنسحاب عن الجبهة وترك النبي ﷺ وحده يواجه الهلاك.

هذا ويستفاد من الآية ما يلي:

١ ـ تحذير المنافقين سوء عاقبة صنيعهم هذا وبيان أن الله محيط بهم عالم بما يصنعون.

٢ ـ تأكيد علم الله بجميع ما يصدر عن المنافقين من أفعال وأقوال ونيات سيئة.

٣ ـ فضح المنافقين وبيان أنهم لا يحضرون القتال إلا نادراً وأن قصدهم دفع التهم عنهم لا لرفع كلمة الله.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حالة المنافقين عند الخوف والأمن وعلل سبب ذلك منهم فقال تعالى:

﴿أشحةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

قوله: **﴿أشحةً عليكم﴾**: أشحة: جمع شحيح وهو البخيل[(١)].

قال الألوسي: و (أشحة) جمع شحيح على غير القياس إذ القياس فعيل

---

(١) تفسير البحر المحيط ٧/ ٢٢٠.

الوصف المضعف عينه ولامه أن يجمع على أفعلاء كضنين وأضناء وخليل وأخلاء، فالقياس أشحاء وهو مسموع أيضاً.

ونصبه عند الزجاج وأبي البقاء على الحال من فاعل (يأتون) على معنى تركوا الإتيان أشحة[1].

والمقصود أي بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة، فهم لا يودون مساعدتكم لا بنفس ولا مال، وقد جاءت عدة معانٍ لها عند السلف ذكرها القرطبي فقال: قوله تعالى: ﴿أشحة عليكم﴾ أي بخلاء عليكم في الحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله، قاله مجاهد وقتادة. وقيل: بالقتال معكم. وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم. وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها، قاله السدي[2].

والآية الكريمة لم تذكر المتعلق ليشمل شحهم كل ذلك من البخل والنفقة وغيرها.

وقوله: **﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾**.

تصوير بديع لما جبلت عليه نفوسهم من جبن خالع وشح شديد.

والمراد بالخوف هنا: هو الخوف من مقدمات القتال وهو إقبال العدو.

قال السدي: الخوف من قتال العدو إذا أقبل[3].

والمراد بقوله: ﴿تدور أعينهم﴾: أي أحداقهم والجملة حالية أي دائرة أعينهم من شدة الخوف والمعنى: تدير أعينهم أحداقهم[4].

---

(١) تفسير الألوسي ٢١/ ١٤٤.
(٢) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٥٢.
(٣) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٥٣.
(٤) تفسير الألوسي: ٢١/ ١٦٥.

والمراد من قوله: ﴿كالذي يغشى عليه من الموت﴾:

أي دوراناً كدوران عين الذي يغشى عليه.

قال في البحر: ﴿كالذي﴾ في موضع الصفة لمصدر محذوف وهو مصدر مشبه أي دوراناً كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت، فبعد الكاف محذوفان وهما دوران وعين[1]، وهي تشبيه تمثيلي وذلك لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

فالآية تبين حالة المنافقين وتكشف عن حقائق نفوسهم فهم أشحة على المؤمنين بكل خير، فنفوسهم تبطن كل شر وتبخل عن كل خير للمسلمين ومع ذلك تراهم إذا جاء الخوف بسبب إقبال الأحزاب ـ على المدينة ـ إذا بهم يشملهم الهلع ويلبسهم الذعر فإذا أفئدتهم هواء. فهم إذا ما أقبل العدو لقتالهم رأيتهم ـ أيها الرسول الكريم ـ ينظرون إليك في حيرة وخوف، ﴿تدور أعينهم﴾ في رؤوسهم، مثل دوران عين الذي يغشى عليه من الموت فهم جبناء تراهم ترتعد فرائصهم خوفاً وجبناً. وهو كما قال الزمخشري.

﴿ينظرون إليك﴾ في تلك الحالة كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً ولواذاً بك[2].

فالجملة الكريمة تصور جبنهم وذعرهم عند بوادر القتال تصويراً بليغاً معجزاً.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى ـ في سورة محمد ﷺ ـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠﴾[3].

---

(1) تفسير البحر المحيط ٧/ ٢٢٠.

(2) تفسير الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(3) سورة محمد، آية ٢٠.

وقوله: ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾.

تصوير لأحوالهم الذميمة بعد انتهاء القتال، فهم عند القتال جبناء وعندما ينتهي القتال إذا بهم يظهرون بمظهر الشجاعة والفصاحة كما قال القائل:

وإذا ما خلا الجبان بأرضه   طلب الطعن وحده والنزالا

وأصل السلق: بسط العضو ومده للقهر سواء كان يداً أو لساناً. فسلق اللسان الطعن والذم[1]. يقال سلق فلان فلاناً بلسانه: إذا أغلظ له القول مجاهراً[2].

﴿سلقوكم بألسنة حداد﴾ استعارة مكنية شبه اللسان بالسيف المصلت وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية[3].

وعبر بكلمة ﴿حداد﴾ أي لها تأثير في الأذية كتأثير الحديد[4].

وقال الألوسي: أي آذوكم بالكلام وخاصموكم بألسنة سلطة ذربة، قاله الفراء.

وعن قتادة: بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنائم يقولون: أعطونا أعطونا فلستم بأحق بها منا.

وعن يزيد بن رومان: بسطوا ألسنتهم في أذاكم وسبكم وتنقيص ما أنتم عليه من الدين[5].

---

(١) تفسير الألوسي: ٢١/١٦٥.
(٢) تفسير فتح القدير: ٣/ ٥٣٠.
(٣) صفوة التفاسير: ٢/٥١٨.
(٤) تفسير الجمل: ٣/٤٤٩.
(٥) تفسير الألوسي: ٢١/١٦٥.

والمراد: أن من صفات هؤلاء المنافقين أنهم إذا ما انتهى القتال وذهب الخوف، بسطوا ألسنتهم بالسوء للمؤمنين.

وقال الزمخشري عند تفسير هذه الآية: إذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة: نقلوا ذلك الشح إلى الخير ـ وهو المال أو الغنيمة ـ ونسوا تلك الحالة الأولى، واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتهم فقالوا: وفروا قسمتنا فإنا شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه[١].

وقوله: ﴿**أشحةً على الخير**﴾.

تأكيد لصفاتهم الذميمة ـ التي سبق الحديث عنها ـ أي:

أن من صفات هؤلاء المنافقين أنهم بخلاء بكل خير، وأسخياء بكل شر فهم إذا أخذوا الغنائم شحوا بها عن كل طريق للخير واختصوا بها لأنفسهم.

قال القرطبي: ﴿**أشحة على الخير**﴾ أي على الغنيمة، قاله يحيى بن سلام، وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله، قاله السدي[٢].

وقوله: ﴿**أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم**﴾.

أحبط: أبطل وأفسد.

ومنه الحبط: وهو فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة الكلأ فتنتفخ أجوافها، وربما تموت بذلك[٣].

هذا بيان لسوء عاقبتهم ولقبح مصيرهم. فإن المنافقين لم يؤمنوا إيماناً ينفعهم فهم كافرون بالله، فأبطل الله ـ تعالى ـ بسبب ذلك أعمالهم التي عملوها.

---

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٥٣٠ بتصرف يسير.
(٢) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٤٦.

قال الزمخشري:

فإن قلت هل يثبت للمنافق عمل يرد عليه الإحباط؟.

قلت: لا ولكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان وإن لم يواطئه القلب، وإنما يعمل المنافق من الأعمال يجزى عليه، فتبين أن إيمانه ليس بإيمان، وأن كل عمل يوجد منه باطل. وفيه حث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس، وأنها مما يذهب عند الله هباءاً منثوراً[1].

وقوله: ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

تذييل قصد به بيان أن ذلك الإحباط كان هيناً على الله فهم قوم يستحقونه جزاء نفاقهم وكفرهم.

ونستفيد من هذه الآية:

١ ـ عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالمؤمنين حيث كشف لهم أحوال المنافقين في حالتي الحرب والأمن.

٢ ـ كما بينت لهم أن هؤلاء المنافقين لم يؤمنوا فلذلك عملوا ما عملوا من أفعال قبيحة.

٣ ـ كما بينت عقوبة الله التي نزلت بهم وهي إحباط أعمالهم فلا يؤجرون عليها فهي هباءً منثوراً وبالتالي سيكون مصيرهم إلى النار.

ثم واصلت السورة الكريمة فضحها للمنافقين فقال تعالى:

﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في

---

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٥٣٠.

الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾.

قوله: **﴿بادون في الأعراب﴾** يقال باد وبدي، ومثل غاز وغزي. ويمد مثل صائم وصوام. وبدا فلان يبدو إذا خرج إلى البادية. وهي البداوة. والبداوة، بالكسر والفتح، وأصل الكلمة من البدو وهو الظهور[1].

وقوله تعالى: **﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾** كشف وتوضيح لجبن هؤلاء فهم من شدة الجزع والخوف يعتقدون أن الأحزاب لم يرحلوا عن المدينة، مع أنهم في الواقع قد رحلوا عنها.

وقوله تعالى: **﴿وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾** تأكيد لما اشتملت عليه الجمل السابقة من ذم لهؤلاء المنافقين.

أي: وإن يأت الأحزاب على سبيل الفرض ويعودوا مرة ثانية إلى المدينة تمنوا أن لو كانوا في البادية بعيدين عن المدينة، حتى لا ينالهم أذى ولا مكروه.

وقوله: **﴿يسألون عن أنبائكم﴾** تصوير لأحوالهم وهم خارج المدينة فهم يسألون كل قادم من جانب المدينة عن أخباركم أيها المؤمنون وعما يجري عليكم من الأحزاب فيتعرفون على أحوالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة خوفاً وجبناً.

وقوله: **﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾** بيان لما يترتب على وجودهم في حالة قتال المؤمنين لأعدائهم.

أي: ولو كانوا موجودين بينكم أيها المؤمنون في حالة قتالكم لأعدائكم لما قاتلوا معكم إلا قتالاً قليلاً لا وزن له.

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ١٥٥.

قال أبو حيان: ثم سلى الله نبيه عنهم وحقر شأنهم بأن أخبر أنهم لو حضروا ما أغنوا وما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً[1].

والذي يتدبر هذه الآيات الكريمة السابقة يراها:

أولاً: وقد كشفت عن صفات المنافقين الذميمة، وبينت أن الله لا يخفى عليه شيء من أحوالهم: **﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾**.

ثانياً: حذرت المؤمنين من مخالطة المنافقين عن طريق الكشف عن نواياهم الخبيثة وصفاتهم الذميمة فيبتعد حينئذٍ المؤمنون عنهم وعن الوقوع في أعمالهم وصفاتهم.

ثالثاً: تصوير ما جبل عليه المنافقون من جبن عند الحرب، ومن سوء أدب عند السلم ومنه المطالبة بالاشتراك في الغنائم.

وبذلك تكون الآيات قد أطنبت في شرح دور المنافقين في غزوة الأحزاب.

يقول سيد قطب:

وبهذا الخط ينتهي رسم الصورة. صورة ذلك النموذج الذي كان عائشاً في الجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة، والذي ما يزال يتكرر في كل جيل وكل قبيل، بنفس الملامح، وذات السمات.. ينتهي رسم الصورة وقد تركت

---

(١) تفسير البحر المحيط ٧/ ٢٢١.

في النفوس الاحتقار لهذا النموذج، والسخرية منه، والابتعاد عنه[1].

ثم دعا سبحانه المتخلفين عن القتال للتأسي بالنبي ﷺ فقال تعالى:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

و **﴿أسوة﴾**: الأسوة: القدوة والأسوة به ما يتأسى به ويقتدى به، وهي اسم وضع موضع المصدر وهو الإئتساء. يقال: ائتسى فلان بفلان أي اقتدى به. وفيها قراءتان سبعيتان إحداهما بكسر الألف والأخرى بضمها[2].

وقوله: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾**: اختلف في الخطاب لمن؟ على أقوال:

القول الأول: أن الخطاب للمؤمنين. فتكون الآية بداية للحديث عن موقف المؤمنين في هذه الغزوة.

ومن القائلين به:

١ ـ أبو حيان، فقد قال: والظاهر أن الخطاب في قوله: **﴿لقد كان لكم في رسول الله﴾** للمؤمنين لقوله قبل **﴿ولو كانوا فيكم﴾**، وقوله بعد **﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾**[3].

٢ ـ وقال الإمام الألوسي: الظاهر أن الخطاب للمؤمنين الخلص المخاطبين من قبل في قوله: **﴿عن أنبائكم﴾** وقوله سبحانه: **﴿ولو كانوا فيكم﴾**[4].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤١.
(٢) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٥٥، وتفسير الطبري: ٢١/ ١٤٣، وتفسير الجمل ٣/ ٤٣٠.
(٣) تفسير البحر المحيط ٧/ ٢٢٢.
(٤) تفسير الألوسي: ٢١/ ١٦٧.

القول الثاني: أن الخطاب للمنافقين فتكون الآية تابعة للآيات السابقة في الحديث عن موقف المنافقين من غزوة الأحزاب ومن القائلين به:

الطبري والقرطبي وسليمان الجمل والشوكاني والمراغي: حيث قالوا: هذا عتاب من الله للمتخلفين عن القتال[1].

القول الثالث: أن الخطاب ينصرف للمؤمن ولمن يظهر الإيمان، ومن القائلين به:

١ ـ الإمام تاج الدين أبي محمد أحمد القيسي تلميذ أبي حيان، فقد قال: الظاهر من قوله: ﴿لكم﴾ عموم الخطاب للمؤمن ولمن يظهر الإيمان[2].

٢ ـ وظاهر كلام ابن كثير يؤيده حيث يقول:

ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب.

وقوله كذلك: «ولهذا قال الله تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب»[3].

والذي تطمئن إليه النفس أن الآية الكريمة تأمر كل مسلم في كل زمان ومكان أن يتأسى بالنبي ﷺ في جهاده وأقواله وأفعاله، لأنه ﷺ هو القدوة الطيبة في كل قول طيب وعمل صالح.

ولا شك أن الآية هنا يدخل في الخطاب بها دخولاً أولياً كل من حضر غزوة الأحزاب من المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وكل من يتظاهر

---

(١) الطبري: ٢١/١٤٣، والقرطبي ١٤/١٥٥، وتفسير الجمل ٣/٤٢٩ وتفسير فتح القدير ٤/٢٧١، والمراغي ٢١/١٤٦.

(٢) كتاب الدر اللقيط من البحر المحيط (مطبوع في حاشية البحر المحيط ٧/ ٢٢١).

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٤.

بالإسلام، لكي يقلع عن تظاهره ونفاقه ويتأسى بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله.

والمعنــى:

لقد كان لكم أيها الناس في رسول الله ـ ﷺ ـ قدوة طيبة وأسوة حسنة فعليكم أن تلتفوا حوله، وأن تطيعوه في كل ما يأمركم به، وفي كل ما ينهاكم عنه.

وأن تتأسوا به في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته فلقد شج وجهه الشريف وكسرت رباعيته وقتل عمه حمزة وربط بطنه من الجوع ولم يكن إلا صابراً محتسباً لله.

وقوله: ﴿**لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾ بيان لمن هم أهل للتأسي والاقتداء.

أي هذه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو ثواب الله يوم يلقاه في الآخرة ولمن كان يكثر من مراقبته ـ سبحانه ـ وذكره.

قال سعيد بن جير: لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال[1].

وقال الألوسي: وضع ﴿**اليوم الآخر**﴾ بمعنى يوم القيامة موضع الثواب لأن ثوابه تعالى يقع فيه، فهو على ما قاله الطيبي: من إطلاق المحل على الحال[2].

وقد جاءت الأحاديث الشريفة تحث على ذكر الله:

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (سبق المفردون) قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال:

---

(١) تفسير القرطبي ٢١/١٤٣.

(٢) تفسير الألوسي ٢١/١٦٨.

(الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)[1].

وأخرج الإمام البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:

(يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم)[2].

قال ابن كثير: هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله[3].

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف المؤمنين حين لقاء الأحزاب واشتداد الكرب والخوف فقال تعالى: **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾**.

أي: وحين رأى المؤمنون جموع الأحزاب وقد قدموا لمهاجمة المدينة لم يهنوا بل قالوا على سبيل التصديق لوعد الله **﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾** أي: قالوا: **﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾** من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب.

فالمقصود بوعد الله ورسوله في هذه الآية هو: الابتلاء والامتحان ينزل بالمؤمنين ـ اختباراً لهم وتمحيصاً ـ فإذا ثبتوا وصبروا كان نصر الله قريباً منهم.

قال ابن عباس وقتادة:

يعنون قوله تعالى في «سورة البقرة»: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٤/ ٢٠٦٢ ورقم الحديث ٢٦٧٦.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب قول الله **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** ١٤٧/٩، وانظر فتح الباري ١٣/ ٣٨٤.

وصحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٤/ ٢٠٦١، ورقم الحديث ٢٦٧٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٤.

يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[1][2].

وقوله: ﴿وصدق الله ورسوله﴾.

حكاية لقول آخر من أقوالهم التي تدل على عظمة إيمانهم بصدق وعد الله وصدق رسول الله ﷺ في كل ما يخبرهم به.

أي: وصدق الله ـ تعالى ـ فيما وعدنا به من حسن العاقبة، وصدق رسوله ـ ﷺ ـ في كل ما جاء به من عند ربه.

وقوله: ﴿وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾.

شهادة من الله ـ تعالى ـ لهم بصدق الإيمان.

أي: وما زادهم هذا الابتلاء والشدة إلا إيماناً بالله وتسليما لأوامره وقضائه وطاعة لرسول ـ ﷺ ـ.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة للناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة أنه يزيد وينقص[3].

ثم وصف سبحانه المؤمنين الذين صدقوا في عهدهم لله، ومدحهم بقوله تعالى:

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٠.

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٧٠.

سبب النزول:

وقد ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية روايات: منها:

* أنها نزلت في أنس بن النضر وأصحابه.

روى ذلك الإمام البخاري[1] ومسلم[2] والإمام أحمد[3] والترمذي[4] وغيرهم:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ (واللفظ للبخاري) قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتالٍ قاتلتَ فيه المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أُحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين.

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها دون أحد.

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نرى ـ أو نظن ـ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه..﴾** الآية.

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب فضل الجهاد والسير ـ باب قوله تعالى: **﴿من المؤمنين رجال..﴾** الآية ٤/ ٢٣، وانظر فتح الباري ٦/ ٢١.

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب ثبوت الجنة للشهيد ٣/ ١٥١٢ ورقم الحديث ١٩٠٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٥٣.

(٤) الجامع الصحيح للترمذي ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة الأحزاب ٥/ ٣٤٨.

* ومنها أنها نزلت في طلحة بن عبيد الله وأصحابه:

روى الترمذي من حديث موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما طلحة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟، وكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إني طلعت من باب المسجد وعليَّ ثياب خضر، فلما رآني رسول الله ﷺ قال: أين السائل عمن قضى نحبه؟ قال: أنا يا رسول الله، قال هذا ممن قضى نحبه. وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير[(١)].

* ومنها أنها نزلت في مصعب بن عمير وأصحابه يوم أُحد:

قال القرطبي: روى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول في طريقه، فوقف عليه ودعا له، ثم تلا هذه الآية: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾**.

ثم قال رسول الله ﷺ: (أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه)[(٢)].

والذي أراه أن الآية الكريمة تصدق على كل من قتل في سبيل الله، بعد أن جاهد بإخلاص وثبات، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والله أعلم.

وقوله سبحانه: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾**.

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة الأحزاب ٥/ ٣٥٠.

(٢) تفسير القرطبي: ١٤/١٥٩، وانظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص ٢٣٧، وأسباب النزول للسيوطي ١٧٣. والحديث صحيح رجاله ثقات (انظر مرويات غزوة أُحد ص ١٣٦).

بيان لحال المؤمنين الصادقين في عهدهم. أي من المؤمنين بالله رجال صدقوا وأوفوا ما عاهدوا الله عليه من الصبر على البأساء والضراء والقتال في سبيله.

والجار والمجرور ﴿من المؤمنين﴾ خبر مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة ﴿رجال﴾، لأن ﴿صدقوا﴾ في موضع النعت.

وقوله: ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ بيان وتفصيل لأحوال المؤمنين الصادقين في عهدهم.

والنحب: يطلق على النذر والقتل والموت والنفس والخطر العظيم.

قال ابن قتيبة: قضى نحبه أي نذره وأصل النحب النذر[1]. وقال الطبري: والنحب النذر في كلام العرب. وللنحب أيضاً في كلامهم وجوه غير ذلك: منها الموت ومنها الخطر العظيم ومنها النحيب ومنها التنحيب[2].

وقال ابن حجر: والنحب أيضاً الخطر العظيم[3].

أي: من المؤمنين رجال أدركوا أمنيتهم وقضوا حاجتهم ووفوا بنذرهم فقاتلوا حتى قتلوا، فاستشهد بعضهم في بدر، وبعضهم في أحد كحمزة رضي الله عنه ومصعب بن عمير وأنس بن النضر رضي الله عنهم.

وبعضهم في غير هذه المواطن[4].

وقوله: ﴿ومنهم من ينتظر﴾.

بيان لمن لم يقض نحبه أنه ينتظر الوفاء بعهده وينتظر الشهادة في سبيل

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة «سورة الأحزاب» ص ٣٤٩.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ١٤٥ بتصرف يسير.

(٣) فتح الباري ٨/ ٥١٨.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٤٥، وتفسير فتح القدير ٤/ ٢٧٢.

الله حتى يحضر أجله كعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿ما بدلوا تبديلاً﴾.

تأكيد وبيان أنهم يلتزمون بالوفاء بعهدهم. والجملة معطوفة على ﴿صدقوا﴾: أي ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم، بل ثبتوا على عهدهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ العلة والحكمة في هذا الابتلاء والتمحيص، فقال تعالى:

﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

قال الإمام الشوكاني: اللام في قوله: ﴿ليجزي الله الصادقين﴾ يجوز أن يتعلق بصدقوا، أو بزادهم، أو بما بدلوا، أو بمحذوف، كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزي الله الصادقين بصدقهم(١).

فالآية توضح أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يختبر عباده بالخوف والقتال ليميز الخبيث من الطيب فيثيب الصادقين المؤمنين بصدقهم ووفائهم بعهدهم له.

وقوله: ﴿ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾.

بيان لحكمة الله في معاملة المنافقين فهم بين أمرين إما يعذبهم سبحانه أو يتوب عليهم.

أي: ﴿ويعذب المنافقين﴾ بسبب نفاقهم وشقاقهم ﴿إن شاء﴾، أي: إن

---

(١) تفسير فتح القدير ٤/ ٢٧٢.

شاء أن يعذبهم ولم يوفقهم للتوبة. ﴿**أو يتوب عليهم**﴾ إن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت[1].

ويؤخذ من الآية سعة رحمة الله فالباب مفتوح للمنافقين أن يعودوا إلى الجادة ويتوبوا فباب التوبة مفتوح فهل من مقبل؟.

وقوله: ﴿**إن الله كان غفوراً رحيماً**﴾ حث على التوبة والترغيب فيها ببيان أن الله غفور رحيم لمن تاب وصدق في توبته.

قال الطبري: إن قال قائل: ما وجه الشرط في قوله: ﴿**ويعذب المنافقين**﴾ بقوله: ﴿**إن شاء**﴾ والمنافق كافر وهل يجوز أن لا يشاء تعذيب المنافق، فيقال ويعذبه إن شاء؟.

قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي توهمته وإنما معنى ذلك:

ويعذب المنافقين بأن لا يوفقهم للتوبة من نفاقهم حتى يموتوا على كفرهم إن شاء، فيستوجبوا بذلك العذاب، فالاستثناء إنما هو من التوفيق لا من العذاب إن ماتوا على نفاقهم[2].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ بقية قصة غزوة الأحزاب مفصلاً كيفية انتهاء المعركة، فقال تعالى:

﴿**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً**﴾.

والمراد بالذين كفروا هنا: هم قريش وغطفان.

بغيظهم: بكربهم وغمهم، والغيظ هو أشد الغضب.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٦٠.

(٢) تفسير الطبري: ٢١/١٤٨.

لم ينالوا خيراً: المراد بالخير: الظفر بالنبي ﷺ والمؤمنين وقيل المال.

والأولى: أن يراد كل خير كانوا يأملون الحصول عليه من المؤمنين فالنكرة في سياق النفي تعم.

المعنــى:

ورد الله الذين كفروا من قريش وغطفان عن المدينة بأن أرسل عليهم ريحاً وجنوداً لم يروها، فعادوا بكربهم وغمهم لم ينالوا مما كانوا يأملونه من المؤمنين.

وقوله: **﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾**.

بيان لفضل الله على المؤمنين حيث كف الأحزاب عنهم.

أي: وكفى الله المؤمنين القتال مع الأحزاب فلم يحتج المسلمون لمنازلتهم ومبارزتهم بل صرفهم الله بالريح الباردة والملائكة حتى رحلوا عن المدينة.

وقوله: **﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾** أي: **﴿وكان الله قوياً﴾** على إيجاد كل ما يريده سبحانه، **﴿عزيزاً﴾** أي غالباً على كل شيء.

وبهذه الآية الكريمة ينتهي الحديث عن غزوة الأحزاب.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ ما حل ببني قريظة ـ الذين نقضوا العهد وعاونوا الأحزاب[1] فقال تعالى:

﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾.

---

(١) راجع أحداث غزوة بني قريظة ص ٤٣٤ من هذا الكتاب.

ظاهروهم: أعانوهم وعاضدوهم.

والمظاهرة: المعاونة، يقال: ظاهر فلان فلاناً: عاونه[1].

من أهل الكتاب: هم بنو قريظة.

من صياصيهم: حصونهم واحدها صيصية.

وأصل «الصياصي» قرون البقر، لأنها تمتنع بها، وتدفع عن أنفسها.

فقيل للحصون صياصي: لأنها تمنع[2].

والمعنـــى:

وأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ بقدرته وأمره يهود بني قريظة الذين عاونوا الأحزاب ونقضوا عهدهم مع النبي ﷺ من حصونهم التي كانوا يتحصنون بها.

وألقى في قلوبهم الرعب الشديد حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه الذي حكم فيهم قائلاً: آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم وإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال.

ومكنكم ـ أيها المؤمنون ـ من رقاب أعدائكم، حيث جعلكم تقتلون من يستحق القتل منهم وتأسرون من يستحق الأسر.

قال الشوكاني: ووجه تقديم مفعول الفعل الأول ﴿**تقتلون**﴾ وتأخير مفعول الثاني ﴿**تأسرون**﴾ أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة، وكان الوارد عليهم أشد الأمرين وهو القتل، كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام[3].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآيات التي تتحدث عن غزوة الأحزاب وبني قريظة

---

(١) لسان العرب ـ لابن منظور ٤/ ٥٢٥.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٩.

(٣) تفسير فتح القدير: ٤/ ٢٧٤.

ببيان النعم الجليلة التي منَّ بها على أوليائه المؤمنين بعد أن نصرهم على الأحزاب وبني قريظة فقال تعالى:

﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيءٍ قديراً﴾.

الخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين:

والمراد بأرضهم: أرض يهود بني قريظة وتشمل العقار والنخيل وغيرها.

والمراد بأموالهم: ما كانوا يملكونه من الحلي والأثاث والمواشي والسلاح والدراهم والدنانير[1].

والمعنـــى:

وأورثكم الله ـ تعالى ـ أيها المؤمنون ـ فضلاً منه وكرماً ـ أرض أعدائكم من يهود بني قريظة، كما أورثكم ديارهم وأموالهم، جزاءاً لكم على إخلاصكم في جهادكم.

قوله: **﴿وأرضاً لم تطؤوها﴾.**

بشارة من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالأرض التي سيفتحها الله لهم ولمن سيأتي بعدهم من المسلمين.

وقد اختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة على أقوال منها:

١ ـ أنها خيبر: عن يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل: أنها خيبر ولم يكونوا إذ ذاك نالوها[2].

٢ ـ أنها حنين: جاء ذلك أيضاً عن يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل[3].

---

(١) تفسير فتح القدير: ٤/ ٢٧٤.

(٢) تفسير فتح القدير: ٤/ ٢٧٤.

(٣) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٦١.

٣ ـ أنها مكة: قال قتادة: كنا نتحدث أنها مكة.

٤ ـ أنها فارس والروم: قال الحسن: هي فارس والروم.

٥ ـ أنها كل أرض تفتح إلى يوم القيامة: قاله عكرمة[١].

والذي نرجحه هو قول عكرمة رضي الله عنه لأنه يشمل الأقوال كلها، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً ما فتحه الله على المؤمنين في عهد نبيهم ـ ﷺ ـ من أرض خيبر وحنين ومكة.. الخ.

والمعنـــى:

أي وأورثكم ـ أيضاً ـ بفضله وكرمه ـ أرضاً لأعدائكم لم تطأها أقدامكم بعد.

فالجملة الكريمة بشارة من الله تعالى للمؤمنين، بأنه سيورثهم خلاف أرض يهود بني قريظة أرضاً أخرى لأعدائهم ستأتي بعد ذلك.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يؤكد كمال قدرته ونفاذ إرادته فقال تعالى: ﴿وكان الله على كل شيءٍ قديراً﴾ بحيث لا ترد قدرته، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال محمد عزة دروزة:

هذا والذي نرجحه أن الآيتين نزلتا مع الآيات السابقة في سياق واحد، وأن هذه وتلك قد نزلت بعد الوقعتين بسبيل ما احتوته من تعقيب وتذكير وتنويه وتنديد ومنٍ بفضل الله ونصره[٢].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٦١.

(٢) التفسير الحديث ٨/ ٢٥٦.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرضه لغزوة الأحزاب

المتأمل في الآيات التي نزلت في غزوة الأحزاب يجد السياق يرد الأمر كله لله. ويتحدث سيد قطب عن منهج القرآن في هذه الغزوة فيقول: «فهذا التعقيب المنتزع من الواقع، وهو التعقيب الذي يرد الأمر كله إلى الله وقد مضى السياق في المعركة كلها يرد الأمر كله إلى الله ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة، تبييناً لهذه الحقيقة الكبيرة التي يثبتها الله في قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة، وبالقرآن بعد الأحداث، ليقوم عليها التصور الإسلامي في النفوس وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم.

وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التي جاء القرآن ليقيمها في قلوب الجماعة المسلمة وفي حياتها على السواء. وهكذا تصبح الأحداث مادة «للتربية» ويصبح القرآن دليلاً وترجماناً للحياة وأحداثها، ولاتجاهها وتصوراتها، وتستقر القيم، وتطمئن القلوب بالابتلاء وبالقرآن سواء»[1].

والذي يتدبر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمور من أهمها ما يلي:

١ ـ تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٨٤٩.

اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾.

٢ ـ التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: **﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾** إلى قوله **﴿زلزالاً شديداً﴾**.

٣ ـ الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع ومعاذيرهم الباطلة ونقضهم للعهود، وبخلعهم بما في أيديهم وسوء أدبهم. ونرى ذلك في أمثال قوله ـ تعالى: **﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾** إلى قوله تعالى: **﴿ما قاتلوا إلا قليلاً﴾**.

٤ ـ حض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وجهاده وكلّ أحواله استجابة لقوله ـ تعالى ـ: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾**.

٥ ـ مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق، ووفاء بعهد الله تعالى. قال تعالى: **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾** إلى قوله ـ **﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾**.

٦ ـ بيان سنّة من سنن الله التي لا تتخلّف وهو جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم قال تعالى: **﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾**.

٧ ـ امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر حيث ألقى ـ سبحانه ـ الرعب في

قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله. قال تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيءٍ قديراً﴾.





الباب السادس

حديث القرآن عن غزوة الحديبية

تمهيد
غزوة الحديبية من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في ذي القعدة سنة ست من الهجرة.. وكلامنا عن هذه الغزوة يتضمن ما يأتي:

أولاً: أسبابها وتحديد زمانها.
ثانياً: أهم أحداث غزوة الحديبية.
ثالثاً: نتائج غزوة الحديبية.

غزوة الحديبية من خلال كتب السيرة والتاريخ

أولاً: أسبابها وتحديد زمانها:

الحديبية هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي تحتها[1] وتقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة وتعرف اليوم بالشميسي، وفيها حدائق الحديبية ومسجد الرضوان[2] وأطرافها تدخل في حدود الحرم المكي ومعظمها من الحل خارجه[3] وقد سميت الغزوة بها لأن قريشاً منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية[4].

سبب هذه الغزوة:

أن الرسول ﷺ رأى رؤيا في منامه ـ وهو في المدينة ـ[5] وتتلخص هذه الرؤيا أن النبي ﷺ رأى أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدياً للعمرة، وقد ساق الهدي معظماً للبيت، مقدساً له. فبشر النبي ﷺ أصحابه ففرحوا بها. وعزم الرسول ﷺ على الخروج للعمرة وكان خروج الرسول ﷺ

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٢٢٩.
(٢) نسب حرب: ص ٣٥٥.
(٣) زاد المعاد: ٣/ ٣٨٠.
(٤) المجتمع المدني في عصر النبوة/ ٢/ ١٢٧.
(٥) انظر تفسير الطبري: ٢٦/ ١٠٧، تفسير الكشاف: ٤/ ٥٤٩، وانظر سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٢٥، وانظر تفسير المراغي: ٩/ ١١٢، وانظر تفسير التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٩٧.

إلى الحديبية في يوم الاثنين مستهل ذي القعدة من السنة السادسة[1]، وقد قصد بخروجه العمرة.

ثانياً: أهم أحداث غزوة الحديبية:

تجهز المسلمون للسفر، وخرج ﷺ معتمراً ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربه، وليعلموا أنه ﷺ إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة.

واستنفر النبي ﷺ من حوله من أهل البوادي ممن أسلم من الأعراب من أسلم وغفار ومزينة وجهينة.

قال ابن إسحاق: «واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب[2]. . وهم الذين قال الله فيهم من سورة الفتح: ﴿**سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا. .**﴾ الآية[3].

وبلغ عدد المسلمين في الحديبية ألفاً وأربعمائة رجل، جاء هذا في رواية جابر في صحيح البخاري، قال: «وكنا ألفاً وأربعمائة»[4].

وإليك سياق قصة غزوة الحديبية من صحيح البخاري:

روى البخاري في صحيحه[5] من طريق الزهري قال أخبرني عروة بن

---

(١) المجتمع المدني في عصر النبوة ٢/ ١٢٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٠٨، وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٢٠.

(٣) آية رقم ١١، وانظر تفسيرها ص ٥١٣ من هذا الكتاب.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الحديبية: ٥/ ١٥٧، وانظر الفتح: ٧/ ٤٣٣.

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد: ٣/ ٢٥٨، وانظر فتح الباري ٥/ ٣٣٢.

الزبير عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا:

«خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: (إن خالد بن الوليد بالغميم[1] في خيل لقريش طليعةً[2] فخذوا ذات اليمين).

فوالله ما شعر بهم خالد حتى هم بقترة[3] الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس: حَلْ حَلْ[4] يزجرونها لتنهض، فألحت فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: (ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حَبَسها حابسُ الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألونني خُطّة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها).

ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرّضه الناس تبرّضاً[5] فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال بُديل: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن

---

(١) المراد كراع الغميم، وهو موضع بين مكة والمدينة (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: ٢/ ١٠٠٢) وانظر فتح الباري: ٥/ ٣٣٥.

(٢) الطليعة: مقدمة الجيش (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥).

(٣) القترة: بفتح القاف والمثناة الغبار الأسود: (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥).

(٤) حَلْ: بفتح المهملة وسكون اللام كلمة تقال للناقة إذا تركت السير (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥).

(٥) (يتبرضه الناس) بالموحدة والتشديد والضاد المعجمة هو الأخذ قليلاً قليلاً (فتح الباري ٥/ ٣٣٧).

لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل[1] وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: (إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدّة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمُّوا[2] وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره).

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ. . الحديث»[3].

رسل النبي ﷺ إلى قريش:

وقد سعى الرسول ﷺ لبيان موقفه أمام الناس جميعاً فأرسل رسله تترى إلى قريش يعلنون مقصده، فأرسل خراش بن أمية الخزاعي فأرادت قريش قتله لولا أن منعهم الأحابيش، وأراد أن يرسل عمر بن الخطاب ثم عدل عنه إلى عثمان بن عفان عندما بين عمر شديد عداوته لقريش، وأنها تعلم ذلك وأن بني عدي قومه لا يحمونه.

فذهب عثمان إلى قريش، فأجاره أبان بن سعيد بن العاص حتى أبلغهم

---

(١) (معهم العوذ المطافيل) العوذ بضم المهملة وسكون الواو بعدها معجمة جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها، يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يمنعوه. (فتح الباري: ٥/٣٣٨).

(٢) (قد جمّوا) أي استراحوا، وهو بفتح الجيم وتشديد الميم المضمومة أي قووا، (فتح الباري: ٥/٣٣٨).

(٣) انظر بقية الرواية صفحة ٤٩٩ من هذا الكتاب.

رسالة النبي ﷺ. وقد سمحت له قريش بالطواف فأبى أن يسبق الرسول ﷺ بالطواف، وقد أخرته قريش فحسب المسلمون أنها قتلته[١].

بيعة الرضوان:

قال ابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ، قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم. فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر. . .[٢] ولا تعارض في ذلك لأن المراد بالمبايعة على الموت أن لا يفروا. وبايع الصحابة جميعاً إلا الجد بن قيس، وأول من بادر إلى البيعة أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي، ثم تتابع الأصحاب، وقد أثنى الرسول ﷺ على موقف الصحابة ومبادرتهم إلى البيعة، فقال: (أنتم خير أهل الأرض)[٣]، وقال: (لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها)[٤]، ولما كان عثمان محبوساً في قريش فقد قال النبي ﷺ بيده اليمنى: (هذه يد عثمان، فضرب بها على يده، فقال هذه لعثمان)[٥] فعد في المبايعين تحت الشجرة، ولكن عثمان رجع إلى المسلمين بعد بيعة الرضوان مباشرةً.

رسل قريش إلى النبي ﷺ:

روى البخاري في صحيحه[٦] من طريق الزهري قال: أخبرني عروة بن

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥، وانظر المجتمع المدني في عصر النبوة ـ ٢/ ١٣٣.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣١٥، وانظر تاريخ الطبري: ٢/ ٦٣٢.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الحديبية: ٥/ ١٥٧، وانظر فتح الباري: ٤٤٧.
(٤) صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أصحاب الشجرة: ٤/ ١٩٤٢.
(٥) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه: ٥/ ١٩، وانظر الفتح ٧/ ٥٤.
(٦) هذا تكملة الحديث السابق ذكره صفحة ٤٩٧ من الكتاب.

الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث الآخر: فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلَّحوا عليّ[1] جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً[2] من الناس خليقاً أن يفرُّوا ويَدَعوك.

فقال أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه.

فقال عروة: من هذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته (ﷺ) والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر[3] فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل السيف[4] وقال له: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ.

---

(١) (فلما بَلَّحوا) بالموحدة وتشديد اللام المفتوحتين ثم مهملة مضمومة أي امتنعوا والتبلح التمنع من الإجابة (فتح الباري: ٥/ ٣٣٩).

(٢) (أشواباً) الأشواب الأخلاط من أنواع شتى (فتح الباري: ٥/ ٣٤٠).

(٣) في رواية أبي الأسود عنه «أن المغيرة لما رأى عروة بن مسعود مقبلاً لبس لامته وجعل على رأسه المغفر ليستخفي من عمه (فتح الباري: ٥/ ٣٤١).

(٤) (بنعل السيف) هو ما يكون أسفل القراب من فضة وغيرها (فتح الباري: ٥/ ٣٤١).

فرفع عروة: رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، قال عروة: أي غُدَر ألست أسعى في غدرتك[1] - وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: (أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء).

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال لهم: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت إلى قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، فإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له.

وإنه قد عرض عليكم خطة رشدٍ فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة - «هو الحليس بن علقمة سيد الأحابيش» - دعوني آته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: (هذا فلان وهو من قوم يعظمون البُدْن فابعثوها له) فبعث له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأشعِرتَ، فما أرى أن يصدوا عن البيت.

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته،

---

(١) أي ألست أسعى في دفع شر غدرتك، حيث دفع عروة بن مسعود عم المغيرة دية من قتلهم في الجاهلية قبل إسلامه. (الفتح: ٥/ ٣٤١).

فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز وهو رجل فاجر، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي ﷺ قال: (قد سهل لكم من أمركم).

وقوع الصلح:

قال معمر، قال الزهري في حديثه[1]: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنت تكتب فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال النبي ﷺ: اكتب (باسمك اللهم) ثم قال: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله» فقال النبي ﷺ: (والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب: محمد بن عبد الله) قال الزهري: وذلك لقوله: (لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) فقال له النبي ﷺ: (على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به) فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة[2] ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منّا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا». قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردَّهُ إليّ. فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد. قال: فوالله إذاً لن أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: فأجزه لي قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل. قال

---

(١) تكملة الحديث السابق الذي أوله في صفحة: ٤٩٧ من هذا الكتاب.

(٢) ضغطة: بضم الضاد وسكون الغين المعجمتين ثم طاء مهملة أي قهراً (فتح الباري: ٥/ ٣٤٣).

مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله قال: فقال عمر بن الخطاب:

فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدَّونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوفٌ به. قال: فأتيت أبا بكر فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى: قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى: قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً[1]، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾** حتى بلغ **﴿بعصم الكوافر﴾**[2].

---

(١) المراد أعمالاً صالحة ليكفر عنه ما مضى من التوقف في الامتثال ابتداءً (فتح الباري: ٥/٣٤٦).

(٢) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

فطلق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من ثمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد[1] وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: (لقد رأى ذعراً)[2] فلما انتهى إلى النبي ﷺ، قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم قال النبي ﷺ: (ويلُ أمِّه مِسْعَرَ حرب لو كان له أحد) فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر.

قال وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحقَ بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿**وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم**﴾[3] حتى بلغ ﴿**الحمية حمية الجاهلية**﴾[4] وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم

---

(١) برد بفتح الموحدة والراء أي خمدت حواسه وهي كناية عن الموت (فتح الباري ٥/ ٣٤٩).

(٢) ذعراً: خوفاً. (فتح الباري: ٥/ ٣٤٩).

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٤.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٦.

الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت»[1].

ثالثاً: نتائج غزوة الحديبية:

غزوة الحديبية من الغزوات الهامة، روى البخاري عن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية...[2] وإليك أهم نتائجها:

أولاً: ترتبت على الصلح آثار إيجابية هامة منها:

١ ـ اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان المسلمين. فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة[3].

٢ ـ دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام وقد تجلت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم[4].

٣ ـ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام وتعريف الناس به مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه.

يقول الإمام الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد: ٣/٢٥٨، وانظر فتح الباري: ٥/٣٣٢.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الحديبية: ٥/١٥٤، وانظر فتح الباري: ٧/٤٤١.

(٣) مرويات غزوة الحديبية لحافظ محمد الحكمي. ص ٢٦٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٦٩.

بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك[1].

وعقب عليه ابن هشام بقوله: والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[2].

٤ ـ أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

٥ ـ مفاوضات الصلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ويميلون إليه. فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبون قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فلما رجع إلى أصحابه قال: لقد رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت[3].

٦ ـ مكن صلح الحديبية النبي ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة فكانت بداية نقل الدعوة الإسلامية إلى خارج الجزيرة العربية.

٧ ـ تمكن النبي ﷺ أثناء صلح الحديبية من إرسال رسائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

٨ ـ كان صلح الحديبية سبباً ومقدمة لفتح مكة.

يقول ابن القيم:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٢٢.

(٣) من رواية البخاري ـ كتاب الشروط ـ كتاب الشروط في الجهاد: ٣/٢٥٨، وانظر فتح الباري: ٥/ ٣٣٢، وانظر تاريخ الطبري: ٢/ ٦٢٨.

«كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده ودخل الناس به في دين الله أفواجاً فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً أن يوطىء لها بين يديها بمقدمات وتوطيئات تؤذن لها وتدل عليها[1].

ثانياً: كسب المسلمون الذين شهدوا هذه الغزوة بسببها فوائد كثيرة - أخروية ودنيوية - وأهمها ما يلي:

أ - فازوا برضى الله عزّ وجلّ عنهم:

قال تعالى: ﴿۞لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[2].

ب - أخبرهم النبي ﷺ: أن الله قد غفر لهم. ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -: «فقال رسول الله ﷺ كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر[3]، والمراد بصاحب الجمل الأحمر قال النووي: قال القاضي: قيل هذا الرجل هو الجد بن قيس، المنافق[4].

جـ - شهد لهم النبي ﷺ: بأنهم خير أهل الأرض. ففي صحيح البخاري من حديث جابر: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية (أنتم خير أهل الأرض)[5].

د - بشرهم النبي ﷺ بالنجاة من النار، ففي صحيح مسلم من حديث أم

---

(١) زاد المعاد: ٢/٣١٨ - بتصرف يسير.

(٢) سورة الفتح، آية ١٨.

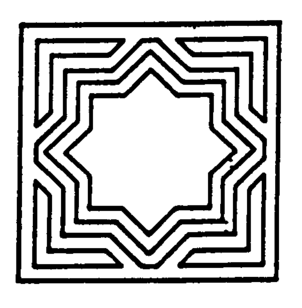
(٣) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: ٤/٢١٤٤ رقم الحديث (١٢ - ٢٨٨٠).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٧/١٢٧.

(٥) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية ٥/١٥٧ وانظر الفتح ٤٤٧.

مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: (لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها)[١].

هـ ـ قسمت عليهم غنائم خيبر وحرم منها أعراب المدينة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة[٢].



(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أصحاب الشجرة: ٤/ ١٩٤٢.
(٢) مرويات غزوة الحديبية ـ لحافظ محمد حكمي ـ ص ٢٧٠ ـ بتصرف ـ.

الفَصل الأول

حديث القرآن عن غزوة الحديبيّة وتفسير الآيات الواردة في ذلك

تحدث القرآن الكريم عن غزوة الحديبية في سورة الفتح، وسورة الفتح نزلت والنبي ﷺ عائد من الحديبية، ففي صحيح البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: ثكلت أم عمر، نزرت[1] رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك ولا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في القرآن فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخُ لي، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: (لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس). ثم قرأ: **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾**[2].

قال ابن حجر: وجاء في رواية الطبراني عن ابن مسعود أن السفر المذكور هو عمرة الحديبية. وجاء عن أنس لما رجعنا من الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن في الحزن والكآبة فنزلت[3].

---

(١) نزرت: بزاي ثم راء بالتخفيف والتثقيل والتخفيف أشهر، أي ألححت عليه (فتح الباري ٥٨٣/٧).

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً: ١٦٨/٦. وانظر فتح الباري: ٥٨٢/٧.

(٣) فتح الباري: ٥٨٣/٧.

وإليك تفسير الآيات التي جاءت في هذه الغزوة:

سبب غزوة الحديبية

كان سبب هذه الغزوة أن الرسول ﷺ رأى رؤيا في منامه ـ وهو في المدينة ـ وتتلخص الرؤيا في أن النبي ﷺ رأى أنه قد دخل مكة مع أصحابه فقصها النبي ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم ففرحوا بها. وعزم الرسول ﷺ الخروج للعمرة، فلما وقع الصلح ـ صلح الحديبية ـ قال البعض من المسلمين: أين الرؤيا التي رآها الرسول ﷺ؟.

فقال تعالى:

﴿لقد صدقَ اللّهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقِ لتدخلنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين مُحلقِينَ رؤوسَكُم ومُقَصِّرينَ لا تخافونَ فعلم ما لم تعلموا فجعلَ من دونِ ذلك فتحاً قريباً﴾.

الرؤيا: ما يُرى في المنام وهو فُعْلَى وقد يخفف فيه الهمزةُ فيقال بالواو[1].

بالحق: حال من الرؤيا. أي متلبسة بالحق، ليست من قبيل أضغاث الأحلام.

لقد صدق الله رسوله الرؤيا: أي صدقه في رؤيا ولم يكذّبه.

لتدخلن: جواب قسم محذوف. أي: والله لتدخلن.

المسجد الحرام إن شاء الله آمنين: تعليق للمدة بالمشيئة، لتعليم العباد.

محلقين رؤوسكم ومقصرين: حال مقدرة، لأن الدخول في حال الإحرام

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٢٠٩.

لا في حال الحلق والتقصير، وفي الكلام تقدير، أو هو من نسبة ما للجزء إلى الكل. والمعنى: محلقاً بعضكم، ومقصراً آخرون. والقرينة عليه: أنه لا يجتمع الحلق والتقصير، فلا بدّ من نسبة كل منهما لبعض منهم[١].

ما جاء في سبب نزول هذه الآية:

١ ـ أخرج الطبري بسنده عن ابن زيد: في قوله: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق**﴾. . إلى آخر الآية. قال: قال لهم النبي ﷺ: (إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم ومقصرين) فلما نزل بالحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أين رؤياه؟ فقال الله: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق**﴾[٢].

٢ ـ وقال ابن كثير: كان رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو في المدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام. فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: (بلى فأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟) قال: لا، قال النبي ﷺ: (فإنك آتيه ومطوف به) ولهذا قال تعالى: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق**﴾ الآية[٣].

وقال الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية:

أي لقد صدق الله رسوله محمداً ﷺ رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو

---

(١) تفسير القاسمي: ١٥/ص ٩٤، ٩٥.

(٢) تفسير الطبري: ٢٦/١٠٧.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/٢٠١.

وأصحابه البيت الحرام آمنين لا يخافون أهل الشرك، محلقاً بعضهم ومقصراً بعضهم الآخر، فعلم جل ثنائه ما لم تعلموا، وذلك هو علمه تعالى بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها هذا العام لوطئوهم بالخيل والرَّجْل، فأصابتهم معرة بغير علم، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك، فجعل من دون دخولهم المسجد فتحاً قريباً وهو صلح الحديبية وفتح خيبر لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر اليوم الموعود[1].

هل الرؤيا حقاً هي سبب الغزوة؟:

يقول الشيخ حافظ حكمي في مرويات غزوة الحديبية:

وقد ترددت كثيراً في إثبات الرؤيا سبباً للغزوة لأن أول من أثبتها هو الواقدي بينما أغفلها من هو أثبت منه كابن إسحاق وابن سعد وغيرهما. لكن بعد البحث والتتبع وجدت ما يشهد لها ويدل على أن لها أصلاً وذلك من القرآن والسنّة:

قال تعالى: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق**...﴾ الآية.

وقد ذكر المفسرون أن سبب نزول هذه الآية هو التساؤل الذي حصل حول الرؤيا[2].

وقد أشار إلى أن الدليل من السنة: هو ما رواه البخاري في صحيحه ـ من حديث المسور ومروان من رواية معمر ـ: «**فقال عمر بن الخطاب**: يا رسول الله كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: (بلى، فأخبرتك أنك تأتيه هذا العام؟) قال: لا. قال: (فإنك آتيه ومطوف به)»[3].

---

(١) تفسير المراغي: ٩/١١٣.

(٢) مرويات غزوة الحديبية ص ٢٢.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط: ٣/ ٢٥٢ وانظر فتح الباري: ٥/ ٣٣٢.

أما تأويل الرؤيا فكان في عمرة القضاء. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ كان تأويل رؤياه في عمرة القضاء[1].

أقول: من ميزة حديث القرآن عن الغزوات أنه يثبت ويقوي صحة وقوع بعض الحوادث، ومثاله: سبب هذه الغزوة فقد أثبتها القرآن بقوله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ هذا السبب بعض أئمة المغازي لم يورده، لكنه ثبت بهذه الآية.

موقف الأعراب عندما طلب الرسول ﷺ منهم الخروج معه من المدينة إلى مكة:

عندما أراد النبي ﷺ الخروج كان يتوقع أن تصده قريش، لذلك أراد أن يخرج بأكبر عدد من المسلمين فاستنفر أهل البوادي من الأعراب فأبطأوا عليه، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، وقد سجل القرآن الكريم على الأعراب هذا الموقف الضعيف. فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾[2].

المُخَلَّفون: واحدهم مُخَلَّف، وهو المتروك في المكان خلف الخارجين منه[3].

الأعراب: المشهور أنهم سكان البوادي من العرب[4].

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٧/ ٥٣٨.

(٢) سورة الفتح، آية ١١.

(٣) تفسير المراغي: ٩/ ٩٢.

(٤) التفسير الواضح: ٢٦/ ٤٢.

قال في التسهيل: سماهم تعالى بالمخلفين لأنهم تخلفوا عن غزوة الحديبية ـ والأعراب هم أهل البوادي من العرب ـ لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة يعتمر، رأوا أنه يستقبل عدواً كثيراً من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج معه، ولم يكن إيمانهم متمكناً فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر، ففضحهم الله في هذه السورة وأعلم تعالى رسوله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم[١] وقال مجاهد وابن عباس: يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع[٢].

قوله: ﴿**يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم**﴾.

أي أن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في القلب فهو كذب صراح.

وقوله: ﴿**قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً، بل كان الله بما تعملون خبيراً**﴾.

الملك: إمساك بقوة وضبط، تقول ملكت الشيء إذا دخل تحت ضبطك دخولاً تاماً، ومنه لا أملك رأس بعيري إذا لم تستطع إمساكه إمساكاً تاماً، والمراد.

بالضر: ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما.

وبالنفع: ما ينفع من حفظ المال والأهل[٣].

والمعنـى:

قال مجاهد وغيره: المخلفون من الأعراب هم جهينة، ومزينة، وغفار،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ٤/ ٥٢.

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٦٨.

(٣) تفسير المراغي: ٩/ ٩٢، وتفسير الألوسي: ٢٦/ ٩٨.

وأشجع، وأسلم استنفرهم رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً، ورأى أولئك الأعراب أنه عليه الصلاة والسلام يستقبل عدداً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم فقعدوا عن النبي ﷺ وتخلفوا وقالوا: نذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم وقالوا: لن يرجع محمد ﷺ ولا أصحابه من هذه السفرة ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم رسوله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم فكان كذلك[١].

أقول: وهذ من كمال عنايته سبحانه بالنبي ﷺ والمؤمنين حيث أطلعهم على حقيقة هؤلاء الأعراب حيث قال: **﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾**.

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم حين اعتذروا بتلك الأباطيل فقال: **﴿قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾** هذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنهم الضر ويجلب لهم النفع[٢].

ثم أبان لهم أنه عليم بجميع نواياهم وأن ما أظهروه من العذر هو غير ما أبطنوه من الشك والنفاق فقال: **﴿بل كان الله بما تعملون خبيرا﴾** فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير، بل كان شكاً ونفاقاً[٣].

ثم بين ـ سبحانه ـ السبب الحقيقي في تخلف أولئك الأعراب فقال:

---

(١) تفسي الألوسي: ٢٨/٩٨.
(٢) تفسير القرطبي: ١٦/٢٦٩.
(٣) تفسير المراغي: ٩/ ٩٤.

﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسولُ والمؤمنونَ إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً﴾.

ينقلب: أي يرجع.

إلى أهليهم: أي عشائرهم وذوي قرباهم.

بوراً: أي هالكين لفساد عقائدكم وسوء نياتكم.

سعيراً: أي ناراً مسعورة موقدة ملتهبة[1].

والمعنــى:

السبب الحقيقي في تخلفكم ليس هو كما تقولون أبداً، وإنما هو ظنكم أن محمداً وأصحابه قلة فكيف يحاربون قريشاً ومن حولها وكانوا بالأمس يحاربونهم على أبواب المدينة - في غزوة الخندق - وزين ذلك في قلوبكم أيها المتخلفون، والذي زينه هو الشيطان، ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أو هو الله ﴿زينا لهم أعمالهم﴾ وظننتم ظناً سيئاً، وكنتم قوماً هلكى، لا خير فيكم أبداً...[2].

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾[3].

قال القرطبي: وعيد لهم، وبيان أنهم كفروا بالنفاق، ثم بين - سبحانه - بأنه غني عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى.

---

(١) نفس المصدر: ٩/ ٩٢.
(٢) التفسير الواضح: ٢٦/ ٤٣.
(٣) سورة الفتح، آية ١٣، ١٤.

ثم وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها أحد فلما أراد النبي ﷺ الخروج إلى خيبر. وعلم المخلفون من الأعراب رغبوا في الخروج مع النبي ﷺ طلباً للغنيمة فبين ـ سبحانه ـ موقفهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾(١).

قال ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم(٢).

والمراد بالغنائم: مغانم خيبر، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرةً خصهم بها(٣).

وقوله: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾.

قال القرطبي: المعنى يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد لأهل الحديبية، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح، قاله مجاهد وقتادة، واختاره الطبري وعامة أهل التأويل(٤).

---

(١) سورة الفتح، آية ١٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/١٨٩.

(٣) تفسير القاسمي: ١٥/ ٨٠.

(٤) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٧١.

وقوله: ﴿كذلكم قال الله من قبل﴾ أي من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة.

قوله: ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ أن نصيب معكم من الغنائم. وقيل قال رسول الله ﷺ: (إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم). فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى: ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾[1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ وأصحابه: ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب من أنكم إنما تمنعونهم من اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنماً، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وعليهم من أمر الدين إلا قليلاً يسيراً، ولو عقلوا ذلك ما قالوا لرسول الله والمؤمنين به، وقد أخبروهم عن الله تعالى ذكره أنه حرمهم غنائم خيبر، إنما تمنعونا من صحبتكم إليها لأنكم تحسدوننا[2].

ثم قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾[3].

قال الزهري ومقاتل وجماعة: المراد بالقوم أولي البأس الشديد بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب.

وقال قتادة:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٧١.
(٢) تفسير الطبري: ٢٦/ ٨٢.
(٣) سورة الفتح، آية ١٦.

هم هوازن وغطفان، وقال ابن عباس ومجاهد: هم أهل فارس، وقال الحسن: هم فارس والروم، وقال ابن جرير: إنه لم يقم دليل من نقل ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين..[1].

وقال الشيخ محمد بن عاشور:

في الآية الكريمة: «انتقال إلى طمأنة المخلفين بأنهم سينالون مغانم في غزوات آتية ليعلموا أن حرمانهم من الخروج إلى خيبر مع جيش الإسلام ليس لانسلاخ الإسلام عنهم ولكنه لحكمة نوط المسبّبات بأسبابها على طريقة حكمة الشريعة فهو حرمان خاص بوقعة معينة كما تقدم آنفاً، وأنهم سيدعون بعد ذلك إلى قتال قوم كافرين كما تدعى طوائف المسلمين، فذكر هذا في هذا المقام إدخال للمسرة بعد الحزن ليزيل عنهم انكسار خواطرهم من جراء الحرمان».

وفي هذه البشارة فرصة لهم ليستدركوا ما جنوه من التخلف عن الحديبية وكل ذلك دال على أنهم لم ينسلخوا عن الإيمان، ألا ترى أن الله لم يعامل المنافقين المبطنين للكفر بمثل هذه المعاملة في قوله: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2].

وكرر وصف: **﴿من الأعراب﴾** هنا ليظهر أن هذه المقالة قصد بها الذين نزل فيهم قوله: **﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾** فلا يتوهم السامعون أن المعنى بالمخلفين كل من يقع منه التخلف»[3].

---

(١) تفسير المراغي: ٩/ ٩٨.

(٢) سورة التوبة، آية ٨٣.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٧٠، ١٧١.

والمعنــى:

قل يا محمد لهؤلاء المتخلفين: ستدعون إلى محاربة قومٍ أولي بأس شديد فعليكم أن تخيروهم بين أمرين: إما السيف وإما الإسلام وهذا حكم عام في مشركي العرب والمرتدين يجب اتباعه ثم وعدهم إذا أجابوا بقوله:

﴿فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً﴾.

أي فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طُلب منكم أداؤه يؤتكم ربكم الأجر الحسن، والثواب الجزيل، فتنالوا المغانم في الدنيا، وتدخلوا الجنة في الآخرة.

كما وعد من نكص على عقبيه بقوله: **﴿وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً﴾.**

أي وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته، وتخالفوا أمره إياكم بالمسير مع رسوله ﷺ إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالمذلة في الدنيا والنار في الآخرة[1].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الأعذار المبيحة للتخلف عن القتال فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾[2].

قال الإمام الرازي:

بين ـ سبحانه ـ من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما لسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر وبين ذلك ببيان ثلاثة أصناف:

---

(١) تفسير المراغي: ٩/٩٩.
(٢) سورة الفتح، آية ١٧.

الأول: الأعمى فإنه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب، والأعرج كذلك والمريض كذلك. وفي معنى الأعرج: الأقطع والمقعد، بل ذلك أولى بأن يعذر ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يعذر، وكذلك المرض القليل الذي لا يمنع من الكر والفر[1].

والمعنـــى:

أي لا إثم على ذوي الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد وشهود الحرب مع المؤمنين إذا هم لقوا عدوهم للعلل التي بهم، والأسباب التي تمنعهم من شهودها كالعمى والعرج والمرض.

قال مقاتل عذر الله أهل الأعذار الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية.

ثم رغب ـ سبحانه ـ في الجهاد وطاعة الله ورسوله، وأوعد على تركه بقوله: **﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً﴾**.

أي: ومن يطع لله ورسوله فيجيب الداعي إلى حرب أعدائه أهل الشرك دفاعاً عن دينه وإعلاءً لكلمته يدخله يوم القيامة جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومن يعصِ الله ورسوله فيتخلف عن القتال إذا دعي إليه يعذبه عذاباً موجعاً في نار جهنم[2].

بيعـة الرضـوان

تحدث القرآن الكريم عن البيعة التي حصلت في غزوة الحديبية فقال تعالى:

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٩٤.
(٢) تفسير المراغي: ٩/ ١٠٠.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[1].

سبب هذه البيعة العظيمة:

قال ابن إسحاق:

ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان رضي الله عنه تبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ.

فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل.

ثم إن رسول الله ﷺ قال: حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان[2].

---

(١) سورة الفتح، آية ١٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/٣١٥. وانظر تفسير ابن كثير: ٤/١٨٦.

قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾.

هذا شروع في الغرض الأصلي من السورة[1] وأصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد الذي التزمه له، والمراد بها هنا بيعة الرضوان[2].

وقال ابن كثير: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ كقوله جل وعلا: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾، وقوله: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنينَ أَنفُسَهُم وأَموالَهُم بأَنَّ لهم الجنةَ يقاتلونَ في سبيل اللّهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وعداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهدِهِ من اللّهِ فاستبشروا ببيعكُم الذي بايعتم بِهِ وذلك هو الفوزُ العظيمُ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله)[3].

ما ورد في فضل أصحاب البيعة:

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: (أنتم خير أهل الأرض) وكنا ألفاً وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[4].

وروى مسلم عن أم مبشر رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٥٧.

(٢) تفسير المراغي: ٩/ ٩١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٥.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الحديبية: ٥/ ١٥٧. وانظر فتح الباري: ٧/ ٤٤٣.

حفصة: (لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها. .) الحديث[1].

وأخرج ابن ماجه من حديث حفصة رضي الله عنها: قالت: قال النبي ﷺ: (إني لأرجو ألا يدخل النار أحد إن شاء الله تعالى ممن شهد بدراً والحديبية)[2].

وقوله تعالى: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾.

قال ابن عاشور:

وفرع قوله: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ على جملة ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾.

فإنه لما كشف كنه هذه البيعة بأنها مبايعة لله ضرورة أنها مبايعة لرسول الله ﷺ باعتبار رسالته عن الله صار أمر البيعة عظيماً خطيراً في الوفاء بما وقع عليه التبايع وفي نكث ذلك. والنكث: كالنقض للحبل. قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً﴾ وغلب النكث في معنى النقض المعنوي كإبطال العهد.

والكلام تحذير من نكث هذه البيعة وتفظيع له لأن الشرط يتعلق بالمستقبل. ومضارع «ينكث» بضم الكاف في المشهور.

واتفق عليه القراء. ومعنى ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ أن نكثه عائد عليه بالضر كما دلّ عليه حرف (على) و (إنما) للقصر وهو لقصر النكث على مدلول (على نفسه) ليراد لا يضر بنكثه إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً فإن نكث العهد

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أصحاب الشجرة: ٤/ ١٩٤٢.
(٢) سنن ابن ماجه ـ كتاب الزهد: الجزء الثاني رقم الصفحة ١٤٣١ رقم الحديث ٤٢٨١.

لا يخلو من قصد إضرار بالمنكوث، فجيء بقصر القلب لقلب قصد الناكث على نفسه دون النبي ﷺ[1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: **﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾**.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة فقال تعالى:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾[2].

قوله: **﴿تحت الشجرة﴾**.

هي شجرة كانت بالحديبية وقيل سدرة، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا..[3].

قوله: **﴿فأنزل السكينة عليهم﴾** السكينة: الطمأنينة وسكون النفس.

قال الشيخ محمد بن عاشور:

والآية عود إلى تفصيل ما جازى الله به أصحاب بيعة الرضوان المتقدم إجماله في قوله: **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾**.

فإن كون بيعتهم الرسول ﷺ تعتبر بيعة لله تعالى أومأ إلى أن لهم بتلك مكانة رفيعة من خير الدنيا والآخرة...

---

(١) التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٦٠.

(٢) سورة الفتح، آية ١٨، ١٩.

(٣) تفسير الشوكاني: ٥/ ٥١.

فقد أنال الله المبايعين رضوانه وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ والشهادة لهم بإخلاص النية، وإنزاله السكينة على قلوبهم ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة[١].

وقوله: ﴿إذ يبايعونك﴾ فعل المضارع مستعمل في الزمان الماضي لاستحضار حالة المبايعة الجليلة، وكون الرضى حصل عند تجديد المبايعة ولم ينتظر به تمامها، وقد علمت أن السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية[٢].

وقوله: ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة[٣]، وقيل المقصود بإخبارهم بأن الله علم ما حصل في قلوبهم من الكآبة على أنه قَدَر ذلك لهم وشكرهم على حبهم نصر النبي ﷺ ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾[٤].

وقوله: ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾.

هو ما أجرى الله عزّ وجلّ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومغانم كثيرةً يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[٥].

قال ابن عاشور: وعطف ﴿أثابهم﴾ على فعل ﴿رضي الله﴾. ومعنى أثابهم: أعطاهم ثواباً، أي عوضاً، كما يقال في هبة الثواب، أي عوضهم عن المبايعة بفتح قريب.

---

(١) التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٧٣ ـ بتصرف وتلخيص ـ.
(٢) المصدر نفسه: ٢٦/ ١٧٦.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩١.
(٤) التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٧٦.
(٥) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩١.

والمراد: أنه وعدهم بثواب هو فتح قريب ومغانم كثيرة، ففعل ﴿أثابهم﴾ مستعمل في المستقبل.

وهذا الفتح هو فتح خيبر فإنه كان خاصاً بأهل الحديبية وكان قريباً من يوم البيعة بنحو شهر ونصف.

والمغانم الكثيرة هنا هي: مغانم أرض خيبر والأنعام والمتاع والحوائط فوصفت بـ «كثيرة» لتعدد أنواعها وهي أول المغانم التي كانت فيها الحوائط.

وجملة ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ معترضة، وهي مفيدة تذييل لجملة ﴿وأثابهم فتحاً قريباً * ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ لأن تيسير الفتح لهم وما حصل لهم فيه من المغانم الكثيرة من أثر عزة الله التي لا يتعاصى عليها شيء صعب، ومن أثر حكمته في ترتيب المسببات على أسبابها في حالة يظن الرائي أنها لا تيسّر فيها أمثالها[1].

موقف المؤمنين مع المشركين في غزوة الحديبية

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[2].

سبب النزول:

١ ـ روى مسلم عن أنس بن مالك: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة[3] النبي ﷺ

(١) التنوير والتحرير: ٢٦/١٧٦.

(٢) سورة الفتح، آية ٢٤.

(٣) (غرة) الغرة هي الغفلة. أي يريدون غفلته (شرح مسلم للنووي: ١٢/١٨٧).

وأصحابه، فأخذهم سَلَمًا[1] فاستحياهم[2]. فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾**[3].

٢ ـ وجاء في حديث سلمة بن الأكوع ـ الذي رواه مسلم ـ: قال: ثم أن المشركين راسلونا الصلح. حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا. قال: وكنت تبيعاً[4] لطلحة بن عبيد الله، أسقي فرسه، وأحسه[5] وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي، مهاجراً إلى الله ورسوله ﷺ.

قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها[6]، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم. فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم، واضطجعوا. فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زنيم قال: فاخترطت سيفي[7] ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود. فأخذت سلاحهم فجعلته ضغثاً[8] في يدي. قال: ثم قلت: والذي كرّم وجه محمد ما يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه[9] قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى

---

(١) سَلَماً وسِلْماً: ضبطوه بوجهين أحدهما بفتح السين واللام والثاني بإسكان اللام مع كسر السين وفتحها قال الخطابي المراد به الاستسلام والإذعان كقوله تعالى: ﴿وألقوا إليكم السلم﴾ «شرح مسلم للنووي: ١٢/١٨٧».

(٢) فاستحياهم: فاستبقاهم «المفردات للراغب ص ١٤٠».

(٣) رواه مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب قول الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾ ٣/١٤٤٢.

(٤) تبيعاً: خادماً أتبعه. «شرح مسلم للنووي: ١٢/١٧٦».

(٥) وأحسه: أي أحك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار ونحوه «شرح مسلم للنووي: ١٢/١٧٦».

(٦) فكسحت شوكها: أي كنست ما تحتها من الشوك «شرح مسلم للنووي: ١٢/١٧٦».

(٧) فاخترطت سيفي: أي سللته. «شرح مسلم للنووي: ١٢/١٧٦».

(٨) «ضغثاً» الضغث: الحزمة. يريد أنه أخذ سلاحهم وجمع بعضه إلى بعض حتى جعله في يده حزمة «شرح مسلم لنووي: ١٢/١٧٦».

(٩) «الذي في عيناه» ـ يريد رأسه.

رسول الله ﷺ. قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات[1] يقال له مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف[2] في سبعين من المشركين. فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: (دعوهم، يكن لهم بدء الفجور وثناه)[3].

فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله: ﴿**وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم..**﴾ الآية كلها[4].

قوله: ﴿**وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة..**﴾.

قال ابن كثير:

هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين وعافية في الدنيا والآخرة[5].

والكف: منع الفاعل من فعل أراده أو شرع فيه، وهو مشتق من اسم الكف التي هي اليد لأن أصل المنع أن يكون دفعاً باليد، ويقال: كف يده عن كذا، إذا منعه من تناوله بيده[6].

وقوله: ﴿**ببطن مكة**﴾ قال الراغب: البطن خلاف الظهر في كل شيء، ويقال للجهة السفلى بطن وللجهة العليا ظهر[7].

---

(١) العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد. «شرح مسلم لنووي: ١٢/ ٧٧».
(٢) مجفف: أي عليه تجفاف وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه من السلاح وجمعه تجافيف «شرح مسلم: ١٢/ ١٧٧».
(٣) «وثناه» أي عودة ثانية ـ «شرح مسلم للنووي: ١٢/ ١٧٦».
(٤) رواه مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب غزوة ذي قرد وغيرها: ٣/ ١٤٣٢.
(٥) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٢.
(٦) التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٧٨.
(٧) المفردات للراغب: ص ٥١.

وجمهور المفسرين حملوا بطن مكة في الآية على الحديبية من إطلاق البطن على أسفل المكان، والحديبية قريبة من مكة وهي إلى مكة أقرب، وهي من الحل وبعض أرضها من الحرم وهي على الطريق بين مكة وجدة وهي إلى مكة أقرب[1].

وختم الآية ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿**من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً**﴾. هذا إشارة إلى أن كف بعضهم عن بعض كان للمسلمين إذ منّوا على العدو بعد التمكن منه.

موقف المشركين من المؤمنين في غزوة الحديبية

ثم بين ـ سبحانه ـ حقيقة موقف المشركين في غزوة الحديبية. فقال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾[2].

قال ابن كثير:

«يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿**هم الذين كفروا**﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿**وصدوكم عن المسجد الحرام**﴾ أي وأنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿**والهدي معكوفاً أن يبلغ محله**﴾[3] أي أن يبلغ محل نحره، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حلّ نحره، وكان رسول الله ﷺ

---

(١) التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٨٤.

(٢) سورة الفتح: آية ٢٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٣.

ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك سبعين بدنة[1].

والهدي: ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام.

والمعكوف: اسم مفعول عكفه، إذا ألزمه المكث في مكان، يقال عكفه فعكف.

وفائدة ذكر هذا الحال التشنيع على الذين كفروا في صدهم المسلمين عن البيت بأنهم صدوا الهدايا أن تبلغ محلها حيث اضطر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة من شعائر الله، ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي محبوسة.

والمحل بكسر الحاء: محل الحل مشتق من فعل حَلّ ضد حرم، أي المكان الذي يحل فيه نحر الهدي، وهو الذي يجزىء غيره، وذلك بمكة بالنسبة للمعتمر، وذلك إذ تعذر إبلاغه إلى مكة لأن المشركين منعوهم من ذلك[2].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض الحكم من عدم وقوع القتال في الحديبية فقال تعالى: **﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم مَّعَرَّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾**.

أي ولولا رجال من أهل الإيمان ونساء منهم أيها المؤمنون بالله أن تطؤوهم بخيلكم ورجلكم لم تعلموهم بمكة.

وقال ابن عاشور:

هي كلام معترض بين جملة **﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد**

---

(١) تفسير الطبري: ٢٨/ ٩٥.

(٢) التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٨٨.

الحرام﴾ الخ وبين جملة: **﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية﴾**.

ونظم الآية بديع في أسلوب الإطناب والإيجاز والتفنن في الانتقال ورشاقة كلماته. و «لولا» دالة على امتناع لوجود، أي امتنع تعذيبنا الكافرين لأجل وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات بينهم.

وقوله: **﴿أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾**.

الوطء: الدوس بالرجل، ويستعار للإبادة والإهلاك.

والمعرة: مصدر ميمي من عره، إذا دهاه. أي أصابه بما يكرهه ويشق عليه من ضر أو غرم أو سوء قالة.

والمراد بالمعرة هنا: الإثم أو غرم الديـة[1] وقوله: **﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾**.

التزيل: مضارع زيله إذا أبعده عن مكان، وزيلهم، أي أبعد بعضهم عن بعض.

والمعنى: لو تفرق المؤمنون والمؤمنات عن أهل الشرك لسلطنا المسلمين على المشركين فعذبوا الذين كفروا عذاب السيف[2].

وأغلب المفسرين كالطبري وابن كثير وغيرهم ذكر عند تفسير هذه الآية قصة صلح الحديبية بطولها[3].

ثم قال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ

---

(١) تفسير الطبري: ٢٨/ ١٠٢.

(٢) التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٩٢.

(٣) انظر تفاصيل القصة صفحة ٥٠٢ من هذا الكتاب.

اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾[١].

قوله: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾.

قال ابن كثير:

وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وأبوا أن يكتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله[٢].

والحمية: الأنفة، أي الاستنكاف من أمر لأنه يراه غضاضة عليه وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له فإن كان لموجب فهو إباء الضيم.

وقال الراغب: عبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فقيل حميت على فلان أي غضبت عليه[٣]. وإضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها فإنها من خلق أهل الجاهلية.

ثم بين ـ سبحانه ـ لطفه بالمؤمنين تجاه موقف الكفار المتعنت:

﴿فأنزل الله سكينته على رسوله، وعلى المؤمنينَ وألزمهم كلمةَ التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً﴾.

المراد بالسكينة: الطمأنينة والوقار[٤] والثبات والأناة. أي جعل في قلوبهم التأني وصرف عنهم العجلة، فعصمهم من مقابلة الحمية بالغضب والانتقام فقابلوا الحمية بالتعقل والتثبت فكان في ذلك خير كثير.

وقوله: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال الطبري: ألزمهم قول لا إله إلا الله

---

(١) سورة الفتح، آية ٢٦.
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٤.
(٣) المفردات للراغب الأصفهاني: ص ٣٢.
(٤) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٨٩.

التي يتقون بها النار، وأليم العذاب[1].

وقال مجاهد: كلمة التقوى الإخلاص[2].

وقال عطاء بن أبي رباح هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير[3].

ومعنى إلزامه إياهم كلمة التقوى: أنه قدر لهم الثبات عليها قولاً بلفظها وعملاً بمدلولها إذ فائدة الكلام حصول معناه، فإطلاق الكلمة هنا، كإطلاقه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾[4] يعني بها قول إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾[5][6].

وقوله تعالى: ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾.

أي نفوس المؤمنين كانت متهيئة لقبول كلمة التقوى والتزامها بما أرشدها الله إليه.

وأهل الشيء مستحقه، والمعنى أنهم كانوا أهل كلمة التقوى لأنها تناسب ضمائرهم وما انطوت عليه قلوبهم.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾.

قال ابن كثير: أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر[7].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٨/ ١٠٤.
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٤.
(٣) نفس المصدر: ٤/ ١٩٤.
(٤) سورة الزخرف، آية ٢٨.
(٥) سورة الزخرف، آية ٢٦، ٢٧.
(٦) التنوير والتحرير: ٢٦/ ١٩٥.
(٧) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٤.

ثم تحدث القرآن الكريم عن الصلح ـ الذي وقع في غزوة الحديبية وسماه فتحاً:

فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾[١].

سبب النزول:

١ ـ نزلت هذه السورة والنبي ﷺ عائد من الحديبية. ففي حديث البخاري الذي ذكرته في أول الفصل[٢] جاء فيه: قال عمر: فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال، لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾[٣].

٢ ـ وروى مسلم عن قتادة: أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله**﴾ إلى قوله: ﴿**فوزاً عظيماً**﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال (لقد أنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعاً)[٤].

٣ ـ وروى الإمام أحمد في مسنده عن مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف[٥] فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم[٦] فاجتمع

---

(١) سورة الفتح، آية ١، ٢.

(٢) أنظر صفحة رقم ٥٠٩ من هذا الكتاب.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً: ٦/١٦٨ وانظر فتح الباري: ٧/٥٧٢.

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب صلح الحديبية: ٣/١٤١٣.

(٥) نوجف: الوجيف: ضرب من سير الإبل والخيل (مختار الصحاح: ص ٧١١).

(٦) كراع الغميم: تقدم تعريفه صفحة ٤٩٧ من هذا الكتاب.

الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.

قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله أوفتح هو؟ قال ﷺ: (إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح)(١).

قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.

الفتح: الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب، لأنه منغلق ما لم يظفر به، فإذا ظفر به وحصل في البلد فقد فتح(٢).

واختلف المفسرون في المراد بالفتح في الآية: قال الرازي(٣):

أحدها: فتح مكة وهو ظاهر.

وثانيها: فتح الروم وغيرها.

وثالثها: المراد من الفتح، صلح الحديبية.

ورابعها: فتح الإسلام بالحجة والبرهان، والسيف والسنان.

وخامسها: المراد منه الحكم، كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾(٤) وقوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾(٥). أ. هـ.

والراجح أن المراد بالفتح هو صلح الحديبية وإليه ذهب جمهور المفسرين(٦).

قال الطبري: «وأما الفتح الذي وعد الله جل ثناؤه نبيه ﷺ، فإنه فيما ذكر الهدنة التي جرت بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش بالحديبية»(٧).

---

(١) المسند: ٣/ ٤٢٠. (٢) تفسير الكشاف: ٣/ ٥٤١.

(٣) تفسير الرازي: ٢٨/ ٧٧.

(٤) سورة الأعراف، آية ٨٩.

(٥) سورة سبأ، آية ٢٦.

(٦) انظر تفسير الطبري: ٢٦/ ٦٨، وتفسير القرطبي: ١٦/ ٢٦٠ وتفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٢.

(٧) تفسير الطبري: ٢٦/ ٦٨ ـ بتصرف ـ.

وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية[1].

والمعــنى:

في هذه الآية الكريمة بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين حيث بين ـ سبحانه وتعالى ـ أن ما تم لهم من صلح الحديبية هو في الحقيقة فتح مبين وإن كان هناك في شروط الصلح إجحاف على المسلمين في الظاهر إلا أنه ترتب عليه خير كبير وسماه الله فتحاً مبيناً.

قال ابن كثير:

فالمراد بقوله تعالى: **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾** أي بيناً ظاهراً هو صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأَمِنَ الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان[2].

قوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾.

قوله: ﴿ليغفر لك الله﴾. قال القرطبي:

قال ابن الأنباري: **﴿فتحاً مبيناً﴾** غير تام، لأن قوله: **﴿ليغفر لك الله ما تقدم﴾** متعلق بالفتح، كأنه قال: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة، فيجمع الله لك به ما تقر به عينك في الدنيا والآخرة[3].

وقال الرازي:

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الحديبية: ٥/ ١٥٤. وانظر فتح الباري: ٧/ ٤٤١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٣.

(٣) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٦٢.

قوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ ينبىء عن كون الفتح سبباً للمغفرة نقول: الجواب عنه من وجوه:

منها: ما قيل أن الفتح لم يجعله سبباً للمغفرة وحدها، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة وللهداية والنصرة، كأنه تعالى قال: ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك، ولا شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح، فإن النعمة به تمت والنصرة بعده عمت.. ثم ذكر وجوهاً أخرى نكتفي بما ذكرناه.[1].

وقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾.

المراد بالذنب: ما فرط من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه عليه الصلاة والسلام. وقد يقال: المراد ما هو ذنب في نظره العالي ﷺ وإن لم يكن ذنباً ولا خلاف الأولى عنده تعالى كما يرمز إلى ذلك الإضافة[2].

وقال ابن كثير:

هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة[3].

وقوله: ﴿ويتم نعمته عليك﴾ يعني بالنبوة وما أعطاك من الفتح والنصر والتمكين... ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ يعني ويهديك إلى صراط مستقيم وهو الإسلام ويثبتك عليه والمعنى ليجمع لك من الفتح تمام النعمة بالمغفرة

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/٧٨.
(٢) تفسير الألوسي: ٢٦/٩١.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٤.

والهداية إلى صراط مستقيم وهو الإسلام[1].

وقوله: ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عزّ وجلّ يرفعك الله وينصرك على أعدائك.

ثم قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾[2].

السكينة: الطمأنينة. وقال ابن عباس: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم[3].

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين. فقال تعالى:

﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾.

أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾[4].

ثم قال تعالى:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾[5].

---

(١) تفسير الخازن: ٤/١٨٨.
(٢) سورة الفتح، آية ٤.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٤.
(٤) المصدر نفسه: ٤/ ١٨٤.
(٥) سورة الفتح، آية ٥.

سبب النزول:

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ قال: الحديبية، قال أصحابه: هنيئاً مريئاً فما لنا؟، فأنزل الله: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[1].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ لتشكر ربك، وتحمده على ذلك، فيغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وليحمد ربهم المؤمنون بالله، ويشكروه على إنعامه عليهم بما أنعم عليهم من الفتح الذي فتحه، فيدخلهم بذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها إلى غير نهاية[2]...

وقوله: ﴿ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ أي خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾[3].

يقول سيد قطب[4]:

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم... وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الحديبية: ٥/ ١٦٠. وانظر فتح الباري: ٧/ ٤٥٠.

(٢) تفسير الطبري: ٢٨/ ٧٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٣٣٣ ـ بتصرف ـ.

ثم قال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾[1].

قال ابن كثير: وقوله: ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾. أي يتهمون الله تعالى في حكمته ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية.

ولهذا قال: ﴿عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم﴾ أي أبعدهم عن رحمته ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

ثم قال عزّ وجلّ مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[2].

ثم في أثناء مدة الصلح نزل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[3].

سبب النزول:

أخرج البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار مكة يوم الحديبية جاءه نساء مؤمنات فأنزل الله

---

(١) سورة الفتح، آية ٦، ٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨٤.

(٣) سورة الممتحنة، آية ١٠، ١١.

تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ حتى بلغ ﴿بعصم الكوافر﴾ فطلق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية[1].

قال ابن حجر في الفتح: ظاهره أنهن جئن إليه وهو بالحديبية، وليس كذلك وإنما جئن إليه بعد في أثناء المدة[2].

قال ابن كثير:

تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش فكان فيه: على أن لا يأتينك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وفي رواية على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فعلى هذه الرواية تكون الآية مخصصة للسنة وهذا من أحسن أمثلة ذلك وعلى طريقة بعض السلف ناسخة. والله عزّ وجلّ أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار لا هـن حل لهم ولا هم يحلون لهن[3].

أقول يظهر من كلام الإمام ابن كثير أنه يرى أن الآية مخصصة للسنة ثم ذكر أن بعض السلف يرى أن هذه الآية ناسخة للسنّة فتكون مثالاً لنسخ السنّة بالقرآن[4]. قال ابن الجوزي: قال الماوردي: وقد اختلف أهل العلم هل دخل رد النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عموماً؟.

فقالت طائفة: قد كان شرط ردّهن في لفظ الهدنة صريحاً، فنسخ الله

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد: ٣/٢٥٨، وانظر فتح الباري: ٥/٣٣٢.

(٢) فتح الباري: ٥/٣٤٨.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/٣٥٠.

(٤) انظر نواسخ القرآن لابن الجوزي ص ٤٨٦ وانظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ٢/٢٤٤.

تعالى ردّهن من العقد، ومنع منه، وأبقاه في الرجال على ما كان.

وقالت طائفة: لم يشرط ردهن في العقد صريحاً، وإنما أطلق العقد، وكان ظاهر العموم اشتماله مع الرجال، فبين الله عزّ وجلّ خروجهن عن عمومه، وفرق بينهنّ وبين الرجال لأمرين:

أحدهما: أنهنّ ذوات فروج تحرمن عليهم.

والثاني: أنهنّ أرق قلوباً، وأسرع تقلباً منهم[١].

والذي أراه أن الآية مخصصة للسنّة كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهن**﴾، قال ابن عباس: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله.

وقال مجاهد ﴿**فامتحنوهن**﴾ فاسألوهن عما جاء بهن فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو غيره ولم يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن.

وقال عكرمة: يقال لها ما جاء بك إلا حب الله ورسوله، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك فذلك قوله: ﴿**فامتحنوهن**﴾.

وقال قتادة: كانت محنتهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن[٢].

وقوله تعالى: ﴿**فإن علمتموهن مؤمناتٍ فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلون لهنّ**﴾.

---

(١) زاد المسير: ٨/ ٢٣٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٥٠.

هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، قال القرطبي: هذا أول دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها لا هجرتها[1].

ثم قال تعالى: ﴿وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهنَّ أجورهنَّ﴾.

أي أعطوا أزواج المهاجرات من المشركين الذي غرموه عليهن من الأصدقة.

وقوله: ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ إذا آتيتموهنّ أجورهنّ﴾.

قال ابن كثير:

يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن أي تزوجوهن بشرط انقضاء العدة والولي وغير ذلك[2].

وقوله: ﴿ولا تمسكوا بعِصَمِ الكوافِرِ﴾ العصم: جمع العصمة وأصل العصمة: الحبل، وكل ما أمسكَ شيئاً فقد عصمه، والمراد بالعصمة هنا النكاح، الكوافر: جمع كافرة، والمعنى: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر، وأمرهم بفراقهن.

وقد جاء في صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب لما نزلت هذه الآية طلق امرأتين كانتا له في الشرك[3].

وقوله: ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكمُ اللهِ يحكُم بينكُم واللّهُ عليمٌ حكيم﴾.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٦٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٥١.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد: ٣/ ٢٥٨. وانظر فتح الباري: ٥/ ٣٣٢.

قال المفسرون:

كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة: ردّوا إلى الكفار مهرها. وكان ذلك نصفاً وعدلاً في الحالتين. وكان هذا حكم الله مخصوصاً[١] بذلك الزمان في تلك النازلة خاصةً بإجماع الأمة. قاله ابن العربي.

وقوله تعالى:

﴿وإن فاتكم شيءٌ من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهُم مثلَ ما أنفقُوا واتقوا اللّهَ الذي أنتُم بهِ مؤمنُون﴾.

قوله: **﴿فعاقبتم﴾**.

يقال: عاقب وعقب وأعقب وتعقب واعتقب وتعاقب إذا غنم[٢]، وقال الزجاج: أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم[٣]، وقال ابن عباس:

«يقول إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة، وليس بينكم وبينهم عهد، ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فاعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمس.

وقال الزهري: يعطى من مال الفيء، وعنه يعطى من صداق من لحق بنا[٤].

وقال مجاهد: **﴿فعاقبتم﴾** أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم[٥].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٦٨.

(٢) تفسير القرطبي: ١٨/ ٦٩.

(٣) زاد المسير: ٨/ ٢٤٣.

(٤) تفسير القرطبي: ١٨/ ٧٠.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٥٢.

وقال القرطبي: قال ابن بحر: أي فعاقبتم المرتدة بالقتل فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين[1].

وقال أبو السعود:

﴿فعاقبتم﴾ أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم من أداء المهر، شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره[2].

قوله تعالى: **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم﴾**.

لما نزل قوله: **﴿وأسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكُم اللّهِ يحكُم بينكُم والله عليمٌ حكيمٌ﴾**.

قال القرطبي: جاء في الخبر: أن المسلمين قالوا: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت: **﴿وإن فاتكم شيءٌ من أزواجكُم إلى الكفارِ فعاقبتُم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾**[3].

وقوله: **﴿فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾**.

قال ابن كثير: فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٦٩.
(٢) تفسير أبي السعود: ٨/ ٢٤٠.
(٣) تفسير القرطبي: ١٨/ ٦٩.

آزواجهم اللاتي آمن وهاجرن ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم[(١)].

وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿**واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون**﴾.

أي احذروا أن تعتدوا ما أمرتم به.

قال الزهري: وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها[(٢)].

وقال ابن حجر: أراد الزهري بذلك الإشارة إلى أن المعاقبة المذكورة بالنسبة إلى الجانبين إنما وقعت في الجانب الواحد لأنه لم يعرف أحداً من المؤمنات فرت من المسلمين إلى المشركين بخلاف عكسه[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٥٢.
(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد: ٣/ ٢٥٨، وانظر الفتح: ٥/ ٣٣٣.
(٣) فتح الباري: ٥/ ٣٥٢.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرضه لغزوة الحديبيّة

تحدث القرآن الكريم عن غزوة الحديبية في سورة الفتح، وسنبين إن شاء الله هذا المنهج حسب الآيات الموجودة في المصحف لأننا متعبدون بقراءة القرآن الكريم على حسب ترتيب المصحف وليس على النزول.

١ ـ فنجد في حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة العظيمة أن سمي الصلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال فتحاً مبيناً. قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ ﴾[١].

بالرغم من الفتح المفهوم من بداية الآية الأولى من هاتين الآيتين فإننا نجد بالتأمل في أسباب النزول أن سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النبي ﷺ من الصلح وهو عائد إلى المدينة المنوّرة وبعد أن خاض النبي ﷺ والمؤمنون تلك التجارب العظيمة من الأمل في العمرة إلى مواجهة المشركين إلى بيعة الرضوان إلى الصلح الذي لم يكن بعض الصحابة الكرام عنه راضين ودارت في أنفسهم أشياء كثيرة حول هذه الأحداث الجسام. . .

ينزل القرآن الكريم من الله كالبلسم للجراح، والضوء للطريق في الظلام ليقول إن هذا الصلح هو فتح مبين فيطمئن حينئذٍ من التبس عليه الأمر سابقاً[٢]

(١) سورة الفتح، آية ١، ٢. وانظر تفسير هذه الآيات: ص ٥٣٥ من هذا الكتاب.

(٢) راجع ما كتبناه في السيرة: ص ٥٠٢ من هذا الكتاب.

ويؤكد أن النبي ﷺ كان على صواب في قبوله الصلح، بل لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله ﷺ حين يبشره الله على الملأ من الدنيا بأن الله تعالى فتح هذا الفتح بالصلح ليغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كرامة منه سبحانه لرسوله ليزداد المسلمون ثقةً واطمئناناً بأنهم على الصواب وأن ما فعلوه هو الحق ومآله السعادة.

٢ ـ ثم بين سبحانه أن توفيق الله كان مع المؤمنين فهو الذي وفقهم للصبر مع رسوله وموافقته أخيراً على ما جنح له من أمر الصلح وأن ذلك كان بسبب إنزال السكينة على قلوبهم حتى على قلوب من أنكر بعض شروط الصلح واستسلم للأمر على مضض فلم يحصل رفض لهذا الصلح بل كلهم نزلوا على أمر رسوله ﷺ بفضل السكينة التي أنزلها الله عليهم. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾[1].

فالقرآن الكريم يبين أن الله هو الذي أنزل هذه السكينة عليهم ليتذكروا فضله فيداوموا على شكره وهذا الإعلام بإنزال السكينة مما يتيمز به حديث القرآن عن هذه الغزوة إذ السكينة أمر معنوي لا يعلم نزوله إلا الله وإنما يشعرون به في أنفسهم فهذا الحديث أخبرنا به الله عن شيء معنوي فنصدق به كمال التصديق: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾.

٣ ـ ثم إنه جاء في سبب النزول قول المؤمنين ـ وهم في طمع رحمة الله ـ: هنيئاً مريئاً يا نبي الله بيَّن الله ـ عزّ وجلّ ـ هذا ما يفعل بك فما يفعل بنا؟: فنزلت عليه ﷺ: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾[2].

(١) سورة الفتح، آية ٤.

(٢) سورة الفتح، آية ٥.

فبين سبحانه ما للمؤمنين من فضل بعد هذا العناء وهذا الجهد بسبب هذه الغزوة ولعل الله جعل نزولها بعد أن يسأل المؤمنون ما لهم ولم ينزلها ابتداءً تشويقاً لهم بعد أن فرحوا بما للنبي ﷺ من مغفرة أن يسألوا ما أعد لهم.

٤ ـ كما عرف في أسلوب القرآن الكريم في الترغيب والترهيب فإنه لما ذكر ما للمؤمنين الأبرار الذين حضروا صلح الحديبية، بين ما للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من عقوبة عند الله، وبين ـ سبحانه ـ ظنهم السيء به، فقال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾[1].

٥ ـ ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[2].

هذا تأكيد منه ـ سبحانه ـ للمؤمنين بأن النبي ﷺ معصوم من الخطأ وأنه مرسل من عند الله، فكل ما يصدر منه يجب أن يسلموا به، ويذعنوا له.

٦ ـ ثم أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى حدث هام حدث قبل صلح الحديبية وهو بيعة الرضوان فقد دعا النبي ﷺ إلى هذه البيعة[3] بعد أن حبست قريش عثمان بن عفان رضي الله عنه عندها، وشاع بين المسلمين أنه قتل فندب ﷺ إليها وحث الصحب الكرام عليها فبايعوا على الموت فأثنى ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن وقرر أنها مبايعة لله عزّ وجلّ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الفتح، آية ٦ وآية رقم ٧.
(٢) سورة الفتح، آية ٨ وآية رقة ٩.
(٣) انظر تفصيلها صفحة رقم ٤٩٩ من هذا الكتاب.
(٤) سورة الفتح، آية ١٠.

وبهذا نرى ما يتيمز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات فهو يبين الحقائق، ويصحح العقائد، ويربي النفوس.

٧ ـ ثم تبرز هنا سمة خاصة من خصائص حديث القرآن عن الغزوة حيث يخبر سبحانه عن فرقة الأعراب التي تخلفت فبين ما سيقولونه من أعذار وبين حالهم بالتفصيل فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾[1].

فقد أخبر ـ سبحانه ـ عن اعتذارهم قبل أن يصدر منهم: **﴿سيقول لك المخلفون...﴾** الآية.

ويبين حقيقة اعتذارهم: **﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾** فالذي يطلع على سر القلوب هو الله وحده.

وبين ما في نفوسهم: **﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾** الآية[2].

٨ ـ ثم تحدث عن أمر كان غيباً وهو خروج النبي ﷺ لغزوة خيبر فبين أن هؤلاء الأعراب سيقولون دعونا نخرج معكم فنأخذ من غنائم خيبر، وأخبر ـ سبحانه ـ بأنهم محرومون منها عقاباً لهم وبين جميع ما سيصدر منهم فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ

---

(١) سورة الفتح، من الآية ١١ إلى الآية ١٤.

(٢) من أراد مزيداً من التفصيل فليراجع تفسير هذه الآيات صفحة رقم ٥١٣ من هذا الكتاب.

﴿تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾[1].

وحديث القرآن هذا دليل أيما دليل على رعاية الله لهذا الجيل وفيه تميز. ـ فسبحانه ـ حين يخبر عن هذه الفرقة المتخلفة عن غزوة الحديبية يخبر عن الغيب، ثم أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ النبي الكريم سيدنا محمداً ﷺ أن يخبر المخلفين أنهم وإن منعوا من غنائم خيبر لكنهم سوف يدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد يقاتلونهم، فالباب أمامهم مفتوح والأمل أمامهم موجود.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾[2].

ولا يفوتني هنا أن أقرر أن إخبار الله تعالى عن اعتذار المخلفين من الأعراب قبل صدوره منهم وبيان حقيقة ذلك الاعتذار وبيان ما في نفوسهم والأخبار عن خروجه ﷺ إلى غزوة خيبر قبل حدوثه وأن الأعراب سيطلبون السماح لهم بالخروج، كلها أمور من الغيب المستقبل تدل على إعجاز القرآن وأنه كلام الله! ومن يخبر عن المستقبل غير الله.

٩ ـ ثم بين ـ سبحانه وتعالى ـ أصحاب الأعذار، فليس كل من تخلف يعاتب وإنما هناك استثناء وهذا من كمال الرحمة الإلهية. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾[3].

١٠ ـ ثم نجد القرآن يواصل حديثه عن البيعة العظيمة ويستفتح الحديث عنها بتعجيل الفوز الأعظم الذي ناله أولئك المبايعون فقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ

---

(١) سورة الفتح، آية ١٥ وانظر تفسيرها صفحة ٥١٧ من هذا الكتاب.

(٢) سورة الفتح، آية ١٦ وانظر تفسيرها صفحة ٥١٨ من هذا الكتاب.

(٣) سورة الفتح، آية ١٧ وانظر تفسيرها صفحة ٥٢٠ من هذا الكتاب.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [1].

سبق أن بين ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقة بيعة الرضوان وأنها مبايعة لله عزّ وجلّ ثم بين في هذه الآيات أن الله قد رضي عن الذين بايعوا في هذه البيعة السعيدة وأن لهم درجة الرضى . . .

فهذه نتيجة البيعة ولم يكن لنا علم بها لولا أن أعلمنا الله بها وهي كما يلي : ـ

١ ـ فاز المؤمنون بالرضى من الله : **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾**.

٢ ـ اطلع الله على قلوبهم : **﴿فعلم ما في قلوبهم﴾**.

٣ ـ أنزل عليهم السكينة : **﴿فأنزل السكينة عليهم﴾**.

٤ ـ كافأهم بنعم كثيرة : **﴿وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها﴾**.

١١ ـ ثم ذكر ـ سبحانه ـ المؤمنين بنعمة عظيمة أنعم بها عليهم في هذه الغزوة فقال تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [2].

فالنعمة كانت طواف ثمانين من المشركين بمعسكر النبي ﷺ وأصحابه

---

(١) سورة الفتح، من الآية ١٨ إلى الآية ٢٣. وانظر تفسيرها صفحة ٥٢٥ من هذا الكتاب.

(٢) سورة الفتح، آية ٢٤. وانظر سبب نزولها صفحة رقم ٥٢٧ من هذا الكتاب.

ليصيبوا منهم فأخذهم أصحاب رسول الله ﷺ قبل أن يتمكنوا مما أرادوا وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلى سبيلهم، فكان ذلك مما يسر الصلح.

١٢ ـ ثم نجد الآيات الكريمة بعد هذا تتحدث عن أعمال الكفار السيئة. . . تتحدث عن ظلمهم وأن الحق مع المسلمين.

ثم تُبَيِّن بعد ذلك حكمة كف القتال في هذه الغزوة. . . وهذا لا يعلمه إلا الله. . قال تعالى:

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾(١).

١٣ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ أن موقف الكافرين على نقيض موقف المؤمنين فالكافرون أخذتهم الحمية حمية الجاهلية. قال تعالى:

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾(٢).

١٤ ـ ثم لما تم صلح الحديبية وعاد المسلمون إلى المدينة ولم يتحقق ما قصدوه من دخول مكة أشار سبحانه إلى الرؤيا التي سبق أن رآها النبي ﷺ، وبشر بها أصحابه وبين أنها رؤيا صدق، وأنها ستتحقق. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ

---

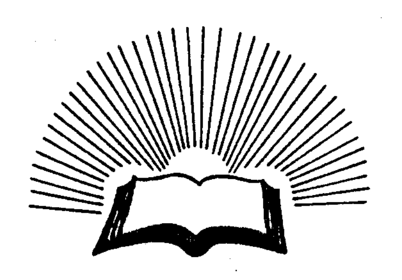
(١) سورة الفتح، آية ٢٥. وانظر تفسيره صفحة رقم ٥٣٠ من هذا الكتاب.

(٢) سورة الفتح، آية ٢٦. وانظر تفسيرها صفحة رقم ٥٣٣ من هذا الكتاب.

رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

١٥ ـ ثم ختمت السورة الجليلة بصفات مدح للنبي ﷺ ولأصحابه الكرام. قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[2].



(١) سورة الفتح، آية ٢٧.

(٢) سورة الفتح، آية ٢٨، ٢٩.



الباب السابع

حديث القرآن
عن غزوة فتح مكة

تمهيد
فتح مكة من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في رمضان سنة ثمان من الهجرة.... وكلامنا عن فتح مكة يتضمن ما يأتي:

أولاً: سبب فتح مكة.
ثانياً: أهم أحداث فتح مكة.
ثالثاً: نتائج فتح مكة.

فتح مكة من خلال كتب السيرة والتاريخ

أولاً: سبب فتح مكة:

كان سبب فتح مكة أن قريشاً نقضت عهدها مع النبي ﷺ وأعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال.

وذلك أن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له الوتير وهو قريب من مكة، وقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا من أحد. فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح وقاتلوهم معهم، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة فأنشد أبياتاً من الشعر أمام الرسول ﷺ يستنصره، منها:

يا رب إني ناشد محمدا ... حِلف أبيه وأبينا الأتلدا

فانصر رسول الله نصراً أبدا ... وادعُ عباد الله يأتوا مددا

هم بيوتنا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: (نصرت يا عمرو بن سالم)[1].

وأمر الرسول ﷺ أصحابه بالتجهز بالغزو، وكتمهم مخرجه وسأل الله أن يعمّي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٥٢٧ ـ بتصرف ـ.

وقد استنفر القبائل التي حول المدينة، فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق.

وأرسل حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرها بأن المسلمين يريدون غزوها فأرسل النبي ﷺ علياً والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم[١].

وجاء أبو سفيان إلى المدينة ليؤكد العهد ويزيد في مدته، لكنه فشل في ذلك وعاد خائباً إلى مكة.

قال ابن إسحاق: خرج رسول الله ﷺ لعشر مضين من رمضان سنة ثمان[٢] وبلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل[٣]، وقد استخلف النبي ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري.

ثانياً: أهم أحداث فتح مكة:

كان المسلمون صياماً حتى بلغوا كُديداً ـ وهي عين جارية تبعد عن مكة ٨٦ كيلاً وبينها وبين المدينة ٣٠١ كيلاً ـ فأفطروا[٤].

وفي مر الظهران[٥] عسكر المسلمون وعميت أخبارهم على قريش، ثم خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي يتجسسون الأخبار، فالتقى بهم العباس بن عبد المطلب، فطلب من أبي سفيان أن يمضي معه وبجواره إلى معسكر المسلمين، فوافق وقابل الاثنان الرسول ﷺ فدعا أبا

---

(١) انظر تفصيل القصة صفحة رقم ٥٦٦ من هذا الكتاب.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٩٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٣٥.

(٤) المجتمع المدني في عصر النبوة ـ ص ١٧٥.

(٥) مر الظهران: موضع على مرحلة من مكة (مراصد الإطلاع: ٣/ ١٢٥٧).

سفيان للإسلام فتلطف في الكلام وتردد في الإسلام فأمر الرسول ﷺ العباس بأن يأخذه إلى خيمته ويحضره في صباح اليوم التالي ففعل وأسلم أبو سفيان في اليوم التالي، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس، احبسه بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله فيراها[1] ففعل العباس. وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين وأنه لا قبل لقريش بهم حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار قال أبو سفيان: سبحان الله: يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار: قال: ما لأحد بهؤلاء قِبلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذاً..[2].

ومضى أبو سفيان إلى مكة فأخبر قريشاً بقوة المسلمين ونهاهم عن المقاومة.

وفي مر الظهران قرر النبي ﷺ الزحف على مكة، فعين القادة وقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب.

فكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى والزبير بن العوام على المجنبة اليسرى، وأبو عبيدة على الرجالة.

وكانت راية الرسول ﷺ سوداء ولواؤه أبيض.

دخول المسلمين مكة:

قال الطبري: وحُدثّت أن النبي ﷺ قال لخالد والزبير حين بعثهما:

لا تقاتلا إلا من قاتلكما، فلما قدم خالد على بني بكر والأحابيش بأسفل مكة قاتلهم فهزمهم الله عزّ وجلّ، ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر، حتى نزل

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٠٣ ـ بتصرف ـ.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٠٤.

بأعلى مكة، وضربت هنالك قبتة[١].

وذكر موسى بن عقبة أن قتلى المشركين بلغوا قريباً من أربعة وعشرين.

إعلان العفو العام لأهل مكة:

نال أهل مكة عفواً عاماً رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم.

فقال: ما تظنون أني فاعل بكم؟.

فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم.[٢] فأعتقهم رسول الله ﷺ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء[٣].

صفة دخوله ﷺ مكة:

روى البخاري في صحيحه عن معاوية بن قُرَّةَ قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّعُ[٤].

وقال أنس: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعاً[٥].

ودخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم فجعل

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤١٢.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٦١.
(٤) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة فتح مكة: ٥/ ١٨٧.
(٥) السيرة النبوة لابن كثير: ٣/ ٥٥٥.

يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد[1].

ولما قدم النبي ﷺ مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما من الأزلام، فقال النبي ﷺ: (قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط. .)[2].

ثم قال رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من الفتح:

(إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرىء، يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجراً فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب)[3].

وما أن تم فتح مكة حتى أرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد إلى نخلة[4] لهدم العزى التي كانت مضر جميعاً تعظمها فهدمها[5] وأرسل عمرو بن العاص إلى سواع صنم هذيل فهدمه[6] وأرسل سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل «ناحية قديد على طريق مكة ـ المدينة» فهدمها[7].

ثالثاً: نتائج فتح مكة:

فتح مكة له نتائج كثيرة نذكر من أهمها ما يلي:

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة فتح مكة: ٥/ ١٨٨.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة فتح مكة: ٥/ ١٨٨.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة فتح مكة: ٥/ ١٩٠.

(٤) نخلة: وادٍ من الحجاز، بينه وبين مكة مسيرة ليلتين (مراصد الإطلاع: ٣/ ١٣٦٥).

(٥) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٣٦.

(٦) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٤٦.

(٧) نفس المصدر: ٢/ ١٤٦.

١ ـ دخول مكة تحت نفوذ المسلمين وزوال دولة الكفر.

٢ ـ تطهير الكعبة من الأصنام وإنهاء الوثنية في مكة.

٣ ـ العفو العام من النبي ﷺ عن مشركي مكة حين قال لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

٤ ـ إسلام كثير من القرشيين خاصة كبراؤهم أمثال أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية.

٥ ـ انتهاء الهجرة بفتح مكة لقوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية)[١].

٦ ـ تحول ثقل معسكر الشرك من قريش إلى قبيلتي هوازن وثقيف.

٧ ـ انتشار الإسلام في الجزيرة كلها وذلك بسبب فتح مكة وإسلام قريش وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾.



(١) انظر تخريجه صفحة رقم ٥٧٤ من هذا الكتاب.

الفَصل الأول

حديث القرآن عن فتح مكة وتفسير الآيات الواردة فيه

لم يرد عن فتح مكة في القرآن آيات كثيرة كما ورد في غزوة بدر وأُحد.

وقد يعتقد البعض أن القرآن أوجز في حديثه عن فتح مكة، والحقيقة أن غزوة الحديبية كانت هي مقدمة الفتح. والدروس التي أشار إليها القرآن في سورة الفتح كانت المقدمات الأساسية لهذا الفتح المبين، فلما تم الفتح ـ فتح مكة ـ أشار إليه القرآن الكريم إلى تمام النعمة التي أنعمها الله على المسلمين في الحديبية. فالآيات التي أشارت إلى فتح مكة هي:

١ ـ أوائل سورة الممتحنة التي نزلت والنبي ﷺ يستعد للخروج إلى مكة.

٢ ـ سورة النصر.

٣ ـ قوله تعالى في سورة الحديد: **﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير﴾**(١).

وإليك تفسير هذه الآيات..

---

(١) سورة الحديد، آية ١٠.

١ ـ ما نزل من القرآن والنبي ﷺ يتجهز لغزو مكة شرفها الله

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١﴾[١].

سبب النزول:

روى البخاري[٢] ومسلم[٣] ـ واللفظ للبخاري ـ عن عبيد الله بن رافع يقول: «سمعت علياً رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ[٤]، فإن بها ظعينة[٥] معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتابٌ. فقلنا: لتُخرِجَنَّ أو لنلقينّ الثياب. قال فأخرجته من عقاصها[٦]، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه:

من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: (يا حاطب ما هذا؟).

قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت أمرءاً ملصقاً في قريش ـ

---

(١) سورة الممتحنة، آية ١.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الفتح: ٥/ ١٨٤. وانظر فتح الباري: ٧/ ٥١٩.

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة: ٤/ ١٩٤١ ـ ورقم الحديث (١٦١ ـ ٢٤٩٤).

(٤) (خاخ) موضع بين الحرمين، به روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد، من المدينة (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: ١/ ٤٤٤).

(٥) الظعينة هنا الجارية وأصلها الهودج وسميت به الجارية لأنها تكون فيه واسم هذه الظعينة سارة مولاة لعمران بن أبي ضيفي القرشي (شرح مسلم للنووي ١٦/ ٥٥).

(٦) عقاصها: بكسر العين أي شعرها المضفور وهو جمع عقيصة (شرح مسلم للنووي: ١٦/ ٥٥).

يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفسُها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ: (إما إنه قد صدقكم).

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾** إلى قوله **﴿فقد ضل سواء السبيل﴾**(١).

والذي نستفيده من سبب النزول أن الرسول ﷺ كان يتجهز لغزو مكة، وكان يريد أن يتم ذلك سراً فقال: (اللهم عم عليهم خبرنا).

وأراد حاطب بن أبي بلتعة أن يتخذ يداً عند قريش فأطلع الله ـ تعالى ـ نبيه على ذلك استجابة لدعائه ﷺ(٢).

قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾**.

قال القرطبي: السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار(٣) والمراد بهم: المشركين والكفار الذين هم محاربونِ لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ونهى أن يُتَّخَذوا أولياء وأصدقاء(٤).

وقوله: **﴿تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾**.

أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم وهم كافرون بدينكم

---

(١) سورة الممتحنة، آية ١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٤٥.

(٣) تفسير القرطبي: ١٨/ ٥٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٤٦.

وبقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح.

وقوله: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾.

قال ابن كثير: هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. ولهذا قال تعالى: ﴿أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين[١].

وقوله: ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾.

أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم[٢].

وقوله تعالى: ﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم﴾: أي تسرون إليهم بالنصيحة.

قال ابن كثير: أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر[٣].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾.

أي من يسر إليهم ويكاتبهم منكم فقد أخطأ قصد الطريق[٤].

أقول: هذه الآية الكريمة نجدها تمهيداً بين يدي فتح مكة حيث حث الله

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٣٤٧.
(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٣٤٧.
(٤) تفسير القرطبي: ١٨/ ٥٤.

المسلمين على عدم موالاة الكفار، حتى لا يتأثر المهاجرون بروابط الرحم والقربى والمصلحة المادية التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكة.

يقول سيد قطب:

على الرغم من كل ما ذاق المهاجرون من العنت والأذى في قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات.

وكأن الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه... فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجح البالغ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث، ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديد ساخن[1].

٢ ـ تفسير سورة النصر التي نزلت في فتح مكة

قال تعالى:

﴿إذا جاء نصرُ اللّهِ والفتحُ * ورأيت الناسَ يدخلُونَ في دينِ اللّهِ أفواجاً * فَسَبح بحمدِ رَبك واستغفِرهُ إنه كان تواباً﴾.

جاء في صحيح مسلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: تعلم آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾** قال: صدقت[2].

وروى البخاري في صحيحه، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٥٣٨ ـ بتصرف ـ.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب التفسير ـ: ٤/٢٣١٨ ـ حديث رقم: ٣٠٢٤.

صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ إلا يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي[1].

قوله تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾. تتحدث هذه الآية الكريمة عن «فتح مكة» الذي عزّ به المسلمون، وانتشر الإسلام به في الجزيرة العربية، وبهذا الفتح المبين دخل الناس في دين الله.

قال القرطبي: النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها.

يقال نصره على عدوه ينصره نصراً، أي أعانه. والاسم النُّصرة..[2].

والفتح هو فتح مكة وهذا قول عامة المفسرين.

قال الطبري: والفتح: فتح مكة[3].

وقال ابن كثير: والمراد بالفتح ها هنا فتح مكة. قولاً واحداً[4].

وروى مسلم بسنده عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قوله: (سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه). قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر من قول «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» فقال: (خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي. فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها. ﴿**إذا جاء نصرُ اللّهِ والفتحُ** * ـ فتح مكة ـ **ورأيت الناسَ يدخلونَ في دينِ اللّهِ أفواجاً * فَسَبح بحمدِ رَبك**

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة إذ جاء نصر الله والفتح: ٦/ ٢٢٠ ـ وانظر فتح الباري: ٨/ ٧٣٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٣٠.

(٣) تفسير القرطبي: ٣/ ٣٣٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٦٣.

واستغفِرُه إنه كان تواباً﴾[1].

قوله: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾.

الناس: اسم جمع يدل على جماعة من الآدميين، والمراد العرب وغيرهم.

والأفواج: جمع فوج وهو الجماعة الكثيرة[2].

قال الطبري: قوله: ﴿ورأيت الناس﴾ من صنوف العرب وقبائلها أهل اليمن منهم، وقبائل نزار[3].

وقال القرطبي: وذلك لما فتحت مكة قالت العرب: أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان (أي طاقة) فكانوا يسلمون أفواجاً أمة أمة[4].

وروى البخاري عن عمرو بن سلمة: كنا بماء ممرّ الناس. وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون يزعم أن الله أرسله أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا. فكنت أحفظ ذاك الكلام وكأنما يقر في صدري. وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه. فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة أهل مكة بادر كل قوم بإسلامهم. . . الحديث[5].

والمعنـــى:

ورأيت يا محمد الناس يدخلون في دين الله جماعات جماعات.

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب ما يقال في الركوع والسجود: ١/ ٣٥١.

(٢) تفسير التنوير والتحرير: ٣٠/ ٥٩٢.

(٣) تفسير الطبري: ٣٠/ ٣٣٢.

(٤) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٣٠.

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب وقال: الليثُ: ٥/ ١٩١، وانظر الفتح: ٨/ ٢٢.

وقوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾.

قال القرطبي: أي إذا صليت فأكثر من ذلك.

﴿بحمد ربك﴾ أي حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح.

﴿واستغفره﴾ أي سل الله الغفران(١).

روى البخاري ومسلم من عائشة: قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن(٢).

وهذه السورة تسمى سورة التوديع حيث جاءت مخبرة بقرب أجل المصطفى ﷺ.

جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله، فقال عمر إنه من حيث علمتم فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليريهم قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾.

فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ـ وذلك علامة أجلك ـ ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٣١.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة إذا جاء نصر الله والفتح: ٦/ ٢٢٠ وانظر فتح الباري: ٨/ ٧٣٣. وصحيح مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب ما يقال في السجود والركوع: ١/ ٣٥١.

فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول...[1].

ويقول سيد قطب في بيان بعض ما يستفاد من هذه السورة:

«في مطلع السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص، عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث، وما يقع في هذه الحياة من حوادث، وعن دور الرسول ـ ﷺ ـ ودور المؤمنين في هذه الدعوة، وحدّهم الذي ينتهون إليه في هذا الأمر... هذا الإيحاء يتمثل في قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله....﴾.

فهو نصر يجيء به الله: في الوقت الذي يقدره، في الصورة التي يريدها، للغاية التي يرسمها، وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد، وليس لأشخاصهم فيه كسب، وليس لذواتهم منه نصيب، وليس لنفوسهم منه حظ!.

إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراساً، ويجعلهم عليه أمناء.. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً»[2].

أقول: والقارىء يلاحظ أن سيد قطب أشار إلى منهج القرآن في حديثه عن مجيء نصر الله، أن ذلك إيحاء بتصور خاص عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث وما يقع في هذه الحياة من حوادث، وهو تنبيه للمؤمنين وللناس كافة أن الأمر بيد الله ومنه وإليه يعود الأمر كله.. وهذه معانٍ إيمانية كاملةِ استطاع القرآن الكريم بمنهجه الفريد أن يثبتها في الجيل الأول الذي يستحق بحق أن يسمى الجيل القرآني.

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة إذا جاء نصر الله والفتح: ٦/ ٢٢٠، وانظر فتح الباري: ٨/ ٧٣٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٩٦.

٣ ـ فتح مكة وأثره في الدعوة الإسلامية

كان فتح مكة مرحلة تحول في سير الدعوة الإسلامية، فنبه ـ سبحانه ـ أن من آمن وأنفق وقاتل قبل هذا الفتح لا يستوي مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل، كذلك منقبة الهجرة وشرفها من مكة إلى المدينة انتهت بالفتح لقوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا)[١].

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)﴾[٢].

حث ـ سبحانه ـ المؤمنين على الإنفاق فقال: **﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض﴾**.

والمعنى: أي شيء لكم في ترك الإنفاق مما يقرب إلى الله عزّ وجلّ وأنتم ميتون تاركون أموالكم؟!.

ثم بين فضل من سبق بالإنفاق فقال:

﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾:

الجمهور على أن المراد بالفتح هنا فتح مكة، وذهب الشعبي إلى أنه صلح الحديبية[٣].

قال ابن كثير: أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله وذلك أنه قبل فتح

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب فضل الجهاد: ٤/ ١٧، وانظر فتح الباري: ٦/ ص ٣.

(٢) سورة الحديد، آية ١٠.

(٣) زاد المسير: ٨/ ١٦٤.

مكة كان الحال شديداً فلم يكن يؤمن حينئذٍ إلا الصديقون.

وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجاً[1].

ولهذا قال تعالى: **﴿أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاًّ وعد الله الحسنى﴾**.

قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها، قال الزجاج: لأن المتقدمين كانت بصائرهم أنفذ، ونالهم من المشقة أكثر[2].

وقوله: **﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾**.

أي وكلا الفريقين وعده الله الجنة. فالمنفقون قبل الفتح وبعده كلهم لهم ثواب على ما عملوا وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء.

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله: **﴿والله بما تعملون خبير﴾**.

أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق[3].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٣٠٦.

(٢) زاد المسير: ٨/١٦٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/٣٠٧.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرضه لغزوة فتح مكة

تحدث القرآن الكريم عن فتح مكة، وفي الفصل السابق ذكرت أقوال المفسرين في الآيات التي نزلت في فتح مكة، وفي هذا الفصل أبين معالم منهج القرآن الكريم في هذا الحديث، ومكة حرمها الله يوم أن خلق السموات والأرض(١)، ولم يحل لأحد أن يقاتل فيها إلا لرسول الله ﷺ أحلت له ساعة من نهار(٢)، وإليك أهم معالم هذا المنهج:

١ - سمى القرآن الكريم انتصار المسلمين ودخول مكة في حكم المسلمين فتحاً فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾(٣).

ومكة هي بلد الله الحرام وفيها بيته وجاء القرآن مبيناً فضلها كما أكدت السنّة شرفها:

قال تعالى:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾(٤).

---

(١) انظر صحيح البخاري - كتاب جزاء الصيد - باب لا يحل القتال بمكة: ٣/ ١٨، وانظر الفتح: ٤/ ٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ١٨.

(٣) سورة النصر، آية ١.

(٤) سورة النمل، آية ٩١.

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ ﴾[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيةٌ وإذا استنفرتم فانفروا. فإن هذا بلدٌ حرمه اللّهُ يومَ خلق الله السموات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحدٍ قبلي ولم يحل لي إلا ساعةً من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضدُ شوكهُ ولا ينفر صيدهُ ولا يلتقط لقطتهُ إلّا من عرفها ولا يختلى خلاها قال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنهُ لقينهم[3] ولبيوتهم قال: إلا الإذخر)[4].

وقد كان الشرف وهذه الأهمية لمكة معروفين عند الجاهليين، فوجود بيت الله الذي يحج إليه العرب ودفاع الله عنهم في حادث الفيل جعل لقريش منزلة عظمى في ذاكرة القبائل العربية فسلمت بفضلها وشرفها ولما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة كانت كثير من القبائل متوقفة عن الإسلام تنظر ما هو مصير مكة وأهلها. روى الحسن أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر - يعني النبي ﷺ - على أهل بدر وأُحد، وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأتيته فقلت: أنشدك النعمة، فقالوا: صَهْ، فقال النبي ﷺ: دعوه، ما تريد؟. قال

---

(١) سورة قريش، آية ٣، ٤.

(٢) سورة آل عمران، آية ٩٦.

(٣) «فإنه لقينهم» هو بفتح القاف وسكون التحتانية بعدها نون أي الحداد، فتح الباري: ٤/ ٤٩.

(٤) صحيح البخاري: كتاب جزاء الصيد - باب لا يحل القتال بمكة: ٣/ ١٨، وانظر الفتح: ٤/ ٤٦.

بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، **فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا، لم تخشن قلوب قومك عليهم،** فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد، فقال: اذهب معه فافعل ما يريد، **فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ وإن أسلمت قريش أسلموا**[1].

كذلك روى البخاري في الصحيح عن عمرو بن سلمة قال:

كنا بماء ممّر الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم. ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟.

فيقولون: يزعم أن الله أرسله أوحى الله، أو أوحى الله بكذا فكنت أحفظ ذاك الكلام وكأنما يقرّ في صدري وكانت العرب تَلَوَّم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه. فإنه إن ظهر عليهم فهو صادق. فلما كانت وقعة أهل مكة بادر كل قوم بإسلامهم... الحديث[2].

فتسمية القرآن الكريم لهذا الانتصار بالفتح درس للأجيال المسلمة حتى تعرف أهميته وقدره.

يقول الإمام ابن القيم:

كانت الهدنة ـ في صلح الحديبية ـ مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً...[3].

والمتأمل في حديث القرآن عن الغزوات السابقة، يجد القرآن الكريم تحدث

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٣٣.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب «وقال: الليث...»: ٥/ ١٩١.

(٣) زاد المعاد: ٢/ ٣١٨.

عن النصر في بدر فقال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة...﴾ [آل عمران الآية ١٢٣][1].

وفي غزوة أُحد في أول المعركة صدقهم الله وعده بالنصر فقال تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه...﴾آل عمران الآية ١٥٢][2].

وفي غزوة الأحزاب سمي القرآن انتصار المسلمين نعمة فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[3].

وفي غزوة حنين قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[4].

ثم إذا تأملنا غزوة الحديبية سمى الله الصلح فيها فتحاً فقال: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾[5].

فكان الصلح هو مقدمة فتح مكة وكان هو بدايته فتحٌ مبينٌ.

أما في غزوة الفتح فقرن النصر مع الفتح فقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾[6].

فميز القرآن الكريم هنا فتح مكة فسماه نصراً وسماه فتحاً وقرن بينهما.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٢.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٩.

(٤) سورة التوبة، آية ٢٥.

(٥) سورة الفتح، آية ١.

(٦) سورة النصر، آية ١، ٢.

قال الرازي: فإن قيل: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر؟.

الجواب من وجوه: منها النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً[(١)].

وقال الرازي أيضاً:

والمشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح في هذه السورة هو فتح مكة، ومما يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى، ذكره مقروناً بالنصر، وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر، والفتح دون النصر كإجلاء بني النضير، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم. أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح، وصار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم...[(٢)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾[(٣)].

بهذه الآية أكد القرآن الكريم على أهمية أن يكون ولاء المسلم لله ولرسوله والمؤمنين.

وكما عرفنا في سبب النزول[(٤)] أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة والتي ملخصها أنه أراد أن يتخذ يداً عند كفار مكة فأخذ يعلمهم بتوجه المسلمين إليهم ليأخذوا حذرهم... فنبه سبحانه المسلمين على أن موالاة الكفار أمر

(١) تفسير الرازي: ٣٢/ ١٥١ ـ بتصرف ـ.
(٢) المصدر نفسه: ٣٢/ ١٥٥ ـ بتصرف ـ.
(٣) سورة الممتحنة، آية ١.
(٤) انظر صفحة رقم ٥٦٦ من هذا الكتاب.

محرم، وهناك آيات كثيرة جاءت أيضاً توضح ذلك منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾[1].

والذي أنبه إليه أن الجيش الإسلامي الذي قوامه عشرة آلاف مقاتل قد وعى هذا الدرس العظيم، وفهمه حق فهمه.

فهذه الآية تبقى درساً للأمة الإسلامية تذكرها بأهمية الولاء لله وأهمية البراء من المشركين[2].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله....﴾ يدل على أن نصر الله يجيء به الله، فيؤكد ما سبق أن أكدته الآيات السابقة في حديثها عن بدر بأن النصر إنما هو من عند الله. لذلك يجب على المسلمين اليوم أن يطلبوا النصر من الله، وأن يعتقدوا أن النصر لا يكون إلا من عند الله فيجب على المسلمين أن يحققوا التوحيد وأن يعتقدوا اعتقاداً جازما ان النصر من عند الله، فإذاً العقيدة الصافية الخالصة يجب أن تتوفر في المسلمين.

قال الرازي:

النصر لا يكون إلا من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[3] فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله: ﴿نصر الله﴾؟.

فالجواب: جاء هذا التقييد بقوله: ﴿نصر الله﴾ لأنه إجابة لدعائهم ﴿متى نصر الله﴾[4] فيقول هذا الذي سألتموه، وأيضاً يفيد هذا التقييد التعظيم لهذا النصر فهو نصر الله[5].

---

(١) سورة النساء، آية ١٤٤.

(٢) انظر مزيداً من التفصيل كتاب الولاء والبراء من مفاهيم عقيدة السلف للشيخ محمد سعيد القحطاني.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٢٦. وأيضاً في سورة الأنفال: آية ١٠.

(٤) سورة البقرة: آية ٢١٤.

(٥) تفسير الرازي: ٣٢/ ١٥١ ـ بتصرف ـ.

٤ ـ جعل القرآن الكريم فتح مكة مرحلة تمييز فمن آمن وأنفق وقاتل قبل فتح مكة لا يستوي مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

وقال الرسول ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية)[2].

قال النووي: قال أصحابنا وغيرهم من العلماء:

الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة وتأولوا هذا الحديث تأولين:

أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام فلا تتصور منها الهجرة.

والثاني: وهو الأصح أن معناه أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة، ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة لأن الإسلام قوي وعز بعد فتح مكة عزاً ظاهراً بخلاف ما قبله[3].

فالقرآن الكريم ميز بين المؤمنين وقسمهم إلى صنفين:

الصنف الأول: المؤمنون قبل فتح مكة من الأنصار والمهاجرين.

والصنف الثاني: المؤمنون الذين آمنوا بعد فتح مكة. فهؤلاء لا يسمون

---

(١) سورة الحديد، آية ١٠. وانظر تفسيرها صفحة ٥٧٤ من هذا الكتاب.

(٢) صحيح البخاري: ٤/١٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب الإمارة ـ باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ـ: ١٣/ ص ٧.

مهاجرين ولا يسمون أنصاراً وإنما هي مرحلة الدخول في دين الله أفواجا وكلاً وعد الله الحسنى.

فهذا التميز بنص صريح جاء في القرآن الكريم والسنّة المطهرة فهذا يدل على أهمية فتح مكة وأنها مرحلة هامة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

٥ ـ سورة النصر تسمى سورة التوديع وقد فهم عبد الله بن عباس حبر الأمة رضي الله عنه غير ما فهمه أشياخ بدر فقد جاء في الحديث المتقدم ذكره أن عمر سأل ابن عباس: أكذاك تقول يا ابن عباس. فقلت: لا. فقال: فما تقول: قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له،... فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[١].

إذاً فتح مكة كان مقدمة لإكمال الدين وانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.. فبعد فتح مكة بشهور قليلة نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٢].

وبعد نزول هذه الآية بفترة زمنية يسيرة انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

(١) انظر الحديث بتمامه صفحة رقم ٥٧٢ من هذا الكتاب.
(٢) سورة المائدة، آية ٣.



الباب الثامن

حديث القرآن عن غزوة حنين

تمهيد

غزوة حنين من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في شوّال سنة ثمان من الهجرة وكلامنا عن غزوة حنين يتضمن ما يأتي:

أولاً: سبب غزوة حنين.
ثانياً: أهم أحداث غزوة حنين.
ثالثاً: نتائج غزوة حنين.



غزوة حنين من خلال كتب السيرة والتاريخ

أولاً: سبب غزوة حنين[1]:

اهتز مركز قبيلة هوازن[2] وقبيلة ثقيف[3] بعد أن فتح الله مكة وأنهى الشرك، والوثنية فيها، وأدركت القبيلتان أنهما مستهدفتان بعد قريش، فعزم زعماء هوازن، وثقيف أن يبدؤا النبي ﷺ بالقتال.

وجاء في تاريخ الطبري: قال عروة:

«أقام النبي ﷺ بمكة عام الفتح نصف شهر، لم يزد على ذلك حتى جاءت هوازن وثقيف فنزلوا بحنين وهم يومئذٍ عامدون يريدون قتال النبي ﷺ، وكانوا قد أجمعوا قبل ذلك حين سمعوا بمخرج رسول الله من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم حيث خرج من المدينة، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة، أقبلت هوازن عامدين إلى النبي ﷺ، وأقبلوا معهم بالنساء والصبيان والأموال،

---

(١) حنين: هو وادٍ قريب من مكة، وسمي بحنين على اسم رجل من العماليق يدعى حنين بن نائبة، (مراصد الإطلاع بأسماء الأمكنة والبقاع: ١/ ٤٣٢).

أقول حنين وادٍ يقع قبل الطائف يراه الذاهب من مكة إلى الطائف من طريق السيل بالقرب من الشرائع المعروفة اليوم.

(٢) قبيلة من قيس سكنت شمال شرق مكة، إلى الجنوب الشرقي من المدينة (لسان العرب: جـ ١٣ ص ٤٣٦) من أوديتهم وادي حنين. وهوازن هذه قبيلة عربية مضرية عدنانية تفرعت منها فروع كثيرة منها ثقيف.

(٣) ثقيف: هي قبيلة من قيس أيضاً، سكنت الطائف وما حولها (لسان العرب: جـ ٣: ١٣٣).

ورئيس هوازن يومئذٍ مالك بن عوف، وأقبلت معهم ثقيف، حتى نزلوا حنيناً يريدون النبي ﷺ، فلما حُدِّث النبي ﷺ وهو بمكة أن قد نزلت هوازن وثقيف بحنين عمد النبي ﷺ حتى قدم عليهم[1].

ثانياً: أهم أحداث غزوة حنين:

تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوّال ووصلوا إلى حنين في مساء العاشر من شوّال[2] وقد استخلف الرسول ﷺ عتاب بن أسيد على مكة عند خروجه[3].

وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً من المسلمين أما عدد هوازن وثقيف فقال ابن حجر أنهم كانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر[4]، ولما رأى بعض الطلقاء جيش المسلمين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة[5] ودخل الإعجاب بكثرة العدد في النفوس حتى قال بعضهم:

لو لقينا بني شيبان ما بالينا، ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة[6].

أحداث المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

قال العباس ـ رضي الله عنه ـ: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٧٠.
(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٥٠.
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٠٠.
(٤) فتح الباري: ٨/ ٢٩.
(٥) مغازي الواقدي: ٣/ ٨٩٠ ـ بتصرف.
(٦) نفس المصدر: ٣/ ٨٨٩ ـ بتصرف.

فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلةٍ له، بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال: العباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع. فقال رسول الله ﷺ: (أي عباس! نادِ أصحابَ السَّمُرَة)[1] فقال العباس ـ وكان رجلاً صيتاً ـ فقلت: بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرَةِ؟ قال: فوالله! لكأنّ عطفتهم، حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار. (يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار!) قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: (هذا حين حمي الوطيس)[2].

قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: (انهزموا ورب محمد) قال العباس: فذهبت انظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً[3].

وفي رواية قال: (انهزموا ورب الكعبة، انهزموا ورب الكعبة)[4]، وفي رواية البراء: «وأبو سفيان يقود به بغلته. فنزل[5]، ودعا، واستنصر، وهو يقول:

(أنــا النبــي لا كــذب   أنــا ابــن عبـد المطلـب

---

(١) (السَّمُرَة) هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان ومعناه: نادِ أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية (شرح مسلم للنووي: ١٢/١١٥).

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب غزوة حنين: ٣/١٣٩٩.

(٣) المصدر نفسه: ٣/١٣٩٨.

(٤) المصدر نفسه: ٣/١٣٩٩.

(٥) أي نزل عن دابته ﷺ وترجل. وهذا غاية الشجاعة والثبات.

اللهم أنزل نصرك).

قال البراء: كنا، والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني رسول الله ﷺ[1].

وجاء في مسند الإمام أحمد أنه ﷺ كان يقول: (إنك إن تشأ لا تعبد بعد اليوم)[2].

تأييد الله لرسوله ﷺ في غزوة حنين بأمور منها:

١ ـ إنزال السكينة على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

فقد أنزل الله ـ سبحانه ـ سكينته على جميع المؤمنين، فعادوا جميعاً إلى أرض المعركة ونصرهم الله نصراً مؤزراً.

٢ ـ إنزال الملائكة في حنين:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[4].

وجاءت روايات كثيرة أيضاً تثبت نزول الملائكة في حنين وممن ذكر ذلك ابن هشام[5] والواقدي[6] وابن كثير[7] والطبري[8] وابن سعد[9].

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٤٠١.
(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١٢١.
(٣) سورة التوبة من آية ٢٦.
(٤) سورة التوبة من آية ٢٦ وانظر تفسير الآية ٥٩٨ من هذا الكتاب.
(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٩.
(٦) المغازي للواقدي: ٣/ ٨٩٢.
(٧) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٦١٢.
(٨) تاريخ الطبري: ٣/ ٧٢.
(٩) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٥١.

قال ابن سعد: «وكان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم»[١].

أقول: ونص القرآن الكريم يكفي لإثبات نزول الملائكة كذلك نزول هذه الآية أثبت صحة معنى تلك الروايات الكثيرة التي جاءت في كتب السيرة والتاريخ.

انتهاء المعركة بالنصر للمسلمين:

لم تصمد هوازن وثقيف طويلاً في الجولة الثانية، بل فروا من الميدان وتعقبهم المسلمون بعيداً عن حنين تاركين وراءهم قتلى كثيرين وأموالاً عظيمة في الميدان. وكان مجموع قتلى هوازن ما بين (٣٠٠ ـ ٤٠٠) قتيل، وأما السبي فقد كان ستة آلاف، وأما الأموال فكانت أربعة آلاف أوقية فضة، وأما الإبل فكانت أربعة وعشرين ألفاً، وأما الشاة فكانت أكثر من أربعين ألف شاة[٢].

وكان معهم خيل وبقر وحمير لكن المصادر لم تذكر عدد ما غنمه المسلمون منها.

وقد أمر الرسول ﷺ بحبس الغنائم في الجعرانة لحين عودته من حصار الطائف.

شهداء المسلمين في هذه المعركة:

استشهد أربعة من المسلمين وهم:

١ ـ أيمن بن عبيد (وهو من قريش من بني هاشم).

---

(١) نفس المصدر: ٢/١٥١.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/١٥٢، وانظر المجتمع المدني في عصر النبوة ص ٢٠٦.

٢ ـ يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد (وهو من بني أسد بن عبد العزى).

٣ ـ سراقة بن الحارث بن عدي وهو من الأنصار، من بني العجلان.

٤ ـ أبو عامر الأشعري، وهو من الأشعريين[١].

ثالثاً: نتائج غزوة حنين:

نتائج غزوة حنين كثيرة، وإليك أهم هذه النتائج:

١ ـ انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن وثقيف في هذه الغزوة.

٢ ـ طفئت جمرة العرب بهذه الغزوة، فكانت حنين والطائف آخر غزوات النبي ﷺ لمشركي العرب.

٣ ـ بعد هزيمة هوازن في حنين انكسرت شوكتها، ورغبت في الإسلام وجاءت إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة بعد غزوة الطائف فأسلمت فقبل النبي ﷺ إسلامها وأكرمها برد السبي عليهم.

٤ ـ إسلام قائد هوازن مالك بن عوف، وإليك قصة إسلامه:

قال النبي ﷺ: (ما فعل مالك بن عوف؟) قالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال النبي ﷺ: (أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل) فلما بلغ ذلك مالكاً، انسل من الطائف فلحق برسول الله ﷺ فأسلم، وحسن إسلامه، فرد عليه ﷺ أهله وماله ولما أعطاه مائة من الإبل قال مالك بن عوف:

ما إنْ رأيتُ ولا سَمِعتُ بمثلِهِ   في الناس كُلِّهم بمثلِ مُحَمَّدِ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٥٩.

أَوْفَى وأعْطى للجزيل إذا اَجْتُدِي ... ومتى تَشَأْ يُخْبِرك عمّا في غَدِ
وإذا الكتيبةُ عرَّدَتْ[1] أنيابُها ... بالسَّمْهَرِيِّ[2] وَضَرْب كل مُهَنَّدِ
فكأنَّهُ ليثٌ على أشبالِهِ ... وسْطَ الهَباءةِ[3] خادرٌ[4] في مِرْصَدِ[5]

(١) عرّدَتْ: اشتدت وضربت، وفي القاموس المحيط ١/ ٣١٣: العرد: الصلب الشديد وعرد النبت طلع وارتفع.

(٢) السَّمْهَرِيّ: الرمح الصليب العود (لسان العرب: ٤/ ٣٨١).

(٣) الهَباءَة: غبار الحرب، جاء في مختار الصحاح ص ٦٨٩، الهباءة دقائق التراب والهبوة الغبرة.

(٤) والخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية في ناحية البيت ومنه أسد خادر (القاموس المحيط: ٢/ ٢١٨).

(٥) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٦٨٣.

الفصل الأول

حديث القرآن عن غزوة حنين وتفسير الآيات الواردة في ذلك

غزوة حنين من الغزوات الهامة التي وقعت عقب فتح مكة وسماها القرآن باسمها فهي الواقعة الوحيدة التي ذكر اسمها في الآيات الواردة عنها[1].

والآيات التي نزلت فيها ليست كثيرة بل هي فقط ثلاث آيات لكنها شاملة ووافية بالغرض، وهي من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)﴾[2].

قال ابن كثير: قال مجاهد: «هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم إلى أن النصر من عنده سواء قل الجمع أم كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل مع رسول الله ﷺ ثم أنزل الله نصره على رسوله والمؤمنين[3].

---

(١) انظر سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة: ٢/ ٣٠٠.

(٢) سورة التوبة الآيات: ٢٥، ٢٦، ٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٤٣.

فقوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً. . .﴾.

المواطن: جمع موطن، وهو المكان الذي يقيم فيه الإنسان، يقال استوطن فلان بمكان كذا، إذا جعله وطناً له.

والمراد بالمواطن هنا: الأماكن التي حدثت فيها الحروب بين المسلمين، وأعدائهم.

قال الآلوسي: وقوله: ﴿ويوم حنين﴾ معطوف على محل مواطن وعطف ظرف الزمان على ظرف المكان وعكسه جائز. .[1].

وقوله: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ بدل من يوم حنين أو عطف له، وأعجبتكم من الإعجاب بمعنى السرور بما يتعجب منه، وسبب هذا الإعجاب أن عدد المسلمين كان اثنا عشر ألفاً وعدد أعدائهم كان أربعة آلاف.

وقوله: ﴿فلم تغن عنكم شيئاً﴾ بيان للأثر السيء الذي أعقب الإعجاب بالكثرة وأن سرورهم بهذه الكثرة لم يدم طويلاً، بل تبعه الحزن والهزيمة.

وقوله: ﴿تغن﴾ من الغناء بمعنى النفع، تقول: ما يغني عنك هذا الشيء أي ما يجزىء عنك وما ينفعك.

وقوله: ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ بيان لشدة خوفهم وفزعهم.

قال القرطبي: «والرُّحب» ـ بضم الراء ـ السعة. تقول منه: فلان رحب الصدر والرحب ـ بالفتح ـ الواسع. تقول منه: بلد رحب، وأرض رحبة.

وقيل: الباء بمعنى مع، أي: وضاقت عليكم الأرض مع رحبها، وقيل

---

(١) تفسير الألوسي: ١٠/٦٥.

بمعنى على أي: على رحبها، وقيل المعنى برحبها، فتكون «ما» مصدرية[1].

والمعنى الإجمالي: يبين الله سبحانه وتعالى فضله على المؤمنين ونعمه الكثيرة، ومن مظاهر هذه النعم أنه ـ سبحانه ـ قد نصر المؤمنين على أعدائهم مع قلتهم في مواقف حروب كثيرة كغزوة بدر وبني قينقاع والنضير..

كما نصرهم ـ أيضاً ـ في يوم غزوة حنين، وهو اليوم الذي أعجبتهم فيه كثرتهم فاعتمدوا عليها حتى قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة[2].

ولكن هذه الكثرة التي أعجبت المؤمنين لم تنفعهم شيئاً في أمر العدو فانهزموا أمامه في أول الأمر وضاقت عليهم الأرض مع رحابتها وسعتها.

وقوله: ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ تذييل مؤكد لما قبله وهو شدة خوفهم.

ووليتم: من التولي بمعنى الإعراض. ومدبرين: من الإدبار بمعنى الذهاب إلى الخلف.

أي: ثم وليتم الكفار ظهوركم منهزمين لا تلوون على شيء.

وفي الآيات: تصوير بياني بديع لحال المسلمين، فيه تنقل بالسامع من صورة إلى صورة: من صورة المسلمين وهم معجبون بكثرتهم مسرورون بها، إلى صورة فشلهم وهزيمتهم مع هذه الكثرة فلم تنفعهم، إلى صورة الخوف الذي أصابهم حتى لم تعد الأرض تسعهم وأقفلت منافذها في وجوههم إلى الصورة الحسية لهذا الفشل في الفرار والنكوص وتولية الأدبار حتى لم يبق حول النبي ﷺ إلا القليل.

وبعد الخوف الشديد الذي أصاب المؤمنين في مبدأ لقائهم بأعدائهم في غزوة حنين يجيء نصر الله الذي عبر عنه ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿ثم أنزل اللهُ

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ١٠١.

(٢) المغازي للواقدي: ٣/ ٨٩٠.

سكينتهُ على رسولهِ وعلى المؤمنينَ، وأنزلَ جُنوداً لم تروها، وعذَّبَ الذين كَفرُوا وذلك جزاءُ الكافرين﴾.

السكينة: الطمأنينة والرحمة والأمنة وهي فعيلة من السكون: وهو ثبوت الشيء بعد التحرك، أو من السكن وهو كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله﴾ قال القاسمي:

«أي ما تسكنون وتثبتون به من رحمته ونصره، وانهزام الكفار، واطمئنان قلوبهم للكر بعد الفر. ﴿على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي الذين انهزموا، وإعادة الجارّ للتنبيه على اختلاف حاليهما، أو الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا، أو على الكل وهو الأنسب»[1].

وقوله تعالى: ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾.

قال الطبري: هي الملائكة. وأخرج بسنده عن عبد الرحمن مولى أم مرثن، قال: حدثني رجل من المشركين يوم حنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب محمد عليه الصلاة والسلام لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم، فبينما نحن نسوقهم إذ انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء[2] فتلقانا رجال بيض، حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا، وركبنا القوم فكانت إياها.

وأخرج الطبري أيضاً بسنده عن سعيد، قال: أمد الله نبيه ﷺ يوم حنين بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، قال: يومئذٍ سمى الله الأنصار مؤمنين،

---

(١) تفسير القاسمي: ٨/ ١٥١.
(٢) هو الرسول ﷺ.

قال: **﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله، وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها﴾**[1].

وقوله تعالى: **﴿وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين﴾**.

أي: وعذب الذين كفروا بالقتل والسبي والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدنيا ما داموا يستحبون الكفر على الإيمان ويعادون أهله ويقاتلونهم عليه[2].

ثم قال تعالى: **﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾**.

أي: ويتوب الله من بعد هذا التعذيب على من يشاء من المشركين بأن يوفقهم للدخول في الإسلام والله غفور رحيم لمن تاب وآمن، فرحمته وسعت كل شيء.

قال ابن كثير: قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً[3].

وروى ذلك البخاري عن عروة بن الزبير بن مروان والمسور بن مخرمة أخبراه:

«أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ:

(معي من ترون، وأحب الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/١٠٣، ١٠٤.

(٢) تفسير المراغي: ٤/٨٧.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/٣٤٦.

الطائفتين: إما السبي وإما المال، وقد كنتُ استأنيت بكم) ـ وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلةً حين قفل من الطائف ـ فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍ إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حَظِّهِ حتى نُعطيهُ إياهُ ومن أولِ ما يفيء الله علينا فليفعل).

فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: (إنّا لا ندري من أذِنَ منكم في ذلك مِمّن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم). فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروا أنهم قد طَيَّبُوا وأذِنُوا... الحديث»[1].

وقال سيد قطب: في قوله تعالى: ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء، والله غفور رحيم﴾ فباب المغفرة دائماً مفتوح لمن يخطىء ثم يتوب.

إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا حقيقة أخرى ضمنية، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة. إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة. إلى أن يقول...

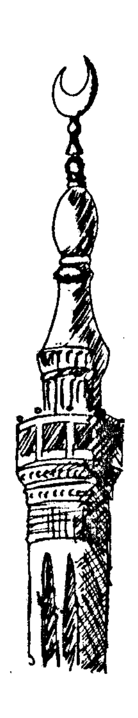
لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح[2]!.

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قول الله تعالى: ﴿ويوم حنين﴾ ٥/ ١٩٣، وانظر فتح الباري: ٨/ ٣٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/ ١٦١٨.

فهذه الغزوة، غزوة حنين، تشابه غزوة بدر في أمور يلخصها الإمام ابن القيم بقوله: «إن الله سبحانه افتتح غزوات العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا، يقرن بين هاتين بالذكر فيقال بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين، والنبي ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما، وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين، فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم، والثانية استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جميعهم، حتى لم يجدوا بداً من الدخول في دين الله[1].



(١) زاد المعاد: ٢/٤٤٨.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرضه لغزوة حنين

ذكرت في الفصل الأول الآيات التي تحدث عن هذه الغزوة، وهي ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

غزوة حنين من الغزوات الهامة، وتسجيل القرآن لهذه الغزوة جعلها درساً للمسلمين يستفيدون منه في كل زمان ومكان وإليك أهم معالم هذا المنهج:

١ ـ بين القرآن الكريم أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم. فقال تعالى: **﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم. . .﴾**.

ثم بين القرآن أن هذه الكثرة لا تفيد **﴿فلم تغن عنكم شيئاً. .﴾**.

٢ ـ بين القرآن الكريم أن المسلمين انهزموا وهربوا ما عدا النبي ﷺ ونفر يسير من أصحابه. قال تعالى: **﴿وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَت ثم وليتم مُدبرين﴾**.

---

(١) سورة التوبة، الآيات ٢٥، ٢٦، ٢٧.

٣ ـ بين القرآن الكريم أن الله نصر رسوله ﷺ في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين. فقال تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسولهِ وعلى المؤمنينَ﴾.

٤ ـ بين القرآن الكريم أن الله أمد نبيه محمداً ﷺ بالملائكة في حنين. قال تعالى: ﴿وأنزل جنوداً لم تروها وعذبَ الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾.

٥ ـ أكد ـ سبحانه ـ على أنه يقبل التوبة من عباده ويوفق من شاء إليها فقال تعالى: ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾(*).

وإليك مقارنة بين غزوة بدر وحنين يتضح منها أهمية غزوة حنين:

غزوة بدر الكبرى	غزوة حنين
١ ـ في بدر كان المسلمون في قلة من العدد.	في غزوة حنين كانوا في كثرة من العدد.
٢ ـ في بدر اشترك ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً[١].	في حنين جميعهم فروا، خاض المعركة النبي ﷺ ومائة رجل فقط من أصحاب السمرة[٢].
٣ ـ أكرم الله المؤمنين بالنصر يوم بدر.	كذلك في حنين أكرم الله المائة الصابرة مع رسوله ﷺ بالنصر.
٤ ـ نزلت الملائكة مدداً في بدر.	كذلك في حنين نزلت الملائكة وذكر ابن القيم أنها قاتلت أيضاً[٣].
٥ ـ أنزل الله السكينة على المؤمنين في غزوة بدر.	كذلك أنزل الله السكينة على المؤمنين في حنين.

(*) أوجزت هنا الحديث عن هذه المعالم ومن أراد مزيداً من الشرح والبيان فليرجع إلى التمهيد صفحة رقم ٥٨٥ والفصل الأول صفحة رقم ٥٩٥، من هذا الكتاب، فقد وضحتها هناك.

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٣٨٤ وقد تقدم الحديث صفحة رقم ٤٩ من هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٧٥.

(٣) انظر زاد المعاد: ٢/ ٤٤٨.

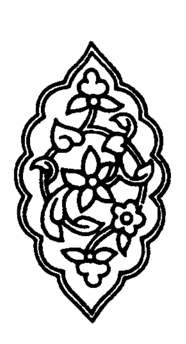
٦ - غنم المسلمون غنائم كثيرة في بدر.

كذلك في حنين كانت الغنائم أكثر من بدر.

٧ - ثبت شرف وفضل من حضر بدر لقوله ﷺ: (وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1].

أيضاً المائة الذين ثبتوا كانوا من أصحاب السمرة الذين قال فيهم النبي ﷺ: (أنتم خير أهل الأرض)[2].

هذه بعض أوجه المقارنة بين الغزوتين[3]، والله أسأل التوفيق والسداد.



(١) أخرجه البخاري: ٥/ ١٨٤، وكذلك مسلم: ٤/ ١٩٤١ وقد تقدم الحديث بطوله صفحة رقم ٥٦٦ من هذا الكتاب.

(٢) أخرجه البخاري: ٥/ ١٥٧، وقد تقدم الحديث صفحة رقم ٥٠٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر ما سبق نقله في مقارنة الإمام ابن القيم بين الغزوتين صفحة ٦٠١ من هذا الكتاب.

الباب التاسع

حديث القرآن عن غزوة تبوك

تمهيد
غزوة تبوك من خلال كتب السيرة والتاريخ

وقد كانت في رجب سنة تسع من الهجرة وكلامنا عن غزوة تبوك يتضمن ما يأتي:

أولاً: سبب غزوة تبوك.
ثانياً: أحداث غزوة تبوك.
ثالثاً: نتائج غزوة تبوك.



غزوة تبوك من خلال كتب السيرة والتاريخ

أولاً: سبب غزوة تبوك:

ذكر المؤرخون أسباباً لغزوة تبوك منها:

١ ـ وصلت الأنباء للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء، فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه.

والواقدي يرى أن هذه إشاعات من الأنباط فيقول: ولم يكن ذلك وإنما شيء قيل[١].

٢ ـ ذكر اليعقوبي في تاريخه أن الثأر لجعفر بن أبي طالب هو سبب الغزوة[٢].

ورد عليه عبد القادر السندي بقوله: «وليس عنده سند قائم يؤيد قوله وإنما ميله إلى هذه الحكاية بمنظاره الخاص»[٣].

٣ ـ وذهب ابن كثير إلى أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة

---

(١) انظر طبقات ابن سعد: ٢/ ١٦٥ وانظر مغازي الواقدي: ٢/ ٩٩٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦٧.

(٣) انظر الذهب المسبوك: ١/ ٦٤.

الجهاد فقال: عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[1].

وذهب الدكتور أكرم العمري[2] والشيخ عبد القادر السندي[3] إلى الأخذ بقول ابن كثير وأنه الصحيح المعتمد.

أقول: إن الإسلام ختم الله به الرسالات ونبينا محمد ﷺ أرسله الله للعالمين، وقد أمر الله تعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب كما أمرهم بجهاد المشركين حتى أنه جاء في دعائه ﷺ بعد انتهاء غزوة أحد (اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق...)[4].

وفي تبوك دخل المسلمون مرحلة جديدة فبعد قضائهم على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلائهم أهل الكتاب من يهود كان التوجه إلى قتال أهل الكتاب من النصارى فهذا التحول يسير مع طبيعة الإسلام وأهدافه وتطبيقاً لقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[5].

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ١/ صفحة ٣، والآية من سورة التوبة: ١٢٣، وانظر تفسيرها صفحة ٦٢١ من هذا الكتاب.

(٢) انظر المجتمع المدني صفحة ٢٢٧.

(٣) انظر الذهب المسبوك في تحقيق مرويات غزوة تبوك: ١/ ٦٤.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٧٧.

(٥) سورة التوبة، آية ١٢٣.

المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم، وذلك لأن أصل الخروج كان وارداً.

والشاهد أن أبا بكر الصديق قبل فتح مكة دخل على ابنته عائشة وهي تحرك جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أي بنية، أأمركم رسول الله بأن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهز، قال: فأين ترينه يريد، قالت: والله ما أدري[1]، ودخل رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً قال: نعم قال: لعلك تريد بني الأصفر؟ قال لا، قال: أفتريد أهل نجد؟ قال: لا، قال: فلعلك تريد قريشاً؟ قال نعم..[2].

كذلك أيضاً كان المسلمون على حذر من مجيء غسان إليهم من الشام ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً فهجرهن. ففي صحيح البخاري «وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاءً فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه...»[3].

ثانياً: أهم أحداث غزوة تبوك:

المنفقون على جيش العسرة:

حث الرسول ﷺ على النفقة قائلاً: (من جهز جيش العسرة فله الجنة)[4].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧.

(٢) السيرة الحلبية: ٣/ ٧٤.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب النكاح ـ باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها: ٧/ ٣٦ وانظر فتح الباري: ٩/ ٢٧٨.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب عثمان بن عفان: ٥/ ١٧، وانظر فتح الباري: ٧/ ٥٢.

فسارع أغنياء الصحابة وفقراؤهم إلى تقديم الأموال، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش تبوك، حيث قدم ألف دينار وبعض الإبل.

كذلك قدم عبد الرحمن بن عوف ألفي درهم - وهي نصف أمواله - في تجهيز جيش العسرة، وجاء أبو بكر وعمر وسعد بن عبادة ومحمد بن سلمة بأموال كثيرة.

قال الواقدي: حتى إن كنّ النساء ليعنّ بكل ما قدرن عليه[1].

وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وسقاً تمراً.

ولم يجد فقراء المسلمين إلا أن يتقدموا باليسير الذي يقدرون عليه فجاءوا به على استحياء متعرضين لسخرية المنافقين. فقد جاء خيثمة الأنصاري بصاع تمر فلمزه المنافقون[2] وجاء أبو عقيل بنصف صاع من تمر، فقال المنافقون: إن الله لغنيّ عن صدقة هذا! فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾[3].

موقف المنافقين في غزوة تبوك:

ظهر النفاق جلياً في هذه الغزوة، وذلك لبعد المسافة، وشدة الحر، فتخلف عبد الله بن أبي بن سلول وجماعته وتخلف منافقو الأعراب وتخلف أغلب منافقي المدينة ولم يخرج مع النبي ﷺ إلا أقل القليل منهم فقد ذهب بعضهم إلى النبي ﷺ يستأذنه في التخلف مبدياً الأعذار الكاذبة حتى عاتب الله نبيه على إذنه لهم: بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[4].

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٩١.

(٢) من رواية البخاري - كتاب التفسير: ٦/ ٨٤، وانظر فتح الباري: ٨/ ٣٣٠.

(٣) سورة التوبة: آية ٧٩ - وانظر تفسيرها ص ٦٥٠ من هذا الكتاب.

(٤) سورة التوبة: آية ٤٣ وانظر تفسيرها صفحة رقم ٦٤٧ من هذا الكتاب.

وقد وصف القرآن منافقي الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً من منافقي أهل المدينة لأنهم أقسى قلوباً وأقل عِلماً بالسنن والأحكام.

قال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾[1].

وصرح بنفاق بعض الأعراب الذين يسكنون حول المدينة بالذات فقال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ ﴾[2].

إعلان النفير العام في داخل المدينة وخارجها:

أعلن النفير العام للخروج لغزوة تبوك حتى بلغ عدد من خرج مع النبي ﷺ إلى تبوك ثلاثين ألفاً!!.

وقد عاتب القرآن الكريم المؤمنين الذين تباطأوا بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شباناً وشيوخاً وأغنياء وفقراء بقوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[4].

مسارعة المؤمنين إلى الجهاد:

سارع المؤمنون إلى الخروج في هذه الغزوة ولم يبق في المدينة إلا

---

(١) سورة التوبة: آية ٩٧.

(٢) سورة التوبة: آية ١٠١ وانظر تفسيرها صفحة رقم ٦٨١ من هذا الكتاب.

(٣) سورة التوبة: آية ٣٨ وانظر تفسيرها صفحة رقم ٦٢٣ من هذا الكتاب.

(٤) سورة التوبة آية ٤١ وانظر تفسيرها صفحة رقم ٦٢٨ من هذا الكتاب.

أصحاب الأعذار والمنافقون ويؤكد هذا قول كعب بن مالك في صحيح مسلم: فطفقت، إذ خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ ، يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء[1].

الوصول إلى تبوك:

عندما وصل النبي ﷺ لم يجد أي أثر للحشود الرومانية، وبالرغم أن الجيش النبوي مكث عشرين ليلة في تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مطلقاً الدخول معه في قتال، حتى القبائل المتنصرة آثرت السكون، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح على الجزية. فقد أرسل ملك أيلة للنبي ﷺ هدية وهي بغلة بيضاء وبرد، فصالحه على الجزية.

وأرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد مع عدد من الصحابة إلى دومة الجندل حيث أسر أكيدر بن عبد الملك الكندي - ملكها - وهو في الصيد خارجها، فصالحه النبي ﷺ على الجزية.

العودة من تبوك:

ثم عاد النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلة وقد أمر النبي ﷺ بهدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون وهو راجع إلى المدينة. ولما اقترب من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه ودخل المدينة فصلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس.

وجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله.

---

(١) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب: ٤/ ٢١٢٢.

ثم هناك جماعة من الصحابة تخلفوا ولم يكن لهم عذر ولم يعتذروا كالمنافقين، منهم جماعة أبو لبابة، فهؤلاء ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وبقوا كذلك حتى نزل قبول توبتهم ونزل قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1] الآية فأطلقهم الرسول ﷺ وعذرهم[2].

وهناك ثلاثة لم يربطوا أنفسهم بسواري المسجد تأخرت توبتهم خمسين يوماً وهم هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع ثم نزل القرآن بتوبتهم فقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[3].

ثالثاً: نتائج غزوة تبوك:

١ - حققت هذه الغزوة أهدافها بتوطيد سلطان الإسلام في الأقسام الشمالية من الجزيرة العربية.

٢ - أدت هذه الغزوة إلى انسحاب الروم شمالاً - عن تبوك - فدخلت أطراف الشام في نفوذ المسلمين كمدينة أيلة ودومة الجندل.

٣ - لما عاد المسلمون من غزوة تبوك وهم سالمون برزت قوة المسلمين أمام أعين القبائل في الجزيرة العربية فجاءت الوفود إلى المدينة تعلن إسلامها.

٤ - بعد تبوك ظهرت مواجهة الإسلام للدول المجاورة للجزيرة العربية كفارس والروم وأصبحت دولة المسلمين تواجه أقوى دولتين في العالم في ذلك الزمان.

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٢.

(٢) انظر تفصيل القصة صفحة رقم ٦٧٤ من هذا الكتاب.

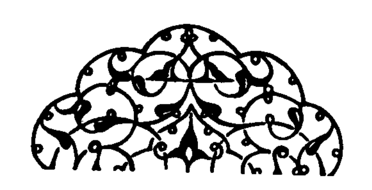
(٣) سورة التوبة، آية ١١٨ وانظر تفسيرها صفحة رقم ٦٧٧ من هذا الكتاب.

٥ ـ كانت غزوة تبوك بقيادة النبي ﷺ إيذاناً بفتح الشام، كذلك خروج النبي ﷺ بنفسه إلى تلك المنطقة البعيدة في تلك الشدة كان تعليماً للمؤمنين حتى لا يتأخروا في نشر الإسلام مهما بعدت المسافة.

٦ ـ لم تكن غزوة تبوك نهاية المطاف، فقد جهز النبي ﷺ جيشاً للخروج إلى الشام بقيادة أسامة بن زيد لكن النبي ﷺ توفي قبل خروج الجيش من المدينة.

وهذا دليل على أن الاهتمام بالشام استمر بعد غزوة تبوك خاصة بعد أن تعرف المسلمون على طبيعة المنطقة عندما خرجوا لغزوة تبوك.

٧ ـ ولأهمية منطقة تبوك والشام، وأهمية اتباع أمر الرسول ﷺ أنفذ أبو بكر الصديق جيش أسامة بالرغم من ظروف الخطر المحدق بالمدينة وبكيان الإسلام كله بسبب حركة الردة، ثم تجهيز أبي بكر الصديق جيوش الفتح إلى بلاد الشام والعراق كان إكمالاً لما بدأ به النبي ﷺ حين خرج لغزوة تبوك وذلك تحقيقاً لأهداف الدعوة الإسلامية بتحرير البشر من الظلم والطغيان والعبودية لغير الله ﴿حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾.



الفصل الأول

حديث القرآن عن غزوة تبوك وتفسير الآيات الواردة فيها

تحدث القرآن عن غزوة تبوك في سورة التوبة، وحث جميع المؤمنين للخروج مع رسول الله ﷺ فقال تعالى: **﴿ما كانَ لأهلِ المدينةِ ومن حولهم من الأعرابِ أن يتخلفوا عن رسولِ اللّهِ ولا يرغبوا بأنفُسهم عن نفسهِ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ، ولا مخمصةٌ في سبيلِ اللّهِ ولا يطؤونَ موطئاً يغيظُ الكفارَ، ولا ينالونَ من عدوٍ نيلاً، إلا كتب لهم به عملٌ صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** [سورة التوبة ـ ١٢٠].

وقد قسمت الآيات الواردة في هذه الغزوة حسب موضوعاتها فجاءت في أربع مباحث:

المبحث الأول: سبب غزوة تبوك.

المبحث الثاني: حديث القرآن عن موقف المؤمنين الصادقين.

المبحث الثالث: حديث القرآن عن موقف المنافقين في غزوة تبوك.

المبحث الرابع: حديث القرآن عن المخلفين عن غزوة تبوك.

* * *

المبحث الأول
سبب غزوة تبوك

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[2].

اختلف كتاب السير في تحديد سبب غزوة تبوك فذكروا أسباباً متعددة[3]، ولكن الصحيح منها والراجح ما ذهب إليه المحققون من المؤرخين بأن سبب خروجه ﷺ هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد، فإنه لما انتهى ﷺ من قتال العرب ـ وكانت آخر غزوة هي غزوة الطائف ـ أمره الله سبحانه وتعالى بقتال أهل الكتاب وبقتال الروم، والآيات الآنفة الذكر تدل على ذلك، وإليك بعض الروايات التي جاءت في تفسيرها:

رُوِي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم: أنه لما أمر الله تعالى أن يمنع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره، قالت قريش: لتنقطعن عنا المتاجر والأسواق، أيام الحج وليذهبن ما كنا نصيب منها فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٨، ٢٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٣.

(٣) انظر ذكرها صفحة ٦٠٧ من هذا الكتاب.

حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون[1].

قال ابن كثير: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله[2].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله. . .﴾** الآية، قال: نزلت هذه حين أُمِرَ محمدٌ ﷺ وأصحابُه بغزوة تبوك[3].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال من يليه من العرب أمره بجهاد أهل الكتاب[4].

وروى الإمام الطبري عن سعيد بن جبير، قال: «لما نزلت: **﴿إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا﴾** شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: من يأتينا بطعامنا، ومن يأتينا بالمتاع؟ فنزلت: **﴿وإن خفتم عَيلةً فسوف يغنيكمُ اللّهُ من فضلهِ إن شاء﴾**[5].

وروى الإمام الطبري أيضاً بسنده عن ابن عباس، قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا﴾** قال: لما نفى الله المشركين عن المسجد الحرام ألقى الشيطان في قلوب المؤمنين الحزن، قال: من أين تأكلون وقد نُفي المشركون وانقطعت عنكم العير، فقال: **﴿وإن خفتم عَيلةً فسوف يغنيكُم اللّهُ من فضلهِ إن شاء﴾** فأمرهم بقتال

---

(١) البداية والنهاية: ٢/ ٥.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٤/ ص ٣.
(٣) الدر المنثور: ٤/ ١٦٧.
(٤) المصدر نفسه: ٤/١٦٨.
(٥) تفسير الطبري: ١٠/١٠٧.

أهل الكتاب، وأغناهم من فضله[1].

وروى الطبري أيضاً بسنده عن مجاهد: في قوله: ﴿إنما المشركون نجس﴾.... إلى قوله: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾: قال المؤمنون: كنا نصيب من متاجر المشركين فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله عوضاً لهم بأن لا يقربوهم المسجد الحرام، فهذه الآية من أول براءة في القراءة، ومن آخرها في التأويل: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ إلى قوله: ﴿عن يدٍ وهم صاغرون﴾ حين أمر محمد وأصحابه بغزوة تبوك[2].

تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا﴾.

وقوله: ﴿نجس﴾ ـ بالتحريك ـ مصدر نجس الشيء ينجس فهو نجس إذا كان غير نظيف. وفعله من باب «تعب» وفي لغة من باب «قتل»[3].

قال الزمخشري: النجس: مصدر يقال نجس نجساً وقذر قذراً، لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها[4].

قيل: وجوز أن يكون لفظ «نجس» صفة مشبهة، وإليه ذهب الجوهري، ولا بدّ حينئذٍ من تقدير موصوف مفرد لفظاً مجموع معنى، ليصبح الإخبار به

(١) المصدر نفسه: ١٠/١٠٦.
(٢) تفسير الطبري: ١٠/١٠٨.
(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف ص ٢٥٢، وانظر المفردات للراغب صفحة ٤٨٣.
(٤) تفسير الكشاف: ٣/٢٦١.

عن الجمع أي: جنس نجس ونحوه[1].

قال ابن كثير: أمر الله عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع. . .[2].

وقوله تعالى: **﴿وإن خفتم عَيلةً فسوف يغنيكُم اللّهُ من فضلهِ إن شاء﴾**.

العيلة: الفقر والفاقة: يقال: عال الرجل يعيل عيلة فهو عائل إذا افتقر.

قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتقطعنَّ عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله: **﴿وإن خفتم عَيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله﴾** من وجه غير ذلك: **﴿إن شاء﴾** إلى قوله: **﴿وهم صاغرون﴾** أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية.

فقال تعالى: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دينَ الحقِ من الذين أوتوا الكتابَ حتى يعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرونَ﴾**.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال من يليه من العرب أمره بجهاد أهل الكتاب[3].

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ وكان ذلك سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فأوعبوا معه

---

(١) تفسير الألوسي: ١٠/٦٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/٦٨.

(٣) الدر المنثور: ١٠/١٦٨.

واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً وتخلف بعض الناس من أهل المدينة[1]. . .

وقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾.

قال الزجاج: ومعناها: لا يؤمنون بالله إيمان الموحدين، لأنهم أقروا بأنه خالقهم وأنه له ولد[2].

وقوله تعالى: ﴿ولا باليوم الآخر﴾ أي على الوجه الذي أمر الله تعالى به ومن كان كذلك كان إيمانه، على فرض وجوده، كلا إيمان.

وقال الماوردي: إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بحقوقه، وهم لا يقرّون بها، فكانوا كمن لا يقرّ به.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحرمون ما حرم اللّهُ ورسولهُ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني الخمر والخنزير[3].

وقوله تعالى: ﴿ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾.

يدينون بمعنى: يعتقدون ويطيعون. يقال فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده وأطاع أوامره ونواهيه. والمراد بدين الحق: دين الإسلام الناسخ لغيره من الأديان.

وقوله: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾.

الجزية: من جزى يجزي مجازاة إذا كافأ عما أسدي إليه فكأنهم أعطوها للمسلمين جزاء ما منحوا من الأمن[4].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٤٧ ـ بتصرف ـ.
(٢) زاد المسير: ٣/ ٤١٩.
(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٤١٩.
(٤) تفسير القرطبي: ٨/ ١١٤.

والمعنى: قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن طوع وانقياد فإن فعلوا ذلك فاتركوا قتالهم.

تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلُونَكُم من الكفارِ، وليجدوا فيكم غِلظَةً، واعلموا أن الله مع المتقينَ﴾.

قال الإمام ابن كثير: أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس، وجدب البلاد، وضيق الحال، وذلك سنة تسع من الهجرة، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد حجة الوداع بأحد وثمانين يوماً وسار خلفاؤه الراشدون من بعده على نهجه[1].

وقال ابن الجوزي: والمراد بمن يليهم خمسة أقوال:

أحدها: أنهم الروم، قاله ابن عمر...[2].

وقوله: **﴿يلونكم﴾** من الولي بمعنى القرب، تقول جلست مما يلي فلان أي: يقاربه وقوله: **﴿وليجدوا فيكم غِلظَةً﴾** الغلظة الشدة، والخشونة، والمعنى: يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بمقاتلة الذين يلونهم من الكفار، وأمرهم سبحانه بأن يغلظوا على الكفار في قتالهم، وختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: **﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾** تذييل قصد به حض المؤمنين على

---

(١) تفسير ابن كثير بتصرف ـ: ٢/ ٤٠٢.

(٢) زاد المسير: ٣/ ٥١٨.

التسلح بسلاح الإيمان والتقوى حتى ينالوا نصر الله وعونه.

قال صاحب تفسير المنار: اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذي نزلت أهم قواعده وأحكامه في هذه السورة والتي قبلها، وإنما وضعت ههنا على سنّة القرآن في تفريق الموضوع الواحد الكثير الأحكام في مواضع متفرقة[1].

* * *

المبحث الثاني
حديث القرآن عن موقف المؤمنين الصادقين

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون * أعد الله لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ (التوبة: ٨٨ ـ ٨٩).

حديث القرآن عن موقف المؤمنين الصادقين في غزوة تبوك

حث القرآن الكريم المؤمنين على الجهاد ورغبهم فيه، وكان النبي ﷺ إذا غزا غزوة ورّى ولم يصرح بالجهة التي يتوجه إليها[2]، أما في غزوة تبوك فقد بين لهم النبي ﷺ أنه خارج إلى تبوك وذلك لبعد المسافة وشدة الحر وكثرة العدو حتى يعدوا العدة الكاملة ويتهيأوا نفسياً لهذه الغزوة الشاقة فلما علم المؤمنون بمكانها وما يلابسها من شدائد تثاقل بعضهم واستصعب الخروج فلما

---

(١) تفسير المنار: ١١/ ٨٠.

(٢) قال ابن إسحاق: . . . وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يعمد له، إلا ما كان في غزوة تبوك فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان. . الخ. (سيرة ابن هشام ٤/ ٥١٦).

حدث هذا نزلت الآيات تخاطبهم بقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾** [٣٨ ـ التوبة].

قال المفسرون: لما أمر رسول الله ﷺ بغزوة تبوك، وكان في زمن عسرةٍ وجدبٍ وحرٍّ شديدٍ، وقد طابت الثمار، عظُمَ ذلك على الناس وأحبوا المُقام، فنزلت هذه الآية[١].

وقال الطبري:

«هذه الآية حث من الله ـ جل ثناؤه ـ المؤمنين به من أصحاب رسوله على غزو الروم، وذلك غزوة رسول الله ﷺ تبوك[٢].

وأخرج سنيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا..﴾** الآية.

قال: هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحنين، أمرهم بالنفير في الصيف حين خرفت الأرض فطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج، فأنزل سبحانه وتعالى: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾**[٣].

وقال صاحب تفسير المنار: «هذا السياق من هنا إلى آخر السورة في غزوة تبوك، وما كانت وسيلة له من هتك أستار النفاق، وتطهير المؤمنين من عوامل الشقاق إلا الآيتين في آخرها، وما يتخللها من بعض الحكم والأحكام على السنّة المعروفة في أسلوب القرآن»[٤].

---

(١) زاد المسير: ٣/٤٣٦.
(٢) تفسير الطبري: ١٠/١٣٣.
(٣) الدر المنثور: ٤/١٩٠.
(٤) تفسير المنار: ١٠/٤٢١.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿انفروا﴾ من النفر وهو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لسبب من الأسباب الداعية لذلك.

يقال: نفر فلان إلى الحرب ينفر وينفر نفراً ونفوراً، إذا خرج بسرعة.

ويقال: استنفر الإمام الناس، إذا حرضهم على الخروج للجهاد. ومنه قوله ـ ﷺ ـ: (وإذا استنفرتم فانفروا). أي: وإذا دعاكم الإمام إلى الخروج معه للجهاد فاخرجوا معه بدون تثاقل.

واسم القوم الذين يخرجون للجهاد: النفير والنفرة والنفر[١].

وقوله: ﴿اثَّاقلتم﴾: من الثقل ضد الخفة. يقال: تثاقل فلان عن الشيء، إذا تباطأ عنه ولم يهتم به.

ويقال: تثاقل القوم: إذا لم ينهضوا لنجدة المستجير بهم. وأصل ﴿اثاقلتم﴾ تثاقلتم، فأبدلت التاء ثاء ثم أدغمت فيها، ثم اجتلبت همزة الوصل من أجل التوصل للنطق بالساكن[٢].

والمعنى:

يا أيها الذين آمنوا ما الذي عرض لكم مما يخل بالإيمان أو بكماله من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم، وإخلادكم إلى الراحة واللذة، حين قال لكم الرسول انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم والقضاء على دينكم الحق الذي هو سبيل سعادتكم؟[٣].

والاستفهام في قوله: ﴿ما لكم﴾ لإنكار واستبعاد صدور هذا التثاقل

---

(١) المفردات للراغب: صفحة ٥٠١.

(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن صفحة ٢٥٥ وانظر المفردات للراغب صفحة ٨٠.

(٣) انظر تفسير المراغي: ٤/ ١١٩.

منهم، مع أن هذا يتنافى مع الإيمان والطاعة.

قال الجمل: و ﴿ما﴾ مبتدأ، و ﴿لكم﴾ خبر. وقوله: ﴿اثاقلتم﴾ حال وقوله: ﴿إذا قيل لكم﴾ ظرف لهذه الحال مقدم عليها.

والتقدير: أي شيء ثبت لكم من الأعذار حال كونكم متثاقلين في وقت قول الرسول لكم: (انفروا في سبيل الله)[1].

وكان من أسباب تثاقلهم أمور:

١ ـ أن الزمن كان وقت حر شديد.
٢ ـ أنهم كانوا قريبي عهد بالرجوع من غزوتي الطائف وحنين.
٣ ـ أنهم كانوا في عسرة شديدة وجهد جهيد من قلة الطعام.
٤ ـ أن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه، وآن وقت تلطف الحر[2].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ الاستفهام في: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا﴾ إنكاري توبيخي إذ لا يليق ذلك بالمؤمنين[3].

والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطؤ والتثاقل، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل، وهو كثير شائع[4].

وروى الإمام مسلم، عن المستورد قال: قال رسول الله ﷺ: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعُه هذه ـ وأشار يحيى بالسبابة ـ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/ ٢٨٢.
(٢) تفسير المراغي: ٤/ ١١٩.
(٣) التنوير والتحرير: ١٠/ ١٩٨.
(٤) تفسير الشوكاني: ٢/ ٣٦٢.

في اليم. فلينظر بم يرجع)[1].

ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها، ودوام الآخرة لذتها ونعيمها، إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

ثم هددهم ـ سبحانه ـ بالعذاب الأليم، إن لم ينفروا للجهاد في سبيله فقال تعالى: **﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيءٍ قدير﴾**.

والمعنى: **﴿إلا تنفروا﴾** ـ أيها المؤمنون ـ للجهاد كما أمركم رسولكم **﴿يعذبكم﴾** الله عذاباً أليماً، في الدنيا بإنزال المصائب بكم، وفي الآخرة بنار جهنم، **﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾** أي: ويستبدل بكم قوماً يطيعون رسوله في العسر واليسر والمنشط والمكره **﴿ولا تضروه شيئاً﴾** لأنكم أنتم الفقراء إليه، وهو ـ سبحانه ـ الغني الحميد، **﴿والله على كل شيءٍ قدير﴾** تذييل مؤكد لما قبله. أي: والله ـ تعالى ـ على كل شيءٍ من الأشياء قدير، ولايعجزه أمر، ولا يحول دون نفاد مشيئته حائل، فامتثلوا أمره لتفوزوا برضوانه.

هذا واختلف المفسرون في المراد بالعذاب في الآية بقوله: **﴿يعذبكم﴾**.

قال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم.

قال ابن العربي: فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو وبالنار في الآخرة[2]. وقال القرطبي: قول ابن عباس خرجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن نُفيع قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية: **﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾** قال: فأمسك عنهم المطر

---

(١) صحيح مسلم: (٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها)، حديث رقم ٥٥، جـ ٤ ص ٢١٩٣.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٩٥٠.

فكان عذابهم. وذكره الإمام أبو محمد بن عطية مرفوعاً عن ابن عباس قال: استنفر رسول الله ﷺ قبيلة من القبائل فقعدت، فأمسك الله عنهم المطر فكان عذابهم[١].

قال السرخسي - رحمه الله - وهو من علماء الحنفية: ثم فريضة الجهاد على نوعين: **أحدهما**: عين على كل من يقوى عليه بقدر طاقته، وهو ما إذا كان النفير عاماً قال تعالى: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾**. وقال تعالى: **﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾** إلى قوله: **﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾** ونوع هو فرض على الكفاية... الخ[٢].

وعلى هذا القول عامة المذاهب وجمهور علماء المسلمين.

قال شيخ المفسرين الإمام الطبري:

وقد زعم بعضهم أن هذه الآية منسوخة. حدثنا ابن حميد، قال حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين، عن يزيد، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال تعالى: **﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾**، وقال: **﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾** إلى قوله: **﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾** فنسختها الآية التي تلتها: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾**... إلى قوله: **﴿لعلهم يحذرون﴾**.

قال الطبري - رداً على هذا القول - ولا خبر بالذي قال عكرمة والحسن من نسخ حكم هذه الآية التي ذكروا يجب التسليم له، ولا حجة تأتي بصحة ذلك، وقد رأى ثبوت الحكم بذلك عدد من الصحابة والتابعين سنذكرهم بعد، وجائز أن يكون قوله: **﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾** لخاصة من الناس،

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ١٤٢.

(٢) المبسوط: جـ ١٠ ص ٣، ومن أراد المزيد من التفصيل فليراجع كتاب الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته: ١/ ٥٣.

ويكون المراد به من استنفره رسول الله ﷺ، فلم ينفر على ما ذكرنا في الرواية، عن ابن عباس. وإذا كان ذلك كذلك، كان قوله: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾** نهياً من الله المؤمنين عن إخلاء بلاد الإسلام بغير مؤمن يقيم فيها، وإعلاماً من الله لهم أن الواجب النفر على بعضهم دون بعض، وذلك على من استنفر منهم دون من لم يستنفر. وإذا كان ذلك كذلك لم يكن في إحدى الآيتين نسخ للأخرى، وكان حكم كل واحدة منهما ماضياً فيما عنيت به[1].

ثم أمر الله ـ جل شأنه ـ المؤمنين بالنفير في كل حال فقال: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**.

روى الطبري بسنده عن مجاهد، قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾**... الآية، قال هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحنين، وبعد الطائف أمرهم بالنفير في الصيف، حين اخترفت النخل، وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج، قال: فقالوا: منا الثقيل، وذو الحاجة، والضيعة، والشغل، والمنتشر به أمره في ذلك كله، فأنزل الله: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾**[2].

والخفاف بالكسر جمع خفيف والثقال جمع ثقيل. والخفة والثقل يكونان بالأجسام وصفاتها من صحة ومرض، ونحافة وسمن، وشباب وكبر، ونشاط وكسل، ويكونان بالأسباب والأحوال، كالقلة والكثرة في المال والعيال، ووجود الظهر «الراحلة» وعدمه، وثبوت الشواغل وانتفائها. فإذا أعلن النفير العام وجب الامتثال على كل قادر ولا يجوز التخلف إلا بعذر شرعي[3].

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/ ١٣٤.

(٢) تفسير الطبري: ١٠/ ١٣٤.

(٣) تفسير المنار: ١٠/ ٤٦٠.

وقوله: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾.

المجاهدة: المغالبة للعدوّ، وهي مشتقّة من الجُهد ـ بضمّ الجيم ـ أي بذل الاستطاعة في المغالبة[1].

قال القاضي أبو يعلى:

أوجب الجهاد بالمال والنفس جميعاً، فمن كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للقتال، فعليه الجهاد بماله، بأن يعطيه غيره فيغزو به، كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قوياً. وإن كان له مال وقوة، فعليه الجهاد بالنفس والمال. ومن كان معدماً عاجزاً، فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله، لقوله: ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرجٌ إذا نصحوا للّهِ ورسولِهِ﴾ [التوبة: ٩١][2].

وقوله تعالى: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

اسم الإشارة «ذلكم» يعود إلى المذكور من الأمرين السابقين وهما: النفور والجهاد، أي ذلكم الذي أمرتم به من النفور والجهاد في سبيل الله، خير لكم في دنياكم وفي آخرتكم من التثاقل عنهما، إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بين لكم خالقكم ومربيكم على لسان رسوله ﷺ.

ـ بيان حكم هذه الآية هل هي محكمة أم منسوخة ـ.

قال القرطبي:

«واختلف في هذه الآية، فقيل إنها منسوخة[3] بقوله تعالى: ﴿ليس على

---

(١) التنوير والتحرير: ١٠/٢٠٧.

(٢) زاد المسير: ٣/٤٤٤.

(٣) ممن ذهب إلى النسخ ابن عباس والسدي: روى عطاء الخراساني عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ «التوبة ١٢٢» وقال السدي: نسخت بقوله: =

الضعفاء ولا على المرضى﴾ وقيل الناسخ لها قوله: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾** والصحيح أنها ليست منسوخة[1].

وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل. فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع.... فلهذا وما كان مثله مما روي عن الصحابة والتابعين. قلنا: إن النسخ لا يصح، وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل، وهي:

إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً، شباباً وشيوخاً، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوّهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم. وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين.

ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضاً الخروج إليه،

= **﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾** «التوبة» آية ٩١» انظر زاد المسير: ٣/٤٤٣. وقال السيوطي بالنسخ أيضاً.

(١) ممن ذهب إلى عدم النسخ شيخ المفسرين الإمام الطبري، والإمام ابن العربي وأبو سليمان الدمشقي، والنحاس، ومكي بن أبي طالب، وابن الجوزيّ (انظر نواسخ القرآن لابن الجوزي ص ٥٢٣).

حتى يظهر دين الله وتُحمَى البَيْضة وتُحفظ الحَوْزة ويُخْزى العدوّ ولا خلاف في هذا[1].

هذا والمتأمل في هذه الآية ثم يتأمل أحوال المسلمين مع الكفار في هذا الزمن يجد أن الجهاد فرض عين على كل فرد قادر من أفراد المسلمين وليس فرض كفاية، لأن بعض طوائف المسلمين الذين يقومون بالجهاد ضد الكفرة لا يكفون في الأجزاء التي هم يجاهدون فيها، فضلاً عن الأجزاء الأخرى التي يغزو العدو فيها المسلمين في عقر دارهم ولم توجد طائفة تكفي تقوم بفرض الجهاد ضده[2].

وحالنا مشابهة لحال وصفها الإمام ابن العربي في زمنه فقال: «ولقد نزل بنا العدو ـ قصمه الله ـ سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا، وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا في عدد هال الناس عدده، وكان كثيراً، وإن لم يبلغ ما حددوه، فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدو الله، وقد حصل في الشَّرَك والشَّبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نصرة دين الله المتعينة عليكم حركة.

فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط به، فإنه هالك لا محالة إن يَسَّركم الله له.

فغلبت الذنوب، ووجفت القلوب بالمعاصي، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وجاره، وإن رأى المكروه بجاره، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل...»[3].

هذا وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية الكريمة كثيراً من

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ص ١٥٠، ١٥١، ١٥٢ ـ بتصرف وتلخيص ـ.
(٢) الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته: ١/ ٦٣.
(٣) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٩٥٥.

الأمثلة التي تدل على محبة السلف الصالح للجهاد في سبيل الله ومن ذلك:

١ ـ ما جاء عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾ فقال: أي بني جهزوني. فقال بنوه: يرحمك الله!! لقد غزوت مع النبي ـ ﷺ ـ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات. فنحن نغزو عنك. فقال: لا. جهزوني. فغزا في البحر فمات في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها، ولم يتغير ـ رضي الله عنه ـ[١].

٢ ـ وأخرج ابن جرير عن حبان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص، فلقيت شيخاً كبيراً هرماً، على راحلته فيمن نفر، فأقبلت عليه فقلت: يا عماه لقد أعذر الله إليك.

قال: فرع حاجبيه فقال: يا بن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله[٢].

٣ ـ وعن أبي راشد قال: وافيت المقداد بن الأسود، فارس رسول الله ـ ﷺ ـ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وهو يريد الغزو، وقد تقدمت به السن، فقلت له: لقد أعذر الله إليك. فقال: أبت علينا سورة البحوث[٣] ذلك يعني هذه الآية: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾[٤].

قال صاحب المنار ـ معلقاً على هذه الروايات ـ: «أقول: بمثل هذا الفهم للقرآن والاهتداء به فتح سلفنا البلاد، وسادوا العباد، ولم يبق لأحد من

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ١٥١.
(٢) تفسير الطبري: ١٠/ ١٤٠ ـ بتصرف يسير ـ.
(٣) أي سورة التوبة.
(٤) تفسير الألوسي: ١٠/ ١٠٤.

شعوب أمتنا حظ من القرآن إلا تغنى بعضهم بتلاوته من غير فهم ولا تدبر، واشتغال آخرين بإعراب جملة، ونكت البلاغة في مفرداته وأساليبه، من غير علم ولا فقه فيها، ولا فكر ولا تدبر لما أودع من العظات والعبر في مطاويها، فهم يتشدقون بأن ﴿خفافاً وثقالاً﴾ منصوبان على الحال، ولا يرشدون أنفسهم ولا غيرهم إلى ما أوجباه على ذي الحال.

وقد يذكر من يسمى الفقيه فيهم ما قيل من أن الآية منسوخة بقوله تعالى: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾** وهو زعم مخالف لما عليه الأئمة كافة، من أنه لا تعارض بين الآيتين. وبمثل هذا وذلك أضاع المسلمون ملكهم وصار أكثرهم عبيداً لأعدائهم. .(1).

ثم أوجب عليهم ـ سبحانه ـ الغزو مع رسول الله ـ ﷺ ـ ووعدهم عليه بجزيل الثواب، فقال ـ تعالى ـ: **﴿ما كان لأهلِ المدينةِ ومن حولهُم من الأعرابِ أن يتخلفوا عن رسولِ الله ولا يرغبُوا بأنفسِهم عن نفسِه، ذلك بأنهم لا يصيبُهُم ظمأٌ ولا نصبٌ، ولا مَخمَصةٌ في سبيلِ الله ولا يطؤونَ موطئاً يغيظُ الكفارَ، ولا ينالونَ من عدوٍ نيلاً إلا كتب لهم به عملٌ صالحٌ، إن الله لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ * ولا ينفقونَ نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً، إلا كتب لهم، ليجزيهم الله أحسنَ ما كانوا يعملونَ﴾** [سورة التوبة ـ ١٢٠، ١٢١].

قال الطبري:

يقول تعالى ذكره: لم يكن لأهل المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، ومن حولهم من الأعراب سكان البوادي، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهم من أهل الإيمان به أن يتخلفوا في أهاليهم ولا دارهم، ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صحبته في سفره، والجهاد معه ومعاونته على ما يعانيه في غزوة ذلك(2).

---

(١) تفسير المنار: ١٠/ ٤٦١ ـ بتصرف ـ.

(٢) تفسير الطبري: ١١/ ٦٤.

قال ابن كثير:

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة...[1].

فهذه الآيات هي حث للمتخلفين عن رسول الله ﷺ من المؤمنين أن لا يتخلفوا مرة أخرى وهي تربية للمؤمنين حتى يرغبوا في الخروج، فبين ما لهم من الفضل والأجر، فهذه الآيات تدخل في حديث القرآن عن المؤمنين الصادقين وتدخل أيضاً في حديثه عن المؤمنين المتخلفين عن غزوة تبوك لذلك وجب التنويه.

قال الشيخ ابن عاشور:

«فيه ثناء على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لما قاموا به من غزوة تبوك، فهو يقتضي تحريضهم على ذلك كما دل عليه قوله: **﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ﴾**... الخ.

وفيه تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن الأعراب، وذلك يدل على إيجاب النفير عليهم إذا خرج النبي ﷺ للغزو...»[2].

وقوله سبحانه: **﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾**.

قال صاحب الكشاف:

«أمروا أن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٠٠.

(٢) التنوير والتحرير: ١١/ ٥٥.

برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا بأنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها، فإذا تعرضت ـ مع كرامتها وعزتها ـ للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت ـ أي تتساقط ـ فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها، ولا يقيمون لها وزناً، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويغنوا بها على ما سمح بنفسه عليه. وهذا نهي بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية[1].

والذين هم حول المدينة من الأعراب هم: مزينة، وأشجع، وغفار، وجهينة، وأسلم.

والتخلف: البقاء في المكان بعد الغير ممن كان معه فيه.

والرغبة تُعدّى بحرف (في) فتفيد معنى مودة تحصيل الشيء والحرص عليه، وتعدى بحرف (عن) فتفيد معنى المجافاة للشيء فكأنهم رغبوا عن نفسه إذ لم يخرجوا معه، لأنهم بمقدار من يتخلف منهم يزداد تعرض نفس النبي ﷺ من التلف قرباً، فتخلف واحد منهم عن الخروج معه عون على تقريب نفس الرسول عليه الصلاة والسلام من التلف فلذلك استعير لهذا التخلف لفظ الرغبة عنه.

وقوله ـ سبحانه ـ: **﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطؤون موطئاً يغيظُ الكفارَ ولا ينالون من عدوٍ نيلاً إلا كتب لهم به عملٌ صالحٌ إن الله لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ﴾**.

ذلك إشارة إلى ما دل عليه قوله: **﴿ما كان﴾** من النهي عن التخلف أو وجوب المشابهة **﴿بأنهم﴾** أي بسبب أنهم **﴿لا يصيبهم ظمأ﴾** أي شيء من

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ٢٢٠.

العطش ﴿ولا نصب﴾ أي تعب من السير لا سيما مع العطش ﴿ولا مخمصة﴾ أي مجاعة تضعفهم عن السير ﴿في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً﴾ أي لا يدوسون مكاناً.

والوطء: الدوس بالأرجل. والوطء في سبيل الله هو الدوس بحوافر الخيل وأخفاف الإبل وأرجل الغزاة، في أرض العدو، فإنه الذي يغيظ العدو ويغضبه لأنه يأنف من وطء أرضه بالجيش[1].

﴿يغيظ الكفار﴾ أي الذين هم أعداء الله، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ أي قتلاً أو هزيمة أو أسراً ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ أي كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح مرضٍ لله تعالى مجزى عليه بالثواب العظيم ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ هذا تعليل لهذا الأجر العظيم يدل على عموم الحكم. قال الأوزاعي وعبد الله بن المبارك وغيرهما من علماء التابعين: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة[2] وهذا الأجر والعمل الصالح يأخذه أيضاً من حبسهم العذر عن الغزو. فقد جاء في صحيح مسلم عن جابر: قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم حبسهم المرض)[3] والمراد بقوله «في غزاة» هي غزوة تبوك. قال ابن العربي: ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال في هذه الغزوة بعينها: (إن بالمدينة... الحديث) فأعطى للمعذور من الأجر ما أعطى للقوي العامل بفضله وقد قال بعض الناس: إنما يكون له الأجر غير مضاعف، ويضاعف للعامل المباشر وهذا تحكم على الله، وتضييق لسعة رحمته[4].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون وادياً

---

(١) التنوير والتحرير: ١١/ ٥٦.
(٢) تفسير المنار: ١١/٧٦، وانظر الدر المنثور: ١١/ ٣٢١.
(٣) صحيح مسلم: كتاب الإمارة ـ باب ثواب من حبسهم عن الغزو مرض أو عذر آخر ٣/ ١٥١٨.
(٤) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ١٠٢٩.

إلا كتب لهم، ليجزيهم اللّهُ أحسنَ ما كانوا يعملون﴾ [سورة التوبة ـ ١٢١].

أي وكذلك لا يتصدقون بصدقة صغيرة، كالتمرة ونحوها، ولا كبيرة كما فعل عثمان رضي الله عنه ـ في هذه الغزوة ـ فقد تصدق بالكثير.

عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا، يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب (ما على عثمان ما عمل بعد هذا)[١]. وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة قال فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها ويقول: (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم) يرددها مراراً...[٢].

قوله: **﴿ولا يقطعون وادياً﴾** من الوديان في مسيرهم إلى عدوهم، أو في رجوعهم.

وقطع الوادي: هو اجتيازه. والوادي: المنفرج يكون بين جبال أو إكام فيكون منفذاً لسيول المياه، ولذلك اشتق من ودى بمعنى سال[٣].

﴿إلا كتب لهم﴾ أي: إلا كتب لهم ثوابه في سجل حسناتهم.

﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ أي: أمرهم بمصاحبة نبيهم في كل غزواته، وكلفهم بتحمل مشاق الجهاد ومتاعبه ليجزيهم على ذلك أحسن الجزاء وأعظمه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: ٤/ ٧٥ وذكره ابن كثير في التفسير: ٢/ ٤٠٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد: ٥/ ٦٣ وذكره ابن كثير في التفسير: ٢/ ٤٠٠.

(٣) التنوير والتحرير: ١١/ ٥٨.

ـ بيان حكم هذه الآية هل هي محكمة أم منسوخة ـ

قال ابن الجوزي: قال شيخنا علي بن عبد الله: اختلف المفسرون في هذه الآية، فقالت طائفة: كان في أول الأمر لا يجوز التخلف عن رسول الله ﷺ حين كان الجهاد يلزم الكل، ثم نسخ ذلك بقوله: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾** [التوبة: ١٢٢][1].

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله: **﴿ما كان لأهل المدينة﴾** الآية. قال نسختها التي تليها: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾** الآية[2].

والصحيح أنها غير منسوخة.

قال الطبري:

والصواب من القول في ذلك عندي، أن الله عنى بها الذين وصفهم بقوله: **﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾**.... الآية، ثم قال جل ثناؤه: ما كان لأهل المدينة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه أن يتخلفوا خلافه، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وذلك أن رسول الله ﷺ كان ندب في غزوته تلك[3] كل من طاق النهوض معه إلى الشخوص إلا من أذن له، أو أمره بالمقام بعده، فلم يكن لمن قدر على الشخوص التخلف، فعدَّد جل ثناؤه من تخلف منهم، فأظهر نفاق من كان تخلفه منهم نفاقاً، وعذر من كان تخلفه لعذر، وتاب على من كان تخلفه تفريطاً من غير شك ولا ارتياب في أمر الله إذ تاب من خطأ ما كان منه من الفعل.

---

(١) زاد المسير: ٣/ ٥١٥.

(٢) الدر المنثور: ٤/ ٣٢١.

(٣) المراد غزوة تبوك.

فأما التخلف عنه في حال استغنائه فلم يكن محظوراً إذا لم يكن عن كراهته منه ﷺ ذلك، وكذلك حكم المسلمين اليوم إزاء إمامهم، فليس بفرض على جميعهم النهوض معه إلا في حال حاجته إليهم لما لا بدَّ للإسلام وأهله من حضورهم واجتماعهم، واستنهاضه إياهم، فيلزمهم حينئذٍ طاعته، وإذا كان ذلك معنى الآية لم تكن إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخة للأخرى، إذ لم تكن إحداهما نافية حكم الأخرى من كل وجوهه، ولا جاء خبر يوجه الحجة بأن إحداهما ناسخة للأخرى. . . . ا هـ[1].

قال تعالى: **﴿لقد تابَ اللّهُ على النبي والمهاجرينَ والأنصارِ الذينَ اتبعوهُ في ساعةِ العسرةِ، من بعد ما كادَ يزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾** [التوبة: ١١٧].

قال الرازي: «اعلم أنه ـ تعالى ـ لما استقصى في شرح أحوال غزوة تبوك، وبين أحوال المتخلفين عنها، وأطال القول في ذلك على الترتيب الذي لخصناه فيما سبق، عاد في هذه الآية إلى شرح ما بقي من أحكامها، ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله ـ ﷺ ـ ما يجري مجرى ترك الأَوْلَى، وصدر عن المؤمنين كذلك نوع زلة، فذكر ـ سبحانه ـ أنه تفضل عليهم، وتاب عليهم، في تلك الزلات، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار. . .﴾**[2].

ويقول الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية: **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾** أي لقد تفضل الله سبحانه وعطف على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار فتجاوز عن هفوات صدرت منهم في هذه الغزوة وغيرها لبلائهم الحسن فيها، ولأنهم لم يصروا على شيء منها.

---

(١) تفسير الطبري: ١١/ ٦٥.

(٢) تفسير الرازي: ١٦/ ٢١٤ ـ بتصرف يسير ـ.

وقد كانت هفواتهم على سنن الطباع البشرية واجتهاد الرأي فيما لم يبينه الله بياناً قطعياً بحيث يعد مخالفه عاصياً، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هذا بقوله في سياق هذه الغزوة ﴿عفا الله عنك لم أَذِنتَ لهم﴾ أي أن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه إذ غيره كان خيراً منه.

وتوبة المهاجرين والأنصار، وهم خلص المؤمنين، كانت من تثاقلهم في الخروج حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض[1]، ومنهم من كان ذنبه السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين. وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم[2].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿الذين اتبعوه في ساعةِ العسرةِ﴾ الساعة: الحصة من الزمن، والعسرة: اسم العسر، زيدت فيه التاء للمبالغة وهي الشدة والضيق.

وساعة العسرة هي زمن استنفار النبي ـ ﷺ ـ الناس إلى غزوة تبوك. فهو الذي تقدمت الإشارة إليه بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ فالذين انتدبوا وتأهبوا وخرجوا هم الذين اتبعوه[3].

وقد كانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة[4]، كما كان الجيش الذي اشترك فيها يسمى بجيش العسرة، وذلك لأن المؤمنين خرجوا إليها في سنة مجدبة، وحر شديد، وفقر في الزاد والماء والراحلة.

قال مجاهد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض....﴾ صفحة رقم ٦٢٣ من هذا الكتاب.

(٢) تفسير المراغي: ١١/ ٤٠.

(٣) تفسير التنوير والتحرير: ١١/ ٥٠.

(٤) وقد ترجم لها الإمام البخاري في صحيحه بغزوة العسرة: انظر صحيح البخاري: ٦/ صفحة ٢.

في شدة من الأمر، في سنة مجدبة، وحر شديد، وعسر في الزاد والماء[١].

وقال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر - أي شدته - على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها تعب شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما[٢].

وقال الحسن: كان العشرة منهم يعتقبون بعيراً واحداً، يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان النفر منهم يخرجون وليس معهم إلا التمرات اليسيرة، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يشرب عليها جرعة من الماء... ومضوا مع النبي - ﷺ - على صدقهم ويقينهم - رضي الله عنهم -..[٣].

وقوله: ﴿من بعد ما كادَ يزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم﴾.

بيان لتناهي الشدة، وبلوغها الغاية القصوى[٤] وفي ذكر ﴿فريق منهم﴾ إشارة إلى أن معظم المهاجرين والأنصار، مضوا معه - ﷺ - إلى تبوك دون أن تؤثر هذه الشدائد في قوة إيمانهم وصدق يقينهم، ومضاء عزيمتهم، وشدة إخلاصهم.

قال الألوسي: - وفي ﴿كاد﴾ ضمير الشأن و ﴿قلوب﴾ فاعل ﴿يزيغ﴾ والجملة في موضع الخبر لكاد...[٥].

وكاد: من أفعال المقاربة تعمل في اسمين عمل كان، واسمها هنا ضمير شأن مقدر، التقدير كان الحال والشأن أن يكون كذا وكذا، وخبرها هو جملة

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٣٩٦.
(٢) المصدر نفسه: ٢/٣٩٦.
(٣) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/٣٢٤ - بتصرف يسير -.
(٤) تفسير الألوسي: ١١/٤٠.
(٥) تفسير الألوسي: ١١/٤٠.

الخبر عن ضمير الشأن، وإنما جعل اسمها هنا ضمير شأن لتهويل شأنهم حين أشرفوا على الزيغ[1].

قال ابن الجوزي: وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال:

أحدها: تميل إلى التخلف عنه، وهم ناس من المسلمين هموا بذلك، ثم لحقوه، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها، ولم تزغ عن الإيمان، قاله الزجاج.

والثالث: أن القلوب كادت تزيغ تلفاً بالجهد والشدة، ذكره الماوردي[2].

وقوله: ﴿**ثم تاب عليهم**﴾ أي رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿**إنه بهم رؤوفٌ رحيمٌ**﴾ هذا تذييل مؤكد لقبول التوبة ولعظيم فضل الله عليهم، ولطفه بهم.

قال بعضهم: فإن قلت: قد ذكر التوبة أولاً ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار؟.

قلت: أنه ـ سبحانه ـ ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطييباً لقلوبهم، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى، تعظيماً لشأنهم، وليعلموا أنه ـ تعالى ـ قد قبل توبتهم، وعفا عنهم، ثم أتبعه بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿**إنه بهم رؤوف رحيم**﴾ تأكيداً لذلك[3].

---

(١) التنوير والتحرير: ١١/ ٥٠.

(٢) زاد المسير: ٣/ ٥١٢.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/ ٣٢٥ ـ بتصرف يسير ـ.

وقال القرطبي:

قوله: ﴿ثم تاب عليهم﴾ قيل توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ، وتلك سنة الحق - سبحانه - مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ووطنوا أنفسهم على الهلاك، أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم.

قال الشاعر:

منك أرجو ولستُ أعرف رَبّاً ... يُرْتَجى منه بعضَ ما منك أرجو
وإذا اشتدّت الشدائد في الأر ... ض على الخلق فاستغاثوا وعجُّوا
وابتليتَ العباد بالخوف والجو ... ع، وأَصرُّوا على الذنوب ولَجُّوا
لم يكن لي سواك ربِّي ملاذ ... فتيقَّنت أنني بك أنْجو[1]

أقول العلماء في المراد بالتوبة التي تابها الله على النبي - ﷺ - وعلى المهاجرين والأنصار

١ - فيرى بعضهم أن المراد بها قبول توبتهم، وغفران ذنوبهم، والتجاوز عن زلاتهم التي حدثت منهم في تلك الغزوة أو في غيرها، وإلى هذا المعنى أشار القرطبي بقوله:

قال ابن عباس: كانت التوبة على النبي - ﷺ - لأجل أنه أذِن للمنافقين في القعود، بدليل قوله - سبحانه - قبل ذلك: ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم...﴾.

وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه - أي: إلى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك...[2].

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٨١.

(٢) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٧٨.

٢ ـ ومنهم من يرى أن المقصود بذكر التوبة هنا، التنويه بفضلها، والحض على تجديدها، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال: ﴿**تاب الله على النبي**﴾ كقوله: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ وكقوله: ﴿**واستغفر لذنبك**﴾.

وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرين والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح[١].

٣ ـ ومنهم من يرى أن المراد بالتوبة هنا: دوامها لا أصلها، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم: ﴿**لقد تاب الله على النبي...**﴾ أي: أدام توبته على النبي والمهاجرين والأنصار وهذا جواب عما يقال: من أن النبي ﷺ معصوم من الذنب، وأن المهاجرين والأنصار لم يفعلوا ذنباً في هذه القضية، بل اتبعوه من غير تلعثم، قلنا: المراد بالتوبة في حق الجميع دوامها لا أصلها[٢].

٤ ـ ومنهم من يرى أن ذكر النبي هنا إنما هو من باب التشريف، والمراد قبول توبة المهاجرين والأنصار فيما صدر عن بعضهم من زلات. وقد وضح هذا المعنى الإمام الألوسي فقال: قال أصحاب المعاني: المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء في ذلك بالنبي ـ ﷺ ـ تشريفاً لهم، وتعظيماً لعذرهم، وهذا كما قالوا في ذكره ـ تعالى ـ في قوله: ﴿**فأن لله خمسه وللرسول....**﴾ الآية. أي: عفا ـ سبحانه ـ عن زلات صدرت منهم يوم أُحد ويوم حنين...[٣].

* * *

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/٢١٨.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين: ٢/ ٣٢٤ ـ بتصرف يسير ـ.

(٣) تفسير الألوسي: ١١/٣٩.

المبحث الثالث

حديث القرآن عن موقف المنافقين في غزوة تبوك

ويشمل ما يلي:

*** موقف المنافقين قبل غزوة تبوك.**

*** موقف المنافقين أثناء غزوة تبوك.**

*** موقف المنافقين بعد انتهاء غزوة تبوك وعودة النبي ﷺ إلى المدينة.**

حديث القرآن عن موقف المنافقين في غزوة تبوك

وتشمل دراستنا لما يأتي:

١ ـ موقف المنافقين قبل غزوة تبوك.

٢ ـ موقف المنافقين أثناء غزوة تبوك.

٣ ـ موقف المنافقين بعد انتهاء غزوة تبوك وعودة النبي ﷺ إلى المدينة.

١ ـ حديث القرآن عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك

موقف المنافقين قبل الغزوة يتضمن استئذانهم، وتخلفهم عن الخروج وكان ممن تخلف عبد الله بن أبي بن سلول وقد تحدث القرآن عنهم فقال تعالى:

﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشُّقَّةُ وسيحلفونَ بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسَهُم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ [التوبة: ٤٢].

قال الزجاج: لو كان المدعو إليه فحذف لدلالة ما تقدم عليه،

والعرض: ما يعرض من منافع الدنيا..

والمعنى:

غنيمة قريبة غير بعيدة[١].

والسفر القاصد: هو السفر القريب السهل الذي لا يصاحبه ما يؤدي إلى التعب الشديد. من القصد بمعنى التوسط والاعتدال في الشيء.

والشُّقة: ـ بضم الشين ـ المسافة الطويلة[٢] والمراد المسافة التي لا تقطع إلا بعد تكبد المشقة والتعب، فهي مأخوذة من المشقة وشدة العناء.

قال القرطبي: حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال: منه شقة شاقة. والمراد بذلك كله غزوة تبوك...»[٣].

والمعنـــى:

يبين ـ سبحانه وتعالى ـ موقف المنافقين وأنهم تخلفوا بسبب بعد المسافة وشدتها وأنه لو كان الذي دعوتهم إليه ـ يا محمد ـ عرضاً من أعراض الدنيا ونعيمها وكان السفر سهلاً لاتبعوك في الخروج ولكنهم تخلفوا ولم يخرجوا. فالآية تشرح وتوضح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة وأسباب هذا الموقف.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: **﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾**.

كان نزول هذه الآية قبل رجوعه ﷺ من تبوك. والمعنى: وسيحلف

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/٣٦٣.

(٢) التنوير والتحرير: ١٠/٢٠٨.

(٣) تفسير القرطبي: ٨/ ١٥٤.

هؤلاء المنافقون بالله ـ كذباً وزوراً ـ قائلين: لو استطعنا أيها المؤمنون أن نخرج معكم للجهاد في تبوك لخرجنا. فإننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين، فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التي حملتنا على التخلف.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾.

قال ابن عاشور: «أي يحلفون مهلكين أنفسهم، أي موقعينها في الهلك ـ والهلك الفناء والموت، ويطلق على الأضرار الجسيمة وهو المناسب هنا ـ أي يتسببون في ضر أنفسهم بالأيمان الكاذبة، وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة. وفي هذه الآية دلالة على أن تعمد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك[1].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قيل له: ألا تغزو بني الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟ فقال رجلان: قد علمت يا رسول الله أن النساء فتنة فلا تفتنا بهن. فاذن لنا. فأذن لهما. فلما انطلقا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأول آكل. فسار رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه في ذلك شيء، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾.

ونزل عليه: ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم﴾.

ونزل عليه: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾.

ونزل عليه: ﴿إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾[2].

ثم عاتب الله ـ تعالى ـ نبينا محمداً ﷺ بقوله: ﴿عفا الله عنكَ لِمَ أذِنتَ لهم، حتى يتبينَ لك الذينَ صدقُوا وتعلَمَ الكاذبينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال مجاهد[3]: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ١٠/٢٠٩.

(٢) الدر المنثور: ٤/ ٢١٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٦٠.

فإن أذن لكم فاقعدوا. وإن لم يأذن لكم فاقعدوا وهؤلاء هم فريق من المنافقين، منهم عبد الله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسع وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة[(١)].

والآية الكريمة عتاب لطيف من اللطيف الخبير سبحانه لحبيبه ﷺ على ترك الأولى وهو التوقف عن الإذن إلى إنجلاء الأمر وانكشاف الحال.

وعن سفيان بن عيينة أنه قال: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو[(٢)].

ثم قال تعالى: **﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنونَ بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم، فهم في ريبهم يتردَّدُونَ﴾** [التوبة: ٤٤، ٤٥].

هذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال[(٣)] فبين سبحانه أنه ليس من شأن المؤمنين بالله وباليوم الآخر الاستئذان وترك الجهاد في سبيل الله وإنما هذا من صفات المنافقين الذين يستأذنون من غير عذر وصفهم ـ سبحانه ـ بقوله: **﴿وارتابت قلوبهم﴾**. أي: شكت في صحة ما جئتهم به.

وقوله: **﴿فهم في ريبهم يترددون﴾** أي: يتحيرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء[(٤)].

ثم وضح ـ سبحانه ـ موقف بعضهم قبل الغزوة بقوله: **﴿ومنهم من يقولُ**

---

(١) التنوير والتحرير: ١٠/ ٢١٠.
(٢) تفسير الألوسي: ١٠/ ١٠٨.
(٣) تفسير المراغي: ٤/ ١٢٧.
(٤) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٦١.

ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنةِ سقطوا وإن جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين﴾ [التوبة: ٤٩].

سبب نزول الآية الكريمة:

وردت أسباب نزول لهذه الآية الكريمة لكنها ضعيفة لا تصح فلم نذكرها.

والمعنـــى:

يبين ـ سبحانه ـ أن بعض المنافقين يستأذن بحجة أنه يخشى الوقوع في الفتنة: **﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾** قال أبو السعود: أي في عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغني عن الوصف بالكمال، الحقيق باختصاص اسم الجنس به، سقطوا لا في شيء مغاير لها، فضلاً من أن يكون مهرباً ومخلصاً عنها، وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف، والجرأة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة، ومن القعود بالإذن المبني عليه، وعلى الاعتذارات الكاذبة. . . وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه، مع تقديم الظرف، إيذان بأنهم وقعوا فيها، وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة، زعماً منهم أن الفتنة إنما هي التخلف بغير إذن.

وفي التعبير عن (الافتتان) بالسقوط في الفتنة، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة، المفصحة عن ترديهم في درجات الردى أسفل سافلين. . .(١).

وقوله: **﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾** فيها وعيد وتهديد لهم على أقوالهم وأفعالهم.

أي: مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصاً، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ٧٢ ـ بتصرف يسير ـ.

* هذا وكان بعض المنافقين جاء بماله ليعين به النبي ﷺ ويطلب القعود بنفسه فقال تعالى فيهم: ﴿**قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين**﴾ [التوبة: ٥٣].

روي أن بعض المنافقين قال للنبي ﷺ - عندما دعاهم إلى الخروج معه إلى تبوك -: ائذن لي في القعود وهذا مالي أعينك به، فنزل قوله - تعالى -: ﴿**قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم...**﴾[1].

والمعنى: قل يا أيها الرسول لهؤلاء المنافقين: ﴿**أنفقوا طوعاً أو كرهاً**﴾. أي أنفقوا ما شئتم من أموالكم في وجوه الخير حالة كونكم طائعين أو كارهين ﴿**لن يتقبل منكم**﴾ وذلك لما تبطنونه في صدوركم من الكفر والفسوق عن أمر الله ﴿**إنكم كنتم قوماً فاسقين**﴾ تعليل لعدم قبول نفقاتهم. والآية وإن جاءت في صورة الأمر إلا أن المراد به الخبر.

ثم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾[2].

روى البخاري في صحيحه عن أبي مسعود قال: لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رئاء، فنزلت: ﴿**الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جُهدَهُم...**﴾ الآية[3].

---

(١) انظر الدر المنثور: ١٠/ ٥١٧ وكذلك أسباب النزول للإمام السيوطي: ص ١١٨.

(٢) سورة التوبة، آية ٧٩.

(٣) صحيح البخاري - كتاب التفسير -: ٥/ ٨٤. وانظر الفتح: ٨/ ٣٣٠.

وذكر الإمام ابن حجر في الفتح أن حث النبي ﷺ على الصدقة كان في غزوة تبوك[1].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿**يلمزون**﴾ من اللمز. يقال: لمز فلان فلاناً إذ أعابه وتنقصه.

والمراد بها في الآية: يعيبون[2].

والمراد **بالمطوعين**: أغنياء المؤمنين الذين قدموا أموالهم عن طواعية واختيار، من أجل إعلاء كلمة الله.

والمراد **بالصدقات**: صدقات التطوع التي يقدمها المسلم زيادة على الفريضة.

والمراد **بالذين لا يجدون إلا جهدهم**: فقراء المسلمين، وجهدهم: طاقتهم.

والمعنـــى:

يقول تعالى ذكره: الذين يلمزون المطوعين في الصدقة على أهل المسكنة والحاجة بما لم يوجبه الله عليهم في أموالهم، ويطعنون فيها عليهم بقولهم: إنما تصدَّقوا به رياءً وسمعة، ولم يريدوا وجه الله، ويلمزون الذين لا يجدون ما يتصدقون به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم فينتقصونهم ويقولون: لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنياً، سخرية منهم بهم ﴿**فيسخرون منهم سخرَ الله منهم ولهم عذاب أليم**﴾ أي ولهم من عند الله يوم القيامة عذابٍ موجع مؤلم[3].

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٣٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ٨/ ٣٣٠.

(٣) تفسير الطبري: ١٠/ ١٩٤.

٢ ـ حديث القرآن عن موقف المنافقين أثناء غزوة تبوك

قال تعالى: ﴿**يحذرُ المنافقونَ أن تنزلَ عليهم سورةٌ تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون * ولئن سألتهم ليقولنَّ إنما كنا نخوضُ ونلعبُ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتمُ تستهزئُون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفةٍ منكُم نعذِب طائفة بأنَّهم كانوا مجرمينَ**﴾ [التوبة: ٦٤ ـ ٦٦].

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿**يحذرُ المنافقونَ أن تنزلَ عليهِم سورةٌ تنبئهم بما في قلوبهم**﴾ قال: يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا هذا(١).

الحذر: الاحتراز والتحفظ مما يخشى ويخاف منه. **والإخراج**: إظهار الشيء الخفي المستتر كإخراج الحب والنبات من الأرض(٢).

قال ابن كثير:

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾(٣).

وقال في هذه الآية: ﴿**قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون**﴾ . أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم(٤).

---

(١) الدر المنثور: ٤/٢٢٩.

(٢) تفسير المراغي: ٤/١٥٢.

(٣) سورة المجادلة، آية ٨.

(٤) تفسير ابن كثير: ٢/٣٦٧.

قال الإمام الرازي: فإن قيل: المنافق كافر فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول ﷺ؟.

قلنا فيه وجوه:

١ ـ قال أبو مسلم: هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول ـ ﷺ ـ يذكر كل شيء، ويدعي أنه عن الوحي، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم، فأخبر الله رسوله بذلك، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذي حذروا ظهوره، وفي قوله: ﴿قل استهزئوا﴾ دلالة على ما قلناه.

٢ ـ أن القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول ـ ﷺ ـ إلا أنهم شاهدوا أنه ـ ﷺ ـ كان يخبرهم بما يضمرونه ويكتمونه، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم.

٣ ـ قال الأصم: إنهم كانوا يعرفون كون الرسول ـ ﷺ ـ صادقاً، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً. . .

٤ ـ معنى الحذر: الأمر بالحذر. أي: ليحذر المنافقون ذلك.

٥ ـ أنهم كانوا شاكين في صحة نبوته، وما كانوا قاطعين بفسادها، والشاك خائف، فلهذا السبب خافوا أن ينزل عليه في أمرهم ما يفضحهم[1].

وقوله تعالى: **﴿قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾**.

أي قل لهم: استهزئوا فإن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويتبين أمركم.

ثم قال تعالى: **﴿ولئن سألتهم ليقولُنَّ إنما كنا نخوضُ ونلعبُ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئونَ﴾** [التوبة: ٦٥].

---

(١) تفسير الرازي: ١٦/١٢١ ـ بتصرف يسير ـ.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمر[1] قال: «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء.. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب[2] ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه[3] وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والرسول ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟».

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة، في الآية، قال: «بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات....!!.

فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال نبي الله ﷺ: (احبسوا على هؤلاء الركب). فأتاهم فقال: (قلتم كذا قلتم كذا). قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون»[4].

أصل الخوض: الدخول في مائع مثل الماء والطين، ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى...[5].

---

(١) الدر المنثور: ٤/ ٢٣٠.
(٢) الحقب ـ بفتحتين ـ حبل يشد به الرحل في بطن البعير (القاموس المحيط: ١/ ٥٧).
(٣) تنكبه الحجارة: تصيبه وتؤذيه، يقال نكبته الحجارة نكباً، أي لثمته وخدشته (انظر الصحاح للجوهري: ١/ ٢٥٨).
(٤) الدر المنثور: ٤/ ٢٣٠.
(٥) تفسير الألوسي: ١٠/ ١٣١.

والمعنـــى:

ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عن سبب استهزائهم بتعاليم الإسلام ليقولن لك على سبيل الاعتذار، إنما كنا نفعل ذلك على سبيل الممازحة والمداعبة لا على سبيل الجد.

والاستفهام في قوله: **﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾** استفهام إنكاري.

والمعنـــى:

قل يا محمد لهؤلاء موبخاً ومنكراً: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم ـ كما تزعمون ـ سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذي جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور؟.

ثم بين سبحانه ـ أن استهزاءهم هذا أدى بهم إلى الكفر، فقال: **﴿لا تعتذروا قد كفرتُم بعد إيمانكم إن نعفُ عن طائفةٍ منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾** [التوبة: ٦٦].

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي: أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة رهط استهزئوا بالله ورسوله وبالقرآن، قال: كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانباً لهم يقال له يزيد بن وديعة، فنزلت: **﴿إن نعف عن طائفةٍ منكم نعذب طائفة﴾** فسمي طائفة وهو واحد[١].

وقال ابن عباس: الطائفة الرجل والنفر[٢].

وقال مجاهد: الطائفة الواحد إلى الألف[٣].

---

(١) الدر المنثور: ٤/ ٢٣١.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٣١.

(٣) المصدر السابق: ٤/ ٢٣١.

وقوله: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم....﴾.

الاعتذار معناه محاولة محو أثر الذنب، مأخوذ من قولهم: اعتذرت المنازل إذا اندثرت وزالت، لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه.

والمعنــى:

أي لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرار بذنبكم فهو كما يقال: عذر أقبح من ذنب[1].

وقوله: **﴿إن نعف عن طائفةٍ منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾**.

أي: إن نعف عن بعضكم لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم كمِخَشنّ بن حُمَيْر نعذب بعضاً آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه[2].

قال ابن إسحاق:

«كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت... ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له (مخشنّ بن حُمَيْر) يشيرون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو منطلق إلى تبوك. فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر ـ أي الروم ـ كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين.

فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وأننا ننجو أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغني ـ لعمار بن ياسر. أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا، فانطلق

(١) تفسير المراغي: ٤/ ١٥٣.
(٢) تفسير المراغي: ٤/ ١٥٣.

عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ يعتذرون إليه. فقال وديعة ورسول الله ـ ﷺ ـ واقف على راحلته: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب.

فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عفا عنه في هذه الآية مخشن بن حمير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً، لا يعلم مكانه. فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر...»[1].

ثم في أثناء عودة النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة راجعاً من تبوك نزلت عليه الآيات الآتية:

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حاربَ اللّه ورسولَهُ من قبلُ وليحلفُنَّ إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهدُ إنهم لكاذبون * لا تقم فيه أبداً، لمسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يومٍ أحقُ أن تقوم فيه، فيه رجالٌ يحبونَ أن يَتَطهَّروا، واللّهُ يحبُ المطَّهرينَ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

قال ابن كثير:

سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أُحد.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٥٢٤.

فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عزّ وجلّ، وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعم الله بك عيناً ـ يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لآداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: (إنَّا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله)، فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة. . . .[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٣٨٨.

وقوله: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين. .﴾ منصوب على الذم.

أي: وأذم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً. . . أو معطوف على ما سبق من أحوال المنافقين، والتقدير: ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً. . . .

والضرار: مصدر ضار مبالغة في ضر، أي ضراراً لأهل الإسلام. وقوله: **﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ والإرصاد**: التهيئة. والمراد بمن حارب الله ورسوله أبو عامر الراهب[1].

والمعنـــى:

أخبر الله ـ سبحانه ـ أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة:

الأول: الضرار لغيرهم، وهو المضارَّة.

الثاني: الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

الثالث: التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى.

الرابع: الإرصاد لمن حارب الله ورسوله: أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله. . .[2].

وقد خيب الله تعالى مسعاهم، وأبطل كيدهم، بأن أمر نبيه ـ ﷺ ـ بهدمه وإزالته. . .

---

(١) التنوير والتحرير: ١١/ ٣٠.

(٢) تفسير الشوكاني: ٢/٤٠٣.

وقوله: ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ ذم لهم على أيمانهم الفاجرة، وأقوالهم الكاذبة.

أي أن هؤلاء المنافقين قد بنوا مسجد الضرار لتلك المقاصد الخبيثة، ومع ذلك فهم يقسمون بأغلظ الأيمان بأنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة الحسنى التي عبروا عنها قبل ذلك ـ كذباً ـ بقولهم: «إننا بنيناه للضعفاء، وأهل العلة في الليلة الشاتية». . . لذلك قال تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾.

ثم نهى الله ـ تعالى ـ رسوله والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد نهياً مؤكداً فقال ـ سبحانه ـ: ﴿لا تقُم فيه أبداً لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ أحقُ أن تقومَ فيه، فيه رجالٌ يحبونَ أن يتطهرُوا والله يحبُ المطهرينَ﴾.

أخرج أبو داود[١] والترمذي[٢] وابن ماجه[٣] وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية). .[٤].

قال ابن عاشور:

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ المراد بالقيام الصلاة لأن أولها قيام ووجه النهي عن الصلاة فيه أن صلاة النبي ـ ﷺ ـ فيه تكسبه يمناً وبركة فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزية عليه. . . .

ولذلك أمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر ووحشياً مولى المطعم بن عدي ومالك بن الذخشم ومعن بن عدي فقال: (انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم

---

(١) سنن أبي داود ـ كتاب الطهارة ـ باب الاستنجاء بالماء ـ: ١/ ٣٩.

(٢) سنن الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ: ٥/ ٢٨٠.

(٣) سنن ابن ماجه ـ كتاب الطهارة ـ باب الاستنجاء بالماء: ١/ ١٥٨.

(٤) الدر المنثور: ٤/ ٢٨٩.

أهله فاهدموه وحرقوه)، ففعلوا[1].

وقوله: ﴿لمسجدٌ أسسَ على التقوى من أول يومٍ أحقُ أن تقومَ فيه﴾ احتراس مما يسلتزمه النهي عن الصلاة فيه من إضاعة عبادة في الوقت الذي رغبوه للصلاة فيه فأمره الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار أن يصلي في مسجده أو في مسجد قباء، لئلا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دعي للصلاة فيه، وهذا أدب نفساني عظيم.

وفيه أيضاً دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول ﷺ بأنه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع، فقوله: ﴿أحق﴾ وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة لأن النهي عن صلاته في مسجد الضرار أزال كونه حقيقاً بصلاته فيه أصلاً.

ولعل نكتة الإتيان باسم التفضيل أنه تهكم على المنافقين لمجازاتهم ظاهراً في دعوتهم النبي ـ ﷺ ـ للصلاة فيه بأنه وإن كان حقيقاً بصلاته بمسجد أسس على التقوى أحق منه، فيعرف من وصفه بأنه ﴿أسس على التقوى﴾ أن هذا أسس على ضدها[2].

والمراد بالمسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم: ﴿لمسجد أسسَ على التقوى من أول يومٍ﴾ هو مسجد قباء.

قال ابن كثير:

وقد صرح بأنه مسجد قباء كثير من السلف رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير، وقاله

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٥٣٠.
(٢) التنوير والتحرير: ١١/ ٣١.

عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح[1] أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى...[2].

وهذا وأميل إلى قول من قال بأن المسجد المراد هو مسجد قباء وذلك لقوله تعالى: ﴿فيه رجال﴾ وإليه ذهب ابن كثير فقال: ثم حثه ـ سبحانه ـ على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم ببنائه على التقوى وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لمسجدٌ أسسَ على التقوى من أول يومٍ أحقُ أن تقوم فيه﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء[3].

وقد جمع الشيخ ابن عاشور بن القولين فقال: ووجه الجمع بين هذين عندي أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿لمسجدٌ أسسَ على التقوى من أول يومٍ﴾ المسجد الذي هذا صفته لا مسجداً واحداً معيناً، فيكون هذا الوصف كلياً انحصر في فردين المسجد النبوي ومسجد قباء، فأيهما صلى فيه رسول الله ـ

---

(١) وهو الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: عن حميد الخراط قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله أي المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: (هو مسجدكم هذا) (لمسجد المدينة). انظر صحيح مسلم ـ كتاب الحج ـ باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة: ١٠١٥/٢.

(٢) تفسير بن كثير: ٣٨٩/٤.

(٣) تفسير بن كثير: ٢٨٩/٢.

ﷺ - في الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار كان ذلك أحق وأجدر، فيحصل النجاء من حظ الشيطان في الامتناع من الصلاة في مسجدهم، ومن مطاعنهم أيضاً، ويحصل الجمع بين الحديثين الصحيحين وقد كان قيام الرسول في المسجد النبوي هو دأبه...[1].

قوله: ﴿فيه رجالٌ يحبونَ أن يتطهروا والله يحبُّ المطهرينَ﴾.

وروى ابن ماجه أنه لما نزلت هذه الآية: **﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾** قال رسول الله ﷺ: (يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم في الطهور فما طهوركم؟) قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ونستنجي بالماء. قال: (فهو ذاك فعليكموه)[2].

٣ ـ موقف المنافقين بعد انتهاء غزوة تبوك وأثناء عودة النبي ﷺ إلى المدينة

قال تعالى: **﴿يحلفونَ باللّهِ ما قالوا ولقد قالوا كلمةَ الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمُّوا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم اللّهُ ورسولهُ من فضلهِ فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم اللّهُ عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من وليٍ ولا نصيرٍ﴾** [التوبة: ٧٤].

سبب النزول:

١ ـ قال ابن كثير: قال عروة بن الزبير نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حمرنا هذه التي نحن عليها، فقال مصعب: أما والله

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ١١/ ٣٢.

(٢) سنن ابن ماجه ـ كتاب الطهارة ـ باب الاستنجاء بالماء: ١/ ١٢٧.

يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت. فأتيت الرسول ﷺ وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئة فقلت: يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك.

قال فدعا الجلاس فقال: (يا جلاس أقلت الذي قاله مصعب؟) فحلف فأنزل الله: ﴿**يحلفون بالله ما قالوا**﴾ الآية[1].

٢ ـ وقال الضحاك: إن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية[2].

وجاء في مسند الإمام أحمد عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: (قد قد) حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط نزل ورجع عمار فقال: (يا عمار هل عرفت القوم؟) فقال: لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون. قال: (هل تدري ما أرادوا!) قال: الله ورسوله أعلم قال: (أرادوا أن ينفروا برسول الله ـ ﷺ ـ راحلته فيطرحوه) قال فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال أربعة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٧٢.

أشهد أن الإثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[1].

وقال الإمام ابن كثير: ويشهد لحديث العقبة بالصحة ما رواه مسلم[2] من حديث عمار بن ياسر قال: أحبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: (في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط: ثمانية منهم تكفيكهم الدَّبَيْلةُ سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم)[3].

والمعنى الإجمالي للآية: قال الشيخ المراغي:

قوله: **﴿يحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمةَ الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمُّوا بما لم ينالوا﴾**.

أي: يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة التي نسبت إليهم، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لا ينبغي ذكرها...[4].

أما همهم بما لم ينالوا فهو اغتيال رسول الله ﷺ في العقبة منصرفه من تبوك ـ ذاك أنه لما رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة... وسبب النزول السابق ذكره يوضح ذلك....

وقوله: **﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾**.

أي: وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام وبعثة الرسول ﷺ فيهم

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٥/ ٤٥٣.

(٢) انظر صحيح مسلم ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ: ٤/ ٢١٤٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٧٣.

(٤) تفسير المراغي: ١/ ١٦٧.

شيئاً يقتضي الكراهة والهم بالانتقام، إلا أن أغناهم الله تعالى إياهم ورسوله من فضله بالغنائم التي هي عندهم أحب الأشياء لديهم في هذه الحياة..

وقوله: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾..

أي: فإن يتوبوا من النفاق وما يصدر عنه من مساوىء الأقوال والأفعال، يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدنيا والآخرة...

وقوله: ﴿وإن يتولوا يعذبُهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من وليٍ ولا نصيرٍ﴾.

أي: وإن يعرضوا عما دعوا إليه من التوبة وأصروا على النفاق وما ينشأ منه من المساوىء الخلقية والنفسية يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهلع...[1].

قال تعالى: ﴿ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾[2].

هذه الآيات الكريمة نزلت على الرسول ـ ﷺ ـ أثناء العودة، وقبل وصول الرسول وأصحابه إلى المدينة من تبوك.

قوله: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾.

إخبار من الله ـ سبحانه ـ عن المنافقين المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٦٧ ـ بتصرف يسير ـ.

(٢) سورة التوبة، آية ٩٤، ٩٥، ٩٦.

إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو[1]. . وإنما قال: ﴿إليهم﴾ أي إلى المعتذرين بالباطل ولم يقل إلى المدينة، لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها[2].

والمعنى:

أي: أن هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الجهاد مع قدرتهم عليه، سيعتذرون إليكم ـ أيها المؤمنون ـ إذا رجعتم إليهم من تبوك، بأن يقولوا لكم ـ مثلاً ـ إن قعودنا في المدينة وعدم خروجنا معكم كانت له مبرراته القوية. . فلا تؤاخذونا. . .

وقوله: **﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم﴾**.

نهاهم أولاً عن الاعتذار بالباطل[3]: **﴿لن نؤمن لكم﴾**. أي: لن نصدقكم[4].

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي أخبرنا بسرائركم[5].

﴿وسيرى الله عملكم﴾ فيما تستأنفون[6] **﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾**.

قال الشيخ ابن عاشور: «الرد: الإرجاع. والمراد به هنا مصير النفوس إلى عالم الخلد الذي لا تصرف فيه لغير الله ولو في ظاهر الأمر. ولما كانت النفوس من خلق الله وقد أنزلها إلى عالم الفناء الدنيوي فاستقلت بأعمالها مدة

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/ ٣٩٤.
(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٣٩٤.
(٣) تفسير الشوكاني: ٢/ ٣٩٤.
(٤) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٣٠.
(٥) المصدر نفسه: ٨/ ٢٣٠.
(٦) المصدر السابق: ٨/ ٢٣٠.

العمر كان مصيرها بعد الموت أو عند البعث إلى تصرف الله فيها شبيهاً برد الشيء إلى مقره أو إرجاعه إلى مالكه.

والغيب ما غاب من علم الناس، والشهادة: المشاهدة. واللام في ﴿الغيب﴾ و ﴿الشهادة﴾ للاستغراق، أي كل غيب وكل شهادة.

والعدول عن أن يقال: ثم تردون إليه، أي إلى الله، لما في الإظهار من التنبيه على أنه لا يعزب عنه شيء من أعمالهم، زيادة في الترغيب والترهيب ليعلموا أنه لا يخفى على الله شيء.

والإنباء: الإخبار، وما كنتم تعملون: علم كل عمل عملوه..[1].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم﴾ أي من تبوك والمحلوف عليه محذوف، أي يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج[2].

والانقلاب: الرجوع[3].

﴿لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجسٌ ومأواهم جهنمُ جزاءً بما كانوا يكسبون﴾.

قال الإمام الشوكاني: «ثم ذكر ـ سبحانه ـ أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاءوا به من الأعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو وغرضهم من هذا التأكيد هو أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف ويظهرون الرضا عنهم كما يفيده ذكر الرضا من بعد.

وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه، وهو اعتذارهم الباطل.

---

(١) تفسير التنوير والتحرير: ١١/٨.

(٢) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق: ١١/٩.

وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به تركهم والمهاجرة لهم، لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم كما تفيده جملة **﴿إنهم رجسٌ﴾** الواقعة علة للأمر بالإعراض.

والمعنـــى:

أنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة. فكأنها قد صيرت ذواتهم رجساً، أو أنهم ذوو رجس: أي ذوو أعمال قبيحة. ومثله **﴿إنما المشركون نجس﴾** وهؤلاء لما كانوا هكذا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير والتحذير من الشر، فليس لهم إلا الترك.

وقوله: **﴿ومأواهم جهنَم﴾** من تمام التعليل، فإن كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير. والمأوى كل مكان يأوى إليه الشيء ليلاً أو نهاراً. وقد أوى فلان إلى منزله يأوي أوياً وإيواءً.

و **﴿جزاءً﴾** منصوب على المصدرية أو العلية، والباء في **﴿بما كانوا يكسبون﴾** للسببية...[1].

وقوله: **﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾**.

قال الإمام الشوكاني: «وجملة **﴿يحلفون لكم﴾** بدل مما تقدم. وحذف هنا المحلوف لكونه معلوماً مما سبق، وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه، وهو اعتذارهم بالباطل. وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم. ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال: **﴿فإن ترضوا عنهم﴾** كما هو مطلوبهم مساعدة لهم **﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾** وإذا كان هذا هو ما يريده الله ـ سبحانه ـ من

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/ ٣٩٥.

عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة فينبغي لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيد لهم، والمقصود من إخبار الله ـ سبحانه ـ بعدم رضاه عنهم نهي المؤمنين عن ذلك لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن. . .»[1].

* * *

المبحث الرابع
حديث القرآن عن المخلفين عن غزوة تبوك

ويشمل ما يلي:

*** المخلفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها.**

*** المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم.**

*** المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة.**

*** المخلفون من منافقي المدينة.**

أ ـ المخلفون من الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2].

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/ ٣٩٥ ـ بتصرف يسير ـ.

(٢) سورة التوبة، آية ٩١، ٩٢.

بينت هذه الآيات الكريمة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذر شرعي بأنه ليس عليهم حرج وليس عليهم إثم في هذا التخلف، ذلك لأن لهم عذراً شرعياً منعهم من الخروج.

قال ابن الجوزي:

وفي المراد بالضعفاء ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم الزمنى والمشايخ الكبار، قاله ابن عباس ومقاتل.

والثاني: أنهم الصغار.

والثالث: المجانين، سموا ضعافاً لضعف عقولهم، ذكر القولين الماوردي. والصحيح أنهم الذين يضعفون لزمانة، أو عمى، أو سن، أو ضعف في الجسم. والمرضى: الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال. . .[1].

وقوله: **﴿ولا على الذينَ لا يجدونَ ما ينفقون حرجٌ﴾**.

أي: ليس على الذين لا يجدون نفقة تبلغهم إلى الغزو حرج أي إثم **﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾** أي إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه[2].

وقوله: **﴿ما على المحسنين من سبيلٍ﴾**. قال الطبري: يقول تعالى ليس على من أحسن فنصح لله ورسوله في تخلفه عن رسول الله ﷺ عن الجهاد معه، لعذر يعذر به طريق يتطرق عليه، فيعاقب من قبله. **﴿والله غفور رحيم﴾**.

يقول تعالى: والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغمدها بعفوه لهم عنها، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها. .[3].

---

(١) زاد المسير: ٤/ ٤٨٥.

(٢) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٢٦.

(٣) تفسير الطبري: ١٠/ ٢١١.

وقال القرطبي: الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز، من جهة القوة أو العجز من جهة المال. . .[1].

وقوله: ﴿**ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه. .**﴾ معطوف على ما قبله، من عطف الخاص على العام، اعتناءاً بشأنهم، وجعلهم كأنهم لتميزهم جنس آخر، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك ﴿**لا يجدون ما ينفقون**﴾.

أي: لا حرج ولا إثم على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون، إذا ما تخلفوا عن الجهاد، وكذلك لا حرج ولا إثم - أيضاً - على فقراء المؤمنين ﴿**الذين إذا ما أتوك لتحملهم**﴾ على الرواحل التي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل ﴿**قلت لهم**﴾ يا محمد ﴿**لا أجد ما أحملكم عليه**﴾.

أخرج البيهقي في الدلائل[2] عن عروة وموسى بن عقبة قالا «ثم إن رسول الله ﷺ تجهز غازياً يريد الشام فأذن في الناس بالخروج وأمرهم به، وكان ذلك في حر شديد ليالي الخريف والناس في نخيلهم خارفون، فأبطأ عنه ناس كثير وقالوا: الروم لا طاقة لنا بهم. فخرج أهل الحسب وتخلف المنافقون، وحدثوا أنفسهم أن رسول الله - ﷺ - لا يرجع إليهم أبداً، فاعتلوا وثبطوا من أطاعهم وتخلف عنه رجال من المسلمين بأمر كان لهم فيه عذر، منهم السقيم والمعسر، وجاء ستة نفر كلهم معسر يستحملونه لا يحبون التخلف عنه.

فقال لهم رسول الله ﷺ: (لا أجد ما أحملكم عليه). فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون، منهم من بني سلمة، عمرو بن

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/٢٢٦.

(٢) دلائل النبوة: ٥/٢٢٤.

عثمة[1]، ومن بني مازن من النجار: أبو ليل عبد الرحمن بن كعب، ومن بني حارثة علبة بن زيد[2] ومن بني عمرو بن عوف سالم بن عمير، وهرم بن عبد الله وهم يدعون بني البكاء، وعبد الله بن عمرو رجل من بني مزينة، فهؤلاء بكوا واطلع الله عزّوجلّ أنهم يحبون الجهاد، وأنه الجد من أنفسهم، فعذرهم في القرآن فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية[3] واللتين بعدها[4].

وقوله: ﴿تولوا وأعينُهُم تفيضُ من الدمع﴾ الجملة في موضع نصب على الحال[5].

والفيض: خروج الماء ونحوه من قراره ووعائه، ويسند إلى المائع حقيقة وكثيراً ما يسند إلى وعاء المائع، فيقال: فاض الوادي، وفاض الإناء.

ومنه فاضت العين دمعاً وهو أبلغ من فاض دمعها، لأن العين جعلت كأنها دمع فائض، فقوله: ﴿تفيض من الدمع﴾ جرى على هذا الأسلوب...[6].

والمعنى:

أي انصرفوا وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن لأن لا يجدوا المال الذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرواحل التي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك.

---

(١) في الدر المنثور (٤/ ٢١٤) والطبري (١٠/ ٢١٣): غنمة، وفي زاد المسير (٣/ ٤٨٥): عنمة.

(٢) في الطبري (١٠/ ٢١٣) من بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد أبو عبلة.

(٣) سورة التوبة آية ٩١.

(٤) انظر الدر المنثور: ٤/ ٢١٤.

(٥) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٢٩.

(٦) تفسير التنوير والتحرير: ١٠/ ٢٩٦.

ب ـ المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم

جاءت ثلاث آيات تتحدث عن هؤلاء المخلفين. وهي:

١ ـ قوله تعالى: **﴿وآخرون أعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، عسى الله أن يتوب عليهم، إن الله غفور رحيم﴾** [التوبة: ١٠٢].

٢ ـ وقوله تعالى: **﴿وآخرونَ مرجونَ لأمر اللّهِ إما يعذبُهُم وإما يَتُوبُ عليهم، والله عليم حكيم﴾** [التوبة: ١٠٦].

٣ ـ وقوله تعالى: **﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت، وضاقت عليهم أنفُسُهُم وظنُّوا أن لا ملجأ من اللّهِ إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾** [التوبة: ١١٨].

١ ـ قوله تعالى: **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾**.

سبب نزول الآية:

جاءت عدة روايات في سبب نزول الآية الكريمة نختار منها ما رواه الإمام الطبري في تفسيره[1] بسنده عن الضحاك: يقول «في قوله: **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾** نزلت في أبي لبابة وأصحابه تخلفوا عن نبي الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما قفل رسول الله ﷺ من غزوته، وكان قريباً من المدينة، ندموا على تخلفهم عن رسول الله، وقالوا: نكون في الظلال والأطعمة والنساء، ونبي الله في الجهاد واللأواء، والله لنوثقن أنفسنا بالسواري، ثم لا نطلقها حتى يكون نبي الله ﷺ يطلقنا ويعذرنا، وأوثقوا

---

(١) تفسير الطبري: ١١/ صفحة ١٤.

أنفسهم، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم، فقدم رسول الله ﷺ من غزوته، فمر بالمسجد وكان طريقه، فأبصرهم فسأل عنهم فقيل له: أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا نبي الله، فصنعوا بأنفسهم ما ترى، وعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم، فقال نبي الله ﷺ: (لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم. ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين) فأنزل الله: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم...**﴾ الآية فأطلقهم نبي الله وعذرهم...»[1].

والمعنى ـ كما يقول الشوكاني ـ أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم. والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن.

والمراد بالعمل السيء: هو تخلفهم عن هذه الغزوة. وقد أتبعوا هذا العمل السيء عملاً صالحاً وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف الإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفي قوله: ﴿**عسى الله أن يتوب عليهم**﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي وهو عسى هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين: ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾.

---

(١) تفسير الطبري: ١١/ صفحة ١٤.

أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده..[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وآخرونَ مرجونَ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوبُ عليهم، والله عليم حكيم﴾.

هذه الآية معطوفة على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ﴾[2].

قال الألوسي:

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصحيحين هلال بن أمية، وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع.. وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله ﷺ لأمر ما مع الهم باللحاق به عليه الصلاة والسلام فلم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق وحاشاهم فقد كانوا من المخلصين فلما قدم النبي ﷺ وكان ما كان من المتخلفين قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له ﷺ ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري.

وأمر رسول الله ﷺ باجتنابهم وشدد الأمر عليهم كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله تعالى فاعل بهم إلى أن نزل قوله ـ سبحانه ـ: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقٍ منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم[3] * وعلى الثلاثة الذين خلفوا....﴾[4] الآية.

وقال الثعالبي في تفسيره: والمراد بهذه الآية فيما قال ابن عباس

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/ ٣٩٩.

(٢) سورة التوبة، آية ١٠٢، وانظر تفسير الألوسي: ١١/ ص ١٦.

(٣) انظر تفسيرها صفحة رقم ٦٣٩ من هذا الكتاب.

(٤) تفسير الألوسي: ١١/ ١٧.

وجماعته: الثلاثة الذين خلفوا وهم كعب بن مالك وصاحباه[١].

قوله: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ من أرجيته وأرجأته: إذا أخرته وهم الذين بقي أمرهم موقوفاً على تلك الحال. والمعنى ـ كما يقول الشوكاني ـ: «أنهم مؤخرون في تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه في شأنهم ﴿إما يعذبهم﴾ إن بقوا على ما هم عليه ولم يتوبوا ﴿وإما يتوب عليهم﴾ إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصاً تاماً. ﴿والله عليم حكيم﴾ عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم من خير أو شر[٢].

وقد تاب الله على هؤلاء[٣] ونزلت فيهم الآية التالية:

٣ ـ قال تعالى: **﴿وعلى الثلاثةِ الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾**.

والمراد بهؤلاء الثلاثة هم هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وفيهم نزلت هذه الآية، وقد ذكرت قصتهم في الصحيحين[٤] وفي غيرهما من كتب السنّة والسيرة.

وهذه الآية معطوفة على الآية السابقة لها وهي قوله تعالى: **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾**[٥].

---

(١) تفسير الثعالبي: ٢/ ١٥٣.

(٢) تفسير الشوكاني: ٢/ ٤٠١.

(٣) انظر تفسير الطبري: ١١/ صفحة ٢١، ٥٧.

(٤) انظر صحيح البخاري: ٦/ ٨٨، وكذلك فتح الباري: ٨/ ٣٤٢. وانظر صحيح مسلم ـ كتاب التوبة ـ الجزء الرابع ـ صفحة ٢١٢٠.

(٥) انظر تفسير هذه الآية صفحة رقم ٦٣٩ من هذا الكتاب.

أي: لقد تقبل الله ـ تعالى ـ بفضله وإحسانه توبة النبي والمهاجرين والأنصار، وتقبل كذلك توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة.

وقوله: ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾.

قال الإمام الشوكاني: معناه: أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وما مصدرية أي برحبها، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد، لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم. والرحب: الواسع، يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب.

وقوله: ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي أنها ضاقت صدورهم بما ينالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة.

وعبر بالظن في قوله: ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾.

عن العلم: أي علموا أن لا ملجأ يلجأون إليه قط إلا الله سبحانه بالتوبة والاستغفار.

وقوله: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾.

أي: رجع عليهم بالقبول والرحمة، وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم.

وقوله: ﴿إن الله هو التواب﴾.

أي: الكثير القبول لتوبة التائبين.

﴿الرحيم﴾.

أي: الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده[1]...

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/٤١٣، ٤١٤ ـ بتصرف يسير ـ.

جـ ـ المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة

هؤلاء المخلفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله، سيصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ﴾.

اختلف المفسرون في تحديد المراد بالمعذرين من الأعراب فبعض المفسرين ذهب إلى أنهم أصحاب الأعذار المقبولة، والبعض الآخر ذهب إلى أنهم أصحاب الأعذار الكاذبة...

و **﴿المعذرون﴾** فيها قراءات. قال القرطبي: ـ ما ملخصه ـ قوله تعالى: **﴿وجاء المعذرون من الأعراب﴾** قرأ الأعرج والضحاك **﴿المعذرون﴾** مخففاً. ورواها أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم... وهي من أعذر، ومنه قد أعذر من أنذر أي بالغ في العذر من تقدم إليك فأنذرك.

و **﴿المعذرون﴾** بالتشديد ـ وهي قراءة الجمهور ـ ففيها قولان:

أحدهما: أنه يكون المحق، فهو المعني المعتذر، لأن له عذراً فيكون **﴿المعذرون﴾** على هذه أصله المعتذرون، ثم أدغمت التاء في الذال...

وثانيهما: أن المعذر قد يكون غير محق، وهو الذي يعتذر ولا عذر له.

---

(١) سورة التوبة، آية ٩٠.

(٢) سورة التوبة، آية ١٠١.

والمعنـــى:

أنهم اعتذروا بالكذب. . .

قال الجوهري: وكان ابن عباس يقول: لعن الله المعذرين، كأن الأمر عنده أن المعذر ـ بالتشديد ـ هو المظهر للعذر، اعتلالاً من غير حقيقة له في العذر. . . .[1].

أما المراد بالأعراب فقد، سبق تفسيرها. . .[2]، هذا وقد رجح الإمام ابن كثير أن المراد بالمعذرين أصحاب الأعذار المقبولة فقال:

« بين الله ـ تعالى ـ حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، وهم الذين جاءوا رسول الله ـ ﷺ ـ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

قال الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ: **﴿وجاء المعذرون﴾** بالتخفيف، ويقول، هم أهل العذر. . . . وهذا القول أظهر في معنى الآية، لأنه ـ سبحانه ـ قال بعد هذا: **﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾**.

أي: لم يأتوا فيعتذروا[3].

والمعنـــى:

ـ كما يقول الشوكاني ـ أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعذار بحق أو باطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن الغزو وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو ولغير عذر، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ولم يؤمنوا ولا صدقوا، ثم

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٢٤.

(٢) انظر صفحة رقم: ٦٣٤ و ٦٨١ من هذا الكتاب.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٨١.

توعدهم الله ـ سبحانه ـ فقال: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا، بل كذبوا بالله ورسوله:

﴿عذاب أليم﴾ أي: كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا وعذاب الآخرة[1]...

قوله تعالى: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون...﴾ الآية.

والمعنـــى:

واذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون، فاحترسوا منهم.

قال الألوسي: ـ ما ملخصه ـ والمراد بالموصول في قوله: ﴿وممن حولكم﴾ قبائل جهينة، ومزينة، وأشجع، وأسلم... وكانت منازلهم حول المدينة وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين واستشكل ذلك بأن النبي ـ ﷺ ـ مدح بعض هذه القبائل ودعا لبعضها.

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أنه قال: قريش، والأنصار، وجهينة، ومزينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله[2].

وأجيب ذلك باعتبار الأغلب منهم...[3].

---

(١) تفسير الشوكاني: ٢/ ٣٩١.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب ذكر أسلم وغفار ومزينة.... ٤/ ٢٢٠ وانظر الفتح: ٦/ ٣٩٥. وانظر صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل غفار... الخ.: ٤/ ١٩٥٤.

(٣) تفسير الألوسي: جـ ١١/ ص ١٠.

د ـ المخلفون من منافقي المدينة

وضحت الآيات القرآنية موقف المخلفين من غزوة تبوك من المنافقين توضيحاً كاملاً ومن أهم تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) ﴾[٥].

---

(١) سورة التوبة، آية ٤٢ وقد تقدم تفسيرها صفحة رقم ٦٤٥ من هذا الكتاب.

(٢) سورة التوبة آية ٤٦.

(٣) سورة التوبة، آية ٤٧، ٤٨.

(٤) سورة التوبة، آية ٨١، ٨٢، ٨٣.

(٥) سورة التوبة، آية ٨٦، ٨٧.

وإليك تفسير هذه الآيات الواردة في المخلفين من منافقي المدينة:

قوله: ﴿**ولو أرادوا الخروج...**﴾ كلام مستأنف لبيان المزيد من رذائل المنافقين، أو معطوف على قوله ـ سبحانه ـ قبل ذلك: ﴿**لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك**﴾.

والمراد: ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك ـ يا محمد ـ إلى تبوك ﴿**لأعدوا له عدة**﴾.

قال ابن الجوزي: وفي المراد بالعدة قولان:

أحدهما: النية، قاله الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: السلاح، والمركوب، وما يصلح للخروج، قاله أبو صالح عن ابن عباس...[1].

وقوله: ﴿**ولكن كره الله انبعاثهم**﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدراً.

﴿**فثبطهم**﴾ أي: فمنعهم وحبسهم، من التثبيط، وهو رد الإنسان عن الفعل الذي همَّ به عن طريق تعويقه عنه ومنعه منه.

يقال: ثبطه تثبيطاً.

أي: قعد به عن الأمر الذي يريده ومنعه منه بالتخذيل ونحوه[2].

وقوله: ﴿**وقيل اقعدوا مع القاعدين**﴾.

قال ابن كثير: أي قدراً[3].

---

(١) زاد المسير: ٣/٤٤٦.

(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن: صفحة رقم ٢٥٦.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/٣٦١.

قال الألوسي: تمثيل لخلق الله داعية القعود فيهم، وإلقائه كراهة الخروج في قلوبهم بالأمر بالقعود.

أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك، فليس هناك قول حقيقة... ويجوز أن يكون حكاية بعضهم لبعض، أو حكاية لإذن الرسول - ﷺ - لهم في القعود، فيكون القول على حقيقته...[1].

والمراد بالقاعدين: هم القاعدون بعذر، كالنساء والصبيان، وقيل القاعدون بغير عذر. ثم بين - سبحانه - المفاسد المترتبة على خروج المنافقين في جيش المؤمنين فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾.

وأصل الخبال: الاضطراب والمرض الذي يؤثر في العقل كالجنون ونحوه، أو هو الاضطراب في الرأي[2].

قال ابن كثير: أي لأنهم جبناء مخذولون.

﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾.

أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة.

﴿وفيكم سماعون لهم﴾.

أي: مطيعون لهم، ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير، ﴿وفيكم سماعون لهم﴾.

أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال. والمعنى الأول

---

(١) تفسير الألوسي: ١١١/١٠ - بتصرف يسير -.
(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن: صفحة رقم ٢٥٦.

أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا ـ فيما بلغني ـ من ذوي الشرف، منهم عبد الله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس وكانوا أشرافاً في قومهم فثبطهم الله لعلمه أنهم إن يخرجوا فسيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم.

فقال: **﴿وفيكم سماعون لهم﴾** ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: **﴿والله عليم بالظالمين﴾** فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون[1].

ثم ذكر الله تعالى نبيه ـ ﷺ ـ بطرف من الماضي المظلم لهؤلاء المنافقين فقال:

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل، وقلبوا لك الأمور، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون﴾.

قال ابن كثير:

أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ـ ﷺ ـ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي وأصحابه هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى: **﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾**[2].

ثم بين ـ سبحانه ـ حال المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وبين مصيرهم

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٣٦١.

(٢) المصدر نفسه: ٢/٣٦١.

وحكمهم إذا أرادوا أن يخرجوا في غزوة أخرى فقال تعالى: **﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾**.

﴿المخلفون﴾: اسم مفعول مأخوذ من قولهم خلف فلان فلاناً وراءه إذا تركه خلفه **فالمخلف**: المتروك خلف من مضى[1].

﴿بمقعدهم﴾: بقعودهم.

﴿خلاف رسول الله﴾: قال ابن الجوزي: فيها قولان:

أحدهما: أن معناه: بعد رسول الله ﷺ، قاله أبو عبيدة.

والثاني: أن معناه: مخالفة رسول الله ﷺ، فالمعنى بأنهم قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ[2].

والمعنــى:

قال ابن كثير: «يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وفرحوا بقعودهم بعد خروجه **﴿وكرهوا أن يجاهدوا﴾** معه **﴿بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا﴾** أي بعضهم لبعض **﴿لا تنفروا في الحر﴾** قال الله تعالى لرسوله ﷺ **﴿قل﴾** لهم **﴿نار جهنم﴾** التي تصيرون إليها بمخالفتكم **﴿أشد حراً﴾** مما فررتم منه من الحر[3]، **﴿لو كانوا يفقهون﴾** تذييل قصد به الزيادة في توبيخهم وتحقيرهم.

روى الإمام مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن

---

(١) زاد المسير: ٣/ ٤٧٨.

(٢) زاد المسير: ٣/ ٤٧٨.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٧٦.

رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «نار بني آدم التي توقدونها، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم. .»[1].

وقوله: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون﴾.

والمعنى: أنهم فرحوا وضحكوا طوال أعمارهم في الدنيا، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، والمنقطع الفاني قليل بالنسبة إلى الدائم الباقي. . .

وقوله تعالى:

﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾.

والمراد بقوله: ﴿إلى طائفة منهم﴾ إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى تبوك.

والمراد بقوله: ﴿أول مرة﴾ حين لم تخرجوا إلى تبوك.

والمراد بقوله: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾.

قال الإمام الرازي ما ملخصه: ذكروا في تفسير الخالف وجوهاً:

الأول: قال أبو عبيدة: الخالفون جمع، واحدهم خالف، وهو من يخلف الرجل في قوم. ومعناه: فاقعدوا مع الخالفين من الرجال الذين يخلفون في البيت فلا يبرحونه.

الثاني: أن الخالفين فسر بالمخالفين. يقال: فلان خالفه أهل بيته إذا كان مخالفاً لهم، وقوم خالفون.

---

(١) المصدر نفسه: ٢/٣٧٦.

أي: كثيرو الخلاف لغيرهم.

الثالث: أن الخالف هو الفاسد. قال الأصمعي: يقال: خلف عن كل خير يخلف خلوفاً إذا فسد، وخلف اللبن إذا فسد.

إذا عرفت هذه الوجوه الثلاثة فلا شك أن اللفظ يصلح حمله على كل واحد منها، لأن أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة..[1].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿**فإن رجعك الله إلى طائفة منهم**...﴾ ولم يقل فإن رجعك الله إليهم، لأن جميع الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ـ إلى تبوك ـ لم يكونوا من المنافقين، بل كان هناك من تخلف بأعذار مقبولة، كالذين أتوا إلى الرسول ـ ﷺ ـ ليحملهم معه، فقال لهم: ﴿**لا أجد ما أحملكم عليه**﴾ فتولوا ﴿**وأعينهم تفيض من الدمع**﴾.

قال الجمل: وفي قوله تعالى: ﴿**فإن رجعك الله إلى طائفة منهم**....﴾ الآية.

دليل على أن الشخص إذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة، يجب الانقطاع عنه، وترك مصاحبته، لأنه ـ سبحانه ـ منع المنافقين من الخروج مع الرسول ـ ﷺ ـ إلى الجهاد، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات...[2].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن المنافقين هم الذين في أول الأمر طلبوا القعود عن الجهاد وأن معاقبتهم بعدم الخروج معه بعدها مطلقاً كان بسبب ما قدمت أيديهم فقال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ

---

(١) تفسير الرازي: ١٥١/١٦ ـ بتصرف يسير ـ.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين: ٣٠٥/٢.

مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾[1].

والمراد بالسورة في قوله: سبحانه: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ كل سورة ذكر الله تعالى فيها وجوب الإيمان به والجهاد في سبيله.

وقال مقاتل: المراد بها سورة براءة.

والمراد بأولي الطول: رؤساء المنافقين وأغنياؤهم والقادرون على تكاليف الجهاد.

﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾.

أي: اتركنا يا محمد مع القاعدين في المدينة من العجزة والنساء والصبيان، واذهب أنت وأصحابك إلى القتال.

والمراد بالخوالف في قوله ـ سبحانه ـ: **﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾** جمع خالفة، ويطلق على المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال لضعفها، كما يطلق الخالفة ـ أيضاً ـ على كل من لا خير فيه[2].

وقوله: **﴿وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾** أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول ﷺ في سبيل الله **﴿فهم لا يفقهون﴾** أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه[3].

وكعادة القرآن لما ذكر ذنب المنافقين بين موقف المؤمنين الصادقين في غزوة تبوك بقوله: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾[4].

---

(١) سورة التوبة: آية ٨٦، وآية ٨٧.
(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن: صفحة رقم ٥٦٢.
(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٨٠.
(٤) سورة التوبة آية ٨٨ ـ ٨٩.

وقد سبق بيان موقف المؤمنين الصادقين[1]، وقوله تعالى: ﴿**جاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ سبق بيانه بالتفصيل[2]، فقد تسابق الصحابة في تجهيز جيش العسرة وخرجوا بأنفسهم مع رسول الله ﷺ.

وبعد، فنرى أن القرآن الكريم بعد أن عرض موقف المؤمنين بالتفصيل وموقف المنافقين وموقف المخلفين، نجده في هاتين الآيتين يلخص لنا موقف الرسول ﷺ وأصحابه وما فازوا به بقوله:

﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه**.......﴾.

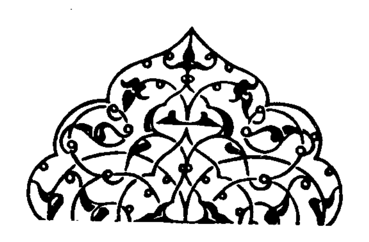
﴿**جاهدوا بأموالهم وأنفسهم**.......﴾.

﴿**وأولئك لهم الخيرات**.......﴾.

﴿**وأولئك هم المفلحون**.......﴾.

﴿**أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**.﴾.

﴿**خالدين فيها**....﴾ ﴿**ذلك الفوز العظيم**...﴾.



(١) انظر صفحة رقم ٦٢٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر صفحة رقم ٦٠٩، وصفحة رقم ٦١١، وصفحة رقم ٦٣٧ من هذا الكتاب.

الفصل الثاني

منهج القرآن في حديثه عن غزوة تبوك

تحدث القرآن الكريم عن غزوة تبوك في سورة التوبة، وقد شرحت هذه السورة نفسيات المسلمين حين استنفرهم رسول الله ﷺ لغزوة الروم.

وقد تحدثت الآيات عن المتثاقلين منهم والمتخلفين، والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين، وفضحت أساليب نفاقهم حتى لم تدع لهم ستراً إلا هتكته.

وروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة. ما زالت تنزل (ومنهم، ومنهم، ومنهم) حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها...[1].

وسورة التوبة لها أسماء كثيرة منها، التوبة، براءة، الفاضحة، المنقرة، المثيرة، المبعثرة، المدمرة[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ما فرغ من تنزيل براءة حتى ظننا أنه لم يبق منا أحد إلا سينزل فيه، وكانت تسمى الفاضحة[3].

---

(١) انظر تخريجه صفحة رقم ٥٣ من هذا الكتاب.

(٢) تفسير الألوسي: ١٠/٣٦.

(٣) الدر المنثور: ٤/١٢١.

وفي هذه الغزوة دروس عظيمة، وكان فيها امتحان لصدق الإيمان وإخلاص اليقين، وقد أبانت عن معادن النفوس المؤمنة التي رباها النبي ﷺ.

وأسلوب القرآن مميز في عرض غزوة تبوك ويتضح ذلك حيث أن القرآن لم تأخذه هوادة في التنويه بمن اشتركوا فيها، والتنفير بمن تخلفوا عنه، وذلك أن غزوة تبوك كانت في أواخر العهد النبوي، وقد استكملت التربية النبوية للصحابة أسسها، فقد كانت المحاسبة في غزوة تبوك أشد بكثير من غزوة أُحد فنجد في غزوة أُحد قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾[1].

بينما في تبوك كانت المؤاخذة عسيرة.

قال سيد قطب: والذي يراجع غزوة تبوك في سورة براءة، ومؤاخذة الله ورسوله للنفر القلائل المتخلفين، تلك المؤاخذة العسيرة يجد الفرق واضحاً في المعاملة...[2].

وإليك أهم معالم المنهج:

١ - بدأ الحديث عن غزوة تبوك في سورة التوبة من قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٥.
(٢) في ظلال القرآن: ١/ ٥٣٠.
(٣) سورة التوبة، آية ٢٩.
(٤) سورة التوبة آية ١٢٣.

ابتدأت السورة الكريمة الحديث عن الغزوة بذكر سبب الخروج، واختتمت أيضاً الحديث عنها بالتأكيد على سبب الخروج، وذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من قتال العرب لم يبق إلا أهل الكتاب من النصارى، فخرج النبي ﷺ لقتالهم وقد أشار المفسرون إلى ذلك عند تفسير هاتين الآيتين[١].

قال الشيخ محمد رشيد رضا عند قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار...﴾** الآية:

اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال التي نزلت وهي من أهم قواعده وأحكامه في هذه السورة والتي قبلها، وإنما وضعت ها هنا على سنّة القرآن في تفريق الموضوع الواحد الكثير الأحكام في مواضع متفرقة[٢].

٢ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ ووضح عقائد أهل الكتاب الفاسدة وعقائد المشركين الباطلة من قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

---

(١) انظر صفحة رقم ٦١٩، وصفحة رقم ٦٢١ من هذا الكتاب.

(٢) تفسير المنار: ١١/ ٨٠.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

٣ ـ ثم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[2].

حث القرآن المؤمنين للخروج لغزوة تبوك، قال المفسرون: لما أمر رسول الله ﷺ بغزوة تبوك، وكان في زمن عسرة وجدب وحر شديد، وقد طابت الثمار، عظم ذلك على الناس وأحبوا المقام، فنزلت هذه الآية[3].

وفي قوله: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ نجد التشديد في الحث.

ولم يحث القرآن على غزوة غيرها، وحديث القرآن عن الغزوات الأخرى لم يأت فيه حث عليها، وإنما تميزت غزوة تبوك بذلك للسبب الذي ذكره المفسرون، وبين سبحانه للمؤمنين بأن الله تولى نصرة رسوله فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[4] الآية وفي هذا حث

(١) الآيات من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٧.

(٢) سورة التوبة آية ٣٨، ٣٩.

(٣) زاد المسير: ٣/٤٣٦ وانظر تفسير الآيتين صفحة رقم ٦٢٣ من هذا الكتاب.

(٤) سورة التوبة، آية ٤٠.

على المسارعة للخروج لغزوة تبوك ونصرة الرسول ﷺ وعدم خذلانه.

٤ ـ ثم قال تعالى:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

هذه الآيات الكريمة بينت الأسباب الحقيقية لتخلف المنافقين[2]، فلو كانت غزوة تبوك عرضاً قريباً (أي غنيمة قريبة) وسفراً قاصداً (أي سفراً سهلاً) لخرجوا مع النبي ﷺ.

وتسجيل القرآن لهذه الأسباب يؤخذ منه صفة هذه الغزوة من القرآن:

فقوله تعالى: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ فغزوة تبوك كانت عرضاً بعيداً.

وقوله: ﴿سفراً قاصداً﴾ يستفاد منه أن غزوة تبوك كانت سفراً بعيداً.

---

(١) سورة التوبة من الآية ٤١ إلى الآية ٤٩.

(٢) يراجع تفسير هذه الآيات صفحة رقم ٦٢٨ وما بعدها من هذا الكتاب.

وأيضاً كشف القرآن في هذه الآية بعض الحقائق عن المنافقين، ولولا حديث القرآن عنها لما عرفت وهي:

قوله ـ سبحانه ـ: **﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ فهذه شهادة من الله على** حقيقة لا يستطيع أحد أن يجزم بها إلا الله. ودليل على كذبهم بقوله: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

وبين سبحانه أيضاً أمراً لا يعلمه إلا الله وهو لو خرج المنافقون مع الرسول ﷺ ماذا يحصل منهم فقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾[2].

فهذه الأمور التي بينها الله ـ سبحانه ـ لا يعلمها إلا الله، لأن علمه ـ سبحانه ـ محيط بكل شيء، وهذه ميزة يتميز بها القرآن في عرضه لهذة الغزوة ننبه على أهميته، وقوله تعالى: **﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾** أكبر دليل على ذلك.

ويلاحظ القارىء التفصيل الدقيق لموقف المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[3].

٥ ـ ثم قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ

(١، ٢) سورة التوبة، آية ٤٦، ٤٧ وانظر تفسيرها صفحة رقم ٦٨٤ من هذا الكتاب.

(٣) سورة التوبة، آية ٤٩ وانظر تفسيرها صفحة رقم ٦٤٨ من هذا الكتاب.

بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾[١].

هذه الآيات عامة في بيان فضائح المنافقين، ما عدا آية ٥٢، ٥٣ حيث بين فيها سبحانه أن نفقات المنافقين في تبوك لم تقبل وبين سبب ذلك[٢].

٦ ـ ثم قال تعالى:

﴿يحذر المنافقونَ أن تنزل عليهم سورةٌ تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون * ولئن سألتهم ليقولنَّ إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد

---

(١) سورة التوبة، الآيات من ٥٠ إلى ٦٣.

(٢) انظر تفسيرها صفحة رقم ٦٥٠ من هذا الكتاب.

إيمانكم إن نعف عن طائفةٍ منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾.

وفي قوله: ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ وضح سبحانه وتعالى حقيقتهم[1] ثم فصل سبحانه وتعالى صفات المنافقين من قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾[2].

ثم ذكر صفات المؤمنين فقال تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[3].

ونلاحظ أن القرآن الكريم فصل الحديث عن المنافقين، وموضوع

---

(١) انظر تفسيرها صفحة رقم ٦٥٦ من هذا الكتاب.

(٢) سورة التوبة من الآية ٦٧ إلى الآية ٧٠.

(٣) سورة التوبة من الآية ٧١ إلى الآية ٧٣.

المنافقين في القرآن بحث كثيراً[1] لذلك لم أطل الوقوف عليه، كما نلاحظ أن القرآن الكريم بعدها ذكر صفات المؤمنين حتى يرى الناس الفرق شاسعاً بين الفريقين.

ثم ذكر بعد ذلك موقفاً من مواقف المنافقين في غزوة تبوك فقال تعالى:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾[2].

ثم قال تعالى ذاكراً بعض صفات المنافقين:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾[3].

٧ ـ ثم تحدث القرآن الكريم عن المنافقين حديثاً مفصلاً عاماً تخلله كثير من مواقفهم في غزوة تبوك وهذا الحديث من قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) إلى قوله تعالى: لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾[4].

---

(١) انظر المنافقون في القرآن ـ رسالة ماجستير ـ للطالب عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ـ أشراف د. محمد محمد السماحي ـ عام ١٣٩٥ هـ ـ جامعة أم القرى. وانظر المنافقون في القرآن ـ رسالة دكتوراه للطالب محمد يوسف عيد ـ إشراف د. أحمد إبراهيم مهنا ـ عام ١٤٠٤ هـ ـ الجامعة الإسلامية.

(٢) سورة التوبة، آية ٧٤.

(٣) سورة التوبة، آية ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨.

(٤) سورة التوبة من آية ٧٩ إلى آية ١١٠.

٨ ـ ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾[1].

٩ ـ ثم عاد القرآن ليحدثنا عن توبة الله العامة التي شملت من حضر غزوة تبوك فقال تعالى:

﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم، إنه بهم رؤوف رحيم﴾.

يقول ابن القيم: هذا من أعظم ما يُعَرِّف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن.

فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات، بعد أن قضوا نحبهم، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب الله

---

(١) سورة التوبة من آية ١١١ إلى آية ١١٦.

عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم...[1].

ثم قال تعالى:

﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾.

وقد جاءت هذه الآية في أسلوب بياني رائع الآداء، بارع الإعجاز بليغ الإيجاز، حاوية للكثير من معالم منهج الرسالة الخالدة في مناحيها المختلفة، بين المعالم النفسية والاجتماعية والتربوية مع ما صاحبها من الأحكام الشرعية والآداب الخلقية[2].

ثم واصلت الآيات حديثها عن غزوة تبوك إلى قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غِلظةً واعلموا أن الله مع المتقين﴾ وبهذه الآية ختم حديث القرآن عن غزوة تبوك في هذه السورة.

١٠ ـ ثم ذكر ـ سبحانه ـ موقف المنافقين من القرآن:

فقال تعالى: **﴿وإذا ما أنزلت سورةٌ فمنهم من يقولُ أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذينَ آمنوا فزادتْهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرةً أو مرتين ثم لا يتوبونَ ولا هم يذَّكرون * وإذا ما أنزلت سورةٌ نظَرَ بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم من أحدٍ ثم انصرفوا صرفَ الله قلوبهم بأنهم قوم**

---

(١) زاد المعاد: ٣/ ٥١.

(٢) انظر محمد رسول الله ﷺ: ٤/ ٤٦١.

لا يفقهون * لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾.

وإليك أيها القارىء الكريم ملخصاً لمعالم منهج القرآن في عرضه لغزوة تبوك:

١ ـ عاتب القرآن الكريم من تخلف عتاباً شديداً، وتميزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأن الله حث على الخروج فيها وعاتب من تخلف عنها، والآيات الكريمة جاءت بذلك منها قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾[2].

وقد ختمت الغزوات النبوية بهذه الغزوة وقد كانت تطبيقاً عملياً لوضع النص القرآني في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار . . .﴾** الآية موضع التنفيذ.

٢ ـ ميز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها فسماها الله تعالى ساعة العسرة، قال تعالى:

﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ فقد كانت غزوة عسرة في كل شيء.

٣ ـ من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة أن الله رد على المنافقين لمزهم لأبي عقيل حينما جاء بنصف صاع، وبين أن قولهم هو كذب

---

(١) سورة التوبة، آية ٤١.

(٢) سورة التوبة، آية ٣٩.

وافتراء على الله. فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي مسعود قال: لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رئاء، فنزلت:

﴿الذين يلمزون المطوّعينَ من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر اللّهُ منهم ولهم عذابٌ أليم﴾[1].

٤ ـ بين القرآن الكريم أن المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ وعددهم يزيد عن الثلاثين ألفاً قد كتب الله لهم الأجر العظيم. قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾[2].

٥ ـ كتب الله هذا الأجر العظيم أيضاً لمن تخلف بعذر شرعي وكان صادق النية في الخروج ما حبسه إلا العذر.

فقال تعالى:

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[3].

وقال النبي ﷺ مؤكداً ذلك في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن جابر. قال:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير: ٥/ ٨٤. وانظر الفتح: ٨/ ٣٣٠ والآية من سورة التوبة ٧٩.

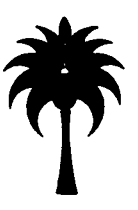
(٢) سورة التوبة، آية ١٢٠، ١٢١.

(٣) سورة التوبة، آية ٩٢.

كنا مع النبي ﷺ في غزاةٍ فقال: (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم المرض)، وفي رواية وكيع: (إلا شركوكم في الأجر)[1].

والغزاة المذكورة في الحديث هي غزوة تبوك[2].

***



---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر: ٣/١٥١٨.

(٢) الذهب المسبوك في مرويات غزوة تبوك: ٢/٤٢٥.

الخاتمة

وهي في أبرز معالم المنهج القرآن في عرضه للغزوات

١ ـ من طريقة القرآن الكريم أنه لا يذكر الغزوة في موضع واحد بل في مواضع متعددة ويتخللها توجيهات وأوامر ومواضيع أخرى وهذه سمة مميزة من سمات منهج القرآن.

٢ ـ يتميز عرض القرآن للغزوات بالدقة والشمول، يقول سيد قطب:

«نجد التحليل الدقيق العميق الشامل للأسباب والنتائج والعوامل المتعددة الفاعلة في الموقف، المسيرة للحادث، كما نجد الحيوية في التصوير والإيقاع والإيحاء بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف، والتعقيب. فهو وصف حي، فتستحضر المشاهد ـ كما لو كانت تتحرك ـ ويشيع حولها النشاط المؤثر والإشعاع النافذ، والإيحاء المثير...»[1].

٣ ـ أثبت القرآن الكريم أموراً عند حديثه عن الغزوات كان هو المصدر الوحيد في ثبوتها، منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تزيين الشيطان للكفار أعمالهم في بدر، فجميع الروايات التي جاءت في كيفية التزيين ضعيفة لكن وجود النص القرآني يثبت وجود التزيين. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٥٣٢.

جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾[1].

ولولا النص القرآني لرد كثير من الناس ذلك، لضعف الروايات التي جاءت ببيان كيفيته[2].

٤ ـ ذكر القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات بعض الأمور الغيبية قبل وقوعها منها أقوال المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك قال تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾[3].

٥ ـ كذلك بين القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات الحكمة من الابتلاء في الغزوات فقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾[4].

٦ ـ أكد القرآن الكريم ـ في حديثه عن الغزوات ـ أن القلة والكثرة لا دخل لها في النصر، وبين أن النصر من عند الله، فقد نصر الله المؤمنين في بدر وهم قلة. عن عياض الأشعري قال: شهدت اليرموك قال عمر رضوان الله عليه: «إذا كان قتال، فعليكم بأبي عبيدة بن الجراح» قال: فكتبنا إليه واستمددناه، فكتب أنه قد جاءني كتابكم، تستمدوني وإني أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً: الله عزّ وجلّ، فإن رسول الله ﷺ، قد نصر في يوم بدر، في أقل من عدتكم فإذا أتاكم كتابي هذا، فقاتلوهم، ولا تراجعوني.

(١) سورة الأنفال، آية ٤٨.

(٢) انظر تفصيل هذه الروايات صفحة ٦٩ من هذا الكتاب.

(٣) سورة التوبة، آية ٩٥.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٧٩.

قال: فقاتلناهم وهزمناهم أربعة فراسخ، وأصبنا أموالاً كثيرة(١).

٧ ـ ميز القرآن الكريم غزوة تبوك عن بقية الغزوات بتسميتها ساعة العسرة فقال تعالى: ﴿لقد تابَ اللّهُ على النّبي والمهاجرينَ والأنصارِ الذين اتبعُوهُ في ساعةِ العسرةِ﴾(٢) وقد تدرج القرآن الكريم في تربية المؤمنين ففي غزوة أُحد نزلت الآيات بعدها كالبسلم للجراح منها قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾(٣).

لكن في غزوة تبوك كانت المحاسبة شديدة: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾(٤).

٨ ـ تفرد القرآن الكريم بذكر الحالات النفسية ووصفها بدقة مع إبراز الأمور الخفية الكامنة في النفوس، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أنه يذكر في غزوة حنين ما داخل نفوس المؤمنين من الإعجاب فيقول: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾(٥).

ووصف ما كان في نفوس الكفار من البطر وحب السمعة عند خروجهم من مكة إلى بدر فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾(٦).

وفي جانب المنافقين بين خوفهم وحذرهم فقال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾(٧).

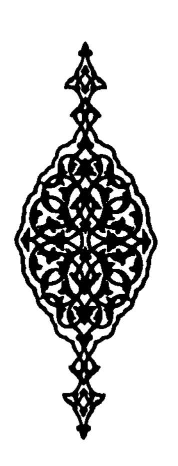
---

(١) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٢٨.
(٢) سورة التوبة، آية ١١٧.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٦٩.
(٤) سورة التوبة، آية ١٢٠.
(٥) سورة التوبة، آية ٢٥.
(٦) سورة الأنفال، آية ٤٧.
(٧) سورة التوبة، آية ٦٤.

٩ ـ ومن أهم المعالم التي أبرزها القرآن الكريم في عرضه للغزوات أن مدد السماء للمؤمنين كان سمة وعلامة واضحة في أغلب الغزوات. وقد علّم الله المؤمنين أن طلب هذا المدد منه أمر مستحب ومطلوب شرعاً، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾[1] ففي غزوة بدر أمد الله المؤمنين بالملائكة والسكينة والنعاس، وفي يوم أُحد كذلك أمدهم الله بالملائكة والسكينة والنعاس، وهكذا في أغلب الغزوات.

١٠ ـ ومن معالم منهج القرآن الكريم في عرضه للغزوات بين القرآن رحمةَ اللّهِ بعبده المجاهد أنه لو لقيه اثنان فإنه ينتصر عليهما بإذن الله وهو في الجملة توجيه إلى استصغار العدد الكثير من العدو في مقابل القليل من المؤمنين حتى يظل المؤمن واثقاً بنصر الله في أحواله كلها، قال تعالى:

﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[2].



---

(١) سورة الأنفال، آية ٩.

(٢) سورة الأنفال، آية ٦٦.

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

(أ)

- آثار المدينة المنوّرة، للأنصاري «عبد القدوس الأنصاري» طبع دار العلم للملايين، بيروت، عام ١٣٩٣ هـ.

- أحكام الغنيمة والفيء في الشريعة الإسلامية، للعمري «عواض بن هلال» - رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية - إشراف د. أحمد فراج حسين - مطبوعة على الآلة الكاتبة عام ١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ.

- أحكام القرآن، لابن العربي «أبو بكر محمد بن عبد الله» المتوفى سنة ٥٤٣ هـ - طبع مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة - عام ١٣٩٤ هـ.

- الأدب المفرد للبخاري «أبو عبد الله محمد بن إسماعيل» المتوفى سنة ٢٥٦ هـ، طبع مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٦ هـ.

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود «محمد بن محمد العمادي الحنفي» توفي سنة ٩٨٢ هـ، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- أسباب النزول، للواحدي «أبو الحسين علي بن أحمد» المتوفى سنة ٤٦٨ هـ - بتحقيق السيد أحمد صقر - طبع دار القبلة بجدة - الطبعة الثانية - عام ١٤٠٤ هـ.

- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر «أحمد بن علي بن حجر العسقلاني» المتوفى سنة ٨٥٢ هـ - تصوير دار صادر ببيروت عن طبعة مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى - عام ١٣٢٨ هـ.

- **إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، للدامغاني «حسين بن محمد» تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، طبع دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثالثة، عام ١٩٨٠ م.

- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، لمحمد الأمين بن محمد المختار المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ، طبع مطبعة المدني، القاهرة.

- **الأغاني**، لأبي فرج الأصبهاني «علي بن الحسين بن محمد القرشي»، المتوفى سنة ٣٥٦ هـ، تحقيق إبراهيم الأبياري، طبع دار الشعب بالقاهرة - عام ١٣٩٤ هـ.

- **أنساب الأشراف**، للبلاذري «أحمد بن يحيى بن جابر» تحقيق الدكتور أحمد حميد الله، طبع دار المعارف، القاهرة.

- **الأموال**، لابن عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ، تحقيق محمد خليل الهراس رحمه الله، طبع مكتبة الكليات الأزهرية ودار الفكر، القاهرة، الطبعة الثالثة، عام ١٤٠١ هـ.

- **آيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد**، للمطرفي عويد عايد عياد - طبع دار الفكر العربي بالقاهرة - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٢ هـ.

(ب)

- **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، طبع بمطبعة الإمام بالقاهرة - الناشر: زكريا علي يوسف.

- **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، لابن رشد «محمد بن أحمد بن رشد القرطبي» توفي سنة ٥٩٥ هـ، طبع مكتبة الكليات الأزهرية عام ١٣٨٦ هـ.

- **البداية والنهاية**، لابن كثير «أبو الفداء إسماعيل بن كثير» المتوفى سنة ٧٧٤ هـ - طبع مكتبة المعارف والنصر - بيروت - الطبعة الأولى عام ١٩٦٦ م.

- **بنو إسرائيل في الكتاب والسنّة**، للدكتور محمد سيد عطية طنطاوي، طبع دار مكتبة الأندلس، بنغازي، الطبعة الثانية، عام ١٣٩٢ هـ.

(ت)

- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي «محب الدين أبي الفيض مرتضى» توفي سنة ١٣٠٥ هـ ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ مصور عن الطبعة الأولى عام ١٣٠٦ هـ.
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، للذهبي «شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان» المتوفى سنة ٧٤٨ هـ.
- تاريخ الأمم والملوك، للطبري «أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد» المتوفى سنة ٣١٠ هـ ـ طبع دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثانية عام ١٩٦٨ م.
- تاريخ جيش النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب (اللواء الركن)، طبع دار الاعتصام بالقاهرة ـ عام ١٩٨٠ م.
- تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، طبع مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٣٧٥ هـ.
- التاريخ الكبير، للذهبي «شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان» طبع منه فقط الجزء الأول، تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة، طبع دار الكتاب، القاهرة، عام ١٩٧٣ م.
- تاريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ـ طبع دار صادر ـ بيروت.
- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة «أبو محمد عبد الله بن مسلم» المتوفى سنة (٢٧٦ هـ) تحقيق السيد أحمد صقر رحمه الله، الطبعة الثالثة، طبع المكتبة العلمية، بيروت عام ١٤٠١ هـ.
- التحرير والتنوير، لابن عاشور «محمد الطاهر» المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ ـ طبع الدار التونسية للنشر ـ تونس، عام ١٤٠٤ هـ.
- التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي «محمد بن أحمد الكلبي»، طبع دار الكتاب العربي ببيروت ـ الطبعة الثانية ـ عام ١٣٩٣ هـ.
- تفسير آيات الأحكام، لمحمد علي السايس، طبع مطبعة محمد علي صبيح القاهرة، عام ١٣٧٣ هـ.
- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان «أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي، المتوفى سنة ٧٥٤ هـ، طبع مطابع النصر الحديثة، الرياض.

- **تفسير الجلالين** - للإمامين الجليلين جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي - طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت - مع حاشية الجمل.
- **التفسير الحديث**، لمحمد عزة دروزه، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، عام ١٣٨٣ هـ.
- **تفسير الخازن**، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن، طبع المكتبة التجارية الكبرى، بالقاهرة.
- **تفسير غريب القرآن**، لابن قتيبة «أبو محمد عبد الله بن مسلم» المتوفى سنة ٢٧٦ هـ - تحقيق السيد أحمد صقر - طبع دار الكتب العلمية - بيروت - عام ١٣٩٨ هـ.
- **تفسير القاسمي**، لمحمد جمال الدين القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى، ١٣٧٩ هـ.
- **تفسير سورة الأحزاب**، للدكتور مصطفى زيد، طبع دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، عام ١٣٨٩ هـ.
- **تفسير سورة النور**، لأبي الأعلى المودودي، تعريب محمد عاصم حلاق، طبع دار الفكر، بيروت.
- **تفسير القرآن الحكيم**، لمحمد رشيد رضا - طبع دار المعرفة - بيروت.
- **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير «أبو الفداء إسماعيل بن كثير» المتوفى سنة ٧٧٤ هـ - طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.
- **التفسير الكبير**، للرازي «أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل» توفي سنة ٦٠٦ هـ - طبع دار الكتب العلمية - طهران - الطبعة الثانية.
- **تفسير المراغي**، لأحمد مصطفى المراغي، طبع دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٣٩٤ هـ.
- **التفسير الواضح**، لحجازي، محمد محمود، مطبعة الاستقلال الكبرى - القاهرة - الطبعة الثالثة - عام ١٩٦٣ م.
- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، للدكتور محمد سيد عطية طنطاوي، طبع مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، عام ١٣٩٧ هـ.
- **تقريب التهذيب**، لابن حجر «أحمد بن علي بن حجر العسقلاني» المتوفى سنة ٨٥٢ هـ - طبع دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية - عام ١٣٩٥ هـ.

(ث)

- ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه، لعذاب محمود الحمش، طبع دار بدر ودار حسان - الرياض - الطبعة الثالثة - عام ١٤٠٦ هـ.

(ج)

- الجامع للترمذي (محمد بن عيسى بن سورة) المتوفى سنة ٢٧٩ هـ - تحقيق أحمد محمد شاكر - طبع المكتبة الإسلامية.
- جامع الأصول، لابن الأثير «أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري» المتوفى سنة ٦٠٦ هـ - تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، طبع مكتبة الحلواني بسوريا - عام ١٣٩٢ هـ.
- جامع البيان من تأويل آي القرآن، للطبري «أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد» المتوفى سنة ٣١٠ هـ - طبع مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة - الطبعة الثالثة - عام ١٣٨٨ هـ.
- الجامع الصحيح، للبخاري «أبو عبد الله محمد بن إسماعيل» المتوفى سنة ٢٥٦ هـ - بتحقيق أحمد محمد شاكر، طبع دار إحياء التراث العربي ببيروت تصويراً.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي «أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري» المتوفى سنة ٦٧١ هـ - طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت - مصور عن طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة - الطبعة الثالثة - عام ١٣٨٧ هـ.
- الجامع لأخلاق الراوي والسامع، لأبي بكر «أحمد بن علي البغدادي» المتوفى سنة ٤٦٣ هـ - الناشر مكتبة الفلاح - الطبعة الأولى - عام ١٤٠١ هـ.
- الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، للقادري «الدكتور عبد الله بن أحمد» طبع دار المنارة - جدة - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٥ هـ.
- جوامع السيرة، لابن حزم «علي بن أحمد بن سعيد» المتوفى سنة ٤٥٦ هـ، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع إدارة إحياء السنة، باكستان.
- جواهر الحسان بتفسير القرآن، للثعالبي «عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف» - طبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ببيروت.

(ح)

- **حاشية الجمل على الجلالين المسمى الفتوحات الآلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، لسليمان الجمل، طبع دار إحياء التراث العربي، ببيروت.
- **حاشية الصاوي على الجلالين**، لأحمد بن محمد المتوفى (١٢٤١ هـ) مراجعة علي محمد الصباغ، طبع مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، عام ١٣٦٠ هـ.

(خ)

- **خاتم النبيين**، لمحمد أبو زهرة - طبع دار الفكر العربي بالقاهرة - الطبعة الأولى - عام ١٣٨٩ هـ.
- **الخراج**، لأبي يوسف «يعقوب بن إبراهيم» المتوفى سنة ١٨٢ هـ - طبع المطبعة السلفية ومكتبتها - الطبعة الخامسة - عام ١٣٩٦ هـ.

(د)

- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للسيوطي «جلال الدين عبد الرحمن» المتوفى سنة ٩١١ هـ - طبع دار الفكر الجديدة ؛ بيروت - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٣ هـ.
- **الدرر في اختصار المغازي والسير**، لابن عبد البر، «الحافظ يوسف بن عبد البرّ النمري» المتوفى سنة ٤٦٣ هـ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٦ هـ.
- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ﷺ**، للبيهقي «أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي» المتوفى سنة ٤٥٨ هـ - تحقيق عبد المعطي قلعجي - طبع دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٥ هـ.
- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ﷺ** للبيهقي، الطبعة الناقصة الأولى، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، طبع المكتبة السلفية، المدينة المنوّرة، الطبعة الأولى، عام ١٣٨٩ هـ طبع فقط جزء واحد.

(ذ)

- **الذهب المسبوك في تحقيق مرويات غزوة تبوك**، للسندي «عبد القادر حبيب الله» - طبع مطابع الرشيد بالمدينة المنوّرة - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٥ هـ.

(ر)

- **الرسالة المحمدية**، لسليمان الندوي، الطبعة الثالثة، عام ١٣٨٣ هـ.
- **الرسول القائد**، لمحمود شيث خطاب، طبع دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الثانية، عام ١٩٦٠ م.
- **روائع البيان تفسير آيات الأحكام**، لمحمد علي محمد جميل الصابوني، طبع مكتبة الغزالي، ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق الطبعة الأولى، عام ١٤٠٠ هـ.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للألوسي «محمود الألوسي البغدادي» المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ - نشر إدارة الطباعة المصطفائية بالهند - بدون ذكر سنة الطبع.

(ز)

- **زاد المعاد في هدى خير العباد**، لابن القيم «أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية» المتوفى سنة ٧٥١ هـ - تحقيق محمد حامد الفقي - مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة.
- **زاد المسير**، لابن الجوزي «أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي» المتوفى سنة ٥٩٧ هـ - طبع المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة الثالثة - عام ١٤٠٤ هـ.

(س)

- **السنن لأبي داود** «سليمان بن الأشعث السجستاني» المتوفى سنة ٢٧٥ هـ - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء السنة المحمدية - القاهرة.
- **سنن ابن ماجه**، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، المتوفى سنة٢٧٥ هـ - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبع مطبعة البابي الحلبي - القاهرة.
- **سنن النسائي** «أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب» المتوفى سنة ٣٠٣ هـ مع شرح السيوطي وحاشية السندي، طبع المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة - الطبعة الأولى - سنة ١٣٤٨ هـ، تصوير دار الكتاب العربي بيروت.
- **السيرة الحلبية**، للحلبي «علي برهان الدين الحلبي» - طبع المكتبة الإسلامية بيروت.

ـ سيرة الرسول ﷺ، صور مقتبسة من حياة الرسول ﷺ «لمحمد عزة دروزة» المتوفى سنة ١٤٠٤ هـ، طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الأولى، عام ١٣٦٧ هـ.

ـ السيرة النبوية دروس وعبر، للسباعي «الدكتور مصطفى أحمد» طبع المكتب الإسلامي، بيروت ـ الطبعة السابعة ـ عام ١٤٠٤ هـ.

ـ السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنّة، لأبي شهبة «فضيلة الشيخ محمد محمد أبو شهبة» المتوفى سنة ١٤٠٣ هـ ـ طبع مطبعة القاهرة الحديثة بالقاهرة ـ عام ١٩٧١ هـ.

ـ السيرة النبوية، لابن كثير «أبو الفداء إسماعيل بن كثير» المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد، طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ عام ١٣٩٦ هـ.

ـ السيرة النبوية، لابن هشام «أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميدي» المتوفى سنة ٢١٨ هـ ـ تحقيق مصطفى السقا وزميليه.

(ش)

ـ شرح النووي على مسلم، للإمام النووي «أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف» المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ـ طبع المطبعة المصرية ومكتبتها ـ القاهرة ـ عام ١٣٤٩ هـ.

(ص)

ـ الصحاح، للجوهري «إسماعيل بن حماد» المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ـ تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار ـ طبع بيروت ـ الطبعة الثانية ـ عام ١٤٠٢ هـ.

ـ صحيح مسلم، للإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، المتوفى سنة ٢٦١ هـ ـ بتحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ـ طبع دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ـ صفوة البيان في معاني القرآن، للشيخ محمد حسنين مخلوف ـ الطبعة الثالثة ـ الناشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت ـ ١٤٠٧ هـ.

ـ صفوة التفاسير، للصابوني «محمد علي محمد جميل» ـ طبع دار القرآن الكريم ـ بيروت، الطبعة الأولى ـ عام ١٤٠١ هـ.

(ط)

- **الطبقات الكبرى**، لابن سعد «أبو عبد الله محمد بن سعد» المتوفى سنة ٢٣٠ هـ - طبع دار صادر - بيروت - عام ١٣٨٨ هـ.

- **طبقات المفسرين**، للداوودي «الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد» المتوفى سنة ٩٤٥ هـ - طبع دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٣ هـ.

(ع)

- **عارضة الأحوذي شرح جامع الترمذي**، لابن العربي «أبو بكر محمد بن عبد الله» المتوفى ٥٤٣، طبع دار العلم للجميع.

- **العبر في خبر من غبر**، للذهبي «شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان»، بتحقيق صلاح الدين المنجد، طبع مطبعة حكومة الكويت، عام ١٩٦٠ م.

- **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، لابن خلدون «عبد الرحمن بن محمد بن خلدون» المتوفى ٨٠٨ هـ (المشهور بتاريخ ابن خلدون) طبع سنة ١٣٩١ هـ.

(غ)

- **غرائب القرإن ورغائب الفرقان**، للنيسابوري، «نظام الدين الحسين بن محمد الحسين القمي» المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، طبع مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، عام ١٣٨٦ هـ.

- **غزوة أُحد**، محمد أحمد باشميل، طبع دار الفكر، الطبعة الرابعة.

- **غزوة الأحزاب**، محمد أحمد باشميل، طبع دار الفكر، الطبعة الخامسة، بيروت، عام ١٣٩٧ هـ.

- **غزوة بدر الكبرى**، محمد أحمد باشميل، طبع دار الفكر، الطبعة السادسة، عام ١٣٩٤ هـ.

- **غزوة بني قريظة**، محمد أحمد باشميل، طبع دار الفكر، عام ١٣٩١ هـ.

(ف)

- **فتح الباري**، لابن حجر «أحمد بن علي بن حجر العسقلاني» المتوفى سنة ٨٥٢ هـ - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب - طبع المطبعة السلفية بالقاهرة - عام ١٣٨٠ هـ.
- **الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني**، للساعاتي «أحمد عبد الرحمن البنا» - طبع مطبعة الفتح بالقاهرة - الطبعة الأولى - عام ١٣٥٨ هـ.
- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية**، للشوكاني «محمد بن علي بن محمد» المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ - طبع مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة - الطبعة الثانية - عام ١٣٨٣ هـ.
- **فتح القدير على شرح الهداية**، لابن الهمام «كمال الدين محمد بن عبد الواحد» المتوفى سنة ٨٦١ هـ - طبع مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة - الطبعة الأولى - عام ١٣٨٩ هـ.
- **فتوح البلدان**، للبلاذري «أحمد بن يحيى بن جابر» تحقيق الدكتور صلاح المنجد، طبع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- **الفروق**، للقرافي «أحمد بن إدريس» - طبع كلية الشريعة بالأزهر - القاهرة.
- **فقه الإسلام شرح بلوغ المرام**، لفضيلة الشيخ «عبد القادر شيبة الحمد»، طبع مطابع الرشيد، المدينة المنوّرة، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٣ هـ.
- **الفقه الإسلامي وأدلته**، للزحيلي «الدكتور وهبة» - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - عام ١٤٠٥ هـ.
- **فقه السيرة**، للبوطي «الدكتور محمد سعيد رمضان» طبع دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، عام ١٣٩٢ هـ.
- **فقه السيرة**، لمحمد الغزالي، بتخريج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبع مطابع علي بن علي، قطر، الطبعة العاشرة على نفقة أمير قطر.
- **في ظلال القرآن** ، لسيد قطب ، توفي سنة ١٩٦٦ م ، طبع دار الشروق - بيروت - الطبعة الشرعية الثامنة - عام ١٣٩٩ هـ.

(ق)

- **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي «مجد الدين محمد بن يعقوب» طبع دار الفكر، بيروت - الطبعة الثانية - مصورة عن الطبعة الحسينية في القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ.
- **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، للسعدي «عبد الرحمن بن ناصر» - طبع مكتبة المعارف بالرياض - عام ١٤٠٢ هـ.

(ك)

- **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير «علي بن محمد بن محمد الجزري» المتوفى سنة ٥٦٣ هـ، طبع المطبعة المنيرية بدمشق عام ١٣٤٩ هـ.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، للزمخشري «محمود بن عمر» المتوفى سنة ٥٢٨ هـ - طبع مكتبة البابي الحلبي بالقاهرة - الطبعة الأخيرة - عام ١٣٩٢ هـ.

(ل)

- **لباب النقول في أسباب النزول**، للسيوطي «جلال الدين عبد الرحمن» المتوفى سنة ٩١١ هـ - طبع دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الأولى عام ١٩٧٨ م.
- **لسان العرب** - لابن منظور «أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري» المتوفى سنة ٧١١ هـ - طبع دار صادر - بيروت.

(م)

- **المبسوط**، للسرخسي «أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي» المتوفى سنة ٤٩٠ هـ - طبع مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى ام ١٣٢٤ هـ.
- **المجتمع المدني في عصر النبوة**، لأكرم ضياء العمري، الجزء الأول خصائصه وتنظيماته الأولى» طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٣ هـ.
- **المجتمع المدني في عهد النبوة**، لأكرم ضياء العمري - الجزء الثاني «الجهاد ضد المشركين» الطبعة الأولى - عام ١٤٠٤ هـ.

- محاسن التأويل، للقاسمي «محمد جمال الدين» المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبع دار الفكر - مصور عن طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٧٩ هـ.
- محمد رسول الله (ﷺ)، لمحمد صادق إبراهيم عرجون، طبع دار القلم - دمشق - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٥ هـ.
- مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر، توفي سنة ٦٦٦ هـ - طبع دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى - عام ١٩٦٧ م.
- المدينة في العصر الجاهلي، للدكتور محمد العيد الخطراوي، طبع مؤسسة دار القرآن، دمشق، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٣ هـ.
- مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، للبغدادي «صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق» المتوفى سنة ٧٣٩ هـ - تحقيق علي محمد البجاوي - طبع دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى - عام ١٣٧٣ هـ.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين، المتوفى ٣٤٦ هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع دار الرجاء، بغداد.
- مرويات تاريخ المدينة، لأكرم حسين علي السندي، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية، إشراف د. أكرم ضياء العمري، مطبوعة بالآلة الكاتبة، عام ١٣٩٩ - ١٤٠٠ هـ.
- مرويات غزوة أُحد، للباكري «حسين أحمد» رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية - إشراف د. أكرم ضياء العمري - مطبوعة بالآلة الكاتبة - عام ١٣٩٩/ ١٤٠٠ هـ.
- مرويات غزوة بدر، للعليمي «أحمد محمد باوزير» طبع مكتبة طيبة بالمدينة المنوّرة - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٠ هـ.
- مرويات غزوة بني المصطلق، لإبراهيم بن إبراهيم القريبي، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنوّرة الطبعة الأولى، عام ١٤٠٢ هـ.
- مرويات غزوة الخندق، لإبراهيم عمير المدخلي، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية، إشراف الشيخ عبد المحسن العباد، مطبوعة على الآلة الكاتبة، عام ١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ.

- **مرويات غزوة الحديبية**، للشيخ حافظ محمد عبد الله الحكمي، الناشر المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية - طبع مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٦ هـ.
- **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى سنة ٢٤١ هـ - طبع بيروت تصويراً عن المطبعة الميمنية بمصر.
- **مصادر السيرة النبوية وتقويمها**، للدكتور فاروق حمادة - طبع دار الثقافة بالدار البيضاء - الطبعة الأولى - عام ١٤٠٠ هـ.
- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، للرافعي، للفيومي «أحمد بن محمد بن علي المقرىء» المتوفى سنة ٧٧٠ هـ - تصحيح مصطفى السقا، طبع مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة.
- **المصنف**، لعبد الرزاق «أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني» المتوفى ٢١١ هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، طبع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٢ هـ.
- **المعارف**، لابن قتيبة «أبو محمد عبد الله بن مسلم» المتوفى سنة ٢٧٦ هـ - تصحيح محمد إسماعيل عبد الله - طبع دار التراث العربي - بيروت - عام ١٣٩٠ هـ.
- **معالم التنزيل في التفسير**، للبغوي «أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء» المتوفى سنة ٥١٦ هـ، طبع المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (مطبوع بحاشية تفسير الخازن).
- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي «ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي» المتوفى سنة ٦٢٦ هـ - طبع دار صادر - بيروت - عام ١٤٠٤ هـ.
- **معجم قبائل العرب**، لعمر رضا كحالة - طبع دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثانية - عام ١٣٨٨ هـ.
- **مغازي الواقدي**، للواقدي «محمد بن عمر بن واقد» توفي سنة ٢٠٧ هـ - تحقيق الدكتور مارسون جونس - طبع دار المعارف بالقاهرة - عام ١٩٦٥ م.
- **المغني**، لابن قدامة «أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد» المتوفى سنة ٦٢٠ هـ - تحقيق الدكتور طه محمد الزيني - طبع مكتبة القاهرة بالقاهرة - عام ١٣٩٠ هـ.
- **مغني المحتاج**، للشربيني «محمد الخطيب» المتوفى سنة ٩٧٧ هـ - طبع دار الفكر - بيروت - عام ١٣٩٨ هـ.

- **المفردات في غريب القرآن**، لأبي القاسم «الحسين بن محمد» المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ طبع دار المعرفة ـ بيروت.
- **المنافقون في القرآن**، للطالب عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ـ رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى ـ إشراف الأستاذ الدكتور محمد محمد السماحي ـ مطبوعة على الآلة الكاتبة عام ١٣٩٥ هـ.
- **المنافقون في القرآن**، للطالب محمد يوسف عيد ـ رسالة لدكتوراه نوقشت في الجامعة الإسلامية ـ إشراف الأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم مهنا ـ عام ١٤٠٤ هـ.
- **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، لابن الجوزي «أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي» المتوفى سنة ٥٩٧ هـ تحقيق الدكتورة زينب إبراهيم القاروط ـ طبع دار الكتب العلمية ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ عام ١٤٠٢ هـ.
- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، للزرقاني «محمد عبد العظيم» ـ طبع دار الفكر ـ بيروت.
- **المنهج الحركي للسيرة النبوية**، للغضبان «منير محمد» ـ طبع مكتبة المنار ـ الأردن ـ الزرقاء ـ الطبعة الأولى ـ عام ١٤٠٤ هـ.
- **من هدى سورة الأنفال**، لمحمد أمين المصري ـ طبع مكتبة دار الأرقم ـ الكويت.
- **المواهب اللدنية المحمدية**، للقسطلاني «أحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب» المتوفى سنة ٩٢٣ هـ ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(ن)

- **نسب حرب**، للبلادي «عاتق بن غيث» ـ طبع مكتبة البيان بدمشق ـ الطبعة الأولى ـ عام ١٣٩٧ هـ.
- **نواسخ القرآن**، لابن الجوزي «أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي» المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ـ تحقيق محمد أشرف المليباري ـ طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة ـ الطبعة الأولى ـ عام ١٤٠٤ هـ.
- **النهاية في غريب الحديث**، لابن الأثير «أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري»، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، تحقيق محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، طبع المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى، عام ١٣٨٣ هـ.

(و)

- **وفاء الوفا بأخبار المصطفى**، للسمهوري «نور الدين علي بن أحمد» المتوفى سنة ٩١١ هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، عام ١٣٩٣ هـ.
- **الولاء والبراء في الإسلام**، للقحطاني «الشيخ محمد سعيد سالم» - طبع دار طيبة بالرياض - الطبعة الأولى.





فهرس الموضوعات

البـــاب الثاني

البـــاب الثالث

البـــاب الرابع

البـــاب الخامس

البــاب السادس

البـــاب السابع

البـــاب الثامن

الخاتمة



دَارُ الغَرْبِ الإِسْلاَمِي

تـونـس

لصَاحبهَا الحَبيب اللمْسي

6 نهج الدالية بالفي - تونس – خلوي: 216-96-346567

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الطبعة الأولى ــ الرقم: 272 / 1000 / 11 / 1994

سحب جديد ــ الرقم: 272 / 1000 / 6 / 2011

التنضيد: مؤسسة الخدمات الطباعية (حسيب درغام وأولاده)
المكلس، ص. ب: 009/ 50 لبنان

الطباعة: مطبعة الريان ــ بيروت ــ لبنان